جـــذوع وفـــروع

جذوع وفروع

تأليف

عبدالرحمن بن زيد السويداء

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

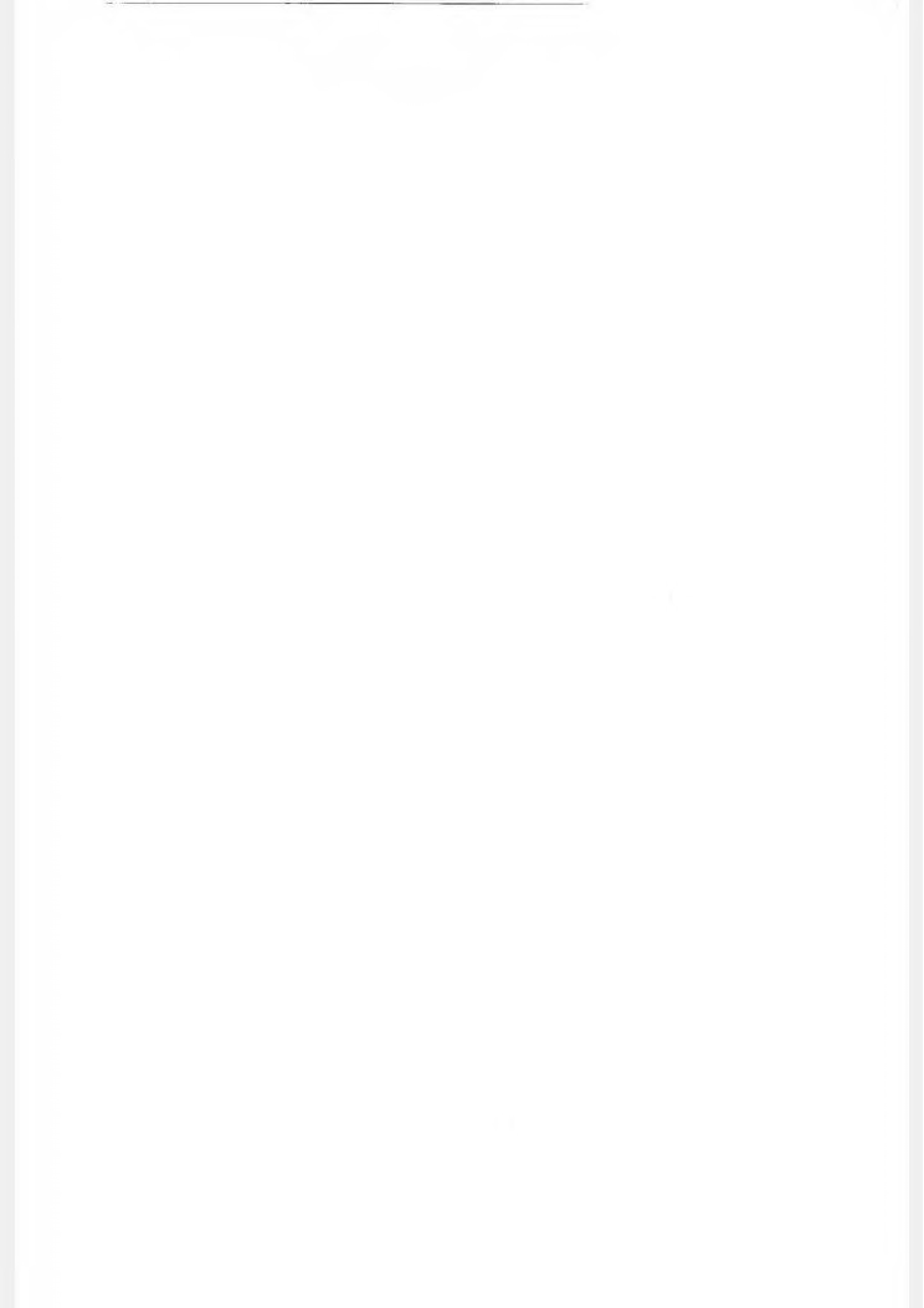
الرياض ص.ب ٨٤٩٢ الرياض ١١٤٨٢
هاتف ٤٧٦٩١٠٦

الاهــــداء

إلى روح والدتي / قوت ابنة عبد الوهاب السويطي

رحمها الله واسكنها فسيح جناته ،،

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يسرني أن أقدم للقارىء الكريم هذه المساهمة المتواضعة التي يتضمنها كتابي «جذوع وفروع» بجزأيه، وهي عبارة عن قصص قصيرة أو بالأصح أحداث عابرة تدل على عدد من مكارم الاخلاق التي يتميز بها مجتمعنا العربي المسلم من الكرم والمروءة والنجابة، والصدق والاخلاص في القول والعمل، والاتكال على الله حق التوكل والتمسك بالدين الذي لاشائبة ولامراء فيه، والبساطة والطيبة المتناهية، والشجاعة الثابتة، والوفاء الجم، وهذه القصص أو الحوادث جرت على أناس معروفين رويت لي من رواة ثقاة وعرفت بعضها بنفسي فحاولت إثباتها لأصحابها التي هي ملكهم لوحدهم، حيث أنهم قد ذاقوا حلاوتها وقاسوا مرارتها، لتكون شاهداً لهم على طيب المعدن وأصالة المحتد، وهي نوع من التراث الأدبي الذي يجب المحافظة عليه.

ولما كانت القصة قصيرة جداً قد لاتتعدى بضعة أسطر وربما زادت عن ذلك، فقد حاولت إبرازها بحوار ربما جذب القارىء للاستمرار بقراءتها لكي يتجسد الحدث بشكل واضح. ونظراً لأن الظروف الحياتية التي حدثت فيها هذه القصص تختلف عن الظروف التي نعيشها الآن فقد حاولت صياغة الحوار بما يقارب الواقع الذي عاش به الناس آنذاك من حيث الظروف المعيشية والأوضاع السائدة وان لم

يكن مشابها لها، متلافيا أثناء الحوار اللهجة العامية التي حدث فيها ما عدا بعض الأمثلة الضرورية على أضيق نطاق.

وبما أن المرأة هي شقيقة الرجل وشريكة حياته، وقسيمته في السراء والضراء، وربما حصل لها من المواقف مثلما حصل له، فقد اخترت قصص عشرة رجال وتسع نساء لكل جزء من الكتاب خمس واربع قصص من كل جنس، محاولاً التعرض لمن لم يسبق النشر عنهم بقدر الامكان ممن توفرت لدي قصص عنهم، وسيتبع هذين الجزأين أجزاء مما قد أحصل عليه من قصص في المستقبل في جوانب أخرى من جوانب الحياة. وأملي، أن يجد القارىء ما يشجعه على قراءته وإن وجد فيه ما ينافي ذوقه فأرجو منه الصفح، إلى أن.. يجيء الوقت الذي ربما يحتاج إلى معاودة قراءته، وقد يصوغ من أحداثه في المجال الاعلامي ما قد يستفاد منه لمعرفة حياة من سبقوه من الأجداد في يوم ما.

ولما كانت بعض القصص قد وردت فيها قصائد باللهجة العامية فقد أفردت لها عدة صفحات في نهاية الكتاب شرحت فيها الأبيات وحاولت إعادة الكلمات إلى أصلها الفصيح ليتيسر لمن لا يفهم مدلولها معرفة ماجاء بها وكما أسلفت أعيد القول بأنها مساهمة بسيطة لا أدعى فيها الابداع، فالكمال لله وحده وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

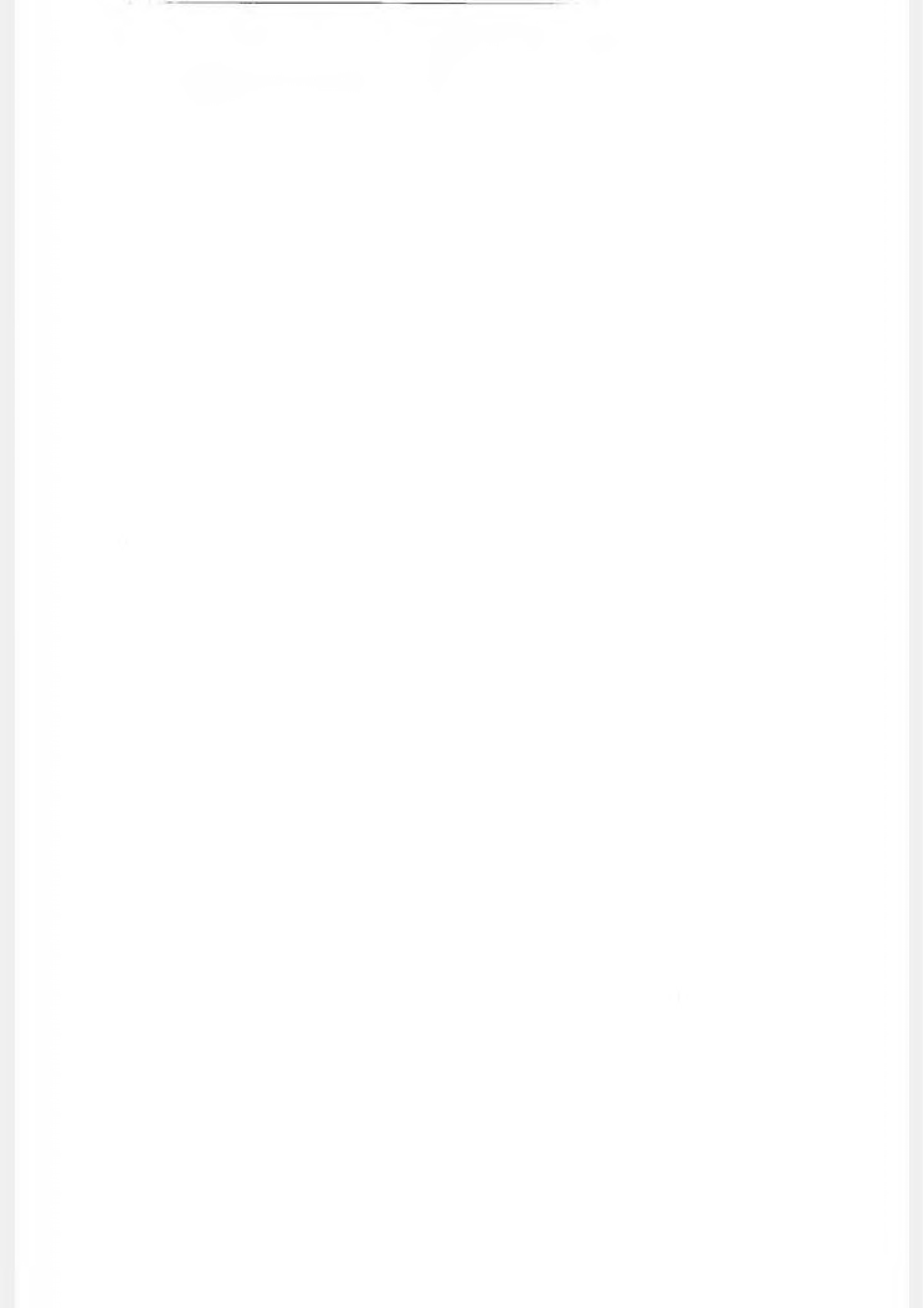
عبد الرحمن بن زيد السويداء

الرياض / الثلاثاء

١٤٠٤/١٢/٣٠هـ

١٩٨٤/ ٩/٢٥م

قصـــة رقـــم (١)



المغامر الصغير

طفقت شمس الأصيل تجر أذيال ثوبها الذهبي من على قزع السحاب المتناثر في الأفق شيئاً فشيئاً، وكلما انحسر هذا الثوب عن جزء من قطع المزن اكتسى باللون الضارب إلى البنفسجي ، وذلك بتأثير ظلمة الليل الذي يطل معه البدر ليلة الخامس عشر من الشهر، بينما كان شائع يشرف على ظهر مطيته من على رأس ذلك التل المرتفع يطالع من بعيد أزوال مجموعات من الابل، تظهر لبصره الحاد تارة، وتختفي أخرى، ويعترض منها بين الحين والآخر عدد من الابل الوضح التى تنعكس عليها أشعة الشمس كما تنعكس على قزع السحاب، فيطرب لهذا المنظر، وتحدثه نفسه أنه ربما يجد إحدى هذه الابل مثل ناقته النجيبة التي يمتطيها، وبصرف النظر عن هذا الجانب فهو يعدها غنيمة سيحوزها بنفسه في تلك الليلة على ضوء القمر الذي سيلف الكون بأشعته الفضية، عندما يسدل الليل حجابه، لذلك بقى هو على رأس التلة يسرِّح طرفه يميناً وشمالاً علَّه يرى ما إذا كان هناك أية أزوال حول الإبل قد تدافع عنها أثناء غارته عليها، ولكنه لم ير أي شيء سوى شبح ضئيل يبين ويختفي بين الحين والآخر، وهذا يحتمل أن يكون راعيها الوحيد الذي لن يهمه أمره، وعندما ودعت الشمس الكون في الجزء الذي يوجد فيه شائع كان البدر مطلاً من الشرق لتشييع الشمس وتوديعها عند غروبها، وهذا الوقت الذي ينتظره شائع بفارغ الصبر، هذا الحرص الشديد لم يترك له مجالاً ليصبر حتى ينام رعيان الابل أو من قد يكون في حراستها، وقاده طموحه إلى أن يسري بها في تلك الليلة المقمرة ويقطع بها المسافة الكافية للحيلولة دون وصول الأفزاع لانقاذها، إن وجد حولها من يطلبها، وما إن غربت الشمس حتى انقض عليها

على ظهر مطيته كالأسد الكاسر حيث وجدها مجموعة من الأذواد، قد تناثرت بين التلال والوهاد فأخذ يلفها على ظهر مطيته ويجمعها استعداداً للانطلاق بها وعندما شاهده الراعي، صاح بأعلى صوته، فما كان من شائع إلا أن نزل إليه وشد وثاقه وأمره أن يسير مع الإبل وحذره من أن يصيح مرة أخرى، ولكن تلك الصيحة كانت كافية لتنبيه رجال الكمين المنصوب الشائع والذين أمتطوا صهوات خيولهم واطبقوا عليه مرددين كلمة «حَيِّكْ، حَيِّكْ» ولم يدر شائع إلا وقد احاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، فكافح وقاوم مقاومة المستميت لكن الغلبة كانت مع الكثرة، فقال عقيد الفرسان موجها كلامه لشائع:

-: إننا حريصون على حياتك فعليك أن تستسلم.

: لم يكن من طبعي الاستسلام.

-: سيكون ذلك أبقى لحياتك.

: ما قيمة الحياة مع الذل؟

-: ليس في الاستسلام ذل أيها الشجاع.

: وهل أذل من الاستسلام للخصم؟

-: إن لم تستسلم فسوف نقتلك.

: ذلك أحب إليّ.

-: لماذا تفضل الموت على الحياة؟

: ثكلتك أمك، ألا تعرف من أنا؟

-: لتكن من تكن، فلا أعرف إنسانا يفضل الموت على الحياة.

: هناك الكثير من الرجال في أوقات كهذه.

-: بربك من تكون؟

: أنا شائع بن مرداس.

-: آه «الأَمْسَحْ» يقول ذلك وكأنه لا يعرفه.

: نعم.

-: ما دمت كذلك فلا حاجة لنا بك، ولا فائدة لنا من قتلك، سنتركك تذهب في حال سبيلك بعد أن نخلص إبلنا منك.

: وأذهب منها صفر اليدين؟

-: نعطيك منها بعيراً أو إثنين.

: ماذا تقول؟

-: أقول: نعطيك حق الضيف.

: وهل مثلي يترك غنيمة حازها مخافة حفنة من الرجال؟

-: لك ما تريد حتى لو أردتها كلها ما دمت ذلك الشجاع المشهور، يقول ذلك وهو يوعز لأصحابه بنبرة متفق عليها للانقضاض عليه.

: دعنا من هزارك وابتعد عن طريقي أنت ومن معك، فهذه الإبل قد كسبتها بيدي ولا يمكن أن أتنازل عنها.

ولم يكمل شائع هذا الكلام إلا وتقافز عليه الفرسان من كل جانب وتجاذبوه من شداد مطيته وانتزعوا منه سلاحه وكتفوه وحملوه معهم ثم عادوا من ساعتهم تلك، بينما ظل يحتدم من شدة الغضب يحاول تخليص نفسه، ولكن أنّ له ذلك ولا سيما بعد أن أجادوا وثاقه فصاح بأعلى صوته.

-: أيها الجبناء، أيها الجبناء، أطلقوا وثاقي.

: لو كنا كما تدعى، لما فعلنا بك ما فعلنا.

-: ما هكذا يفعل الرجال، ما هكذا يتصرف الشجعان.

: ماذا تراهم فاعلون؟

-: لا يحملون إنسانا حيا ميتا معهم.

: ماذا تريد أن نفعل بك؟

-: إقتلوني، إقتلوني، ذلك أهون عليّ مما أنا فيه.

: لم نؤمر بذلك.

-: لم تؤمروا بذلك!!

: نعم، لم يأمرنا من أرسلنا بما تقول.

-: آه.. ومن أرسلكم؟

: أرسلنا الأمير.

-: من هو؟

: وهل يوجد أمير غيره؟

-: كثير من يدعى ذلك اللقب.

: إنه أمير شرق الجزيرة، أما تعرفه أمير الأحساء؟

-: آه.. هو الذي أرسلكم.

: أجل، أجل،

-: لقد خدعتموني يا أنذال.

: من الرجال من لا يصطاد إلا بالحيلة والخداع.

-: آه، لقد نصبتم لي الفخ!!

: ووضعنا لكم الطعم الدسم.

-: آه.. ما أنذلها من طريقة.

: بالنسبة إليك.

-: بل لكل الرجال.

: ما هو البديل عنها؟

-: المقاومة وجها لوجه.

: ذلك ما لم يدركك فيه أحد.

-: ما دام الأمر كذلك فأرجو أن تقتلوني وتريحوني من حياتي.

: إن حياتك علينا أغلى بكثير من مجيئنا بك جثة هامدة أو المجيء بخبرك، إننا حريصون على حياتك حرص الواحد منا على نفسه.

-: ما هو السبب؟

: لا نعرف السبب غير أن الأمير حريص على أن نأتيه بك حياً.

-: وماذا يريد بي؟

: لا ندري ماذا يريد بك، لربما لمحبته إياك.

-: محبته!! تباً لكم، لم يسبق أن التقينا ولم يعرف أحد منا صاحبه، إلا بالذكر.

: ربما أحبك عن بعد.

-: آه.. لا أظن ذلك.

: قد يكون حرصه على رؤيتك شخصياً ليقارن بين شخصك وأفعالك.

-: الأجسام لا تدل على الأفعال يارجل.

: قد تدل.

-: لربما أراد إهانتي أو قتلي بيده.

: وربما أراد أن يكافئك.

-: هه، يكافؤني!! مكافأة عدوك!!

: لا تدري.

-: لدي علم بذلك، ولكن ألا يمكن أن ترخى هذه المريرة عن يدي شيئاً قليلاً، لقد أحسست بها وكأنها تحز في أعصابي.

: سنفعل لك ما يقيك هذا الألم.

-: وإلى متى تضعوني بهذه الفردة على ظهر البعير وعديلى فردة من التراب؟

: حتى نصل الأمير بعد عشرة أيام مع هذه القافلة التي هيأت لهذا الغرض.

-: عشرة أيام!! وأنا مشنوق على ظهر هذا البعير؟ هذه إهانة لي لا أستطيع تحملها.

: لم تكن إهانة.

-: هذه والله الإهانة بعينها، دعوني أركب على ظهر المطية سويا حتى أصل إلى ما تريدون.

: ومن يأمنك أن تركب على ظهر البعير طليقاً؟

-: مم تخافون؟

: نخاف أن تهرب منا.

-: كيف أهرب وهذه القيود بيديَّ ورجليَّ؟

: لا تحاول في تغيير وضعك.

-: ألستم حريصين على حياتي كما تدعون؟

: بلى، بلى.

-: إذا كنتم كما تزعمون فإن نقلي بهذه الطريقة قد يفقدني حياتي وتخسرون ما جئتم من أجله.

يفكر عقيد القوم في هذا الموضوع، ثم يغير رأيه فيركبه على ظهر المطية بعد

أن كتف يديه وربط رجليه بحبال من تحت بطن المطية، وساروا في طريقهم حتى وصلوا إلى بيت الأمير ثم زفت البشرى اليه، وما إن وصل شائع مع القافلة حتى استدعي الحداد وجيء بسلاسل وأصفاد، فأخذ مقاس ساقيه ومعصميه وعمل صفيحتين من الحديد على مقاس كل منهما تنتهي كل واحدة بقفل يجمعهما سلسلة ضخمة، وتم الإقفال على ساقيه ومعصميه حتى لا يحاول فتح أو كسر تلك الأقفال، فقد أمر الحداد أن يصب على الأقفال الرصاص ووضع بطرفي تلك السلسلة الغليظة ثقل كبير ووضع هذا السجين «بِرُفْقَةِ» البيت أمام الغادي والرائح، وبقي شائع يرسف بحديده، دون أن ينظر إليه الأمير أو يستمع إليه طيلة تلك الليلة، وفي الصباح عندما امتلأ مجلس الأمير بأفراد حاشيته قال الأمير:

: هاه، هل انت شائع؟

-: نعم، أنا ابن مرداس وفتى الجود.

: لم أحسبك هكذا!!

-: وماذا تأخذ عليّ؟

: إن أفعالك أكبر من جسمك.

-: ومتى قيست الأفعال بالأجسام أيها الأمير؟

: ولكنك لم تبلغ حتى الحجم المعقول.

-: الرجل بعقله وجنانه ولسانه.

: وقوة عضلاته.

-: إذا توفرت مع ما سبق فهي فضيلة، ولكنها ليست كل شيء.

: إيه، الحمد لله الذي مكنني منك.

-: وتحمد الله على ذلك!!

: نعم، أحمد من رماك بين يدي.

-: وماذا تريد مني؟

: ماذا أريد منك!!

-: نعم.

: أريد أن يسعى الدود في جنبيك في هذا الحديد.

-: لماذا؟

: لقد آليت على نفسي إن تمكنت منك أن أربطك بهذا الحديد وفي «رفة» هذا البيت مدى الحياة.

-: مدى الحياة!! وماذا عملت لك؟

: وتسأل مثل هذا السؤال، بعد أن دوختنا منذ مدة طويلة تارة تظهر بالشرق وأخرى في الغرب، تنهب نياق هذا وتسلب أذواد ذاك تغير على هؤلاء وتباغت أولئك.

-: أنني مضطر أيها الأمير.

: مضطر!!؟

-: نعم.

: ما الذي جعلك تفعل هكذا؟

-: طلب الرزق.

: للرزق طرق غير طريقتك.

-: ما هي الطرق التي يمكن سلوكها؟

: إنها كثيرة، كالرعي وتنمية المواشي من الإبل والأغنام ثم العيش من نتاجها وريعها.

-: ولكن من أين لي الإبل والأغنام؟

: ألم يكن عندك شيء منها؟

-: بلى، ولكن يدي لا تبقى على شيء تحتها.

: ماذا تفعل به؟

-: أقدمه لضيوفي، وأوزعه بين الضعفة والمساكين.

: وهل كفك مخروقة؟

-: أجل، بأفعال الخير وتقديم المساعدة.

: إيه، من مال الآخرين.

-: بل من المال الذي أحوزه بسنان رمحي وشذرة سيفي.

: ولكن من أحل لك أموال المسلمين؟

-: ليسوا كلهم أيها الأمير.

: وهل هناك استثناء؟

-: نعم، لا أمس مال الكريم بأي أذى.

: ومن هم الذين تنالهم يدك؟

-: لقد تسلطت على مال البخيل اللئيم الذي يضوى إليه الضيوف فلا يقدم لهم من القرى غير شنينة اللبن، بينما سمان الضأن وكنس الإبل تتزاحم في مراحه.

: إنك لهبيل يا شائع، لو أن الناس نحروا أو ذبحوا لكل ضيف أوى إليهم لفنيت مواشيهم.

-: قرى الضيف، ومساعدة الضعيف، وقضاء حاجة عابر السبيل لا تنقص الأموال شيئاً، بل على العكس ستزيدها نمواً وكثرة.

: إيه، ولكن معظم الناس يحرصون على الأموال وينمونها بأعداد كثيرة.

-: الأصح أن تقول إن مثل أولئك الناس محرومون من أموالهم فضلاً عن تقديمها لوافديهم.

: كل إنسان حر بماله يتصرف به كيف يشاء.

-: لا اعتراض لي على ذلك، ولكن يجب عليه أن يقدم من هذا المال للضيف والمحتاج؟

: واذا لم يقدم؟

-: سأقوم بالنيابة عنه بأخذ جزء من مال هذا البخيل المحروم وتقديمه للآخرين.

: ذلك كان بالأمس يا شائع، عندما كنت تسرح وتمرح في أرض الله طليقا.

-: وحتى اليوم لو وهبتني حريتي وأطلقتني.

: لتعيث في الأرض فساداً؟

-: على العكس، سآخذ حق الله من مال هذا البخيل المحروم وأقدمه للضيف وعابر السبيل والضعفاء من الناس.

: بل قل، لتتمتع به.

-: لا والله أيها الأمير إنني لم آخذ إبلاً إلا وزعتها على الفقراء والمساكين، أو قدمتها لحماً مطهياً لهشال الليل وضيوف النهار.

: ذلك ما مضى وانقضى. أما الآن فوالله لن تبرح هذا البيت ما دمت أنا على قيد الحياة، وما دمت أنت حيا.

-: ومن للضعفاء والجائعين الذين ألفوا مني تنفيس كربتهم كلما اشتدت.

: لهم الله.

-: ونعم بالله أيها الأمير، ولكن الأرزاق تحتاج إلى من يتسبب في تحصيلها.

: دعك من هذا، فالله الذي خلقهم قد تكفل برزقهم.

-: لا شك في ذلك.

وخف الأمير من مجلسه تاركا الربيط يرسف في حديده الذي أثقل يديه ورجليه، يقلب طرفه في وجوه الناس الذين ينظرون إليه بنظرات التشفي والازدراء، لا لسوء مسهم منه ولكن لما يسمعونه من أخباره وغاراته على الآخرين، وسيراً مع رغبة الأمير في إهانته، وبدأت رءوس البعض منهم تتقارب إلى بعضها البعض لتهمس ببعض الكلمات أو تروى أحاديثاً عن هذا الرجل المحدد، بينما بدأ البعض يجهر بصوته ببعض الكلمات والعبارات الجارحة ليخدش بها كرامته.

وينسحب ذلك اليوم الثقيل على صدر شائع وهو في حالة قريبة الشبة بالغيبوبة، وفي اليوم الثاني عندما استوى الأمير في مجلسه واكتض المجلس بحاشيته الذين التفوا من حوله في صالون الجلوس حاول الأسير أن ينوء بحديده، ولكن الثقل منعه من ذلك فطلب من الأمير أن يدنو منه ليحدثه على انفراد بحديث هام، لكن الأمير رفض ذلك لانشغاله بأمور أخرى طالبا تأجيل هذا الموضوع إلى وقت آخر عندما يطلب منه الأمير ذلك. وعندها قال شائع في نفسه، لعل الأمر يجد أذنا صاغية في وقت رائق أتحدث فيه عما أريد، ومضت الأيام تترى ولم يحدث أي فرصة يبوح بها عما يعتلج في صدره إلى أن جاءت سانحة رأى شائع الأمير فيها وقد انبسطت أسارير وجهه فجمع قواه وبدأ يزحف بحديده ويجذب الثقل شيئاً فشيئاً حتى اقترب من الأمير فقال له:

: أيها الأمير ماذا تستفيد من أسري هنا؟

-: لنقي الناس شرك على الأقل.

: وهل مسك مني ضرر؟

-: لا ، ولكن ما يضر الناس المنضوين تحت لوائي يعتبر ضرراً لي بطريقة غير مباشرة.

: هل بلغك أيها الأمير أنني في يوم من الايام رزأت كريما ولو بخصلة من الصوف؟

-: حاشا، وكلا، ولكن الناس عندي سواسية، كريمهم وشحيحهم، لا فرق في ذلك، لا فرق.

: إن الشحيح لا يستفيد منه أحد أبداً، هل تستفيد منهم شيئاً؟

-: لا،

: والله لو طلبت من أحدهم عقال بعير لحنَّ وزنَّ قبل أن يعطيك إياه أليس كذلك؟

-: بلى، بلى، ولكنني عند اللزوم أفرض على الأغنياء منهم ما أريد.

: إنهم يعتبرون ذلك اغتصاباً.

-: أبداً، إنه الواجب المترتب على حمايتهم من المعتدين.

: كأني بالواحد منهم يعطيك البعير الأزور، والأحرد وذو العاهة ويعتبره من خيار إبله.

-: وما يدريك في ذلك؟ كأنك على علم بما جرى قبل مدة وجيزة، هل أخبرك أحد من رجالي؟

: لا، ولكني أعلم بنفسية البخيل، إنه يقتر على نفسه وعياله فكيف تريد منه أن يجود بأطيب ماله؟

-: هاه!! ماذا تقول؟

: أقول، هل لك بخير منهم؟

-: خير منهم؟

: نعم.

-: ومن يكون؟

: هذا الجالس أمامك مثقلاً بحديده.

-: أنت خير منهم؟

: نعم، وكم يبلغ عدد الأثرياء الأشحاء في أمارتك؟

-: هاه، لا أدري بالضبط، ولكن. . .

: قد يبلغون الخمسين أو المئة على أكثر تقدير.

-: يعني بحدود هذا العدد، ولكن لماذا هذا السؤال؟

: وكم تأخذ من الواحد منهم؟

-: حسب الاحتياج بعيراً أو اثنين وربما ثلاثة.

: ألا ترى أنني خير منهم جميعاً، وسأعطيك مئتي ناقة من خيار الإبل، إن أردتها من لون وبرة واحدة، حمراء أو وضحاء، أو ملحاء، وإن أردتها مختلفة الألوان فحدد كل لون تريده مقابل أن تطلق سراحي.

-: أطلق سراحك!!؟

: نعم.

-: هذا الشيء الذي لا أفكر فيه إطلاقاً حتى لو أتيتني بعدد رمال الدهناء نياقاً حمراً كقطع الجوخ.

: لا تقطع هذا الأمر حتى تفكر فيه.

-: هذا الأمر لا يحتاج إلى تفكير.

: إن كنت خائفا من عدم وفائي بذلك، فالله بيني وبينك وعليك الله وأمان منه أن يصلك ما تطلب مني بأسرع وقت ممكن متى أطلقت قيدي.

-: لا أشك في وفائك فأنت من رجال يعتبرون ذروة في الوفاء، ولكنني لم أفكر بالأمر حتى مجرد تفكير.

: أرجوك ألا تجزم على هذا الأمر قبل أن تتريث وتنظر فيه.

-: وأنت حذار أن يخطر على بالك، وانزع من رأسك جذور هذا الأمر كله.

: أراك متصلبا في رأيك أيها الأمير.

-: لا دخل لك في ذلك، فانصرف من وجهي ولا تحدثني فيه مرة ثانية.

وقفز الأمير من مجلسه بعد أن تكدر صفوه، ولما رأى رجاله التقطيبة تعصف بجبينه أسرعوا إلى السجين وجروه بحديده إلى مكانه في طرف المجلس.

ومرت سحابة ذلك اليوم، وشائع كاظم غيظه يسرح طرفه بالغادي والرائح،

وتعاقبت الأيام، وصار شائع يرمز للأمير رمزاً بـألوان الإبـل قائـلاً: أوضحا مثـل عبيلات المرو، أم حمراً كالجـوخ، أم ملحاً كـالأغربـة، ويقابـل الأمير هـذه الجمل الثلاث باشارة واحدة هى إيماءة أفقية مكررة بالرأس تعني الرفض ما زال يجيب بها شائع كلما تلفظ بذلك العرض، ومرت السنة الأولى، ففترت عزيمة السجـين وقل اندفاعه، وقلت قيمة العرض، فصار لمئـة من الابل فقط، وبلون واحـد أو لونـين وصار لا يكلمه في الأمر الا بعد فتـرات متباعـدة، ويأتي هـذا العرض عـلى الأمير بنبرة فاترة، وجرَّت السنة الثانية ثقلها المرهق على صدر شائع وهو ينـوء بحديـده، ينظر إليه الغادى والرائح، يتناقل الركبان أخبار حبسه، وذلك ليعتبر به من تـراوده نفسه إلى أن يسلك منحاه، وهو في ذات الوقت يقلب طـرفه في هـذه الوجـوه التي أصبحت بالنسبة إليه كأنها حجارة صماء لا إحساس، ولا نخوة، ولا شهامة فيها، ولما بدأت السنة الثالثة شعر بالانهاك يدب في جسمه وخارت قواه الجسمية وتنـازل في العرض الذي قدمه للأمير فـدية إطـلاقه إلى خمسـين بعيراً فقط من أي لـون أو جنس، وأصبح يعرض هذا الأمر على الأمير في فترات متباعدة، وبلهجة اليائس، وبذلك صـار لا يفكر في شيء في هـذه الحياة وهـو يتمنى الموت كـل لحظة بعـد أن سـاءت حالـه وأصبح في عـداد الأموات لـولا هـذا النفس الـذي يـرفـع ويخفض جوانحه ومرت السنة الرابعة دون أن يعرض على الأمير أي نوع من الفدية كما هى عادته في السنوات الثلاث الماضية، وذات يوم سأله الأمير:

-: مالك ياشائع هذا العام على خلاف ما أنت عليه في الأعوام السابقة؟

: ماذا رأيت منى أيها الأمير؟

-: لقد تغيرت حالك.

: بفضل تصرفك المتصلب نحوي.

-: إنه البر بقسمى.

: لم يكن القسم في محله أيها الأمير.

-: هذا شأني ولا أسمح لأحد أن يتدخل فيه.

: ما دمت كذلك فلماذا تسأل عن حال أنت بها أعلم وبيدك حلها وربطها.

-: لم أقصد ذلك يابن مرداس.

: ماذا تقصد إذا؟
-: لقد طلبت الفداء لنفسك في السنة الأولى مئتين من النياق العتاق النادرة، وفي السنة الثانية خفضت هذا العدد إلى مئة ناقة فقط، وفي الثالثة إلى خمسين بعيراً، وفي هذا العام أراك سكت ولم تنبس بكلمة واحدة.
: آه، هذا شأني لوحدي!!
-: هل لنا أن نعرف سبب ذلك؟
: لا ضرورة لمعرفته.
-: هل خارت قواك؟
: إنها أصلب من الحديد.
-: هل دب اليأس إلى نفسك؟
: لا يأس من رحمة الله.
-: هل تحطمت طموحاتك؟
: بل إزدادت قوة وصلابة.
-: مادام الأمر كذلك سنطلق سراحك مقابل العرض الأول.
: لا.
-: إذا فالعرض الثاني على أن تكون نوقا حمراً.
: لا يمكن.
-: لماذا؟
: ولا حتى العرض الثالث.
-: لماذا؟
: آه.. «إِنَّهُ صُبَيْ وْزَلَّتْ عَجَارِيْفُهْ».
-: صبي وزلت عجاريفه!! من تَعني؟
: مثلك يعرف أيها الأمير إن حرصي في أول الأمر على إطلاق أسري ليس جزعاً من الفخ الذي نصبتموه لي ووقعت فيه، ولا تذمراً من هذه الأغلال والسلاسل التي حزت معصميَّ وساقيَّ، ولا ضيقا بهذا التشهير الذي نالني منكم، وإنما كان لدي صبيٌ صغير ألاعبه، أضمه إلى صدري، ينعشني طيب أصداغه، تطربني كلماته المتلعثمة، تشنف أذني مناغاته المتقطعة أفرح

لخطواته المتعثرة، فلقد أسر لبي قبل أن تأسر جسمي فكنت بين أسيرين، وكنت حريصا على رؤيته.

-: إيه، إنا لله وإنا إليه راجعون، لماذا لم تخبرني بذلك في حينه؟

: أخبرك!؟ أنا ابن مرداس، هذه وسيلة الضعفاء.

-: سأطلقك الآن على أن تقدم لي العرض الأول.

: لا تطلقني أبداً، لقد كبر الولد وانقضت لذة الصغر فيه.

-: أتريد أن اطلقك إذا بدون فدية؟

: لقد أخذتني بالحيلة والقوة، وسيطلقني إبني بنفس الأسلوب.

-: إبنك!! هه، هه.. هاه... يضحك الأمير بصوت مرتفع، ابنك يضاهي قوتي وحيلتي ترى من يكون؟

: إن ظهر على ظني فيه، فسوف ترى صدق حديثي.

-: إنك تهذى بابن مرداس، مرة تحب أن تلاعب ابنك صغيراً وأخرى تريده أن ينقذك من الأسر.

: ما دمت ترى ذلك فدعنى في اغلالي حتى يأتي الله بالفرج، ولن يخيب ظني إن كان إبني على قيد الحياة.

-: إنك تبني عليه آمالاً كبيرة!!

: نعم فلقد حرصت على طيب محتدة.

-: هيه، والله لن تبرح هذه الأغلال ما دمت على قيد الحياة.

: لا تحلف، ففرج الله أقرب من ذلك.

-: بل أقسم على نفسي وبكل تأكيد ما دمت حيا.

ومضى على شائع بضع سنين وهو يترنح في طرف بيت الأمير بكامل أغلاله حتى ساءت حاله ورثت هيئته، وغزا الشيب مفرق شعره وكاد اليأس أن يدب إلى نفسه، ولكنه لا يزال يرجو الفزعة من ربه على يد ابنه الذي يضع فيه كامل ثقته.

اجتمع الصبية في تلك الأمسية المقمرة يلعبون بقرب البيوت كعادتهم وبرز من بينهم صبي قد تخطى الحادية عشرة من عمره، ولكنه كان أبرعهم في تلك الألعاب، وكانت لعبتهم في تلك الليلة هى المطارحة فلم يقف في وجهه أحد من

أقرانه، وجاءه غلام أكبر منه سنا، فطرحه، وألقى به صريعاً على الأرض بأسلوب عنيف مما حدا بالغلام المصروع إلى الجزع فقال لخصمه بلهجة غضب:

: أنت تظهر قوتك ونشاطك علينا فقط، أما لو كان بك خير لخلصت أباك من الأسر.

-: أخلص أبي من الأسر!!

: نعم، إن أباك مأسور منذ وقت طويل.

-: ماذا تقول؟

: أقول لك ما سمعت ياهبيل.

-: لا تحاول أن تنفس عما أصابك بهذه الألفاظ البذيئة، وعليك أن تحترم نفسك، أما أبي فقد انتقل إلى رحمة الله.

: لقد عرفوا أنك مغفلاً، ولذلك فقد ضحكوا عليك.

-: يقفز «عُمَيْرَةْ» ويمسك بتلابيب الغلام وهو يقول:
أخبرني بصحة ما تقول أيها الخبيث.

: تخبرك أمك فهى أدرى مني

-: أمي هي التي أخبرتني بأنه قد مات.

: لقد جحدت عنك الحقيقة، وإلا فإنها عصر هذا اليوم تتحدث مع أمي عن نفس الموضوع ولقد سمعت طرفا من حديثهن.

-: أحقا ما تقول؟

: كل الحق.

وينطلق عميرة مسرعاً إلى البيت ويأخذ خنجراً كان معلقا في عمود البيت ثم ينزعه من غمده ويدخل على أمه وهى تجهز لهم الطعام فيبادرها قائلاً:

-: أماه.

: أهلا وسهلاً يا بني.

-: أخبريني وأصدقيني القول؟

: بماذا أخبرك، بماذا؟ تقول ذلك وهى تنظر إلى سلة الخنجر يلمع على ضوء النار وقد قبض عليه الغلام بيده ووجه ذبابه إلى غضروف كبده.

-: أخبريني بالحقيقة، أين أبي؟

: أبوك، أبوك!! إن أباك قد انتقل إلى رحمة ربه، إنه قد مات، مات يرحمه الله.

-: لم تصدقيني، هذا كذب وزور، أخبريني.

: لقد مات والدك يابني. وتحاول أن تقترب منه لتضمه الى صدرها ويبعدها بيده الأخرى وهو يقول.

-: والله لئن لم تخبريني بالحقيقة لأقدن صدري بهذا الخنجر ولأغمدن كامل سلته في صدري، وستريني جثة هامدة بعد قليل.

: يسيطر عليها الهلع وهى تقول إصبر إصبر يا بني لا، لا تفعل.

-: لا صبر بعد اليوم، أخبريني بالحقيقة والاّ . . .

: رويدك مهلاً يا بني سأخبرك، وتحاول أن تبعد الخنجر عن صدره فتجد ذباب الخنجر قد غرس بصدره فتصيح.

-: سأخبرك، إن أباك لم يمت، لم يمت، إنه حي يرزق.

: حي يرزق!! أين هو؟ أين هو؟.

-: سأخبرك، فأرجوك أن تبعد الخنجر عن صدرك.

: وتبعد الخنجر عن صدره ثم تضمه إليها وهى تجهش بالبكاء.

-: هذا البكاء لا يفيد يا أماه، فأخبريني.

: إجلس واهدأ، وسأخبرك بكل شيء.

-: ومن أين لي الهدوء؟ وكيف سأجلس وأبي لا أعرف مصيره؟

: ستعرف مصيره الآن.

-: أخبريني أين هو؟

: إنه أسير في مكان لا حول لك ولا قوة في تخليصه.

-: سأخلصه باذن الله، حتى ولو كان في أمنع مكان أو أموت دونه.

: هداك الله يابني، قد لا تستطيع ذلك.

-: ومن قال لك هذا؟

: إنني أخاف عليك أن تذهب ضحية لهذه المغامرة، فنخسرك في الوقت الذي فقدنا فيه أباك.

-: سأخلصه وآتيك به، أخبريني أين هو؟

: ساعدك الله يابني، وأعانك على ما عزمت عليه، إنه في حبس ذلك الأمير منذ ما يزيد على ثمان سنوات.

-: ثمان سنوات!! وتصبرين كل هذه المدة لم تخبريني، وكلما سألتك عنه أخبرتيني أنه قد مات.

: إنني ضنينة بك يا بني، ولا أريد أن أخبرك حتى تكبر ويصلب عودك لتتحمل المهمة التي ستنوء بها.

-: إنني من أهلها يا أماه، وكم يبعد عنا المكان الذي يوجد فيه أبي؟

: إنه بعيد، يحتاج لمسيرة حوالي عشرين ليلة.

-: آه.. ما أقربه عندي.

: ولكنك يا بني لا تدل الطريق.

-: سأجد من يدلني، فهل يوجد من أصدقاء أبي المخلصين أحد؟

: أصدقاء والدك، أصدقاء والدك!! تقول ذلك وكأنها تبحث عنهم في خيالها. إيه لقد ذكرته، ولكنه ولكنه للأسف الشديد قد كف بصره.

-: أهو من أصدقاء والدي الصادقين؟

: نعم، ويعتمد عليه، ولكنه كفيف البصر.

-: لا يهم، إذا كان مفتح البصيرة، دعيني أذهب إليه هذه الليلة.

: إترك الأمر للصباح يا بني.

-: لن يهجع لي جفن هذه الليلة حتى أصل إلى حل.

: إذا فصديق أبيك هو فلان.

وينطلق عميرة مسرعاً ميمما بيت صديق والده يشق قطعان الأغنام الرابضة حول البيوت، ويقطع أذواد الابل القادمة لتوها للمبيت حتى وصل إلى ذلك الشيخ الأعمى وسلم عليه ثم جثى على ركبتيه أمامه وقال:

-: ياعم، لقد عرفت أنني ابن رفيقك شائع.

: نعم يا بني، فأهلاً ومرحبا بك على كل حال.

-: لقد أتيتك لتساعدني بالرأي وتدلني في الطريق.

: على ماذا؟

-: لقد علمت لتوي أن والدي مأسور، وعزمت على أن أقوم باطلاق أسره.

: إطلاق أسره!!؟

-: نعم، سأطلقه بنفسي إن شاء الله.

: سلمت يداك يا بني، وأعانك الله على ما في وجهك، ولكن كيف تستطيع الوصول إليه وهو في حوزة أمير من أقوى ما في بلاد العرب من الأمراء في هذا الوقت؟

-: سيعين الله عليه.

: لا شك في ذلك، ولكن ما هي المساهمة التي أستطيع أن أبذلها في سبيل تخليصه؟

-: إنني أريد منك أن تدلني على الطريق، حتى أصل إليه.

: أبشر يا بني، أبشر، رغم أنه قد كف بصري إلا أنني أعرف الأرض باعلامها من جبال ورمال، وأودية، وأعرف رائحة تربة كل جزء منها.

-: هذا ما أريده منك ياعم، أما الباقي فاتركه علي وسيعينني الله عليه.

: أبشر، وعليك أن تحضر نفسك من الغد وخذ معنا فلانا ليصاحبنا ويساعدنا في الطريق.

-: سأجهز الركائب اللازمة، والزاد الضروري لمسيرتنا والموعد مع أذان الفجر.

: على بركة الله.

-: تصبح على خير.

ومع انبثاق خيوط الفجر الأولى انطلق الركب على ثلاث ركائب يسيرون في الليل ويجرون بالنهار على نفس الاتجاه، وكلما وصلوا إلى مكان معين أخبر الغلام وصاحبه عما يشاهدان من معالم الطريق في مدى رؤية النظر، كجبل لونه كذا ومدى ارتفاعه وما يوجد حواليه من الجبال أو القور، والحزوم، والحزون، وعند ذلك يخبرهم الشيخ الكفيف أنهم في أرض كذا، أما في الليل، فيعتمدون على أخذ قبضة الكف من تراب الأرض التي يسيرون عليها ويشم رائحتها الشيخ ليخبرهم أنهم قد وصلوا إلى الأرض الفلانية، وهكذا ديدنهم حتى قطعوا مسافة

عشرة أيام بلياليهن، لا يسألـون أحداً عن الـطريق أو أي شيء آخر، وعنـد ذلك طلب منهم الشيخ الامراح تلك الليلة، وفي الصباح سألهم مـاذا ترون من حـولنا فأخبراه أنهما يريان مجموعة من أشجار الطلح، فسألهم الشيخ وهل من بينها طلحة كبيرة بقرب المجموعة إلى الشمال عنها؟ فأجابه الغلام بنعم، فقال: لقد قربنا من الهدف، ولم يبق بيننا وبينه غير مسافة قليلة، فعليكم أن تقيدوا ركابكم لتـرعى في هذا المكان وتـظللوا ثم تفيئوا بـظلال تلك الطلحـة الكبيرة حتى ينقضي النهـار ثم تنفذ ما تريد.

وسرحت مواشي الأمير بالقرب من المكان، وسأل الشيخ الغلام: الآن وصلنا إلى قرب الهدف مـاذا أنت فاعـل يا بني؟ فـأجابـه سأركب مـطيتي وأروح مع إبـل القوم في المساء، ومتى اقتـربت من البيوت أنخت مـطيتي غير بعيـد عن البيوت في مكـان بـارز، وذهبت إلى بيت الأمـير عـلى قــدمي ودخلت المجلس مـع أولئـك الضيوف الوافـدين حتى أرى أبي ثم أمكث بالمجلس حتى ينـام القوم ثم أحمـل أبي وأهرب به واركبه على كور مطيتي، وآتيك به، فأجابـه الشيخ: إنني أخـاف عليك يابني، ورد عليه الغلام بكل ثقة وتصميم، لا تخف علي ياعم، فالعمر عمر واحـد وليس بعد أبي ذخر، إيه وفقك الله يا بني، وستر عليـك من عواثـير الطريق، وشر الأعداء، وعند ذلك قال الغلام لصاحبيه:

عليكم بتجهيـز الـركـائب، فـإن طلعت النجمـة الفـلانيـة ولم آتكم فعليكم بالهرب إلى مكـان ينجيكم، وعندمـا أدمس المساء، إمتـطى كور مـطيته المشهـورة بالسبق والصبر حيث أنها ابنة ذلول أبيه، وجاء متخفياً مع آخر الابل، وكأنه أحـد الرعيان، حتى إذا وصلت الابـل مراحهـا غير بعيـد عن البيوت، أنـاخ مطيتـه في طرفها، ودنف من بينها إلى مجلس الرجـال حيث يجتمع الضيـوف والوافـدون على الأمير أو عابروا السبيل الذين يغدون مع غروب شمس كل يوم ليطعموا ويشـربوا من مضيف الأمـير العامـر، وربما يبيتـون حتى الصبـاح أو يـواصلون مسـراهم في الليل، وسرح الغلام طرفه في وجوه القوم على ضوء النار المتراقص، فرأي أعـداداً كبيـرة من الرجـال، وبحث عن وجـه والـده الـذي لم يكن يحفظ معـالمـه تمـامـاً، بـالاضافـة إلى التغيير الـذي يحتمل أنـه قد طـرأ عليه لـطول مكـوثـه في السجن،

وحاول أن يجمع من ذاكرته تلك الصورة الباهتة التي يحفظهـا عن وجه والـده، ثم فتش في وجوه القوم بحثا عن تلك الصورة فلم يجدها، وبدأ بشرب القهوة واعادة البحث مـرة بعد أخـرى دون جدوى، إلى أن رأى كـومـة من الأسمـال في طـرف المجلس بعيدة عن الضوء لا يرى فيها أي حركة، ويحسبها كومة من المتاع، ولم يرد أن يسـأل من حولـه عن هدفـه خشية أن ينكشف أمـره، ولذلـك فضـل التـريث قليـلاً، ولما حـان موعـد العشاء دعي الحـاضرون إلى الصـواني الكبيـرة فقـام من بالمجلس يتقدمهم الأمير نفسه، وكان عميرة آخـرهم حينما سمـع أحد الخـدم وقد جـاء بصحن طعام ووضعـه أمام تلك الكـومة في طـرف المجلس وقـال: كـل يـا شائع.

وكـان لهذه الكلمـة دوي هائـل في فؤاد الغـلام ممـا جعله يقتـرب من كـومـة الاهمال ليرى فيها حركة بطيئة نحو الصحن، فملك أعصابه وذهب مع القوم كأنه يتناول طعام العشـاء، وقبيل فـراغ الناس من الـطعام قـام مع أول من قـام وجاء مسرعاً حيث اعتبرها فرصة سانحة، فانحنى على والـده وقبله ثم تناثـرت الدمـوع من عينيه على شعر لحية والـده الكثيفة وشعـره الغزيـر، وهمس في أذنه، أنـا ابنك عميرة، ثم أخذ مجلسه بقربه في ذلك الجزء المعتم، وما إن وضع الحطب على النار وتحلق القوم في المجلس يتصدره الأمير ويحيط به رجال حاشيته حتى بدأت أحاديث السمر، من أخبار الركبان وقصـائد الشعـراء والطرائف والنكـات، بحيث تسمع المجلس يـدوي بالضحـك بين الحـين والآخر بينـما كان الأمـير ينشغل بـين الحـين والآخـر بصبي له يـدنف إليه من داخـل البيت بخطواتـه المتعثرة، وكلمـاته الغير مفهومة، فإذا أقبل على أبيه، أخلى الرجـال له الـطريق، وهش الأمير لـه وبش في وجهـه وتلقفه بيـديه ورفعـه إلى صدره بشـوق متجدد، وعـطف متقد وأجلسـه في حضنه، وبدأ يداعبه ويلهو معه منشغلا عما يجري في مجلسه من أخبـار وطرائف، ممـا يضطر بعض المتحـدثين إلى أن يـروي الطرفـة مرة ثـانية لكي يسمعهـا الأمـير اللاهي مع طفله المدلل الصغير، في هذا الجو الغافل. سأل شـائع ابنـه عن سبب مجيئه؟ فأخبره: أنني جئت لكي أنقذك وأفك أسرك، وأحملك معي إلى مطيتي التى أنختها غير بعيـد من المكان، فشكـره أبوه عـلى هذه البـادرة الطيبـة مع تعـديل في

الخطة قائلاً له:

-: إنك لا تستطيع حملي نظراً للاثقال والحديد الذي يرهقني، ولعدم مقدرتي على المشي لطول المكث، فلقد تعقدت أعصابي ولكن عليك بالتفكير بحيلة أخرى.

: ما رأيك في إختطاف هذا الطفل الذي شغل أباه وملك عليه لُبّه؟

-: إنها فكرة جيدة ومن السهل عليك تنفيذها.

: كيف؟

-: إن أباه الليلة سينام عند زوجته الثانية وأم هذا الطفل ستنام في هذا البيت مع طفلها، فانتظرها حتى تغرق في النوم ثم انزعه من فراشه وانطلق به هارباً.

: هاه.. صحيح، ومع أنه ليس هدفي الأول فقد يكون في اختطافه سبباً في إطلاق سراحك.

-: بلا شك، فإن والده يحبه حباً جماً.

: أحقاً ما تقول؟

-: بكل تأكيد.

: إذا وصلنا إلى الهدف، ولكني أخشى أن يقتلوك.

-: كن واثقاً مما أقول، فلن يمسني أحد بسوء، ولكن عليك المحافظة على الصبي.

: أبشر، وسأنفذ ما تقول.

-: كن حذراً يا بني.

: لا تخف.

ومضى من الليل الجزء الذي كان يجلسه الأمير مع رجاله ثم نهض من مكانه متوجهاً إلى البيت الذي سينام فيه بعد أن حمل الطفل إلى أمه نائماً في حجر أبيه، وبدأ من في المجلس يتفرقون مثنى وفرادي حتى لم يبق فيه غير الضيوف الذين تسدحوا فى أماكنهم وكل قد تمدد في عباءته أو في دثاره، وعندما هجع الناس ونامت كل عين، تسلل الغلام من خلال أروقة بيت الشعر الخاص بأم الطفل فوجدها غارقة في النوم والطفل غير بعيد عنها، فاستله من دثاره كما تستل الشعرة

من العجين وحمله على كتفه فانطلق مسرعاً ومر على والده فودعه وقبله قبلات حارة ثم انطلق بالصبي فهرته بعض الكلاب حتى اندس في وسط أذواد الابل الباركة حيث سكتت عنه ولاذ بكور مطيته وأطلق عقالها وأرخى لها الرسن ميمما نحو صاحبيه حاملاً الصبي في حجره تاركاً والده في مكانه ووصل إلى صاحبيه قبل الوقت المحدد، وساروا جميعاً عائدين بالصبي معهم إلى أهلهم.

وفي سكون الليل تنبهت الأم وتناولت دثار ابنها لتضفيه عليه مخافة البرد ولكنها لم تجده في مكانه فظنته قد تدحرج غير بعيد عن فراشه كعادته، فبدأت تتلمس هنا وهناك حول فراشه وعلى عينيها النوم ولشدة هولها إنها لم تجده في البيت بكامله، ولم تتمالك نفسها أن وضعت أصابعها في أذنيها وصاحت بأعلى صوتها بأصوات سمعها جميع النزل فأسرعوا إليها فزعين، وعلى رأسهم الأمير نفسه، وعند وصول أول الأفزاع إليها سألوها.

-: ما بك، ما بك «ثَبَتْ يَاصَيَّاحْ» «ثبت يا صياح».

: ولدي.. ولدي.. لم أجده في فراشه ولا في البيت كله.

-: من متى؟

: منذ قليل، لقد رقدت وهو بجانبي ولا أدري أين اختفى؟

-: إبحثوا عنه هناك أو هناك في البيت وما حوله.

وفزع الناس وارتفعت جلبتهم وكثر البحث في كل زاوية وكل مكان في مجلس الرجال، بين الضيوف ووسط الأمتعة في البيوت المجاورة في عنن الحطب ووسط مرح الغنم بين أذواد الإبل، عندها استذارة الغنم وكثر ثغاها ومأمأتها، جفلت الإبل من كثرة خوض الناس في وسطها بدون هدف اختلطت أصوات الناس بثغاء الغنم وحنين الإبل وصهيل الخيل، هاج الناس وماجوا على غير هدى، وتفرقوا بليلتهم ضاربين كل اتجاه على ضوء بصيص النجوم الخافتة، وارتفعت الأصوات بالمنادات من كل صوب واستمروا في وضعهم هذا حتى انفلقت أعمدة الفجر من المشرق وبعده بسطت الشمس ثوبها الذهبي على الأرض فعاد أشتات من الناس إلى المنازل بعد أن أرهقهم التعب، ولعب بهم الإعياء، وكان من بين العائدين الأمير مع مجموعة من رجاله الذين حملوه على صهوة جواده يتهادى ويكاد

أن يسقط من شدة الاعياء وقوة الصدمة، ووقع الفاجعة بينما تفرق الناس بكل اتجاه للبحث عنه في وضح النهار، وعندما جيئ بالأمير وأخذ مجلسه وهو بحالة يرثى لها، يجهش بالبكاء تارة، ويصارع لواعجه تارة أخرى وقد خيم الحزن على من بالمجلس، وضربت الكئآبة أطنابها على الجميع ما عدا شخص واحد شوهد يضحك لأول مرة في حياته، ذلك هو السجين الذي بقى طيلة مدة سجنه حزينا ما عدا هذا اليوم فهو يبتسم بثغره الذي لا تكاد تراه من كثافة شعره، عند ذلك جر حديده واقترب من الأمير، فقال له الأمير.

: مالك تضحك يا ابن مرداس؟ إنك كا. . . الذي يفرح بمصيبة أهله.

-: يضحكني تصرفك أيها الأمير.

: أتهزأ بي أيها الحقير؟

-: ليس استهزاء بك ولكني. . .

: ولكنك ماذا؟ يقول ذلك بغضب.

-: حلمك أيها الأمير.

: ليس هذا وقته، طُسَّ عن وجهي.

-: يضحك شائع بصوت مرتفع وهو يقول: أنت الأمير العنيد ذو الرأي الصارم، والجبروت القاصم، أراك تبكي وتنحز في وضع سيء من أجل ضياع طفل؟

: أجل، أجل، إنه إبني وأغلى عندي من كل ما على الوجود.

-: إيه. . . طفل بدله طفل على إثر مبيت ليلة مع أمه.

: إخسأ أيها الخبيث.

-: آه. . . كانت «هَقْوتي» فيك أكبر مما أرى.

: ولكنه إبني، إبني ضاعَ من بين يدي بين عشية وضحاها.

-: هل تحبه إلى هذا الحد؟

: أجل، ومن منا لا يحب إبنه؟

-: أنسيت ما قلته لي قبل بضع سنوات عندما كنت أساوم منك نفسي للذهاب الى إبني.؟

: دعنا من هذيانك أيها المجنون.

-: لا تنزعج أيها الأمير إذا أخبرتك.

: وبماذا ستخبرني؟

-: إن ابنك بخير وموجود في يد أمينة.

: ماذا تقول؟ هكذا صرخ الأمير بأعلى صوته.

-: أقول إن ابنك على قيد الحياة وبيد حريصة عليه أكثر من حرصكم عليه.

: وقفز الأمير من مجلسه وجثم على ركبتيه بقرب شائع وهو يقول: أين هو؟ أين هو خبرني؟

-: هدىء من روعك وخذ مجلسك وسوف أخبرك.

: وتوجهت الأنظار فجأة إلى هذا السجين المهمل الذي استمر في كلامه، هدىء نفسك، وكن مطمئناً.

-: وانسحب الأمير إلى مجلسه مرة أخرى وهو يردد: أحقا ما تقول يا رجل إن ابني لا يزال حياً؟

: إنه حي وسليم وليس به غير العافية.

-: أين هو؟

: بمكان ما من هذه الأرض.

-: لا يهمني حتى لو كان في مطلع الشمس أو مغربها فلسوف أدركه.

: ولكنك لا تستطيع هذه المرة.

-: أنا لا استطيع، من سيمنعني؟

: ستجد من يمنعك إلا بشروط.

-: بشروط!! ويلك ماذا تقول؟

: أقول لن يعود إليك ولدك إلا بشروط.

-: من الذي سيملي على شروطه؟

: ذلك الذي بيده زمام الأمر.

-: ويلك، أخبرني أين ولدي، وإلا قطعت رأسك بهذا السيف.

: إن لم تكن حريصاً على حياة ولدك.

-: قاتلك الله، ماذا تقول؟

: أقول إن أول هذه الشروط ألا تمسني بأذى.

-: يقفز الأمير ويمسك بتلابيب شائع وشعر لحيته الكثيف وشعر رأسه المسبل وينفضه بين يديه بعصبية وهو يقول أخبرني، أخبرني يا حقير.
: قلت لك إن سلامة ولدك مرتبط بسلامتي فإذا تريد أن أخبرك فعليك أن تبتعد عني.
-: وينهض الأمير متثاقلاً ويجلس في مكانه متحفزاً وهو يقول: هاه. . . لقد أبعدت عنك، أخبرني!!
: يجب أن تطلق قيدي في الحال.
-: أتريد أن تخدعنا بحيلتك لتهرب من قبضتنا؟
: قلت لك إن الشرط الثاني هو أن تطلق سراحي.
-: ومن يضمن بقاءك؟
: كما تعرف أنني لا أستطيع المشي فضلاً عن الركض إثر سنوات السجن التي قضيتها عندك، فعليك إطلاق سراحي وعند ذلك يمكنني أن أتحدث معك.
-: أين ابني أولاً؟
: أطلقني وسأخبرك عنه.
-: أرسلوا للحداد فاليأت الآن، وجاء الحداد فأمره أن يقطع الحديد عن يدي شائع ورجليه حيث جلس بكامل حريته وقال:
: الآن، أستطيع أن أتكلم.
-: أخبرنا، أخبرنا، يقول الأمير ذلك، وهو يتجرع ريقه ممزوجا بمرارة القهر لاطلاق السجين، وحرارة اللوعة لفقد الصبي.
: يقول إبني الذي أخذ ولدكم أن أول شروطه لاعادة ابنكم هو أن أعود إليه معززاً مكرماً على أفضل هيئة، والشرط الثاني أن يكون معي مائة ناقة وضحاء بين الثنية والرباعية ومعها الفرس الفلانية والحصان الفلاني.
-: يطرق الأمير برهة ثم يستأنف، ماذا تقول؟
: أقول ما سمعت.
-: من هو ابنك؟
: إبني عميرة، ذلك الذي حاولت عدة مرات أن تطلقني لرؤيته وتربيته.
-: هذه الفعلة لا يفعلها غير صناديد الرجال، أما ابنك فصبي صغير.

: إبني، له من العمر إثنا عشر ربيعاً، ويفعل ما يعجز عن فعله بعض الرجال.

-: هل أنت صادق فيما تقول؟

: كل الصدق أيها الأمير، فإن كنت تريد إبنك فنفذ ما أقوله لك.

-: هـذا أنت واطلقنا سـراحك وسنحملك إليـه ومعك مئـة نـاقـة وضحـاء من أذوادنا، أما الخيل المذكورة فهي عسيرة المنال لأن الفرس لـدي الشيخ فـلان وهو فارس مغوار لا يقف أحد في وجهه، وكذلك الحصان الفلاني لدى شيخ شجاع يلتهم الجموع ولا سبيل للوصول إليه، وهذا المطلب عسير جداً.

: يبدو أنك لا تحرص على ولدك.

-: دع عنك هذا الكـلام الرخيص يـا بن مرداس، فـالأمر ليس بـالسهولـة التي تتصـورها، إن فـلانا لن يبيـع جواده بـأي ثمن من الأثمان، وكـذلك فـلان لو وزنت حصانه عشر مرات ذهبا لما باعه.

-: فكر بالطريقة التي تحصل بها على هذين الجوادين.

: ليس هناك غير الحرب، وهذا يتطلب وقتا طويلاً قد أربح فيها وقد أخسر.

-: وولدك!؟

: هل من سبيل في استبدل هذين الجوادين؟ لنعطيه عن كل واحـدة منها عشـراً من أصائل الخيل.

-: لا أظنه يقبل حتى لو أعطيته عن كل واحدة منها عشرين.

: لنعطيه خمسين جواداً من كرائم خيولنا مع مئـة من النياق الـوضح وتعـود إليه معززاً مكرماً.

-: وماذا على كلامك هذا؟

: عليه عهد من الله وميثاق.

-: ألا تخونني حاضراً ومستقبلاً.

: عليـك أمان من الله، أنـه لن يأتيـك منى أية خـائبـة خفيـة أو بنيـة مـا وفيت بعهدك.

-: ومن يكفلك؟

: يكفلني وجوه قومي من مختلف القبائل في أمارتي ومنهم أناس من قبيلتك.

-: أتكلفونه أيها الرجال؟

: نعم، نكفله ونضمن منه الوفاء لما عهدناه منه.

-: إذا، دعوني أسمعكم هذه القصيدة أولاً.

: هات، لافض فوك.

١	أَخَذْتْ ثِمَانْ اسْنِينْ فِي حَبْسْ خَيِّرْ	وَالتَّاسِعَةْ جَانِي صِدُوْقَ الْفَعَايِلْ
٢	جَانِي غُلَامٍ مَا بَعَدْ خَطْ شَارِبُهْ	وَلَا قَطْ فِي قَلْبُهْ مَنَ الْخَوْفْ جَايِلْ
٣	وْدَنَّقْ عَلَيِّ مَضْنُونْ عَيْنِيْ وَاحَبَّنِيْ	وِدْمُوْعْ عَيْنُهْ فَوْقْ وَجْهِي شَلَايِلْ
٤	وَانَا الْحَدِيدْ بْسَاقْ رِجْلِيْ مْغَلَّقْ	وَالرِّجِلْ كَلَّتْ مِنْ شُيُوْلَ الْحَبَايِلْ
٥	تِعِيْشْ يَا شِبْلٍ سِطَى لَيْلَةَ الدِّجَى	عَلَى وَلَدْ شَيْخٍ عَمَلْ بِي هَوَا بِلْ
٦	سِطَى وْجَابْ الْوِرْعْ مِنْ رِبْعَةَ أُمُّهْ	مِنْ حِضِنْ زَيْنَ اللَّوْنْ شَقْرَا جِدَايِلْ
٧	هَدَيْتُهْ عَلَى دَرْبٍ صِعِيْبٍ وَلَاهِفَا	وْجَابْ الَّذِيْ ضَجَّتْ عَلَيْهَ الْقَبَايِلْ
٨	سِطَى وْزَمَّ الْوِرْعْ مَرَّنْ وَاحَبِّنِيْ	وْجَلَى عِنِي مِرٍّ عَلَى الْكَبِدْ جَايِلْ
٩	وْشَالْهْ عَلَى قَطَّاعَةْ الرَّيْدْ وَجْنَا	مَا يَلْحَقْنَهْ مْنَاتِلَاتْ الْجَدَايِلْ
١٠	وَاقْفِي عَلَى الْوَضْحَا كَمَا الْهِيجْ وَصْفَهْ	تْشَادِيْ لْهِيجٍ مِنْ شِفَا الرِّيحْ زَايِلْ
١١	وْطَلَبْ ثِقِيلَ الرُّوزْ وِضْحٍ فِطَايِرْ	وُضْحٍ رِبَنْ بِدْيَارْ زَوْبَعْ جَلَايِلْ
١٢	وْيَطْلِبْ جِوَادَيْنِ مَنَ الْخَيْلْ غَيْرِهِنْ	يْعَرْفِ إِنْهِنْ مِنْ مِكْرَمَاتْ الاَصَايِلْ
١٣	وْعَيُّوابِهِنْ زَوْبَعْ عَلَى وَاضِحَ النَّقَا	وْصَكُّوا قِفَاهِنْ مِقْحِمِينَ الذَّبَايِلْ
١٤	مِنْ عِقِبْ مَانِي حَافِي الرِّجِلْ عِنِدَهُمْ	جَوْنِيْ بَعَدْ ذَلِكْ يِبُوْنَ الْجَمَايِلْ
١٥	يِعِيْشْ ابِنْ مِرْدَاسْ تَقَاضِيْ بِمَطْلَبُهْ	مِنْ الْخَيْلْ وَايْضَا مِنْ كِرَامَ السَّلَايِلْ
١٦	مِنْ عِقِبْ مِشْبَارِيْ ضِهِيْدٍ بَبِيْتَهُمْ	الْيُوم يَصْلَى كْبُوْدَهُمْ بَالْغَلَايِلْ
١٧	أَخَذْ ثَارْ أَبُوْهْ وثَارْ عَمُّهْ وْعِزْوِتُهْ	وْثَارِيْ وْطَمَّنْ رَأْسْ مِنْ كَانْ طَايِلْ
١٨	عَسَى غُلَامٍ مَا فَعَلْ فِعِلْ وَالِدُهْ	تْسَفَى عَلَيْهِ مْسَهْسَهَاتْ الرِّمَايِلْ
١٩	وْيِعِيْشْ ابنْ مِرْدَاسْ مِنْ مَرْقَبْ الْعِلَا	رْفَاعْ الْمَبَانِي مِنْ كْبَارْ الْحَمَايِلْ
٢٠	قَرْمٍ نَفَلْ بَالْفَوْزْ مِنْ زَايِدْ السَّطَرْ	وَابُوْهْ وْجَدَّهْ مْخَضِّبِيْنَ السَّلَايِلْ

-: إذا يجب تجهيز كل شيء والمسير به اعتباراً من يوم غد.

: نخشى أن يكون في الأمر خدعة يا بن مرداس؟

-: وهل حاولت خداعكم مرة واحدة منذ ما يزيد على ثمان سنوات؟

: لا ، ولكن أين يوجد ولدنا الآن؟

-: بحوزة إبني بديار قومه، وبينكم وبينه من سيحول دون الوصول إليه.

: ما هو البرهان على ذلك؟

-: أرسلوا من تثقون به وأوصيه فيأتيكم بالخبر اليقين إن كنتم لم تثقوا بكلامي.

: الرجل يتكلم بلهجة الواثق أيها الأمير، هكذا تكلم أحد رجال الأمير.

-: إيه، ولكن كيف أستطيع الصبر عن إبني لبينما يذهب المندوب ويعود؟

: مادمت كذلك إيها الأمير فعليك أن تعد العدة من الآن ونذهب لاحضاره فلا يمضي وقت قصير حتى أتيناك به.

-: من تقدم رهينة يا بن مرداس؟

: أنا أكفله أيها الأمير، هكذا تقدم أحد أفراد قبيلة شائع الموجودين بالمكان.

-: مادمت ستضع ابنك رهينة بعودة إبني فلا بأس من ذلك.

: رقبتي هذه تحت تصرفك أيها الأمير حتى يعود إليك ابنك.

-: اتجازف بنفسك؟

: نعم، لثقتي بوفاء شائع.

-: أذا، عليكم إعداد ما يلزم من تجهيز الحملة والحماية اللازمة لها، وإعطاء شائع كسوة مما ألبس أنا وكسوة لعياله من أفخر الملابس، وإعطائه من النقود والطعام ما يكفي لأهله وقومه.

: حاضر «**ياطويل العمر**» هكذا يجيب الأمير أحد رجاله.

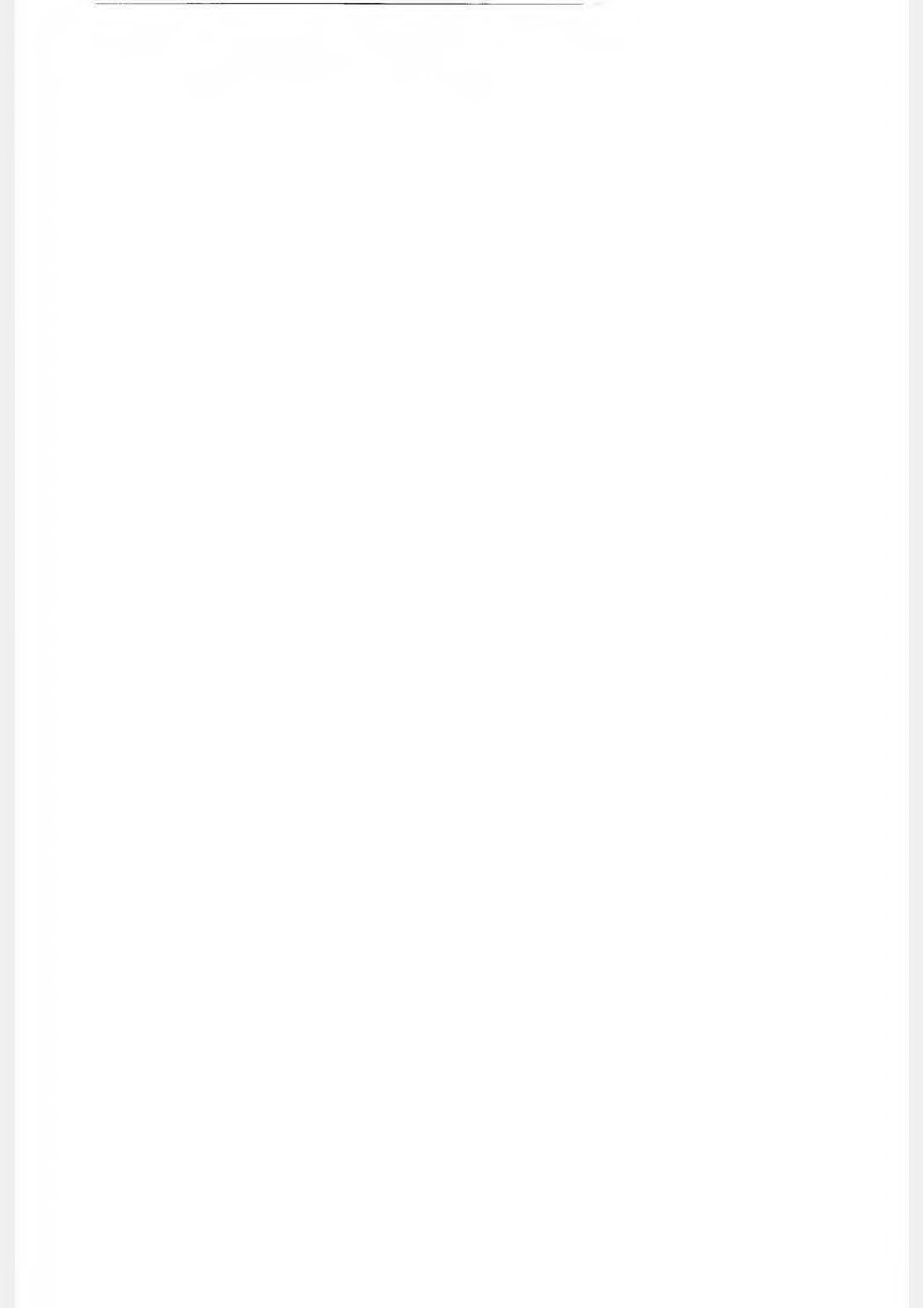
وبعد يومين أصبح كل شيء على أهبة الاستعداد، وسارت الحملة والإبل والخيل تحميها قوة كبيرة من الرجال المسلحين يمتطون ظهور مطيهم، وعلى رأسهم شائع يمتطي كور تلك النجيبة مزهوا بملابس الأمراء كالجوخ الأحمر وغيره تغمره فرحة عارمة وترفعه معنوية عالية، يحس معها أن رأسه يكاد أن يلامس السماء، يستحث الخطى وبوده لو يطوى الأرض طيا، ولكن المسافة الطويلة أبت عليه أن تنقطع إلا بعد مرور نيف وعشرون يوماً بلياليها، أطلت بعدها القافلة على حي الشيخ شائع حيث سبقهم البشير قبل ثلاثة أيام ليزف البشرى إلى أهل شائع

وجماعته، وحينما أطلت القافلة على الحي تلقاها فرسان القبيلة لاستقبال الشيخ شائع وعلى رأس هؤلاء الفرسان ابنه عميرة الذي انقذ والده من الأسر، وعند اللقاء تماسكت الأيدي، وتعانقت الصدور، وتصافحت الخدور، وانهالت القبلات مع جمل الترحيب المتدفقة من كل شفة، وعبارات الثناء المنهمرة من كل لسان حتى وصلوا إلى المكان الذي أعده عميرة لاستقبال والده استقبال الأبطال، مما دهش رجال الأمير الذين قدموا مع الحملة، وماإن أخذ القوم مجلسهم الذي يتصدره شائع حتى جاء عميرة بالصبي الصغير، وسلمه إلى عقيد القوم قائلاً «يَاأَمَانَةُ لله عَلَيْك الله» وكان الصبي يتمتع بصحة جيدة.

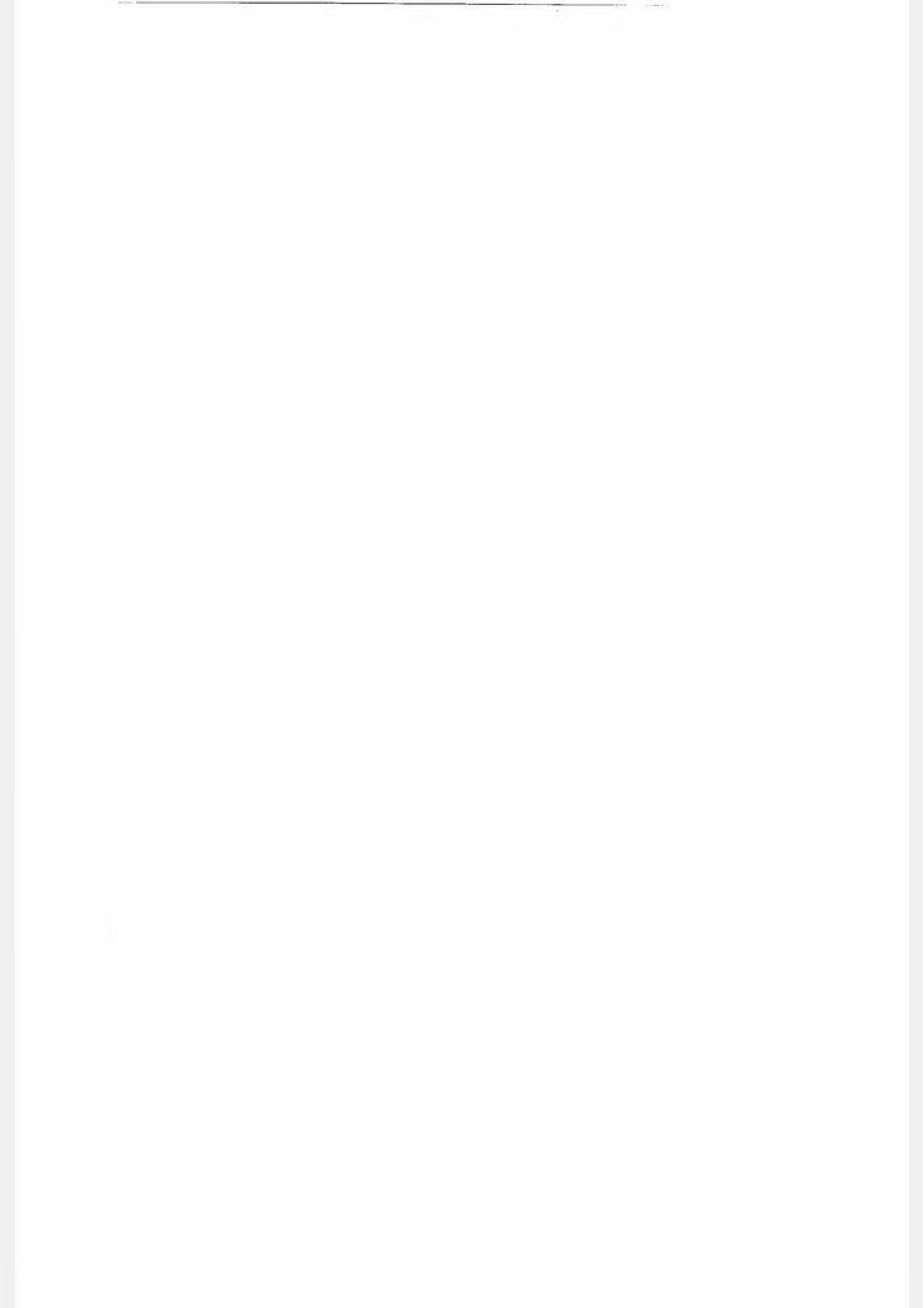
وعندما استوى شائع في مجلسه قال: أتدرون ماذا قلت في إبني عميرة؟ قالوا: لا، قال استمعوا ما قلت: وأتى بالقصيدة، وعند انتهائها ضج المجلس بكلمة صدقت، صدقت يا بن مرداس.

وبعد أن مكث رجال الأمير ثلاثة أيام محلاً للحفاوة والتكريم عادوا بالصبي إلى أهله ومعهم حماية مسلحة من عشيرة الشيخ شائع حتى قربوا من أهلهم وبقي شائع في عشيرته.

* * *



قصة رقم (٢)



الصدفــة الســارة

ما إن مالت الشمس عن سمت الرأس حتى غشيتها سحابة من الغبـار العالق في طبقات الجو العليا. فبدت وكأنها الكرة الفضية تترنـح في كبد السـماء، ولم يقل الضوء المنبعث منها فحسب بل قل الدفـء الذي ينعم به أولئك الركب الضاربـين في بطن تلك المفازة المترامية الأطراف، وعند ذلك أدى هؤلاء الركب صلاة الظهـر والعصر جمعا وقصراً ولاذوا بأكوار مطيهم علهم أن يقطعـوا جزءاً من هـذه البيداء قبل أن يضفي عليهم الليل سدله ولعلهم أن يجدوا في طريقهم من يضـوون عنده تلك الليلة ليقيهم شر بـرودة الصحراء القـارسة، وبـدءوا يحثون مـطيهم بلكدهـا بالاعقاب حينا وتناولها بأطراف عصي الخيزران الدقيقة أحياناً أخرى هذا ديـدنهم إلى أن أضفى الليل ستاره على الكون ولم يروا أو يسمعوا أو يشمـوا أي شيء يدل على وجود أحد يضيفونه تلك الليلة، عند ذلـك عقدوا العـزم على أن يستمـروا في مسيرتهم حتى يجدوا مكانا فيه شيء من الحطب ليجمعـوا منه مـا يدفئهم في ليلتهم تلك، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى قال أحدهم:

-: أيها الرفاق، أتشمون ما أشم؟

: لا، إننا لا نشم شيئاً.

-: إنني أشم رائحة دخان نار.

: أنت أقوانا في حاسة الشم.

-: هذه رائحة النار التي لا تخفى.

: في أي إتجاه تشمها؟

-: إنها إلى الشرق عنا تفوح وتختفي مع نسمات الرياح الباردة.

: يا الله ، ما أطيب رائحتها والله لكأنها رائحة بخور العود الهندي .

-: إيـه لا شك في ذلـك، إذا كانت رائحـة كومـة من جذوع الـرمث أو جـذوع الأرطى .

: جذوع الأرطى أقرب للصواب وذلك لقرب النفود منا .

-: إيه، يمكن أن تكون ناراً لمجموعة من الرعيان أو المسافرين مثلنا .

: لا ، أيها الرفاق، إنني أشم رائحة القهوة وقد بَنَّت وغطت رائحة الدخان .

-: إذا كان هناك رائحة قهوة فالأحرى أن يكون هناك فريق من العرب حولنا .

: أتريد عربا في هذا المكان؟

-: ولمه؟ إن أحياء العرب منتشرة في كل مكان .

: لماذا لا نتوجه إليهم؟

-: وإن كانوا رعاة أو مسافرين .

: حتى لو كانوا كذلك فلا أقل من أن نستأنس بوجودهم .

-: هل توافقون أيها الرفاق؟

: الرأي رأي عقيدنا، ماذا تقول يا أبا نائف؟

-: الرأي ما رأيتم أيها الرفاق، ففيه البركة والسداد .

: إذا ، دعونا نتوجه إلى هناك .

-: على بركة الله .

: لقد مشينا مسافة لا بأس بها وانقطعت عنا رائحة النار .

-: إيه ، قد تكون ناراً اشعلت ثم خبأت .

: لا ، أيها الرفاق قفوا قليلاً .

-: وماذا تريد حتى لو توقفنا؟

: إننى أسمع صوتاً وكأنه نباح كلب .

-: إذا صح ما تقول، فإن العرب غير بعيد عنا .

: إسكتوا، إسكتوا. صه، صه .

-: هذا صوت نباح الكلب، وهذه رائحة النار أشعلت من جديد .

: إذا لابد أن تكون منازل العرب بقربنا .

-: عليكم بالمسير، لماذا لم نصَلِّ المغرب، لقد قارب وقته على الانتهاء؟
: سنصلي المغرب مع العشاء عندما يستقر بنا المقام عند مضيف نصله أو مكان فيه حطب ننزل فيه.
-: أبشروا أيها الرفاق.
: ماذا ترى؟
-: إنني أرى بصيص ضوء النار تلوح وتختفي من بعيد.
: قد تكون ناراً في وسط عنة أو بيت شعر.
-: إنها غير بعيدة عنا.
: لنجعلها صوب أعيننا.
-: لقد فاحت رائحة القهوة من جديد.
: إذا، أبشروا بالمعازيب الكرماء.
-: هاه، لقد اقتربنا منهم، إنهم فريق كامل من العرب، هذه رائحة معاطن الإبل ومرح الغنم وهذا صوت حنين الابل وثغاء الغنم.
-: ترى من هم سكان هذه الأرض؟
: كما تعرف نحن الآن في أرض قبيلة شمر ولكن قد يسكن في هذه الأرض غيرهم للاستفادة من كلئها.
-: دعونا نتوجه إلى صاحب تلك النار الكبيرة.
: نعم، نعم، بلا شك إنه أمير العرب. هكذا يقول عقيد الركب.
-: عليكم باتيان البيت من أمامه.
: أنيخوا مطيكم بعيداً عن البيت بمسافة كافية.
-: أمرك أيها الأمير.

وأناخ الركب مطيهم بقرب بيت الأمير، وما إن وطأت أقدامهم الأرض حتى خف صاحب البيت واستقبلهم مرحبا بهم، واشتغل كل واحد من الركب بعقل مطيته وانزال قشاطهم فتقدم المضيف وطلب منهم ترك ذلك لمن يقوم بالعمل عنهم ودعاهم إلى الإسراع إلى قرب النار ليتدفأوا عليها، وهكذا فعلوا حيث وضعت كمية كبيرة من الحطب على النار فارتفع سناها وتطاير شررها ودنا منها الركب

يلتمسون الدفء تغمرهم جمل الترحيب الفياضة المتدفقة من لسان المضيف، حيث وجدوا هناك ضيوفاً قبلهم، وأديرت عليهم القهوة من الطبخة الجاهرة بينما شرع عامل القهوة في حمس طبخة جديدة للضيوف الجدد وتبودلت الأحاديث بين الضيوف القدامى ومن جاءوا بعدهم عن عدد في الأمور التي تهم المسافرين عن طريق كل منهم وما رأوا فيه من طيب المرعى أو عدمه، والمعالم التي مروا عليها، والموارد التي وردوها أثناء مسيرهم والوجهة التي قدموا منها والمتجهين إليها، وغير ذلك من الأخبار، وبينما هم في أحاديثهم تلك إذ دعاهم المضيف للتقدم إلى مائدة الطعام المعدة للضيوف السابقين قائلاً :-

-: تفضلوا حياكم الله، لقد عمت البركة عندما حضر هؤلاء الضيوف المتأخرين وأدركوا عشاء ضيوفنا القدامى، وإن كان حقهم في دور التجهيز الآن ولكن ليشاركوا أصحابهم في عشائهم حتى يجهز عشاءهم.

: فقام عقيد الركب المتأخرين، وأمسك برأس المضيف وقبل جبينه قائلاً: بارك الله فيك أيها الجواد الكريم، لم تأت بتقصير ووالله لن يجهز لنا عشاءاً غير هذا، هذا يكفينا مع رفاقنا بل ويكفي سكان النزل كلهم.

-: هذا حق من سبقوكم، أما حقكم فهو بالباقي.

: يحرم علينا أن نذوق شيئاً غير هذا الذي أمامنا أيها المضياف الكريم.

-: «عَوْذَا» لا تحرِّم، لا تحرِّم، وإن لكل منكم حقا يجب أن يأخذه.

: أبقاك الله، وأدام عزك **«الحال من بعضها وعشاء الواحد يكفي الاثنين»** لم تأت بتقصير في شيء، وهذه حبة رأس ثانية راجياً أن لا تفعل أكثر مما فعلت.

-: مادام هذا رأيكم، إذا تكون غداء لكم في الصباح الباكر.

: نحن سنسرى هذه الليلة.

-: لن تبرحوا مكانكم في هذه الليلة الباردة ستمرحون هنا وسنعمله لكم غداء في الصباح.

: أرجوك ألا تفعل.

-: لقد ذبحت الذبائح وانتهى كل شيء.

: إيه، كثر الله خيرك، إنك لمضياف كريم.

ووسط عبارات الترحيب المنهالة من فم المضيف طعم الضيـوف ثم عادوا إلى مجلسهم قـرب دلال القهوة، وأديـرت القهوة عـدة مـرات قبـل أن يغشى الكـرى أجفان القوم عند ذلك تفـرقوا في «رُفَّـةِ» البيت ونامـوا وقبيل أن ينسـاب النوم إلى العيون قال أحد الركب لصاحبه.

-: بارك الله بأنفك يا أخا فلانة.

: في أنفي!!؟

-: نعم في أنفك أما ترى فضله علينا.

: لم أفهم ما تعني.

-: أعني أنه لولا قوة حاسـة الشم عندك لبتنـا هذه الليلة في العـراء ولحرمنـا هذه النعمة التي تفضل بها هذا الجواد الكريم وهذا الدفء الذي ننعم به الآن.

: آه، لقد فهمت، لقد فهمت، ترى من يكون هذا الجواد الكريم!

-: إنني لا أعرفه غير أنه شمري واسمه الشيخ ثويثي.

: قد يكون الشيخ ثويني بن قشعم.

-: قد يكون، إننا بأرضهم.

: والله لقـد خطر ببـالي أن أسـأل الضيـوف الـذين سبقـونـا عن اسمـه ولكنني استحيت.

-: على كل حال لقد أكرمنا الرجل غاية الاكرام دون أن يعرفنا أو نعرفـه، ويبدو أن هذا دأبه للناس جميعاً.

: هذه صفاة الكرماء.

-: غريب!!

-: لماذا تستغرب وأنت في أرض قوم قد اشتهروا بهذه السجية.

: أستغرب أنه سيعمل لنا عشاءاً آخر غير الذي قـدمه للضيـوف الذين سبقـونا إليه.

-: لقد اعتبرنا ضيوفا جدداً ولنا حق يختلف عن حق من سبقونا.

: كثر الله خيره، ألا ترى عقيدنا قد حال دونه ودون ما عزم عليه.

-: لم يحل، بل إن الـرجل قـد بادر بـذبح الـذبائـح وكلما في الأمر أنـه أجلها إلى الصباح.

: وماذا سيفعل بها الصباح؟

-: ماذا سيفعل بها!! سيقدمها لنا مع طلوع الشمس.

: ومن قال لك هذا؟

-: أما سمعته يقول نجعلها لكم غداءاً؟

: ولكن الغداء يتأخر.

-: ستطلق ريقك عليها مع طلوع الشمس إن صدق ظني.

: أكثر الله من خيره وأعانة على استكمال هذه السجية الحميدة.

-: تصبح على خير.

وما إن حان موعد صلاة الفجر حتى أذن المؤذن وتجمع الرجال من بيوت الحي المتناثرة هنا وهناك في مثانى تلك العروق الرملية المنقادة من الشرق إلى الغرب والمتقاربة فيما بينها وبعد صلاة الفجر ارتفعت ألسنة لهب النار وتحلق الرجال حولها، وتولى عامل القهوة حمسها ثم سحقها وغليها ثم إدارتها وبعد أن تناولوا القهوة استأذنوا المضيف لمواصلة سيرهم لكنه أبى عليهم وطلب منهم أن يتريثوا لبعض الوقت قائلاً:

-: عليكم أن تتريثوا قليلاً.

: إننا نريد أن نصل إلى هدفنا في وقت مبكر.

-: أوه، لا يزال الوقت بارداً، فالأرض يغطيها الصقيع وهذا يؤذي أخفاف ركابكم.

: لقد تعودت على تقلبات الجو من البرد والحر.

-: إيه، ولكن الصقيع يشقق أخفاف الابل.

: سيقيها الله منه.

-: لن تذهبوا من هنا حتى تتناولوا طعام الإفطار.

: طعام الافطار!!

-: لقد أفطرنا بشيء من التمر مع القهوة.

: لا، لا، هناك فطور بسيط وهو عشاء رفاقكم الذين جاء والبارحة متأخرين، أنسيتم ذلك.

-: أوه، أغناكم الله، وهل عزمتم على كلامكم؟

: منذ البارحة.

ولما بسطت الشمس أشعتها على الأرض قدمت صواني الطعام المتوجة بالخراف ووسط كلمات الترحيب طعم القوم وودعوا مضيفهم على عجل وامتطوا ظهور نجائبهم وكل منهم قد ضرب إلى وجهة معينة يحمل بين جوانحه أجمل الذكريات لمضيفهم تلهج ألسنتهم له بالثناء العطر وكل منهم يتحدث عن كرمه كلما كان هناك مجال للحديث.

وما كاد القوم يتكاملون في منتداهم ينتظرون مجموعة من المسافرين قد أتوا لتوهم من أماكن متعددة ليدلي كل واحد منهم بما شاهد في سفره ذلك من مصادفات السفر وتضاريس الأرض ومايكسوها من الحشائش والأعشاب أو من مرعليه في طريقه من كرماء العرب الذين يقرون الضيف وعابر السبيل، ولما وصلوا استقبلهم الحاضرون بحرارة وتسمرت نظرات الحاضرين إلى وجوههم وارهفت آذانهم متلهفين إلى سماع الجديد من الأخبار، وخاصة ما يتعلق بأخبار الأمطار والربيع وكان أول المتحدثين رجل يوثق بكلامه حيث قال: -

-: أعتقد أن ما يهمكم بالدرجة الأولى هي أخبار الربيع؟

: نعم، نعم، بشرنا بما عندك؛ وكانت هذه الاجابة شبه جماعية.

-: لقد وطئنا في طريقنا هذا أرضا يرجى منها خيراً وهي على عدة مستويات من حيث غزارة النبت وريه من المطر وصلاحيته للرعي.

: ما أحسن مكان مررتم به؟ يقول ذلك كبير القوم.

-: لقد مررنا بأطيب أرض وهي من الجبل الفلاني غرباً وحتى منحني الوادي الفلاني شرقا، فهذه أرض طيبة تشبع بها الأغنام ويتعشى فيها الحاشي.

: ما شاء الله، تبارك الله، أنزل الله فيها البركة.

-: ويبدو أن المطر قديم عنها.

: وما يدريك؟

-: لقد نزلت من على مطيتي وحفرت الأرض بعصاي فلم أجد ثرى المطر الأعلى عمق حوالي الذراع.

: إيه، عسى الله أن يتبع له بالمطر العاجل.

-: إذا جاءه مطر مع دخول «السِّماك» فسوف يكـون هناك الـربيع الـطيب بإذن الله.

: إيه، عسى الله أن يفزع له بالغيث فقد يكون من نبت «الوسم».

-: بلا شك إنه من نبت الوسم.

: بماذا عرفته؟

-: عرفته في بوادر براعم الأزهار و«الزماليق» وقد تهيأت للارتفاع والتفتح.

: معك حق، لا شك إنه من نبت الوسم، وماذا بعد ذلك؟

-: بعده يأتي المكان الفلاني من روضة كذا غربا إلى حدود النفود شرقا، وهذا قد نزل فيه المطر ونبت العشب.

: أوه، تلك أرض خصبة وطيبة المرعى، فلقد أربعنا فيها سنة من السنين مكثنا فيها فصلي الشتاء والربيع وجزء من الصيف.

-: بلا شك إنها أرض لينة ومنابت مراعي جيدة.

: هل مطر النفود؟

-: عهدها بالمطر قريب جداً.

: وما أدراك؟ ما عمق الثرى فيها؟

-: قريب جداً، يتبين من أثر المطلية.

: قد يكون ذلك أثر مطر خفيف أصاب الأرض؟

-: لا، فلقد نزلت عن مطيتي وحفرت ما يزيد عن الذراع فلم ينقـطع عني ثرى المطر.

: بشرك الله بالخير، هذا لا شك سيكفيه حتى دخول «السماك».

-: لو جاءته مطرة مع دخول السماك فسيكون من أجود المراعي.

: بلا شك، بلا شك ياأخي لقد جربنا تلك الأرض وعرفناها.

-: حقاً إنها أرض خصبة، لكن مشكلتها بعدها عن موارد المياه.

: أبداً، ليست بعيدة عنها.

-: وهل حولها مياه؟

: نعم، هناك الثمائل والركايا الغبر بعيدة عنها في منعطف الوادي عندما ينحني بقرب النفود على مسافة نصف يوم منها.

-: غريب هذا!! كيف لم أعرفها؟

: قد لا تكون سألت عنها، وأعلم أن هناك من المياه في تلك الركايا والثمائل في بطن الوادي المنجور من الجبال الفلانية والذي يجري من بين تلك الرياض والنفود وعند انحرافه بقرب النفود توجد المياه ولكنها في الواقع غير غزيرة فإذا كانت مواشي العرب غير كثيرة فيكفيها أما إذا كانت كثيرة فقد يشح عليها الماء.

-: لأول مرة أسمع عن هذا.

: وماذا بعد يا إبا فلان؟

-: بعده الأرض الفلانية، من حدود فيضة كذا وحتى بالقرب منكم.

: ما درجة نبتها؟

-: الواقع إن نبتها كثيف جداً لكنه صغير.

: صغير!!

-: نعم، من حيث الكثافة فوالله لو سحبت قطعة من اللحم على الأرض لما تتربت، ولكنه صغير يتكون من ورقتين أو ثلاث ورقات.

: إذا حديث عهد؟

-: نعم فالبهم يشبع فيه.

: إيه، بارك الله فيها أنزل وما عهده بالمطر؟

-: لا تزال الغدران تملأ مصامد الأرض، فالفيضة من الصعب احتيازها لرخاوة أرضها.

: إذا مطرها قريب.

-: قد يكون قبل ثلاثة أو أربعة أيام.

: لعله أن يكون من تلك المخيلة التي شاهدنا بروقها قبل ثلاث ليال.

-: ليس ببعيد هذا.

: لقد زودتنا يا أبا فلان بالأخبار السارة التي تدخل على النفس البهجة والسرور.

-: صدق والله الشيخ .

: يلتفت الشيخ إلى المسافر الثاني قائلاً: وأنت ماذا عندك يا أخا فلانه؟

-: إن لدي أخباراً تختلف عن أخبار الأمطار.

: تختلف عن أخبار الأمطار!! وما عساها أن تكون؟

-: إن الأمطار والمراعي ربيع للمواشي أولاً ثم ربيع للناس ثانياً، أما أخباري فهي على عكس ذلك .

: ماذا تقصد؟

-: أقصد ربيع الناس وفناء المواشي .

: أوضح ما تقول وبين ما تقصد .

-: أقصد ذلك الرجل الذي بذل ويبذل دائماً الغالي والرخيص في سبيل إقراء الضيف ومساعدة الفقير وعابر السبيل .

: من تعني؟

-: أعني الشيخ ثويني .

: ونعم، وألف نعم يا أخا فلانة .

-: هل مررت به في سفرتك هذه؟

: لا والله، فلم أعرج عليه .

-: وما يدريك عنه إذاً؟

: لقد صادفت في سفرتي هذه عدة مجموعات من الركبان من قبائل مختلفة وسمعت منهم الثناء العطر عليه .

-: قد يكونون مثلك يتناقلون الأخبار من غيرهم؟

: أبداً، فكل منهم قد مر عليه، فواحد يقول إنه بات عنده ولقي منه كل إكرام، والركب الثاني قد ضافوه مرتين متتاليتين والآخرون مروا به أذان الظهر فأبى عليهم أن يجتازوا مكانه فأمرحوا عنده ليلتهم تلك، وكل منهم قد لاقى منه كل حفاوة وتكريم.

-: إيه سلمه الله ذاك رجل قد اشتهر وعرفت طرقه .

: لقد رفع رءوسنا عاليا يا عم، صدقني إن بعض أولئك الركبان قد أعزوني وأكرموني بمجرد أن عرفوا لهجتي حيث اعتبروني أحد أفراد قبيلته .

-: وأنت بلا شك فـرد من أفراد قبيلتـه وإن لم تكن بالقـريب منه جـداً وإنما من أفراد القبيلة.

: صحيح، صحيح.

-: يا بني، لن يبقى للإنسان بين الناس في هذه الحياة سوى الذكر الطيب والثناء العطر.

: والله يا عم، لقد شعرت بنشوة تهزني عندما سمعت ثناءهم عليه.

-: بلا شك يا بني، فالإنسان قد يطربه الثناء عليه أو على من يمتون إليـه بصلة، ولكن قد يكون ذلك على سبيل المجاملة عندما عرفوا أنك من قبيلته؟

: أبداً، يا عم، فوالله إنني سمعتهم يتحدثون عنه فيما بينهم قبل أن يعرفوا أنني من قبيلته.

-: أحقا ما تقول؟

: وفوق ذلك، فقـد كنت جالسـاً في طرف المجلس، وعنـدما عـرفوني قـدموني وأجلسوني بجانب عقيد القوم.

-: أطال الله في عمر ثويني وبذر له الذرية الصالحة.

: وأنا أدعو له هذا الدعاء.

-: إنها لأخبار تنعش القلب، وترطب الوجدان، أن يسمع الإنسان أخبـار عطاء الله لعباده من الغيث الذي هطل على الأرض ونبت في مسحب أذيـاله كسـاء الأرض السندسي الموشى بأفواف أزاهير الربيـع، وما منحـه من سجية الكـرم لبعض الأجواد ليكون جودهم انعكاساً لجود الله في أرضه حيث امتدت أريحية هذا الكريم وأمثاله تقدم لعباد الله المحتاجين وعابري السبيل ما يحتاجون إليه أثناء سفرهم وقطع المفازات الشاسعة.

: أكثر الله من أمثال هؤلاء الأجواد.

-: إنهم كثر ولله الحمد يا أبنائي.

: ولكنهم ليسوا بدرجة واحدة.

-: بـلا شـك يـا بني، فهنـاك تفـاوت في كـل شيء، في الارزاق والأخـلاق والمواهب، والهبات وغير ذلك.

: هل تريدون مزيداً من الأخبار أيها الشيخ؟

-: أعطونا ما عندكم في غير هذين الموضوعين الذين تكلم عنهما صاحباكم.

وأدلى كل واحد من الحضور بما في جعبته من الأخبار حتى انهرس الليل ثم قام كل واحد إلى فراشه بعد أن داهم النوم جفنيه.

وفي منتصف فصل الخريف تطلعت الأنظار إلى مشارف الأفق علها ترى ومبض بارق «الوسم» وجاءت الأسئلة ملحة على الشفاه تسأل كل قادم عن أخبار الغيث ومر فصل الوسم وأعقبته أربعمانية الشتاء ثم شباط و«العقارب» ولم يذكر للمطر وقوع عدا شقائق ضيقة من الأرض أصابها الغيث ولكنه لم ينبت فيها شجرة واحدة ولم يبرض من أثر هذا المطر حتى الشجيرات البرية والحشائش المتناثرة في طريقه لم تستفد من هذا المطر، وسحب فصل الشتاء رداءه الفضي القارس على الأرض وأعقبه الربيع بلون ردائه الباهت المتمثل في لون حمرة الأرض وسمرتها عدا لمسات ذهبية من بقايا رمام الأعشاب الهامدة من العام الماضي والتي تطوق شجيرات الرمث وغيرها من الشجيرات الأخرى بفعل الرياح وهرعت المواشي تلتهم من بقايا تلك الأعشاب الهامدة تسفها سفا، ولم يحن فصل الصيف حتى تعرت الأرض من كل ما يستر جسمها من الغطاء النباتي عدا شجيرات الرمث بأغصانها العريانة، وضلت المواشي في فصل الصيف تأكل من شحومها التي اكتنزتها في أعوام الربيع حتى انصرم الصيف وانصرم معه اعداداً كبيرة من المواشي التي تمثل الثروة الرئيسية في بيئة الرعي واجتازت الابل فصل الخريف في آخر عزمها وبقايا قوتها بانتظار هطول الأمطار كالمعتاد، غير أن الشتاء قد داهمها بعد أن استهلكت شحومها ونشت لحومها وخليت عظامها من المخ، فبقيت أعداداً كبيرة من الابل جاثمة على الأرض بدون حراك حتى أصبحت طعاماً لبغاث الطير إلا ما كان محل عناية صاحبه، يطعمه من قوت عياله فهذا قد بقى على قيد الحياة، وبفناء الابل التي تعتبر العمود الفقري للمواصلات والتموين تأثرت حياة الناس وشحت الأرزاق لدرجة الندرة، وشغل الناس بفوت يومهم عما سواه، وكان ذلك محور حديثهم في نواديهم حيث قال الشيخ الذي تصدر المجلس ذات مساء:

-: هل جاء أحد اليوم؟

: لم نر أي مسافر قد مر بنا عدا من كانوا عندنا بالأمس.
-: إيه، الحمد لله على حسن تدبيره.
: له المنة والثناء على ما قدر.
-: آه، لقد سحقت هذه السنة ما في أيدي الناس من المواشي.
: لم تمر سنة مثل هذه السنة يا أبا فلان، أليس كذلك؟
-: بلى، بلى يا بني لقد مرت سنوات أشد منها.
: أشد منها!!
-: نعم يا بني، ولكنها بحمدالله تأتي متباعدة.
: ما هي أقرب هذه السنين التي تذكرها؟
-: هناك سنة تسمى «سَاحُوْتْ» فلقد سحتت ما في أيدي الناس وأصبحوا في عداد الفقراء المعدمين في سنة واحدة غير نسبة قليلة من التجار وأصحاب الثراء.
: متى كانت هذه السنة؟
-: قبل حوالي ثلاثين عاماً.
: إذاً الحمد لله الذي جعل هذه السنين الغبراء لا تأتي إلا في أزمان متباعدة نسبياً.
-: لله في تدبيره حكمة.
: لا شك في ذلك، ولكن لو أنها حدثت في سنوات متقاربة لقضت على حياة الإنسان في هذه الجزيرة العربية.
-: الله لطيف بعباده يا بني، ولكن هل سمعتم خبراً عن «الحَدْرَةْ» تلك القافلة التي ذهبت إلى العراق لاحضار الطعام.
: لم نسمع عنها أي جديد، غير أنها حسب المعتاد على وشك الوصول، قد يكون ذلك بعد يومين أو ثلاثة.
-: أوه، ذلك يا بني حينما كانت الابل نشيطة، كانت تقطع المسافة في خمسة عشر يوماً ذهاباً وإياباً.
: لقد تجاوزت العشرين الآن.
-: إيه، يا بني لكن الوقت قد اختلف، فمسيرة اليوم التي يقطعها البعير النشيط

لا يقطعها البعير الهزيل إلا في يومين أو ثلاثة .

: يعني هذا إن الحملة لن تصل إلا بعد مرور شهر من مغادرتها .

-: قد يكون ذلك والله أعلم يا بني .

: لماذا لا نرسل الحملة إلى غير العراق؟

-: هي أقرب البلدان التي نجد فيها احتياجنا من الأرز والقمح والشعير والتمر والملابس .

: لكن تمرها ليس بالجيد .

-: كما تعلم لقد أحضرنا حاجتنا من التمر من الأحساء، ذات التمور الممتازة في المرة السابقة، ألا تذكر ذلك؟

: بلى، أذكره تماماً .

-: لكن لا يوجد بالإحساء غير التمر وبعض الملابس فقط .

: إن البصرة لا تقل عن الأحساء في جودة تمورها .

-: نعم وبها كثير مما نحتاج إليه من السلع الضرورية والكمالية .

: أما الملبوسات والقمح فليس هناك أحسن من الشام .

-: أوه، الشام . . . الشام معروف ولكن عيبه البعد، أما سمعت المثل القائل «الشام شامك ليا من الدهر ضامك» لكن الابل لا تستطيع الوصول إليه يا بني في هذه السنة .

: من المفروض أن تذهب الحملة للمرة القادمة إلى الشام .

-: دمشق يا بني فيها من السلع النفسية ما يفتح النفس لكن الوصول إليها صعب الآن .

: لن تعجز الابل عن إحضار بعض البضائع الخفيفة من هناك .

-: إنني أخشى أن يذهب الجمل وما حمل!!

: لا تخشى يا عم، سيعين الله .

-: سننظر في الأمر اذا رجعت حملتنا بالسلامة .

: عسى أن يكون الناس قد أكثروا من الأرز العراقي «التِّمَّنْ» .

-: أوه، كل إنسان يرسل بقدر حاجته من السلع الضرورية التي يحتاج إليها من مواد غذائية وقهوة وهيل وملابس وأدوات وأواني بمقدار ما عنده من نقود، أما

أهل المضيف الذين يأوي إليهم الضيوف بأعداد كبيرة فإنهم يركزون على الطعام والقهوة والبهار دون غيرها .

: لقد أوصيت على حملين من الطعام وفردة من القهوة .

-: فردة من القهوة!! والله لو كنت ابن قشعم .

: إنني أخاف نفادها في وقت قصير فهذه الفردة قد تكفيني حتى يحين موعد القافلة الثانية .

-: إنك تحتاط لأمور بعيدة الحدوث يا بني .

: وإن يكن يا عم، أليست الحيطة واجبة؟

-: بلى، بلى، ولكن الله قريب الفرج ، ما بين طرفة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال .

: صحيح يا عم، ولكن هذا الدهر لم يترك خضراء ولايابسة إلا أحرقها .

-: إنني أعلم بذلك، ولكن فرج الله قريب .

: وهو أرحم الراحمين .

-: سأذكرك يا بني في سنة من السنين مضت علينا قريبة من هذه السنة وذهب الكثير من حلال الناس وكاد اليأس أن يدخل إلى نفوسهم بعد أن صاروا ينقلون بيوتهم للابتعاد عن رائحة جيف الأغنام التي تجثى بمرحها بأعداد كبيرة، ولما أراد الله اللطف بعباده انفرجت في خمسة عشر يوماً .

: في خمسة عشر يوماً!! الله قادر على كل شيء .

-: نعم يا بني .

: كيف حصل ذلك؟

-: راحت علينا في تلك الليلة مخيلة هلت شآبيب مطرها على السهل والجبل، ولما ارتوت الأرض أعقبتها سوقات من الديم تتعاقب بين الحين والآخر حتى دفئت الأرض وتتابعت الزخات تهتن من أذيال تلك المخيلة لمدة سبعة أيام متتالية لم نر فيها الشمس عشناها في خدر مستمر .

: يا الله!! سبعة أيام من المطر المتواصل!!

-: وبعد ذلك طلعت الشمس بعد أن أصبح العشب من ثلاث ورقات وأربع ،

فـوالله يا بني إنـه لم يمض خمسة عشر يـوماً حتى أصبحت الأغنـام تشبـع وقت الضحى .

: سبحان الله خمسة عشر يوماً بين الشدة والرخاء!!

-: لا عجب في ذلك يا بني فأمر الله بين الكاف والنـون، إذا أراد شيئاً أن يقـول له كن فيكون .

: جل شأنه وتعالت قدرته .

-: ولذلك فالعبد المؤمن ينتظر فرج ربه بين الحين والآخر .

: عليه الاتكال وله الفضل والثناء .

-: أما إن يدخر الإنسان من القوت ما يكفيه مدة طويلة فهذا شيء جميل، ولكننا كعرب رحل ما يضايقنا هو نقل مثل هذه الأقوات، فلو أردنـا غداً أن نـرتحل من مكاننا هذا إلى مكان آخر فهل ينقل الواحد منا بيته وأمتعته أم ينقل أحمال الطعام التي لا يستطيع تركها أو نقلها على مراحل .

: صحيح ، أما هذه فقد غابت عن بالي .

-: أيه، الإنسان يا بني يستفيد في كل يوم درساً من دروس الحياة كان خافياً عليه بالأمس .

: إنك على حق يا عم .

وما إن ارتفعت الشمس في كبد السماء حتى أقبل البشـير ينقل. أخبـار الحملة القـادمة من البصـرة، ومعها مـا أحضرتـه من الأرزاق والمؤن لعرب الشيـخ ثويني الذي جعل الأحمال الخاصة به من الطعام والقهوة والهيل دون سواها من السلع ولم تمض سحابة ذلك اليوم حتى رأيت علامات الاطمئنان ترتسم عـلى وجوه أربـاب الأسر وذوى المكانة والضيـافة الـذين يفد إليهم الضيـوف بصفة مستمـرة ولما خيم الليل تجمع الرجال حول مرافقي الحملة بعد أن أخذ هؤلاء قسطاً من الراحة طول يومهم وفي ذلك المجلس روى قائد الحملة ومرافقوه ما إعترض سبيلهم في ذهابهم إلى البصرة وما صادفوه بالبلد من أسعار السلع وبدءوا يعددون تلك السلع سلعـة سلعـة وسعرهـا بالسـوق ومما لفت الأنـظار إنخفاض أسعـار بعض السلع فتساءل الشيخ ثويني عن هذا الأمر موجها كلامه إلى قائد الحملة .

-: من الملاحظ أن بعض السلع رخيص هذه المرة يا عجلان.

: بلا شك أن هناك انخفاض بالأسعار بدرجة واضحة.

-: لكن البعض قد تمسك بسعره.

: قليلة هي الأشياء التي استمرت على ما هي عليه.

-: مثل ماذا؟

: مثل القهوة والهيل والسكر وبعض الملبوسات.

-: ما هو السبب؟

: السبب كما يذكر أحد التجار أنها تأتي من خارج البلد.

-: آه.. قد يكون ذلك صحيحاً.

: هذا عين الواقع، لأنهم يستقبلونها من الخارج على ظهور السفن والبواخر.

-: لم تذكروا لنا أسعار السكر.

: إنه غال الثمن هذه المرة وليس معنا «أسفار» للسكر إلا أن فلاناً قد أحضر شيئاً منه ولقد نسيت سعره.

-: إيه، السكر غير ذا أهمية يا بني، المهم «كيف النشاما».

: إنك صادق فيما تقول، فالقهوة هي المهمة، أما السكر فلا يعدو استعماله لأغراض بسيطة كمزجه مع بعض الأدوية لتخفيف مرارتها لاستعمال الأطفال.

-: وكم «محقانا» من السكر أحضر معه؟

: لا أدري، لست متأكداً ولكنها إثنين أو ثلاثة.

-: بارك الله له فيها، وما أخبار السلع الأخرى بالتفصيل.

: إنها رخيصة بعض الشيء خاصة منتجات البلد كالأرز والتمور والحنطة والشعير.

-: أحقاً إنها رخيصة؟

: نعم، هي مناسبة الثمن، وذلك لأنها من انتاج البلد ومكدسة عند التجار.

-: مكدسة!!

: إي والله وبكميات هائلة وكل تاجر يجذبك إلى محله ويطلب منك الشراء من عنده.

-: غريب هذا الأمر.

: وفوق هذا هناك تنافس في تخفيض الأسعار فكل واحد يريد أن يخصم لك من السعر.

-: لماذا لم تذهبوا إلى صاحب السعر الرخيص مادامت السلعة بنفس الجودة؟

: أوه، لا توصي حريصاً بهذا الأمر، لقد ذهبنا واستمر معنا التاجر في التخفيض حتى خجلنا منه.

-: إن هذا لأمر غريب!!

: لا غرابة في ذلك.

-: ما هو السبب يا عجلان؟

: يبدو لي أن قلة السحب من تلك الأرزاق هو الذي أرخص أسعارها.

-: قلة السحب منها؟

: نعم، ففي كل عام عندما نذهب إلى هناك نجد مجموعة كبيرة من الحملات تحمل في كل يوم لمختلف القبائل ولكل الاتجاهات.

-: وهذه السنة؟

: لاحظنا أنها قليلة لا توازي ثلث ما كانت عليه.

-: أين بقية الناس؟

: قد يكون الدهر تسبب في فناء إبلهم ولم يستطيعوا الحضور للبصرة للامتيار من هناك.

-: صحيح، صحيح ما عنيت، إنه المحل أعاذنا الله من شره وفرجها لعباده المسلمين إنه قريب مجيب.

: وحتى تلك الحملات القادمة للميرة من أماكن أخرى ترى الهزال واضحاً على الإبل فلا تكاد تنوض بأحمالها.

-: يعني أردأ من إبلكم؟

: أوه، إذا قارنا إبلنا بتلك الإبل فهي أفضل منها بعشرات المرات.

-: إيه، الحمدلله، إن إبل النفود لا تزال تجد من المراعي ما يجعلها أحسن حالاً من غيرها.

: لقد تعجبت يا عم من أرض العراق ومواشيهم، إنهم لم يتأثروا من هذا الدهر الذي فيه الناس.

-: سيذهب عجبك يا بني إذا تذكرت أن تلك الأرض تسقى من مياه الأنهار العذبة، وفي تلك المزارع الخضراء وبقربها تعيش المواشي فلا تشعر بالجوع.

: صحيح، ما تقول.

-: إيه، إنها دوماً في ربيع مستمر.

: وحتى منتجاتهم الزراعية لم تتأثر.

-: ماذا يؤثر عليها مادامت تلك الأنهار «عَطِيَّة الله» تجرى عليها دون توقف.

: أوه، إنها كالبحار الزاخرة تجرى فيها السفن والمراكب.

-: تلك بلد الخيرات يا بني.

: والبحر بجانبها أيضاً.

-: إنها البصرة الفيحاء، ما بين مصب هذه الأنهار ورأس هذا الخليج.

: قد تعتب علي ياعم بما سأقوله، لقد غبطت أهل تلك البلاد بوطنهم الذي تتوفر فيه كل مقومات الحياة.

-: لا عتب عليك يا بني، ولكن لكل واحد منا موطن يرتاح إليه وينعم به، إلا إذا كنت قد رغبت في حياة الحضارة؟

: الاستقرار طيب.

-: ولمن تترك هذا النفود؟

: هذا النفود!!

-: نعم، هذه الرمال الذهبية التي إذا أراف الله عليها واكتست مثانيها بثوبها الأخضر وتوشحت «براخيص» النفود بهذا الثوب السندسي أو تعطرت أعطافها بشذى الأزاهير كم تسوي عندك؟

: كم تساوي عندي!! إنها تساوي البصرة وما فيها.

-: حقا إنها غالية في قلوبنا جميعاً أما سمعت قول ابن عمك وسميك عجلان:

: وماذا قال:

-: يقول من قصيدة له:

٢١ الله عَلىَ دَوْرٍ لَـنَـا لَـوْ يِـرِدُىْ   مَشْىَ النُّفُـوْدْ وِمَجْضِعَهْ وِانْبِـطَاحَـهْ

: حقا إنه قد أصاب وأحسن.

-: إذا، كيف تغبط أهل ذلك البلد على وخمها ورائحتها على نقاوة هواء هذا النفود وطيب مسكنه؟

: حقاً ما تقول، إننا والله نكاد أن نختنق إذا دخلنا بعض الأسواق الضيقة المكتظة بالناس والحوانيت.

-: أما هذه البراري فإن الإنسان يشعر بالعافية تملأ جوانحه بمجرد أن يعيش فيها.

: ولكنها، ولكنها. . .

-: ماذا تريد أن تقول يا بني؟

: أقول لكن أرزاقها شحيحة، وجلبها متعب من أماكن بعيدة.

-: ذلك ألذ لطعمها، وأطيب لنكهتها، وأحلى لمذاقها.

: صحيح ما تقول.

-: وهل ذقت أحلى طعماً من التمر في البر؟

: بالطبع لا.

-: هل ذقت أطيب رائحة وألذ طعماً من القهوة المعمولة بالبر على جمر الحطب؟

: يا الله!! ما أطيبها وألذها!!

-: أما سمعت بيت سميك من قصيدته آنفة الذكر؟

: لا والله، ماذا قال؟

-: يقول:

٢٢ طُلُوْقْ رِيْقَـكْ مِنْ حَـلَ مَـا يْمَـدَّيْ وْبَـرِّيَّـةٍ رِيْحَـهْ عَـلَى الجَمْـرَ فَـاحَـهْ

: لقد أبدع والله، ولن يدرك معنى قوله إلا من جربه.

-: هذه الأمور يا بني يطول الحديث عنها فدعها إلى وقت آخر، وأخبرنا عن بقية أخبار الرحلة.

: الحقيقة أننا تعبنا في طريق العودة من رحلتنا تلك، حيث تعبت علينا الإبل، ولكني تصرفت إزاءها.

-: كيف تصرفت؟

: لقد اشتريت خمسة أحمال من التمر الوسط ووضعت فوق كل حمل بعير صهرة

منه. بحيث إذا أمرحنا في الليل وضعنا في فم كل بعير كتلة مما على ظهره من التمر يمضعها وتجتربها مع علفه لتنشطه لمسيرة اليوم التالي.

-: يعنى نفّعت الإبل؟ حسنا فعلت يا بني حسناً.

: لو لم نتخذ هذا الاجراء لثوث الابل باحمالها ولم تستطع حراكا ولربما هلكنا معها.

-: الحمدلله، الذي هداكم لهذا التصرف السليم.

: مع العلم أن بعض الرفاق لم يوافقوا على ذلك.

-: إن هذا خير ما فعلت، ولولا أننا واثقين من تصرفك السليم لما اخترناك لقيادة الحملة.

: الحمدلله الذي أتمها بخير.

-: له الحمد والثناء.

ومرت الأيام حتى حان موعد إرسال الحملة الثانية التي كانت هذه المرة أقل عدداً من سابقتها، وأبلها أضعف حالاً كذلك مما يجعلها أبطأ في سيرها للذهاب والإياب وأقل كمية من الأحمال في حالة عودتها سالمة، في هذه الأثناء شح كل شيء مما أقلق الشيخ ثويني حين قال:

: إن أشد ما يقلقني في هذه الأيام قرب نفاد القهوة من عندي هذه المادة التي لا غنى عنها.

-: هل نفد ما عندك؟

: لم ينفد بعد، ولكنه لا يكفيني حتى تعود الحملة.

-: إنها مادة مهمة.

: مهمة جداً، صدقني أنني إذا لم أقدم القهوة للضيف فكأنن لم أقدم له طعاماً ولا شراباً.

-: حقاً، إنها واجهة الكرم الأمامية.

: والله إنني لا أستطيع النوم في بعض الأحيان إذا نفد ما عندي منها.

-: بدون القهوة لا يستطيع مضيافا مثلك أن يستقبل الضيوف.

: هذا والله ما أفكر به الآن، كيف سأستقبل الضيوف بدون قهوة؟

-: بسيطة يا أبا فلان.

: كيف تعتبرها بسيطة؟

-: إنك واجهة الحي وسوف نرى ما يتوفر عند بقية الرجال من هذه المادة ونستلفها منهم حتى تعود الحملة.

: إنني أخجل أن أقوم بعمل مثل هذا.

-: لا تهتم للأمر سأجمعها لك بنفسي.

: لا، لا تفعل يا أخي، إنني لا أستطيع تحمل ما يثار حول هذا الموضوع من الأقاويل.

-: أبداً، كن مطمئناً، فنحن أهل بيت واحد، ولن يقال كلمة واحدة في هذا السبيل.

: وإن يكن، أرجوك ألا تفعل.

-: إترك الأمر لي، لن أدعك تتألم في أمر نستطيع المساهمة فيه.

: إنني أخشى الكلام.

-: لن تقال كلمة واحدة حول هذا الموضوع.

وينطلق هذا الرجل لاحضار ما عنده من هذه المادة ثم يدور على البيوت بطريقته الخاصة وأسلوبه المميز ليجمع من الرجال كل ما لديهم من القهوة والهيل ولم يمض ذلك اليوم حتى جمع منها كمية طيبة، وفي ذات الوقت لم يبق عند أحد حبة واحدة الا تحصل عليها وأحضرها للشيخ مما جعله يطمئن إلى هذه الخطوة التي بادر أحد رفاقه باتخاذها وظن أن هذه الكمية المجمعة مع ما لديه سيكفيه حتى عودة الحملة، وتعاقبت الأيام، وكثر الضيوف، ومع الاقتصاد بحمس هذه المادة، إلا أن المحماسة قد التهمت هذه الكمية بأكملها، وذات مساء أناخت مجموعة من الركائب وعلى ظهورها أناس يبدو أنهم من علية القوم كما ينم عن ذلك مظهرهم فأوعز ثويني إلى ابنه أن يستقبلهم، وأن يوقد لهم النار، عله أن يجد في بيت إحدى زوجاته ولو طبخة واحدة من القهوة، وتقدم الشاب من الضيوف ورحب بهم، وقدمهم إلى المجلس ثم أوقد النار ودلف إلى البيت عله أن يجد والده قد حصل على شيء من القهوة، لكن الوالد كان خالي الوفاض، لذلك أخبر ولده أن إذا

سـأل عني أحد من الضيـوف فأخبـرهم أنني غائب عن الفـريق، وأنت إذا لم تجـد قهوة فقدم لهم الطعام في وقته وليعذرنا الله ثم الضيوف عن القهوة.

سمع الابن كلام والده واستوعبـه فعاد إلى ضيـوفه، أمـا الأب فقد هـام على وجهه تحت جنح الظلام على غـير هدى وبـدون أي هدف، يجـري بأقصى سـرعته لا يلوى عـلى أحد، يتعـثر ببعض الأشجار في ظلمـة الليل يـرى الجهمـة الكبيـرة فيتجنبهـا، ولما غـاب عن البيوت كـان في نيته أن ينـام هناك حتى الصبـاح موعـد مغادرة الضيوف ثم يعود إلى أهله، وبعد أن قطع مسافة تقارب الكيلين بين كثبان النفود شعر بأن التعب قد أخذ منه مأخذه، عند ذلك خفف من الجـري، وتراءت لـه عن غـير بعـد سمـرة حسبهـا شجـرة أرطى لم يستـطع تمييـزهـا وسط الـظلام الـدامس، ولما اقتـرب منها لكـدها بـرجله فوجـدها بعيـراً باركـا، وتجسس البعير فوجده ميتا تحت حمله ثم لمس الحمل وفركه بيده من خارج الـوعاء فـوجده شبيهـاً بحب القهـوة عند ذلـك وبدون شعـور منه استـل خنجره من حـزامه وقـدَّ الفردة فوجدها بالفعل قهوة، عندئذ حثى من الفردة ملء «شَلِيْلِهِ» وهـو مقدمـة ثوبـه من القهوة وعاد بها يسابق الـريح ميممـاً البيوت يقفـز من فوق الأشجـار، يشق كثبان الرمل شقاً قد طفحت به الفرحة بما وجد من الشيء المعدوم من يده قبل قليل وقد تسبب في نفـوره من بيته، ولم تخمـد النار حتى لاذ ثـريني على الضيـوف ومعه حب القهوة ملء عِبِّه وحمس منها وبعد أن إطمأن واستعاد أنفاسه حدث ضيوفه قائلاً:

-: أيها الضيوف الكرام إن الدنيا لا تضيق على أحد إلا ويفرجها الله له.

: لم نفهم ما تعني أيها المضياف الكريم.

-: دعوني أبين لكم ما حدث.

: تفضل.

-: نحن قوم كما ترون في أحضان هذا النفود بعيدين عن كل شيء.

: عسى ألا تكونوا بحاجة؟

-: حاشا لله أيها الرفاق.

: ماذا جرى إذا؟

-: كما تعلمون أن الظروف تأتي بعض الأحيان على عكس ما يريد الإنسان.

: إيه، يحدث ذلك، فقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

-: كما ذكرت لكم أننا في هذا البر يتم نقل ميرتنا عن طريق قوافلنا التي تنحدر إلى المدن، وأحيانا تتأخر هذه «الحدرة» في عودتها مما يترتب عليه شح بعض المواد التي نحتاجها.

: نحن فداك أيها المضياف الكريم، وما في يدنا تحت تصرفك.

-: سلمكم الله وشكر مسعاكم، لم أكن أقصد ذلك، ولكن لأروى لكم المعجزة التي حدثت بقدرة الله وتدبيره.

: هل حدث شيء لم نعرفه؟

-: حينما أنختم ركابكم يا وجوه الخير كنت «مُقْفِراً» من القهوة فوالله إنه لم يكن بهذا الحي بكامله حبة قهوة واحدة.

: إن معنا من القهوة ما يسد حاجتك.

-: أشكركم على شعوركم الطيب، ولكن اسمحوا لي أن أكمل القصة.

: عفوا لقد قاطعنا حديثك.

-: ومن عادتي أن أباشر ضيوفي بالقهوة قبل أي طعام حيث أعتبر القهوة هي واجهة الكرم.

: لا شك في ذلك.

-: وحينما رأيتكم قادمين علينا ورأيت هيئتكم التي تدل على علوّ قدركم ومكانتكم، وتذكرت عدم وجود القهوة لدي تمنيت أن تبتلعني الأرض خير من أن استقبلكم بدون قهوة.

: بسيطة، بسيطة، أيها المضياف الكريم، إن بشاشة وجهك وكلماتك الترحيبية تغنينا عن كل قهوة أو زاد.

-: شعور طيب منكم، عند ذلك تواريت عن الأنظار خجلاً منكم فوكلت مهمة استقبالكم لا بني.

: إنه نجيب من نجباء.

-: عند ذلك توجهت إلى ربي عز وجل بعد أن ضاقت على الأرض بما رحبت، ولم أتمالك نفسي فركضت بغير إرادة مني أو قصد.

: هل حدث هذا لك فعلاً؟

-: نعم أيها الرفاق، ووالله إنني لا أرى ما حولي بسبب ظلمة الليل الحالكة وبسبب ما أنا فيه من الحالة النفسية السيئة.

: لماذا تفعل بنفسك هكذا؟

-: لم يكن هذا التصرف بإرادتي الكاملة، بل ناتج عن الحالة التي انتابتني، وجاءتني قوة عهد الشباب فصرت أجمح بعض الأشجار، وأتجشم بعضها مما كان له أثراً على ساقي وقدمي.

: أين ذهبت؟

-: لم أدر أين ذهبت حتى الآن، فبعد أن ركضت شوطاً جيداً، أروغ عن الأشجار الكبيرة وأقفز الصغيرة حتى تراءت لي سمرة قائمة حسبتها في أول الأمر شجرة إرطاة، إلا أن حجمها أصغر من شجر الأرطى وعلى ضوء النجوم الباهت اقتربت منها، وندغتها بقدمي فوجدتها بعيراً باركاً، وتلمست ما عليه فوجدت حمله عليه.

: ما هو حمله؟

-: تحسست الحمل من داخل «العِدْلِ» وكأنه قهوة فأخرجت خنجري وبجست الفردة وإذا هي قهوة بالفعل.

: سبحان الله!! قهوة!!

-: إنها قهوة وهذه عينتها.

: يالله، وماذا فعلت؟

-: لم يتصور أحد مدى فرحتي، لقد كدت أن أطير من شدة الفرح، لقد كاد الفرح أن يذهب بعقلي، فلم أتمالك أن أتيت بجزء منها لتقديمه لكم.

: إيه... سبحان ميسر الأمور.

-: إي والله، سبحان فارج الكربات القائل في كتابه العزيز إن مع العسر يسراً.

: إن هذه الحادثة غريبة!!

-: لقد علم الله بحالي، وما أعانيه من صراعات نفسية، ففرج الكربة التي كنت أعانيها.

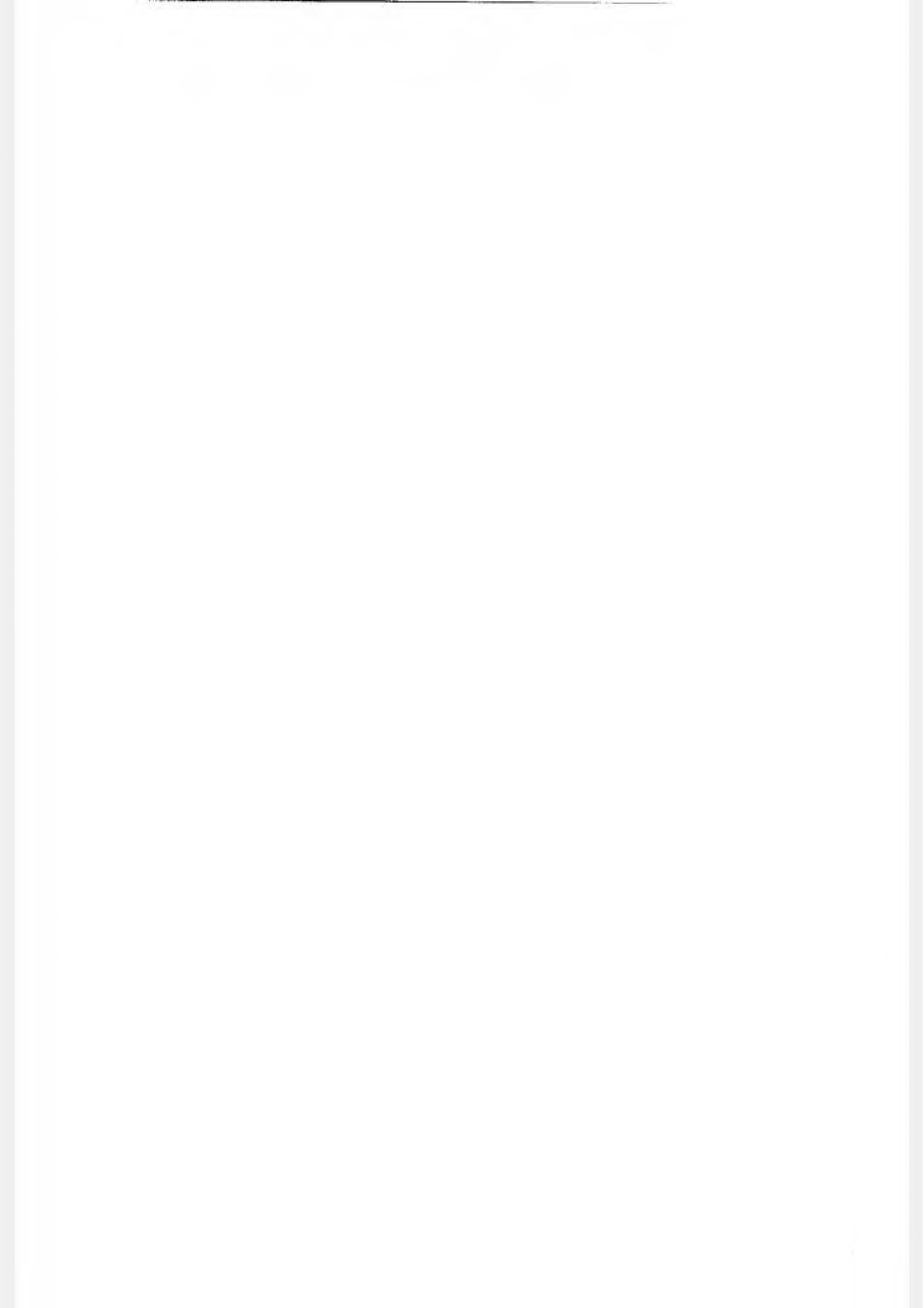
: هل عندك علم مسبق بهذه القهوة؟

-: لا والله، إلا إذا كنتم تعلمون بذلك.

: ولمن يكون هذا البعير؟
-: لا أعلم.
: أتأخذ من شيء لا تعلم عن صاحبه؟
-: لقد أخذت ما أنقذني من موقف صعب كنت أعاني منه، وعندما نعرف صاحبه سنعطيه ثمن ما أخذنا أضعافاً مضاعفة.
: هل رأيت حوله مناخ إبل؟
-: لم أر شيئاً، وهذا لولا أنني تجشمته وكدت أن أعثر فيه لما وجدته.
: إيه الله الهادي إلى سواء السبيل.
-: الله جواد كريم، إذا علم بحال كفاها، لقد أخذتني يد الرحمن ونزعتني بسرعة فائقة حتى أوقفتني على هذه السلعة التي كنت بأمس الحاجة إليها، لتقديمها لضيوفي الكرام حفاظاً على ماء وجهي أن يمصخ أمام الأجواد.
: لا عليك، أيها الجواد الكريم.
-: إيه، الحمدلله الذي سترني وهيأ لي ما كنت مفتقراً إليه.
: سبحان الله، كيف وجدت هذه القهوة؟
-: قد تكون قافلة مرت مع هذا الطريق، وبرك هذا البعير بحمله وحاول القيام مرة أخرى فلم يستطع بسبب هزال الابل وظل يحاول أن ينوء بحمله حتى انقطع قلبه ومات تحت حمله.
: جائز أن يكون ذلك.
-: إيه، الحمدلله على كل حال، أتدرون ماذا سأفعل الآن؟
: لا.
-: سأصلي لربي من الآن وحتى صلاة الصبح من يوم غد شكراً لله وامتناناً له على إنقاذه لي من هذه الأزمة.
: جزاك الله مزيداً من الخير، ويسر لك أمرك.

وعند الصباح ذهبوا مع أثر ثويني فوجدوا البعير قد برك في أثر حملة قد مرت في ذلك اليوم ولم يستطع القيام بحمله من شدة الهزال فمات في مكانه كما توقع ثويني في سياق حديثه. ووجدوا أصحابه قد أتو إليه فاشترى منهم ثويني القهوة كاملة بالسعر الذي طلبوه منه.

قصة رقم (٣)



بعد نظر

ما كادت الشمس تطوح بأشعتها الفضية لتلبس ذلك الجزء من الكون ثوب النهار المتوهج حتى سمع سكان ذلك الحي الهادى من العرب إرجاف وقع حوافر الخيل وهى تهرس الأرض هرساً وتثير خلفها سحابة من الغبار الوردي، وكان هدف الخيالة من غارتهم تلك هو احتواء أنعام ذلك الحي الآمن قبل أن تتفرق في مراعيها وذلك ليجدوها لقمة سائغة يمضغوها بتلذذ ممتع، وما إن داهمت سوابق الخيل أطراف المواشى حتى جفلت والتم بعضها على بعض وكونت دوامة عنيفة عائمة كالإعصار حول بيوت الحى حتى تسببت في شل حركة الفرسان المدافعين عن أموالهم وأعراضهم، غير أن عرار قد تمكن من الافلات من موجات المواشي التى عاقت أصحابه فعمل حركة التفاف سريعة من خلف القوم المغيرين وبدأ يشق جموعهم شقا عنيفاً، وفي كل غارة يحصد بسيفه مافي وجهه، ثم يلوذ بالفرار بعيداً عن أسنة الرماح وظبى السيوف ثم ينصلت عليهم من جديد في عملية كروفر، هكذا فعلها عدة مرات بينما توادر فرسان المغيرين مشتغلون في لم شوارد الابل وجمع نوائر الغنم تمهيداً لاقتفائها معهم كغنيمة باردة، ولم يعلموا أن عقيدهم قد جند له ذلك الفارس المغوار في إحدى انقضا ضاته الخاطفة، في هذا الوقت تخلص الفرسان المدافعون من الارتباك الذي حدث لهم بسبب التفاف المواشي على البيوت وما خلفته من هلع للنساء والأطفال والشيوخ داخل بيوت الشعر فوجهوا ضرباتهم وطعناتهم الى الأعداء المغيرين حيث صافحت شفار السيوف لمم الفرسان وقبلت رماحهم الجواشن والخواصر، فوقع المغيرون بين

فكى كماشة قوامها ذلك الفارس الصارم، وأولئك الفرسان الصامدون وماهى غير فترة يسيرة، حتى رأى المغيرون أنهم بشرفون على الابادة الكاملة فاطلق من نجا منهم عنان فرسه هارباً على وجهه لا يلوى على أحد حيث تتبعهم أندادهم بمطاردة سريعة اختطفوا رأس من استطاعوا اللحاق به ولم ترتفع الشمس عن سمت الأفق إلا قليلا حتى تجلت هذه الزوبعة العاتية التى راح ضحيتها ثلاثة من فرسان الحي ومعظم الفرسان المغيرين، وعاد الفرسان من الميدان كل واحد منهم تتنزى به جواده بعد مطاردة الأعداء إلى مسافة بعيدة، وكانت الفرحة وبهجة الانتصار تكسو محيا كل واحد منهم، وتوافدوا الى بيت شيخ الحي الذي رحب بهم وأثنى على تفانيهم بالدفاع عن ذمارهم، ثم جهزوا من توفى منهم من الفرسان مع جثث القتلى المغيرين وصلوا عليهم جميعاً ثم واروهم إلى مثواهم الأخير وعرجوا على أهلهم وعزوهم عمن فقد منهم ثم عادوا للتجمع في بيت الشيخ ليروي كل واحد منهم ما واجهه من دروس كالمواقف والأخطاء التى حصلت أثناء الغارة، وذلك ليستفيد منها في المستقبل وليفيد منها أصحابه ولتجنب سلبياتها واتباع ايجابياتها، ثم جاء دور اقتسام الغنائم فقال الشيخ :

-: إنني قد تنازلت لكم عن كل هذه الخيول مقابل حصان واحد.

: الأمر لك أيها الأمير، إننا وما نملك بين يديك، فافعل ما بدا لك، يقول ذلك ابن عمه عمير المنافس الأول له على الزعامة.

-: إننى أكبر فيكم هذه الروح الطيبة واشكركم على هذا الشعور النبيل، وفي ذات الوقت فإن كل فارس منكم قد أبلى بلاءاً حسنا في صد هذه الغارة المباغته.

: لك الفضل كل الفضل أيها الأمير، فأنت الذي بادأتهم وعصفت بمؤخرتهم وشققت صفوفهم جيئة وذهاباً وفي كل مرة تقطف بشذرة سيفك من رؤسهم ماتشاء حتى طيرت رأس عقيدهم.

-: على رسلك ياعمير، على رسلك !! إننى لم أفعل إلا الواجب علي، ولو كان والدى حاضراً لرأيت منه أكثر من ذلك.

: لم تترك له شيئاً أيها الأمير.

-: دعنا من هذا، ولكنني أقول إننى متنازل عن كامل حقى في هذه الخيول مقابل ذلك الحصان الفتى الذى كان يمتطيه عقيد القوم.

: لك ماتريد، ولكن ماذا أعجبك فيه أيها الأمير ؟

-: إيه . . . أعجبني فيه، أعجبني . . أعجبني.

: أين هو ؟

-: ذلك الحصان الأدهم الصافن.

: أوه، يبدو أنه مرهق بدرجة كبيرة.

-: يبدو ذلك.

: أوه، انظر إليه يتصبب عرقاً !!

-: إيه، إنه مهر عسيف، ويمكن أن تكون هذه المرة الأولى التى يخوض عليه صاحبه معمعة المعركة.

: يمكن أن يكون ذلك، ولكن إذا كانت هذه المعركة الواحدة قد مرسته وجعلته هكذا فيكف يرجى منه خيراً ؟

-: وإن يكن، لقد أعجبت به، فهو جوادي في المستقبل إن شاء الله.

: وماذا أعجبك فيه ؟

-: أعجبت بخصال سوف تعرفونها فيما بعد.

: إذا، هو لك بإجماعنا.

-: بارك الله فيكم، وعليكم باقتسام بقية الخيل.

: لن يقسمها بيننا غيرك.

-: خيراً إن شاء الله، ليت أبي حاضراً هذه الغارة ليرى حسن نتيجتها.

-: لقد أحسنت القسمة أيها الأمير، لكأن والدك حاضر وعند حضوره سيعلم.

: إيه . . . قد الحصان بعنانه واربطه مربط فرسى وليأخذ كل واحد منكم نصيبه ويربطه عند بيته. هكذا أمر الأمير أحد رجاله.

وبعد أن نفرق الفرسان قام الأمير إلى الحصان فمسح وجهه بكفه، وقبله بين عينيه ثم ضم رأس الحصان إلى صدره وكأنه يحتضن أمله في الحياة حيث يتوقع

بغرته وخلف ناصيته المكاسب العظيمة ونجاته من الاعداء، ثم بدأ يمسح عنه بقايا العرق المتلبد بين شعيرات جسمه القصيرة تارة، ويربت على متنه بتؤدة تارة أخرى، حتى هدأ الحصان، ثم أنزل عنه سرجه وهو يشم رائحة العرق المتبخر من السرج، فوجد بنتّها في أنفه تضاهى خنة العنبر أو هي أزكى من المسك والريحان، ومسح ظهره ثم بدأ يحكك رؤوس أكتافه بما يشبه الدغدغة، حتى تجلت على الحصان علامات الرضا والارتياح من هذا الفارس الجديد وأراد أن يبادل الفارس شعوره الطيب نحوه فبدأ ينفض عرفه يميناً وشمالاً، يهمهم تارة ويرهم تارة أخرى. عند ذلك عرف الفارس أنه قد دخل إلى قلب الحصان فربت على كتفه وأسفل عنقه بما يشبه الوداع وعاد إلى مجلسه ثم عرج على قسم النساء حيث سمع حديث ابن عمه عمير مع أحد رفاقه في مجلس الرجال « **الرُّفَّةْ** » بما يشبه الهمس فدنا من عارض البيت لبعض شأنه حيث سمع ذلك الحديث الهامس إذ قال أحد الرجلين للآخر :

-: ترى لماذا اختار الأمير هذا الحصان ؟

: الله أعلم.

-: بلا شك أن العلم عند الله، ولكني لا أرى بهذا الفلو ما يغرى ؟

: تختلف نظرات الناس في الأشياء فلكل إنسان رأيه.

-: لاشك في ذلك، ولولا اختلاف الآراء لبارت السلع.

: مادمت تؤمن بهذه النظرة فما الداعى لمثل هذا التساؤل ؟

-: لأننى لا أرى فيه ما يعجب الانسان العادى فضلاً عن فارس مثل الأمير.

: لم يقع اختيار الأمير عليه إلا بعد أن رأى فيه أشياء تعجبه.

-: وماذا رأى فيه ؟

: أنت الآن تحكم عليه من مظهره.

-: والله لا مظهر، ولا مخبر.

: وما يدريك ؟

-: أعلم ذلك، إنه فلو غض، قد يكون في دور العساف الآن ومن يرى العرق المتصبب منه لا يرجو خلف ناصيته أخيراً.

: قد تكون فرس الأمير ذعتته حتى أهلكته في الجرى.

-: وإن يكن !!

: لا تنسى أن جواد الأمير من أصائل الخيل وأسبقها .

-: مهما كانت الفرس فلا تقارن بالحصان .

: إن نظرتك للأمور قريبة .

-: قريبة !!

: نعم، إذا كانت فرسا قارحاً قد عجزت عن اللحاق بحصان فتى، فكيف يكون هذا الحصان إذا صلب عوده ؟

-: ومن قال لك إنها عجزت عنه ؟

: أقول قد تكون كذلك .

-: لو عجزت عنه لأنقذ حياة صاحبه الأول .

: أما هذه النقطة فلا تدخل في الموضوع .

-: وما الذي يمنع ؟

: لقد تمت لقمة الرجل في هذه الحياة حينما أدركه الأمير وقتله .

-: إيه، هذا مبرر غير مقبول، إننى أقول إنه من رداءة الحصان ولذلك فكيف يختاره الأمير ليصبح لا سمح الله ضحية ثانية له .

: استعذ بالله من الشيطان، فالأمير لم يختر الحصان الا وقد رأى فيه ما أعجبه .

-: هل أخبركم بذلك ؟

: لم يبح بشيء من هذا.

-: وهل سأله أحد عن هذا الجانب ؟

: نعم لقد سأله أحد الرفاق.

-: وبماذا أجاب ؟

: لقد أجاب إجابة مبهمة ومقتضبة .

-: ماذا قال ؟

: أراد أن يقول كلاماً ثم تراجع عنه مردداً كلمة أعجبني عدة مرات .

-: إيه، قد يكون أعجبه طوله .

: لا، لا، إن الأمير ليس ممن يغتر بمثل هذه الأمور، فقد تكون المظاهر تعطي

بعض الشيء، ولكن الأمير ليس ممن يتمسكون بمثل هذه الرؤى.

-: أجل لماذا اختاره من بين هذه الخيول الأصائل ؟

: يا رجل، إن لهذا الاختيار سراً كامنا في صدر الأمير احتفظ به لنفسه.

-: إيه، ماأكثر الأسرار التي يقبرها بين حنايا صدره !!

: أجل، تريده مهذاراً كل ما جاء على باله نفثه لسانه،

-: أريده مثل أحدنا، أي شيء يخطر على باله يقوله للآخرين.

: لو كان كذلك لما استحق الأمارة علينا.

-: ألهذا اخترناه أميراً ؟

: هـذه خصلة واحدة بـالاضافـة إلى رجاحـة العقل وحسن التـدبـير، والكـرم الحاتمي والشهامة والمروءة والنخوة والحمية.

-: أوه، لقد جعلته كاملاً.

: نعم، هو أقرب إلى الكمال.

-: لو لم يكن فيه هذا العيب.

: عيب !! بماذا تعيبه ؟

-: عيبه إنه حاد الطبع، لا يريد أن يعصى له أمراً.

: أمـا هذه فهي فيـه علم الله، إنه مثـل أبيه وعسى الله أن يـرفع عنـه شر هـذه الخصلة.

-: لن يزول عنه هذا الطبع، فالعود وماحني عليه.

: ليس بعسير على الله.

-: وأنا أقول كذلك، ولكن يزول الجبل ولا تزول الجبلة.

: إذا أستودعك الله.

-: مع السلامة.

سمع الأمير هذا الحديث بكامله ولم يرد أن يفصـح عنه للمعنيـين به بـل ركز عنايته على هذا الحصان العناية خاصة وتفنن في تدريبـه على مختلف فنـون القتال، وما إن أتم سنة كاملة عنده حتى برزت فيه بعض المزايا التى جعلت الأمير يتعلق به وكان لظهور هذه الخلال أثر كبير في حرص صاحبه عليـه حتى كان لا يكـل عملية

تقديم علفه وعليقه له أي إنسان سواه ولا يأمن على مفتاح حديده كائن من كـان، ومع استمرار التدريب والغارات الوهمية التى يناور بها الأمير مع أصحابه وبنى عمه لم يستطع أي جواد أن يلحقه حتى مهر الأمير نفسه، وبـذلك تعلق بـه الأمير أكـثر فأكثر، ودربه على مهام صعبة حذق الحصان في اجتيازها، واحتـل مكان الصـدارة في حديث النوادي والجلسات حيث قال أحد الجلوس للأمير :ـ

: لقد كان اختياركم لهذا الحصان موفقا أيها الأمير.

-: إيه، الحمد لله الذي وفقنى إلى ذلك ؟

: ولكنه لم يكن في البداية هكذا.

-: بلا شك، لقد كان مهراً غضا حينما كسبته من صاحبه في ميدان المعركة.

: وما يدريك عنه، هل سمعت به قبل ذلك ؟

-: لا والله، لم أسمع عنه شيئاً، ولم أعلم به حتى داهمتنـا الغارة في صبيحـة ذلك اليوم الأغبر.

: لماذا تعلقت به منذ البداية ؟

-: لقد رأيت فيه أشياءاً عرفت من خلالها طيب أصله وجودة محتمدة.

: ماذا رأيت فيه ؟

-: لقد عرفت فيه في بداية الأمر سرعة جريه، ولقد لحق بفرسى التي كنت أظنهـا من أسرع الخيل عدة مرات وكـاد صاحبـه أن يجندلنى عن فـرسى عدة مـرات لـولا ستر الله، وعنـدما رأيت ذلـك منه شـددت على مهـرى ولكدتهـا بقوة، وبالكاد لحقت به فأرديت صاحبه قتيلا وأخذت الحصان.

: يا الله !! كدت أن تذهب على ظهره.

-: إيه . . يابن العم، من له لقمة في هذه الحياة فلن يرحل حتى يستوفيها.

: وماهى الخصال الأخرى التى توجد فيه ؟

-: إنها كثيرة، منها إقدامة القاطع، فوالله لو كان أمامـه صخرة صـماء لفلقها إلى نصفين وسبح ما بين فلقتيها.

: أوه، كفاك الله شر سبحاته.

-: آمين، ويبدو أن صاحبه الأول لم يدربه التدريب الكافي للكـر والفر والاقبـال

والادبار، أما أنا فلقد دربته تدريباً دقيقاً لم أترك ثغرة واحدة الا وجعلته يتقنها تمام الاتقان.

: إيه، ماشاء الله، لقد رأيناه تحتك قبل أيام وكأنه السهم المصلت على هدفه ثم ينثني بانحرافة بارعة لا يستطيع أي جواد إتقانها ثم ينقض فلا يستطيع أي جواد أن يلحق به.

-: إيه . . ستر الله عليه من شر الأعين.

: آمين . . ولكن ماذا تفعل بفرسك الموجودة الآن ؟

-: سأبقيها عندي وستكون لوالدي إذا عاد من سفره الطويل.

: لماذا لا « تُشَبِّيْهَا » به لتلقح منه وتأتي لك بسلالة جيدة من مهرك الأصيل وهذا الحصان النادر، فيكون لك ولوالدك واحد من هذه السلالة الممتازة ؟

-: أوه، سأفعل ذلك ولكن ليس الآن.

: لماذا ؟

-: ألا تعلم أن نزو الحصان قبل أن يقرح يهد من حيله ويقلل من قوته ويثبط من عزيمته ؟

: يقال هكذا، ولكن مرة واحدة لفرسك لن تضره.

-: أوه، ألا تعلم أن كل نزوة تعادل جهد غارة ؟

: قد يكون هذا الاعتقاد مبالغ فيه !!

-: ليس اعتقاداً كما تذكر، إنها الحقيقة بعينها.

: وإن يكن، فالأمر لك ولن يخرج عنك.

-: لقد عزمت على أمر لن أحيد عنه، وهو الا ينزو هذا الحصان على أي فرس قبل أن تكتمل سنه.

: لقد أكتمل الآن.

-: إنه لا يزال غضا يضره هذا الأمر، فدعك من هذا الحديث.

: أبشر، أبشر.

وقام الأمير لبعض شأنه ثم دار الحديث في المجلس بمختلف الشئون فقال عمير لصاحبه .

-: عن أي شيء كنت تتحدث مع الأمير ؟

: عن هذا الحصان الأصيل .

-: وماذا به ؟

: كنا نتحدث عن مزاياه وطباعه .

-: إنه حصان ممتاز بلا شك .

: ولكنه معرض للهلاك لأى سبب من الأسباب أو للأخذ كذلك .

-: أما الهلاك فأنا معك ، لكن الأخذ من الذي يستطيع أن يأخذه من الأمير .

: الله أعلم ، اللصوص كثيرون والأعداء أكثر .

-: أما اللصوص فلن يظفروا به لأنه مربوط بسلاسل من الحديد السميك ومفتاحه مع الأمير دائماً .

: والأعداء ؟

-: أما الأعداء فهو بعيد عنهم بعد السماء عن الأرض ، مادام الأمير على قيد الحياة .

: لا تقل هذا ، فكل قوي هناك من هو أقوى منه .

-: وأن يكن .

-: إيه ، وبماذا كنت تحدث الأمير ؟

: كنت أقترح عليه أن يلقح مهره منه حتى يحتفظ بهذه السلالة الممتازة .

-: وبماذ رد عليك ؟

: لقد رفض هذا الاقتراح في الوقت الحاضر .

-: لأي سبب ؟

: يقول إنه لن يتركه ينزو على مهرة واحدة قبل أن يصلب عوده ويقرح .

-: متى يقرح ؟

: الله أعلم ، قد يكون بعد حوالي سنة .

-: إنه محق في ذلك .

: وماوجه الحق في هذا ؟ ففي تلك المدة قد تكون ولدت مهره فلواً أو فلوة من سلالته .

-: لم يكن متعجلاً مثلك .

: وما يدريك ؟ إن بوده لو يمسي ثم يصبح ومربط خيله ملآنا من نسل هذا الحصان !!

-: إيه، لا أدري ماهدفه !!

: وماتراه أن يكون ؟

-: قد يكون قصده من وراء ذلك الشح بسلالة هذا الحصان.

: حتى على نفسه ووالده ؟ فما يضره لو كان له هذا الحصان ولوالده مثله بعد أن يعود من سفره .

-: بل قد يكون هدفه عدم انتشار نسل هذا الحصان لغرض في نفسه.

: أتظنه يريد الإحتفاظ به لنفسه فقط

-: لربما.

: هذه الأنانية.

-: لا أحد يلومه على ذلك خاصة في مثل موقفه.

: وماهو موقفه ؟

-: أتتجاهل الموضوع أم أنت صادق ؟

: والله إنني لصادق.

-: الا تعرف المنافسة الشديدة بينك وبينه ؟ على الزعامة والأمارة.

: آه .. هذا ما تعني !!

-: نعم، وهذا لا يخفى على أحد.

: حقا إن هذه المنافسة القوية القائمة على أشدها منذ وقت بعيد.

-: إيه .. لقد ظننا أن المصاهرة بين أبناء العم ستذهب أو على الأقل تخفف مثل هذه المنافسة بينهما.

: على العكس من ذلك، لقد زادتها تأججا وأواراً.

-: يتدخل متحدث ثالث بقوله، قد تكون ميثاء أخت عرار وزوجة عمير تنقل إلى أبيها وأخيها بعض ما تسمع من زوجها.

: لا أظن ذلك، حتى لو افترضنا هذا فقد تعمل الشيء نفسه عميرة ابنة راشد وزوجة عرار.

-: النساء لا يتدخلن في أمور الرجال. هكذا يجيب عمير.

: أكثرهن لا تفوتها شاردة ولا واردة إلا تدخلت فيها .

- : هذا النوع من النساء اللواتي تدس الواحدة منهن أنفها في كل شيء .

: ليس ضرورياً أن يكون في كل أمر من الأمور.

- : لم أفهم .

: أعنى أنها تتدخل في الأمور المهمة تاركة صغائرها لغيرها .

- : أوه ، قد يكون في تلك الصغائر ما يترتب عليه أمور كبيرة.

: مثل ماذا ؟

- : كثير من الأمور تبدأ صغيرة ثم تكبر شيئاً فشيئاً حتى يصعب التخلص منها في النهاية . وإليك مثلاً من ذلك حرب البسوس .

: أعوذ بالله ، كفانا الله الشر صغيره وكبيره .

- : وأنا أقول كذلك ، ولكن لو أن تلك الناقة المشئومة وصاحبتها المجنونة عوضت عنها بعشر نياق لسلمت رقاب أولئك الرجال الأبطال الذين علكتهم الحرب على مدى أربعين سنة .

: أوه ، أعوذ بالله من الشر وساعته .

- : أحب أن أسوق لك مثلا بدايته بسيطة واعباؤه اللاحقة ثقيلة ومرهقة .

: الله الساتر ، ولن يحدث بين أبناء العم شيء من هذا .

- : قد يكون بصورة أخرى في غمرة التنافس على زعامة القبيلة .

: الله أعلم بما يكنه الغيب .

ولما قدم الشيخ الذي شمط الشيب شعره بعد غيبة طويلة تزيد عن الحولين أراد ولده أن يريه هذا الحصان والدرجة التى بلغها من التدريب الجيد ، فأمر فرسان القبيلة بامتطاء صهوات جيادهم واجراء غارة وهمية على الحي في وضع استعراضي أمام المشاهدين من رجال الحي ومن بينهم أبناء عمه عمير واخوانه الأربعة ، وفي أثناء هذا الاستعراض أظهر الحصان براعة فائقة في الانقضاض والكر والفر حسب كلمات وصيحات يطلقها فارسه عرار من على صهوته ، وأعجب الحاضرون بهذا الحصان ، واعتبروه وفارسه حصنا منيعاً يمكن أن يعتمد عليه بعد الله في الدفاع عن الحي ، هذا الاعتبار قد أدخل البهجة والسرور إلى

قلوب الرجال جميعاً ماعدا قلبا واحداً كان على عكس ماأجمع عليه الحاضرون، ذلك هو قلب ابن عمه عمير الذي يعتبر المنافس الأول لهذا الفارس، ولذلك خيمت على وجهه مسحة من الكئابة والحزن دون أن ينبس بكلمة واحدة، وعندما عاد إلى بيته، إتكأ على شداد موجود في مجلس الرجال وسرح طرفه مع أشعة شمس الأصيل الممتدة على بقايا قطع السحاب المتناثرة في الأفق الرحب فتنهد وتنفس نفساً عميقاً ثم نفث بزفرة حادة وهو يحسب أن ليس بقربه أحد فقال :

-: يا الله، هنيئاً لمن أمساه الليل وهو يملك مثل هذا الحصان.

: ماذا تقول يا عمير ؟

-: وهل عندى أحد ؟

: لا تخف، أنا أخوك.

-: إيه . . تمنيت لا « حافاني » الله بالمنى.

: إنها أمنية غالية على قلب كل منا.

-: هل خطر ببالك ماداهمنى ؟

: لقد تمنيت أن أملك جواداً مثله منذ أن شاهدته بالاستعراض لأول مرة.

-: هاه !! كيف الحصول على مثله ؟

: ومن أين نجد مثله ؟

-: هذا السؤال يخالجنى منذ مدة طويلة ولم أجد الاجابة عليه.

: من أين حصل عليه عرار ؟

-: أنسيت !! لقد حصل عليه من أولئك القوم الذين أغاروا علينا قبل سنتين، ألا تذكر ذلك ؟

: بلى، بلى، لقد ذكرت.

-: وهل تجد إجابة على سؤالي السابق ؟

: ليست هناك طريقة للحصول على مثله إلا بأخذه هو من عرار.

-: بأخذ الحصان !!

: وهل تظن أن عراراً سيعطيه لأحد ؟

-: أقصد أن نأخذه عنوة.

: أوه . . لن نتمكن من ذلك.

-: لماذا ؟

: أتريد أن نأخذه منه وجها لوجه ؟

-: نعم، وماذا في ذلك ؟

: لن يرضى، ولسوف يفعل المستحيل للاحتفاظ به، أو يموت دونه.

-: دعه يموت « ميتة الكلب ».

: لا، لا يا أخي، ليس بهذا الأسلوب.

-: وماذا تريد أن نفعل به ؟

: أتريدنا أن نقتل ابن عمنا وسندنا من أجل حصان ؟

-: أوه، ابن عمنا !! إنه بمثابة عدونا اللدود، وربما لو كان الحصان عندنا لما تأخر في أخذه منا بشتى الطرق.

: أبداً لا أوافقك على ذلك.

-: لماذا تعارضني ؟

: صحيح إن بيننا وبينه منافسة على زعامة القبيلة، ولكن هذا لا يعدو المنافسة الشريفة في سبيل احتلال صدارة القبيلة.

-: دعك من هذا وخذ برأيي.

: استعذ بالله من الشيطان الرجيم، ودع عنك هذه الأفكار الهدامة.

-: أفكار هدامة !!

: نعم، إذا حاولنا قتل ابن عمنا فسوف يبادلنا نفس المحاولة ونحن الخاسرون في الحالين.

-: كيف نخسر ؟

: إن الخسارة واردة، فإذا افترضنا أننا قتلناه، فقد هدمنا ركنا من أركان القبيلة في سبيل حصان أصيل هذا إذا نجينا أو سلمنا من أي شيء، أما إذا صار لنا عكس ذلك فقد نخسر أحدنا أو كلنا وربما بدأ بهذا الأمر شر نذهب كلنا في جريرته.

-: أوه، أما سمعت المثل القائل « مِنْ حَسُبْ مَازَرَعْ » ؟

: هذا منطق المغامرين.

-: وأنت في أولهم، أليس كذلك ؟

: نعم، ولكن ضد ابن عمي فلا.

-: لماذا ؟

: لم ينلني منه. أذى حتى الآن، هـذه واحدة، والثـانية أنـه ليس من شيمتي أن أعتدى على أقاربي.

-: وإن هم بدءوك بالشر ؟

: في ذلك الوقت يكون شرعية الدفاع عن النفس واجبة.

-: أما ترى غطرسته وتعاليه علينا ؟

: هذه طبيعته علينا وعلى غيرنا، وهو في ذات الوقت لم يقصدنا بذلك.

-: إيه، أتريدنا أن نجلس هكذا حتى يركب فوق رؤوسنا ؟

: لم أر منه ما يوحي بذلك.

-: ألا تراه أمير القبيلة ؟

: بلى، وهذا قد أخذه بفضل مكانة والده وسنه.

-: أوه، والده شر البرية.

: إتق الله ياأخي، أتقول لعمك مثل هذا الكلام ؟

-: نعم، إنني أرى بوادر الشر في وجهه.

: رأيك في غير محله.

-: سترى صحة رأيي، إنهم يحفرون عن جذعنا.

: لم أر مارأيت ياأخي.

-: قد يكونون يجاملونك في هذا الأمر لأنك أكبر منا، أما أنا فقـد لمست ذلك من عمي وابنه.

: وماذا تريدنا أن نعمل ؟

-: نتغداهم قبل أن يتعشونا.

: وهل تريد من كفي اليمنى أن تجذم كفي اليسرى أو العكس ؟

-: أوه، كلامك ياأخي يدل على عدم المبالات.

: مبالات بمن ؟

-: بالخطر المحدق بنا !!

: لا عليك، لا عليك منه.

-: ومايدريك ؟

: أعلم ذلك، ثم إذا افترضنا أننا قمنا بتنفيذ ماتشير به فماذا تكون النتيجة ؟

-: التخلص منه والظفر بهذا الحصان.

: أنسيت أن أبناء أختك منه سيصبحون يتامى وأختك ستمسى أرملة عندك ؟

-: أوه، هذا لا يهم.

: وما المهم إذا ؟ حصان أصيل قد نحصل عليه من وراء ذلك إذا افترضنا أننا نجونا منه.

-: ومن سيهلكنا ؟

: إنه بطل سيدافع عن نفسه، وأبوه سيساعده.

-: نحن خمسة ولله الحمد.

: الحمد لله، ولكن المواجهة، بيننا وبينهم خطيرة.

-: لا نواجههم.

: أتريدنا أن نختلهم ونغدر بهم ؟

-: لم أقصد ذلك.

: ليس هناك غير طريقين اثنين إما المواجهة معهم والا الغدر بهم، والغدر ليس من طبعنا وشيمتنا، ولا تضمه عادتنا وتقاليدنا ولا يرتضيه ديننا.

-: أوه . . لقد سددت على كافة السبل.

: وأنت طوحت بنا بعيداً عن الهدف الذي كنا نتحدث فيه.

-: إيه، أنت تتمنى الحصول على المستحيل إذا ؟

: بل أتمنى من كل قلبي الحصول على مثل هذا الحصان.

-: إذا، انتظر حتى تأتيك معجزة، أو تخدمك الصدف فتحصل على مثله.

: بل إنني سأحصل على مثله إذا استخدمت فكري.

-: إذا إضرب بعصاك في هذا العرق من النفود ليظهر لك حصانا أدهما أو أشقراً أو كميتا تمتطيه وتذود على صهوته عن كيانك.

: ليتنى لم أسمع هذا الكلام منك.

-: وماذا بكلامي ؟

: إنه استخفاف برأيي .

-: عفواً لم أقصد ذلك، ولكنى رميت من كلامي إلى عدم حدوث المستحيل .

: بالتفكير العميق يمكن الوصول إلى نتيجة .

-: أتريد شراءه بالمال ؟

: لن يبيعه حتى لو وضعته بالميزان ووضعت مقابله عشرة أضعافه من الذهب .

-: أجل كيف تستطيع الحصول عليه .

: دعنى أفكر .

ومع توديع الشمس لجوانب الأفق أسرعت عميرة إلى بيت أخوتها لتأخذ حاجة من أمها فسلمت على أخويها وعلى ضوء النار المتراقص رأت عميرة علامات الشرود والتفكير العميق بادية على محيا أخيها عمير فسألته :

-: ما لي أراك يا عمير شارد الذهن ؟

: هاه !! لا شيء، لا شيء، يا أخيه .

-: إنه يفكر بعمق، باحثا عن حصان مثل حصان عرار في بحر أفكاره، هكذا نطق أخوها الثاني .

: عن حصان عرار !!

-: نعم، إنه يبحث عنه ولن يجده .

: أصحيح مايقول ؟

-: إن أخاك هذه الليلة قد طال لسانه أكثر مما يجب .

: لم أعرف كنه الموضوع حتى الآن، أخبرني ياعمير.

-: كنت أتمنى بالفعل من كل قلبي أن أمتلك حصاناً مثل حصان زوجك .

: وهل أنت محقا في هذه الأمنية ؟

-: بكل تأكيد.

: إذا كنت صادقاً فسوف أحقق لك أمنيتك .

-: تحققين أمنيتي !! كيف ؟ يقول ذلك وهو يعتدل في جلسته .

: سأجعلك تحصل على مثل هذا الحصان .

-: بربك كيف ؟ ماذا ستعملين ؟

: سأدلكم على طريقة يتم بموجبها ذلك.

-: ماهى ؟ ماهى ؟

: تطلبون منه أن يلقح واحدة من خيولكم من حصانه، وبذلك تنتقل سلالته إلى خيولكم.

-: آه . . هذه، ولكن « يَامَالْ حِزِنْ بِرُوْمَكْ حَجَرْ » !!

: أوه متى سننتظر نزوة حصان تلقح منها الفرس أو لا تلقح هذا إذا وافق على ذلك. يقول هذا الكلام أخوها الثاني.

-: لماذا أنت مستعجل لهذه الدرجة ياأخي ؟

: أوه، متى يتحقق هذا الذي تقولين ؟

-: يبدو أنك ياأخي ممن ينطبق عليهم المثل ربي ارزق وعجل !!

: نعم، نعم، إنى أريد حصانا الليلة قبل الصباح.

-: أوه، هذا لن يحدث، إن من لا ينظر للأمور بمنظار بعيد ويخطط لهدفه في المدى الطويل لن ينجح أبداً.

: إن معها حق ياأخي. هكذا نطق عمير.

-: لماذا الرجل يحرص على أن تكون زوجته ابنة رجال طيبين أو شجعان، وذلك ليرزقه الله منها ذرية يجذبهم عامل الوراثة.

: تعرفين أخاك ياعميرة، إنه شاب مندفع وقد تخفاه بعض الأمور.

-: لن أعاتبه على ذلك، ولكن إذا كنتم تريدون الحصول على نسل هذا الحصان فعليكم الطلب من عرار تلقيح أحد خيولكم منه، فقد لا يمانع.

: لا يمانع !!

-: لا أدري، ولكنه قبل مدة قصيرة لقحت منه فرسه فلانة.

: لماذا لا تمهدين للموضوع أنت ؟

-: ليس عندي مايمنع، ولكنني أخشى أن يؤثر ذلك على علاقتي معه، لا سيما وأنه قد وضع كامل ثقته بي في كل شيء.

: ما علاقة ذلك بالحصان ؟

-: إن لدى خطوة ثانية إذا لم يوافق على طلبكم، وأرجو الا تشعره أنني على علم بالأمر.

: ماهى خطتك الثانية ؟

-: إذا لم تفلح محاولتكم معه فسأخبركم عنها.

: ماهى ؟

-: أوه، لا تستعجل ياأخي، وعليكم بالكتمان الشديد.

: إنك على عجلة من أمرك ياأخي، هكذا تكلم عمير.

-: إذا، أستودعكم الله، وسأراقب الأمور عن بعد.

: سلمت أفكارك ياأختاه.

-: أرايت كيف اهتدينا إلى فكرة معينة ؟

: أوه . . . ولكنها بطيئة التنفيذ.

-: ليست بطيئة.

: ليس قبل خمس سنوات.

-: ما أقربها على الحي منا !!

: ومتى ستكلمه في الأمر ؟

-: إذا رأيت أن الوقت ملائم لذلك.

: إحرص أن يكون بغياب والده.

-: لماذا ؟

: لأنه قد يكتشف الخطة ويؤثر عليه في عدم الموافقة.

في إحدى الجلسات المسائية المقمرة الهادئة غادر الأمير المجلس متجها إلى أحد عروق النفود القريبة من البيوت وهو يتغنى باحدى القصائد بصوت هادىء وهذا يدل على سروره وانبساطه، عند ذلك تبعه عمير، وهو يشاطره التغنى ببقية البيت، مما جعل الإثنان يتناوبان التغنى بالبيت الواحد يغمرهما السرور الممزوج بالفرح، حتى انتهيا إلى قمة الدعص الشامخ حيث تسنما ذروته، وقد تأثر عرار بأبيات القصيدة حينما قال لابن عمه.

-: لقد أبدع الشاعر في تجسيد مشاعره وابراز خلجات قلبه في هذا البيت :

٢٣ مَــزَّيْتْ مِنْ صَـافِيْ ثَنَـايَاهْ طِـرْقُـوْعْ   وْيَـامَـا حَـلَى يَـا جْدَيْـعْ حِبَّ الْمِـوَدَّهْ

: لا شك، ولكنه قد بالغ في البيت الثاني.

-: ما وجه المبالغة ؟

: لقد بالغ عندما قال :

٢٤ خَذَيْتْ سَبْعْ اسْبُوْعْ لَا اشْرَبْ وَلَا اجُوْعْ   وَاشُـوْفْ حَـالِيْ بَـالَّلَحْم مِـسْتِـرِدَّهْ

-: فعلاً، إن فيه شيئاً من المبالغة.

: إنني أراه قد تطرف في المبالغة، فلو قال يوم أو يومين لكـان أقرب للواقـع أن يصبر الانسان عن الطعام والشراب أما أن يبقى سبعة أسابيع بدون طعام ولا شراب فبلا شك أنه سيموت مهما كانت قيمة محبوبته عنده، ومهما كان جمالها حتى لو كان مجنون ليلى.

-: قد ينظر لمثل هذه الأمور من لم يشغف قلبه هوى الغانيات.

: أرى عاطفتك متقدة هذه الليلة.

-: لو أبصرت عيناك مارأيت هذا اليوم لما لمتنى ياعمير !!

: لا لوم عليك لا لوم، وماذا رأيت ؟

-: كنت ممتطيا صهوة جوادي في تدريباته اليومية حين مر ظعن فريق من العرب فـاعتـرضتهم لأعـرف من هم ؟ ومن أين أتـوا ؟ وأين يـريـدون ؟ وعنـدمـا استوقفت الظعن أطلت علي من أحد الهـوادج تلك المرأة التي لم تـرعيني مثلها منذ أن شق بصري.

: أهي جميلة حقاً، أم أنها صارت كذلك في عينيك ؟

-: ليس الخبر كالعيان، والله لو رأيتها لطار عقلك.

: هل هي متزوجة أم لا ؟

-: لا علم لي بذلك.

: إن لم تكن متزوجة فهل ترغب في الزواج منها ؟

-: نعم، وبكل تأكيد، ولكن كيف الوصول إلى ذلك ؟

: ليس هذا بعسير.

-: كيف ؟

: هم بلاشك سينزلون غير بعيد عنا.
-: وإن يكن.
: وإن كشفت لك ذلك فماذا تعطيني ؟
-: أعطيك ما تريد !!
: ماأريد ؟
-: حتى والله لو أردت أعز شيء عندي.
: إنني سأطلب شيئاً بسيطاً.
-: مهما كان غالياً، إذا عرفت لي إن كانت متزوجة أم فتاة ؟
: أبشر .
-: وماذا ستفعل .
: سأكشف ذلك بنفسي.
-: بنفسك !!
: نعم، بواسطة إحدى العجائز التي أرسلها.
-: آه، صحيح، إذا توكل على الله وماتطلب منى بعد ذلك فسوف إعطيك إياه.
: آه . . أخشى أن تتراجع في كلامك ؟
-: ليس مثلي من يتراجع عن كلامه، ولكن . . .
: ولكن ماذا ؟
-: لكن ما هو الشيء الذي ستطلبه مني ؟
: هو شيء بسيط بالنسبة لك.
-: أخبرني به حتى يتضح لي الأمر والتزم لك بكلام قاطع.
: إنني أريد أن تسمح بتلقيح فرسي من حصانك الأدهم.
-: من حصاني !! وانتصب في جلسته فوق الكثيب.
: نعم، وماذا في ذلك ؟
-: ماذا في ذلك !! تقول هذا صادقاً ؟
: نعم، إننى سأسعى في تزويجك من تحب ! يقول ذلك وهو يبتسم.
-: إلا هذا الطلب فهو مستحيل.
: لماذا ؟

-: والله يابن العم لو طلبت مني إحدى عيني هاتين لا قتلعتها لك أما مطلبك هذا فلن أوافق عليه.

: ماهو السبب ؟

-: أنت لا تجهل مدى حبي لهذا الحصان.

: أنا لا أريد الحصان، يسلم رأسك ويبقى لك.

-: وماذا تريد إذا ؟

: أريد من سلالته فلوا أو مهرة.

-: إنك تريد أن تسلبه مني بطريقة أخرى.

: أبداً، أبداً، سيبقى لك.

-: يبقى !! ولمثلي يقال هذا الكلام ؟

: أنسيت مايقابل هذه العملية ؟

-: ماذا يقابلها ؟

: سنبحث لك عن تلك الفتاة وتخطبها.

-: إسمع ياعمير، والله لو جمعت لي أجمل جميلات من على وجه الأرض مقابل شعرة واحدة من ذلك الحصان لرفضتهن.

: لم أرد منه شعرة ولا قطعة لحم.

-: ولا حتى نزوة واحدة. يقول ذلك وهو يتحفز محتديا في مجلسه.

: أهدأ، أهدأ يابن العم إن مطلبي هذا ملغي من أساسه.

-: لا تلمني ياابن العم، فلقد أفرت دمي.

: لا بارك الله بهذا الحديث الذي جر بعضه.

-: إيه، أنت لا تتوقف عن دس يدك في الجحور.

: عفواً إن كان قد أغضبك كلامي.

-: ويحاول عرار أن ينهض قائلاً : ما أجمل هذا المكان لولا بعض المنغصات !!

: يمسكه عمير ويطلب منه الجلوس قائلاً : لننس هذا الموضوع العابر، ونعتبره من المزاح الدارج في مجالس السمر، وخذ مجلسك لنتحدث فوق رأس هذا الكثيب في هذه الليلة المقمرة.

-: كيف يدخل الحديث إلى قلبي وقد سدت أبوابه.

: دعك من هذا، وصف لي محاسن تلك الفتاة.

-: ليس إلى ذلك سبيلاً، لقد طمس قلبي عن مفاتنها ومحاسنها بعد اقتران هذا المطلب بها.

: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا بارك الله بهذه الكلمة التي جئت بها على سبيل المزح والمداعبة.

-: قد يكون مزحك رزحاً ؟

: أبداً، أبداً، تعرفني، أنا ابن عمك وصهرك وساعدك الأيمن في الملمات. يقول ذلك وهو يحاول امتصاص كل أثر لهذا الموضوع.

-: بارك الله فيك، بارك الله فيك، يقول ذلك عرار بعد أن هدأ من سورة غضبه.

: دعنا نتغنى ببقية القصيدة التى كنا نتغنى بها من قبل.

وفي اليوم التالي عندما دنفت عميرة إلى بيت أخيها فقال لها :

-: هاه، ماهى خطوتك الثانية ؟

: هل حاولت معه ؟

-: نعم، لقد حاولت معه البارحة فلم أفلح.

: قد يكون مكدر البال ؟

-: أبداً، لقد كان في أسعد ساعاته.

: ماذا قال لك ؟

-: لقد غضب وتحفز عندما قلت له ذلك.

: هل أغضبته؟

-: لا، فعندما رأيته قد تنفرز جعلت الطلب من باب المزح وحاولت أن أنسيه إياه.

-: حسنا فعلت.

: وماذا عندك أنت ؟

-: دع الأمور حتى تهدأ ويمضى على الأمر فترة يغفل فيها وينسى كل ماحدث وسأنفذ خطتي.

: كيف ستكون خطتك ؟

-: أنت تعرف أن عرار حاد الطبع صلف المعاملة.

: هذا ما يجعلني أيأس منه في هذا الجانب.

-: ولكنني أجاريه وأعرف استغلال الفرصة المناسبة.

: كيف، كيف بربك ؟

-: هو الآن قد سلمني مقاليد الأمور كلها.

: بما في ذلك الحصان.

-: هذه مفاتيح حديد الحصان بيدي، وانا الذي أضع لـه علفه واعلق في رقبتـه العليق في الصباح والمساء واعتنى به أكثر مما أعتنى بصاحبه.

: ولكن كيف ستنفذين خطتك ؟

-: إن زوجي كما قلت لك حاد الطبع عصبي المزاح عنيداً صارماً في تنفيذ أوامره ولو أمزح عليه مرة أجبرني أن يكون هذا المزاح حقيقة.

: كيف ؟ لم أفهم !!

-: سأشرح لك ذلك، لو طلب منى حاجة معينة وقلت إنها في المكان الفلاني فإنه يجبرني على المجيء بها مهما كانت عسيرة المنال.

: لكن هذا لا يكفى، إلا إذا كنت لم أدرك ما تعنين.

-: ولو طلب منى أن أقوم بخدمة معينة وسميت مكاناً معيناً فـأنه يجبـرني أن أقوم بهذه الخدمة في ذلك المكان رغماً عن أنفي.

: وكيف تصبرين على هذا الجور والحيف ؟ لماذا لم تخبرينا ؟

-: إصبر ياأخي، هذا زوجي سألبى له طلبه مهما كان.

: ماهى خطتك ؟

-: إنه كما قلت لك في بدايـة الحديث قـد وكل إليَّ أمـر الحصان ويسـألني في كل صباح ومساء عن أحواله، ومانوع العلف الذي علقت له وكميتـه، ولم يسبق أن عاكسته في أي أمر يتعلق بالحصان.

: والآن. سأعانده عندما يسألني عنه وأعين مكاناً للتعليق له فيه وسيجبرني على وصول ذلك المكان، والتعليق للحصان فيه.

-: مكان !!

: نعم، مكان ما، أحدده أنا.

-: ومافائدتنا من ذلك ؟

: عليكم أن توجدوا خيلكم في ذلك المكان لكي ينزو عليها الحصان الواحدة بعد الأخرى دون أن يعلم هو بذلك.

-: آه . . فهمت، ولكن أخشى أن يعلم بذلك ؟

: لن يعلم إلا بعد أن تلقح خيولكم، وستدافعون عنى إذا أراد أن يمسنى بسوء.

-: هذه خطة جيدة، ولكنى أخشى ألا يأمرك بهذا الأمر.

: هذا زوجي وأنا أعلم به، إنه عنيد شديد.

-: متى تحققين هذه الغاية ؟

: إذا جاء ذلك اليوم الموعود.

-: دعنا نمكث فترة ينسى فيها كل شيء.

وبعد مضى أكثر من شهرين على الموضوع وعدت عميرة أخوتها في ليلة كذا بفبضة كذا المعلومة التى تبعد عنهم مسافة ساعة للحصان.

وتظاهرت في تلك الليلة بالاجهاد والتعب تجر رجيلها في مشيتها البطيئة وأقبلت على زوجها في البيت حيث سألها : السؤال المعتاد :

: هل علقت للحصان ياعميرة ؟

-: أوه، الحصان، الحصان !! لقد آذيتنى بهذا الحصان.

: آذيتك بالحصان ! ؟

-: نعم، في كل صباح ومساء تسألني هذا السؤال، إنك لا تعذر ولا تاوي.

: ماذا دهاك ياامرأة ! ؟

-: دهاني تصرفك نحوي، كأنه ليس لنا شغل في هذا البيت غير حصانك.

: إن العناية بحصاني يجب أن تقدم على أي عمل آخر.

-: إيه . . كل يوم أضع له علفه، وأعلق له عليقه ولا أسلم من سؤالك المتكرر في الصباح والمساء.

: لماذا أنت غاضبة اليوم ؟

-: إنني متعبة، وكيف لا تريدني أن أغضب وأنت تعاملني بهذه القسوة ؟

: الحق أن أضربك حتى أعفر خدك بالتراب.

-: إنك قادر على كل شيء.

: أجل، ومن يشك في ذلك ؟

-: من الأفضل لك أن تقول إذهبي بالحصان وعلقى عليه بفيضه كذا.

: أتعاندينني في هذا الأمر يا امرأة ؟ والله لتذهبين به الآن وتعلقى عليه في تلك الروضة وتعودين به قبل النوم.

-: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، عفواً إنني لم أقصد معاندتك ولكنها كلمة زل بها لساني.

: « لِسانٌ يُعْطَى الْقَطِعْ » لقد آليت على نفسي لتذهبين به الآن ومعك العليق وتعلقين له هناك وتجلسين عنده حتى ينتهى من علفه ثم تأتين به.

-: أرجوك، أتوسل إليك أن تعفيني من هذه المهمة.

: أنت أدرى بعاقبة عصيان أمرى.

-: ولكنني متعبة متعبة ومنهكة القوى ولا أجسر لوحدى في هذا الليل الدامس.

: إذا كنت متعبة ففي عصا هذه الخيزرانة مايذهب تعبك ويشد قواك، أما الجسارة فأنت الجانية على نفسك وعليك تحمل حصاد لسانك، ولن يحدث لك شيء فأنت تخيفين الناس.

-: أتريد أن تجبرني بالذهاب ؟

: لقد أجبرك لسانك .

-: إنني مخطئة وأرجو عفوك.

: لقد حلفت عليك ولن ينقض حلفي أحد كائن من كان فعليك تنفيذ ماأمرتك به وإلا . . .

-: وإلا ماذا ؟

: أنت خير من يعرف ما أعنى.

-: إيه، أمرى إلى الله، هكذا نحن النساء نعيش معكم أيها الرجال تحت طائلة القسر.

: لأنكن خلقتن من ضلع أعوج.

وتجر عميرة رجيلها متثاقلة وتمشي مكرهة لتأخذ علف الحصان وتفتح أقفال رباطه وتمتطي صهوته ثم تتوجه للجهة المعلومة يتهادى بها الهوينى حتى إذا أبعدت قليلا عن النزل لكدته فطفح بها إلى حيث يوجد إخوتها الخمسة مع أمهارهم الخمس وهي تحس بفرحة غامرة وعند وصولها إلى إخوتها أطلقوا العنان للحصان فنزى علي الخيل الخمس الواحدة بعد الأخرى ثم عادت به من حيث أتت وربطته في مكانه بعد أن انهرس الليل وتضاهرت بالارهاق الشديد فرمت بنفسها في فراشها وغطت في نوم عميق حتى الصباح.

وعندما صلى عرار الصبح مر على الحصان كعادته، فوجده صافنا في حالة لا تسر الناظر إليه، فلم يصدق ماتراه عيناه واستقبل الحصان فلم يجد فيه تلك الجذوة المتقدة من النشاط التي يسقبله بها كل يوم وفقد تلك الهمهمة والمداعبة، ثم استدبره فوجده ضامراً كالعسيب مرتخى الرجلين، ولمس جنبه فوجد آثار العرق باقية على شعره في أسفل بطنه، عند ذلك عاد مسرعاً إلى زوجته وركلها برجله قائلاً :

-: عميرة، عميرة، هيا استيقظى من النوم، انهضى.

: ماذا تريد مني ؟ دعني أنام قليلا إنني متعبة.

-: « **أَعْطَاكْ الله التَّعَبْ وَطَقّ الْكَعَبْ** » قومي، ماذا عملت بالحصان يالعينة ؟

: أوه، الحصان، الحصان !! وماذا أعمل به ؟

-: إنه متغير عن حالته الأولى.

: ماذا به ؟

-: الحصان قد مرست عافيته.

: مرست عافيته !! ومايدريك عنه ؟

-: لقد مررت به ورأيته.

: الناس لا يزالون في غبشة الليل لا يميزون الأشياء.

-: إن التعب والارهاق واضح عليه.

: هذه إرادتك وقد حققتها لك.

-: ولكن ماذا عملت به .

: لم أفعل به شيئاً . غير أنني ركبته حتى وصلت إلى الفيضة ثم علقت عليه علفه وجلست عنده أصارع آلام الارهاق حتى آكل عليقـه ثم ركبت عليه ورجعت به وذلك براً بقسمك .

-: ولم يحدث له شيء ؟

: لم يحدث له شيء .

-: لا أصدق !!

: لماذا لا تصدقني ؟

-: الحصان قد أنهك .

: إيه المسافة بعيدة

-: لا أظن أن مسافة كتلك تحدث بالحصان هذا الارهاق .

: صدقني ياأخي أنني لا أقول لك غير الواقع .

-: يابنة الأجواد ، أنا أعرف حصاني لا تؤثر فيه مثل هذه المسـافة فـالحصان كـأنه أغار يوم بكامله وطارد مجموعة من الخيل .

: أتظنني طاردت على ظهره مجموعة من الخيل في هذا الليل الحالك ؟

-: هاه !! لا أظن ذلك لا أظن .

: أجل لماذا تثير هذه التساؤلات غير المنطقية ؟

-: ماحيرني وجعلني أتساءل هو الحالة السيئة التي أصبح عليها الحصان .

: صدقني ياابن الأجواد أننى لولا الحرص على رضاك والوفاء بقسمك لما ذهبت إلى هناك ، وأنا في هذه الحالة السيئة التى شاهدتنى عليها البارحة .

-: أنا لا أشك في ذلك ، ولكن ما الذي جعل الحصان بهذه الحالة ؟

: حالة ماذا ؟

-: حالة يرثى لها ، والله لكأنه طرد سبعا من الخيل أو نزى على مجموعة منها .

: ووقعت هذه الجملة الأخيرة وقع الصاعقة على عميرة ولذلك تجاهلتها قائلة : والله ياأخى لم أزد على الذهاب عليه للبر بقسمك ثم العودة مرة أخرى .

-: هذا المشوار لا يفعل بالحصان هكذا ؟

: فتشت في ذهنها عن مخرج من هذا المأزق فقالت : أوه . . . لقد ذكرت ، لقد

ذكرت، قاتل الله الشيطان لقد أنساني.

-: ماذا أنساك ؟

: في طريق عودتي تجشم الحصان خبارة جرذان، ولم أشعر إلا وقد طفح الحصان من تحتي وكدت أسقط عن ظهره فقفز قفزة طويلة على غير هدى ويمكن أن تكون هذه القفزة قد اثرت عليه بمشع في عضلاته.

-: لم تكن عادته أن يجفل من خبار الجرذان، إنه يتجشم ماهو أشد منها هولاً.

: إذا لم تصدقني فقص أثره وترى صحة قولي، إيه، فقد يكون رأي فيها ثعبانا ضخماً أو حية عظيمة، فنقز عنها.

-: ها!! قد يكون، قد يكون.

: إنني متأكدة مما أقول.

-: مشع!! ولكن مادواء المشع في العضلات؟

: إن الحلبة من أحسن ما يخيط ملخ العضلات إذا خلطت مع علف الحصان.

-: وهل لديك منها شيء؟

: عرفت أن الحيلة انطلت عليه فاسرعت قائلة: نعم إن لدي من حبة الحلبة ما يكفيه. فقد ادخرتها لمثل هذه المواقف.

-: إذا أحضري ما لديك واخلطيه بعلفه منذ الآن.

: أبشر، أمرك على العين والرأس «يَا بَعَدْ حَيِّ وَمَيْتِيْ».

-: إيه، لا بارك الله بتلك الساعة التي أمرتك فيها بالذهاب إلى هناك.

: أوه، يا أبا فلان وهل هذه أول أو آخر مرة تجبرني على ما أكره؟

-: إيه، الحقيقة إنني أحيانا أركب رأسي في أمور قد تضرني، ومنها هذا الأمر.

: إنه قد يضرك كثيراً.

-: يضرني!!

: أعني أن حصانك سيبقى مريضاً لعدة أيام حتى تلتحم فتوق ملخه.

-: حقاً إنه سيبقى كذلك، إيه... لا بارك الله بتلك الساعة.

: هداك الله، فكم جشمتني من الأهوال.

-: وأنت دائماً تبحثين عن معاندتي.

: سامحك الله!! أنا أعاندك؟

-: وماذا أكثر من عنادك البارحة؟

: ولم تـرد أن تعود لنفس الحـديث فقالت: سـامحني لقد أخـطأت عليـك ولكن حـالتي النفسية قـد أرغمتني على ذلـك وهذه قبلة مني عـلى رأسـك، سـامحني أرجوك.

-: أنت تعـرفين أكـثر من غيرك أنني لا أحب من يعـاندني كـائن من كان بحيث تدفعني نفسي أن أجبره على فعل ما يعاندني به.

: إنني أعرف ذلك، ولكن قد يزل لسان الإنسان بكلمة.

-: حذار أن يكون ذلك الزلل علي.

: لن يحدث ذلك مستقبلاً إن شاء الله: تقـول ذلك وهي تنقى حبـة الحلبة من العوالق والشوائب تمهيداً لخلطها في علف الحصان.

-: أكل هذا تريدين أن تضعيه له؟

: لا، إنني سأضع في كـل يوم مـلء هذا الإنـاء حتى يأكله مـع العلف دون أن يشعر به، لأن الخيل تكره الطعم أو الرائحة الغريبة في علفها.

-: إيه، أعانك الله. الحقيني بالعلف.

يقـول ذلك وهـو يغادر البيت متوجهـا إلى مـربط الحصـان بعـد أن بسـطت الشمس نورها على الأرض وعاد إلى الحصـان يتفقده في وضـح النهار، فلم يلحظ فيـه أي علامـة تدل عـلى حدوث شيء غـريب، وبدأ يمسـح صهوتـه وخاصـرتيه ويتجسس مقدمة صـدره، يفرصهـا بابهـامه يقصهـا قصًا عله يعـثر على نقـطة إذا ضغط عليها جزع الحصان، ليعرف ما إذا كان هناك خلج في صدره فلم يجد شيئاً ثم بدأ يتجسس ما بين أضلاعه وبقى عنده صـدر النهار بكـامله في بحث وفحص دقيق وهو يردد في نفسـه كأن هـذا الحصان قـد طارد مجمـوعة من الخيـل في شوط واحد، أو كأنه نزى على مجموعة أفراس في ساعة واحدة ولكني لم ألاحظ عليه أثـراً للنزو لوجود الغبار على الموضع الخاص بهذه الناحية.

ومرت شحابة ذلك اليـوم وعرار يصـارع أفكاره شـارد الذهن لا يـدرى ماذا حدث لجواده يقف عنده حينا ثم يـدنف إلى مجلسه بجـانب والده متصـدراً مجلس الـرجال، ولكن عـلى غير عـادته، حيث يجلس واجمـا لا ينبس بكلمة واحـدة ومـا

يلبث إلا قليلاً حتى يقوم ويدخل إلى البيت ثم يقف ساجماً على أحد أطناب البيت ثم يعود مرة أخرى إلى مجلسه، ولم يتجرأ أحد من جلسائه أن يسأله عما به، ظنا منهم أنه يفكر في أمر من الأمور لا يريد أن يشاركه فيه أحد وفي إحدى وقفاته على طنب البيت سألته زوجته عميرة:

-: ما بك يا عرار، أراك اليوم على غير عادتك؟

: هاه!! ما بي!؟

-: أراك سارحاً في تفكير عميق.

: إيه، أفكر في حصاني.

-: في حصانك!!

: نعم.

-: إنها وعكة بسيطة ستزول إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة.

: أرجو من الله ذلك، وليس هذا ما يشغل بالي.

-: وماذا يشغله إذا؟

: أنا أشك أن ما بالحصان مشع أو خلج.

-: وما يدريك؟

: لقد قصصت جسمه أنملة أنملة فلم أجد موضعاً وضعت عليه إصبعي ووجدته يجزع منه.

-: وقع هذا الكلام منها موقعا مؤثراً ولكنها استدركت قائلة: ليس ضرورياً أن يكون المشع أو الملخ خارجياً.

: خارجياً!!

-: نعم إنني أقصد قد يكون ذلك في العضلات الداخلية، للقلب أو المعاليق وعند ذلك لا يبين أثناء همزه من أي موضع في جسمه.

: هاه!! ماذا تقولين؟

-: أقول إذا كان التمزق في العضلات الداخلية فلا يبين من الخارج إلا إذا كان عميقاً وخطراً لا سمح الله.

: خطراً!!

-: نعم، إذا كان خطراً فإنه يظهر عليه، أما حصانك فليس فيه غير ملخ داخلي خفيف سوف يشفى مع العلاج بعد أيام قلائل إن شاء الله.

: أحقاً ما تقولين!؟

-: أقول إن شاء الله، سأعتني به بنفسي فلا تنقل هماً له، وسوف ترى التحسن عليه من يوم غد.

: هاه.. من الغد!!

-: ثق بكلامي، ولا تفكر فيه، وعليك بالذهاب إلى مجلسك بين الرجال حتى لا يلاحظوا عليك ما أرى من الذهول.

: إن معك حق.

ويعود عرار إلى مجلسه محاولاً تناسي الموضوع، لكنه يعصف بفكره بين الآونة والأخرى.

وفي الصباح بدأ التحسن واضحاً على الحصان وشيئاً فشيئاً حتى استعاد كامل عافيته ونشاطه، وعادت إليه حيويته وعنفوانه، غير أن هاجسا لازال يراود قلب عرار بين الحين والآخر عن السرالكا من وراء تلك الحالة المتردية التي وصل إليها حصانه في ذلك الوقت واستمرت الشكوك تحوم حول هذه النقطة التي لم يجد لها تفسيراً مقنعاً وانصبت علامات الاستفهام حول زوجته بأن لديها مفتاح السر وراء تلك الحالة، ولكنه إذا استعاد وقائع الأمر يجده هو نفسه الذي أجبرها على الذهاب في تلك الليلة الظلماء رغما عن أنفها وهي بتلك الحالة النفسية السيئة، لكنها التصرفات السيئة الخاطئة التي ارتكبها ومضت الشهور تترى حتى انبلج ضحى ذلك اليوم الربيعي الذي وجد عرار نفسه فيه جالساً في ذرى البيت عن نسيم الهواء البارد رأى زوجته وليس في يدها عمل تقوم به وهي تحاول أن تجد لها مكاناً بالشمس قرب زوجها، واستغل عرار هذه السانحة فقال:

-: إقتربي هنا لنلعب هذه اللعبة.

: نلعب!! ماذا تريدنا أن نلعب؟

-: الشطرنج مثلاً.

: إننى لا أجيد هذه اللعبة بدرجة كافية .

-: أوه. . . إنك تجيدينها أكثر مني .

: إنك تستهزيء بي .

-: أبداً، إنك حاذقة في مثل هذه الألعاب.

: أوه، ولكن هذه الألعاب ستلهينا عن عملنا اليومي .

-: سنلعب مادمنا جالسين بهذه الشمس .

: أبشر.

-: قبل أن تجلسي لي عليك شرط واحد .

: ماذا تشترط عليّ؟

-: إن غلبتك في هذه اللعبة أقول ما أريد قوله .

: وهل سبق أن منعتك من أن تقول شيئاً؟

-: لا ، ولكن إذا صار الغلب لك أريد منك أن تردي على قولي .

: أوه. . أبشر، ولكن إضمن لي أن أغلبك وسوف أقول لك ما تريد .

-: إذا، أحضري قطع اللعب.

: أين هي؟

-: انظريها في تلك الصرة معلقة في عمود البيت.

: هاه. . هذه هي .

-: لنبدأ، أينا يبدأ باللعب أولاً؟

: إذا لنجر القرعة .

-: ها . . خرجت باسمي .

ويبدأ اللعب ويحتدم الصراع بحيث يحاول كل منها إحراق قطع صاحبه، ولم تمض ساعة من زمان حتى غلب عرار زوجته في هذه الجولة، عندها تنفس الصعداء وقال:

٢٥ الْخَيْلَ يَا مَشْهُورْ وَالخَيْل جِرَّدَتْ | عَلَى طِمَعْ أوْزَالْ بَالْعَيْنَ زَايِلَهْ

٢٦ أنَا كِمَا جِرٍّ عَلَى رَاسْ مَرْقَبْ | تَهَزْلَفْ عَلَى ثِبْرٍ نِزَعْ مِنْ مِفَايْلَهْ

٢٧ حْصَانِي عَذَابْ الخَيْلْ يَا صَارْ طَارِدْ | وِانْ صَارْ مَطْرُوْدٍ فَلاَ أحْدٍ بْنَايْلَهْ

وعند ذلك عرفت عميرة أن زوجها لازالت تخالجة بعض الوساوس والشكوك حول ما جرى لحصانه قبل ما يزيد على الحول، عند ذلك أرادت أن تقطع شكه باليقين وأن تنزع عنه تلك الأوهام التي أصبحت حقيقة ماثلة تجرى على الأرض بعد أن وضعت كل واحدة من خيول إخوانها الخمس مهراً أو فلوة من سلالة هذا الحصان الذي يفتخر به في طول المجالس وعرضها، وتتصدر الأحاديث عنه تجمعات الرجال وعلية القوم. ثم استؤنف اللعب مرة ثانية فاستماتت في المحاولة لا حراق قطع زوجها حتى غلبته في نهاية الجولة الثانية، عند ذلك طلب منها أن ترد عليه بابيات تضمن الاجابة عما استفسر عنه قائلاً:

-: هيا، ردي على أبياتي السابقة.

: هاه!! أرد على أبياتك؟

-: نعم، كما جرى الاتفاق، أنسيت ذلك؟

: لا، ولكنني.. ولكنني..

-: ولكنك ماذا؟

: لكنى خائفة.

-: مِنْ مَنْ؟

: منك.

-: ولماذا الخوف؟

: لن أقول لك، إلا إذا جعلتني في وجه من يحميني منك.

-: من يحميك مني!!

: نعم.

-: من تريدين أن يحميك؟

: أريد أخى من أمي.

-: أتريدين أخيك فارس

: نعم.

-: ولماذا لم تختاري أحداً من اخوتك الخمسة الآخرين؟

: لم يكن حاضراً منهم غير ذلك الأخرس الذي لا يعرف الكلام ثم إن أولئك

طرف مشترك في الموضوع.

-: طرف في الموضوع!!

: نعم، نعم.

-: ينادي عرار فارساً فلما حضر قال له: هذه أختك عميرة تريد منك أن تكلفني بحيث لا أوذيها.

: من يكفلك ضد زوجتك؟

-: أنا من يكفلني!؟

: نعم.

-: وهل سبق أن نكثت عهداً أو غرمت كفيلاً؟

: حاشا لله، ولكن هذا بينك وبين زوجتك وأنتما لبعضكما أقرب مني لأي منكما.

-: إيه، ولكن إكفلني هذه المرة.

: على أي شيء أكفلك؟

-: إنها ستقول قولاً، وهي خائفة أن أوذيها بعد هذا القول.

: إنها على حق، ومن الذي سيقف في وجهك؟

-: عليك أن تكلفني هذه المرة.

: إن يدك طويلة وضربتك موجعة.

-: أقسم لك أنني لن أضربها بحصى أو عصا.

: هناك ما هو أخطر منها.

-: ما هو؟

: الحديد الذي منه السلاح.

-: بوجهي ألا أمسها بحصى أو عصا أو حديدة يقول ذلك وهو يمسح وجهه بيده.

: ما دام الأمر كذلك وأنت تسمعين كلامه فلا عليك.

-: إنني بوجه الله ثم وجهك.

: لا عليك لا عليك.

عند ذلك شعرت بالاطمئنان فانتصبت بجلستها قائلة :

٢٨ قَالَتْ عُمَيْرَةْ بِنْتْ مِنْ يَمْنَعْ التَّلاَ يجزنْ لَعِصْمَانْ الشَّوَارِبْ مِثَايْلَهْ
٢٩ كَلاَمٍ لْيَاهِيِّضْ عَلَى اسْمَاعْ مَجْلِسْ تَغَاوَى بِهْ الفِهْمَانْ مِنْ قَافْ قَايْلَهْ
٣٠ عَزِّيْ لْرَاعْ الْعَوْجْ وِانْ لَحَقْنَ أَرْبَعْ وَالْخَامْسَةْ تَبْرَا لِهِنْ مِنْ سَلاَيْلَهْ

ثم سكتت وهي تري غليان الدم المحتدم في وجه زوجها عندما صرخ بها قائلاً: ومن عليهن؟ ويلك!!

عند ذلك استأنفت قائلة :

٣١ عَلَيْهِنْ بْلاَ جْهَلاَ عْمَيْرِ بِنْ رَاشِدْ أُخُويْ الذِّي عَجْزَ الفِتَى عِنْ غَلاَيْلَهْ
٣٢ أُخُوْيَ الذِّي عَزَّى الجِنِينْ عَنْ أُمَّهْ أُخُوْيَ الذِّي يَشْكِي الْمِعَادِيْ مَلاَيْلَهْ
٣٣ مُحَنِّيْ خْشُوْمَ الْفُوْسْ مِنْ شِمَّخْ الذُّرَا عْمَيْرٍ لْيَا عَيَّا عَلَى الحَبْ كَايْلَه
٣٤ يَوْمٍ وْلَيْلٍ مِنْ دْخَاخِينْ مَيْرُهْ يَوْمٍ وْلَيْلٍ مِنْ مْصَالاَ شْعَايِلَهْ
٣٥ يَذْلِقْ ذْبَابْ السَّيْفْ وْيَمْشِيْ مْكَنْهِرْ عَلَى رَوْضِةٍ قَفْرٍ تِهَاوَى رْحَايْلَهْ
٣٦ وْلاَ غَيْلٍ إِلاَّ غَيْلَنَا يَآل رَاشِدْ جَاسٍ وْرِصْرَاصٍ وضِلْعٍ هَضَايْلَهْ
٣٧ وْلاَ صَبْرٍ الاَّ صَبْرَنَا يَآل رَاشِدْ وْطِيْبٍ بْلاَ صَبْرٍ فَلاَ أَحْدٍ بْنَايْلَهْ

عندما سمع عرار هذه القصيدة دامت به الأرض وتشنجت أعصابه فأخذ «الكدرة» إحدى قطع الشطرنج العظمية ورمي بها إلى وجه زوجته حيث ضربت ثنيتها العليا فانكسرت في فمها، فقفزت من وجهه مخافة ثورة غضبه، عند ذلك أمسك به فارس قائلاً :

-: لقد نكثت عهدك.

: هاه!! أعوذبالله من الشيطان الرجيم.

-: لقد ضربت عميرة.

: أنا ضربتها!؟

-: نعم لقد ضربتها بهذه القطعة العظمية.

: أوه، إنني لم أشعر، لم أدر بما حدث.

-: هكذا تبرر تصرفك السيء!؟

: ثم إنني..

-: إنك ماذا؟

: إنني قد بررت بقسمي فلم أضربها بحجر ولا عصا ولا حديدة، وإنما كانت قطعة من العظم بيدي رميتها دون أن أشعر بذلك.

-: المهم إنك ضربتها وكسرت ثنيتها.

: أوه. انكسرت ثنيتها!!

-: سآخذ منك حق أختي

: أنت!!

-: نعم أنا، **«وانا فارس أخو عميرة»**.

: أسمع مني.

-: وماذا ستسمعني؟

: لقد قلت لك إنني قد حذفت تلك القطعة بدون قصد وحصل ما حصل وانكسرت ثنيتها، وهذا نقصه علي أكثر مما هو عليك وإنني نادم على ما فعلت ولكن جرى القدر بما لا اريد.

-: ولكن، أين وجهك الذي مسحته لي؟ وأين الوجه الذي أواجه به الناس بعد أن أصبحت أختي ثر ماء بعد أن وضعتها في وجهي.

: أسمع مني كلمة أخيرة، إن لم تقتنع بالعذر الذي قلته لك ولم يعجبك هذا الوضع فاركب عليَّ من خيلك عشر.

-: هذا آخر ما عندك؟

: نعم، إن صلح ذلك، والا فاغرب عن وجهي ولا أراك مرة ثانية في هذا الحي.

إنصرف فارس وهو يصارع في نفسه لواعج الألم يبحث عمن يساعده على هذا اللأمير الذي أهانه أمام أخته.

أما عميرة فقد أخذت ثنيتها ووضعتها مع طحين في كيس صغير وارسلت به من تثق به إلى أخيها عمير وهي تعرف المكان الذي هو فيه دون أن يعلم هذا المندوب ما في داخل الكيس إلا أنه شيء من الدقيق قد أرسل معه إلى عمير ليستعين به أثناء سفره.

وما إن وصل الوعاء إلى عمير وهو يحتوي على هذه الكمية الضئيلة من الدقيق حتى استغرب وجزم أن وراء هذا الطحين ما وراءه فسأل المندوب عن سره، فلم يجبه بما يشفى غلته، عند ذلك أفرغ الدقيق في إناء، وبدأ يقبله بيده حتى شعر بجسم غريب صلب مرت عليه إحدى أنامله فتحسسه حتى عثر عليه ولما أخرجه وجده سن عظمية وبعد التمحيص اكتشف أن هذه السن تشبه ثنية أخته، وعند ذلك عرف كنه كمية الطحين، فقال للمندوب عد إلى أختي وأخبرها أنني وجدت هديتها خبزة لذيذة من هذا الدقيق وفي الحال أخذ يجهز حاله للعودة إلى أهله.

أما عرار فقد وقع عليه هذا الخبر الذي ساقته عميرة في قصيدتها وقع الصاعقة، وشعر أن زعامته للقبيلة قد آذنت بالرحيل على أيدى أبناء عمه الخمسة في الوقت الذي لم يكن معه من يسانده غير والده الشيخ، أما رجال قبيلته الذين يأتمرن بأمره فإنه لا يضمن انسياقهم وراء أهدافه نظراً لسوء معاملته لهم وتسلطه عليهم من جهة، ولتأييد الكثير منهم لابن عمه من جهة أخرى، وذلك لما يتمتع به عمير من رجاحة العقل وحسن الخلق بالاضافة إلى الشجاعة والكرم وغير ذلك من الخلال الحميدة. عند ذلك استشار والده في الأمر فأشار عليه أن يستنجد بسلطان الجوف الذي يتخذ من قصر مارد المشهور مقراً له، فعزم على ما أشار به والده. وشد الرحال مع والده إلى الهدف المنشود، دون أن يعلم أحد عن الغاية التي عزما عليها؛.

وبعد سفرهما من الحي بأيام قلائل قدم عمير إلى الحي ومعه سن أخته وعندما قابلها قال لها:

-: ما هذه السن التي ارسلت بها إليّ يا أخيه؟

: هذه ثنيتى التي بقى مكانها ثلمة بين أسناني.

-: هاه!! صحيح ومن أقتلعها؟

: ومن يقتلعها غير زوجي؟

-: زوجك!!

: نعم.

-: وكيف؟

: لقد ضربني «بالكدرة» حيث سقطت ثنيتي.

-: ما هو السبب؟

: السبب وقصت عليه القصة وروت له القصيدتان التبادلتان بينها وبين زوجها.

-: فعبس وجه عمير عند سماع الخبر وقال: ألم يأخذ فارس بحقك؟

: لم يستطع أن يفعل شيئاً في ساعتها نظراً لقرب رجال عرار منه، ولكنه هدد وتوعد وربما يأخذ حقي من زوجي.

-: سأسبقه إلى ذلك وآخذ حقك في الحال.

: كيف؟ إنه غائب.

-: سآخذه من نسائه.

: من نسائه!!

-: نعم.

: إن نساءه من محارمك!!

-: بلا شك ولكن الحكم الإلهي قال «السن بالسن».

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول لن تكوني الثرماء الوحيدة بين تلك النسوة.

: لم أفهم ما تريد؟

-: سآخذ بدل السن سنين من أخواته وتبقين ثالثة ثلاث.

: ولكن ما ذنبهن يا أخي؟

-: حتى لا يسخرن منك.

: ولكن المفروض أن تأخذ الحق منه.

-: إن له عندي ما هو أكبر من ذلك.

: وهل سيقع الشر بينكما؟

-: هو البادىء به، والبادىء أظلم.

: أرجوك ألا تفعل بأخواته شيئاً.

-: سأقتلع من كل واحدة ثنية.

: ولكن ذلك سيشوه منظر فمها.

-: كما شوه أخوها منظر فمك.

: أرجوك ألا تفعل.

-: ولماذا أرسلت إليَّ السن إذا؟

: لتأخذ الحق من المعتدى.

-: المعتدي لدي له أكثر من اقتلاع السن إذا عاد.

: لا حول ولا قوة إلا بالله، وهل أنت عازم على ذلك؟

-: كل العزم.

: ولكنهن صغيرات.

-: وإن يكن، والله لن يضحكن عليك ويتهكمن بك ويعيرنك بالثرماء من فعل يد أخوهن وأنا على قيد الحياة.

ويمضي عمير لتحقيق ما صمم عليه، ولما عاد شهوان وابنه عرار من سفرتهما وجدا أن عميراً قد فعل فعلته فقال شهوان:

٣٩	تِمَنَّيْتْ أَنَا وَالشَّرْ مَا يِمْتَنَا بُهْ	لَوَ أَنَا وْعَرارٍ بَالْمَكَانْ حْضُوْرْ
٤٠	رِبَايِبْ حُبٍّ لِلنَّمَاثِيْلْ وَالْهَوَى	زِمَايِم يِسْقَي الَعَدُوَّ مْرُوْرْ
٤١	هُوْ كَيْفَ يَوْم إنْ العَذَارَى مْغَيَّبهْ	تْشَنِّعْ بَنَاتٍ كِنَّهِنْ بْدُوْرْ
٤٢	لِهِنْ قَدْرٍ عْنِد كَسَّابَةْ الثَّنَا	وْعِنْدَ الرَّهَايَا مَالِهِنْ قْدُوْرْ

فرد عليه عمير:

٤٣	مَا ضَلْ عَقْلَكْ يَا شْهَوَانْ بْنَ ضَيْفَمْ	وَالْقِدِرْ لا أُوحِشْ تَراَهْ يِفُوْرْ
٤٤	الْعَامْ مَا نَرْضَى لِهِنْ مِهُوْنَةْ	وَالْيَوْمَ مَا نَاقَا لِهِنْ عْثُوْرَ

وعند ذلك شعر شهوان وابنه عرار بخطورة الموقف وقرب حدوث التلاحى بينهما وبين أبناء عمهم فابتلعا هذه الحادثة على مضض وحاول عرار الايقاع بأبناء عمه لكنهم أخذوا حذرهم ونزحوا ببيوتهم بعيداً عن الحي وأخذوا كامل احتياطاتهم ثم بدأ بعض من رجال عرار يميلون إلى عمير خفية وذلك رغبة منهم في الإفلات من سيطرة عرار، ومع مرور السنين شعر عرار بالضيق مما هو فيه في الوقت الذي رأى فيه بعض رجاله وقد مالت كفتهم مع أبناء عمه الذين انحازوا لوحدهم لا يخالطهم أحد تمهيداً للانقضاض على عرار الذي أصبح وحيداً

لا يساعده غير والده الهرم بينها بقية رجاله يجبذون الانفلات منه، وعزم عرار على مبادأة أبناء عمه قبل أن يباغتوه، فعاد مرة ثانية إلى سلطان الجوف الغير بعيد عنهم يستنجد به بعد أن سهل له الطريق وزين له الغنيمة المادية وسبي النساء، فجهز حملة بقيادته للقضاء على تلك البيوت الذين لا يتعدون أصابع اليد الواحدة وسحقهم عن آخرهم، ولما كان السلطان يجهل مسالك الطريق الرملية فقد سأل عرار عنها قائلاً:

-: كيف الطريق التي سنجتازها؟

: إنها سهلة جداً.

-: لقد أخبرني بعض رجالي أنها مهالك لا ماء فيها ولا كلأ.

: صحيح إنها كثبان رملية ولكنها قريبة.

-: قريبة!!

: نعم مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر.

-: أحقا ما تقول؟

: لم أزد على الحق فقد قطعتها في ثلاثة أيام.

-: لكن رجالي يقولون إنها نفود صعبة المسالك.

: صحيح لمن لا يعرفها، ولكني سأدلك على مسالكها السهلة التي لا يعرفها غير قلة من الناس.

-: قد نحتاج إلى كميات من المياه والطعام.

: الحمد لله، خيرك كثير وخزينتك مليئة بالخيرات.

-: حقاً إنها كما ذكرت، ولكن ماذا نجني من وراء هذه الحملة؟

: أول فائدة منها هي التمتع بصيد المها والغزلان المتواجدة بالنفود.

-: آه... صيدا الظباء وبقر الوحش.

: نعم إنها كثيرة جداً.

-: لماذا لا نذهب للصيد أولاً؟

: حتى لو كنت في رحلة صيد، فانك تحتاج إلى قافلة تحمل الماء والطعام وإلى رجال مسلحين لحمايتها من قطاع الطرق واللصوص.

-: حقا، حقا، إنها كذلك.

: واعتبر هذه الحملة رحلة صيد لمدة أسبوع تعود بعدها إلى قصرك العامر.

-: وما الغرض الثاني؟

: مساعدة رفيقك الماثل أمامك على شرذمة من الرجال.

-: شرذمة!!

: نعم، إنهم لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة.

-: إن خمسة من الرجال لا يحتاجون لمثل هذه الحملة الكبيرة.

: هذه الحملة ليس الغرض منها القضاء على هذه الشرذمة.

-: ماذا تقول!؟

: إن إظهار أبهة وعظمة السلطان على من ستمر عليهم من القبائل لها أثر كبير بالنسبة لكم.

-: وهل نحن بحاجة لذلك؟

: نعم، إنكم بحاجة إلى إظهار قوتكم حتى يدخل الخوف والفزع إلى قلوب من تمرون بهم وقد ينضوون تحت سلطانكم.

-: أحقا ما تقول؟

: لم أقل لك غير الحق، ولولا محبتي لك لما أشرت عليك في ذلك.

-: إذا كان سلطاني سيمتد إلى هناك فذلك شيء جميل.

: وهذا ما تتمناه أيها السلطان.

-: إيه، ولكنى حاولت قبل ذلك فلم أستطع في عدة حملات كبيرة فكيف أستطيع الآن بحملة كهذه هدفها رحلة صيد؟

: أوه. سأدلكم على مسالك الطريق الموصلة إلى الهدف بدون عناء.

-: وهل هناك طرق قصيرة؟

: نعم، نعم، وهناك شيء مهم بالنسبة لك عند أولئك الشرذمة.

-: ما هو؟

: هناك فتاة على جانب كبير من الجمال إذا قتلت أهلها فسوف أزوجك إياها.

-: تزوجنى إياها؟

: إنني سأصبح أقرب الناس إليها واعقد لك عليها القران.

-: هل هي جميلة حقاً؟

: لم أر في حياتي أجمل منها خلقاً وخُلُقا.

-: آه. . . نزهة صيد!! فتاة جميلة!! طرق يسيرة المسالك!!، كل هذه مغريات لا ينبغي التفريط بها.

: لا تفوتك إيها السلطان.

-: ولكني. . ولكني أخشى!!

: ما الذي تخشاه أيها السلطان؟

-: أشك في صحة هذه المعلومات.

: أنا صديقك منذ عدة سنوات هل تذكر أنني جئتك بخبر غير صحيح؟

-: لا، أبداً، أبداً، ولكن هذه المغريات يسيل لها اللعاب إن لم يكن دونها خرط القتاد.

: لا تخشى شيئاً، وثق في كلامي، وما هي غير عدة أيام ثم تعود إلى مقرك بعد أن تمتعت برحلة الصيد وسعدت رفيقك وظفرت بتلك الفتاة.

-: أحقاً ستكون من نصيبي؟

: بلا أدنى شك.

-: ومن هم أولئك القوم الذين سنقضي عليهم؟

: إنه رجل من قومنا يسمى عميراً مع إخوانه.

-: أهو عمير الذي نعرف؟

: نعم إنه هو.

-: ذلك الرجل نأسف على قتله.

: أن تنازل لك عن «ميثا» فلا تقتله يقول ذلك وهو جازم من أنه من المستحيل حدوث ذلك، ولكن لتعميق الهوة بينهما.

-: أهي تلك المرأة الجميلة التي تقول عنها؟

: نعم، إنها هي فلا تفوتك، ثم إنني خير لك منه على أي حال فلا تتأخر عن اغتنام هذه الفرصة، يقول ذلك وهو يستحثه.

-: سنفعل، سنفعل.

وتخرج الحملة بقيادة السلطان متخللة عروق النفود وكثبانه في مقدمتها

السلطان يصطاد رجاله بين الحين والآخر ما يصادفهم من بقر الوحش والظباء حتى شارفوا على هدفهم، عند ذلك ويـايعاز من عـرار أرسل قـائد الحملة رسـولاً إلى عمير قائلاً له:

-: إذهب إلى عمير وقل لـه إنه قـد جاء سلطان الجـوف يريـد تلك المرأة الجميلة التي عندكم، فعليكم بتجهيزها واعداد البيت الخاص اللائق بزواج السلطان منها.

وعندما قدم المندوب وابلغ الرسالة لعمير سأله:

: من أرسلك أيها الرجل؟

-: لقد أرسلني السلطان.

: السلطان!!

-: نعم.

: أين هو الآن؟

-: إنه على بعد مرحلة أومر حلتين منكم.

: هل معه أحد؟

-: أوه، معه خلق كثير، وحملة كبيرة.

: حملة كبيرة!!

-: نعم، إن معه من الفرسان أعداداً كبيرة.

: ماذا تقول؟

-: أقول إن فرسانه أكثر من مئة فارس عدا من هم على ظهور الإبل.

: وأين يريدون؟

-: لقد أتوا إليكم.

: وماذا يريدون منا؟

-: لا أدري، ولكني سمعت أنـه يوجـد لديكم إمـرأة جميلة سيتزوجهـا السلطان عند حضوره إليكم.

: أمرأة جميلة!! ومن الذي نقل له هذه الأخبار؟

-: نعم تلك المرأة التي سمعت واحداً منكم يقول إن اسمها ميثاء.

: آه. . ميثاء!! ومن هو ذلك الرجل؟

-: رجل أظن أن اسمه شهوان أو ما يقارب هذا الاسم.

: آه. . شهوان وعرار. إنها من حيله وافعاله الخبيثة، يقول ذلك بينه وبين نفسه.

-: أظن أن اسمه هكذا.

: إيه، حاضر، بلغ سلامي للسلطات وقل له، يقول لك عمير: أهلاً وسهلاً، وعليه أن يمهلنا ثلاثة أيام حتى نجهز له البيت اللائق الذي يجد فيه مطلبه.

-: حاضر، مع السلامة.

وبعد أن غادر المندوب المكان جمع عمير إخوانه وقال لهم:

: هذا عمكم شهوان وابنه عرار قد جرًا عليكم جريرة عظيمة لتمحي طوبتكم.

-: ماذا تقول؟

: أقول إنها قد نجحت محاولتهما هذه المرة مع سلطان مارد، فأنيابه وبجيوشه ليفنينا عن وجه الأرض.

-: لأي سبب؟

: للانتقام منا، وليبقى الجو صافيا لهما.

-: ماذا قال لك رسوله؟

: لقد جاء يستفزني بخطة من رسم شهوان وابنه عرار بلا شك، إنها خطة خبيثة ولئيمة.

-: ما هي الخطة؟

: لقد طلب مني أن أجهز له زوجتي ميثاء ليتزوج بها عند قدومه.

-: عجبا!! وهل وصل الأمر بشهوان وابنه إلى هذا الحد؟ بحيث يوهم السلطان أن ميثاء فتاة جميلة ستقدم لقمة سائغة لأي واحد من أوباش الناس يأتينا بقوة كبيرة كهذه.

: هكذا بعض الناس حينما تتحكم فيه روح الانتقام لا تهمه الوسيلة التي يصل بها إلى غايته، وإن كانت معيبة عليه.

-: ولكن، أين الشيمة والأنفة؟

: إيه.. إنه على يقين قاطع أننا سنرفض هذا الأمر وندافع دونه حتى آخر قطرة من دمائنا، وبذلك نقع في الفخ ونكون الضحية أمام تلك الجموع الضخمة.

-: وهل معه أناس كثير؟

: نعم، يقول المندوب إن الفرسان لوحدهم يزيدون على المئة.

-: إيه، سيعين الله عليهم وسيؤازرنا بنصر من عنده.

: وماذا قلت له؟

-: لقد أخبرته بالايجاب وأننا سوف نجهز للسلطان المكان اللائق وطلبت منهم مهلة ثلاثة أيام.

: ما هي الخطة إذاً؟

-: أرى، والرأي للجميع أن نرحل ببيوتنا ومواشينا ونضعها بمكان أمين ثم نعود في اليوم المعلوم لمواجهة الأعداء وخلفنا نساءنا على الهوادج لنراهن خلفنا ونسمع زغاريدهن عند إغارتنا على الأعداء.

: إنها خطة جيدة، ولكن الا ترى أن تبقى النساء في البيوت؟

-: لا، سيصاحبننا في نفس المكان ونسمع صيحاتهن إذا اعترين بنا.

: على بركة الله.

-: وسنبقى أحد البيوت على ما هو عليه ونضع فيه أحد الأشدة مجللاً بكساء يجده السلطان وقومه إذا هم أتوا في الموعد المحدد.

: حسنا، وكيف سنحمل عليهم؟

-: سنكمن لهم قرب البيت حتى إذا جاءوا ولم يجدوا أحداً ستثور ثائرة السلطان وعند ذلك نفاجئهم ونفتك بهم.

: خطة سليمة.

هذا الحديث يجري بين الأخوة الأربعة بينما أخاهم الأخرس واقفا معهم لا يدري عن سر الموضوع الذي يتحدثون عنه فسألهم بالاشارات والكلمات التي يستطيع التحرك والنطق بها ويفهمونها منه عن كنه الأمر، فأخبروه أن السلطان قادم لقتلنا وأخذ نسائنا ومنهن ميثاء زوجة أخيه الأكبر، وكانت ميثاء تعطف عليه

وتعامله معاملة حسنة نظراً لاصابته بهذه العاهة، ولذلك فهو يكن لها حبا عميقاً جزاء معاملتها الطيبة له ويفديها بنفسه إذا لزم الأمر عندها جحضت عيناه وتنهد بعمق وزفر زفرة شديدة قائلاً: بنطق لسانه المتلعثم بالخرس «مَيْثْ مَا مِنْ مَيْثْ»، أي لا سبيل في الوصول إلى ميثاء، وضرب بيده على صدره متمنياً بكلما حانقة مفادها أنه سيقتل السلطان بنفسه إذا قدم لهذا الغرض طالباً من إخوته أن يؤشرون عليه إذا رأوه وعندما يراه فانه سيقتله أو يموت في سبيل الدفاع عن ميثاء.

وسار الإخوة الخمسة على الخطة المرسومة، وفي صبيحة اليوم المحدد أطل فرسان الحملة مع عرف ذلك الحقف المرتفع يتقدمهم السلطان وإلى جانبه شهوان وعرار يتهادى بكل منهم جواده فلم يروا بالمكان غير بيت الشعر الوحيد تذروه الرياح لبس حوله أي شيء يدل على الحياة وعند ذلك سأل السلطان.

-: إنني لا أرى غير بيت واحد.

: إيه، قد تكون بيوتهم من وراء هذا الكثيب، وقد وضعوا لك هذا البيت لتكون لوحدك في هذا المكان بعيداً عن الأنظار يقول شهوان ذلك للسلطان وهو يعتقد خلاف ذلك.

-: مادام الأمر كذلك فهذا شيء طيب، ولكني لا أرى حوله أي شيء يدل على الحياة.

: ستحل به الحياة عند وصولكم إليه.

-: ها نحن وصلنا إليه، المفروض أن يستقبلونا قبل أن نصل إلى البيت.

: هاه!! إنني لا أعلم مادهاهم.

-: إنطلق أيها الفارس وأخبرنا بما في داخل البيت. هكذا يأمر السلطان أحد رجاله.

: يعود الفارس وهو يقول: إنه لا يوجد به سوى كومة سوداء هي عبارة عن شداد بعير مجلل بخلق بال.

-: لقد خانوك أيها السلطان.

: يخونونني أنا!؟

-: نعم، لقد غدروا بك واخلفوا ما وعدوك به.

: سأنتقم منهم أشد الانتقام.

-: يستأهلون ذلك.

: أين هم؟

-: لا أعلم، لا أعلم وقد يكونون غير بعيد عنا.

: سأسحقهم وأفنيهم عن الوجود جزاء لكذبهم عليَّ واستهتارهم بمقامي الذي يعرفه كل الناس.

-: عليك بهم، عليك بهم.

في هذه اللحظة انقض الفرسان الخمسة على الحملة وكل واحد منهم يبعثر رءوس الفرسان، يشق الصفوف روحة وجيئة وخلفهم النساء يعتزين بالفرسان ويطوحن بالزغاريد والصيحات، وجالت الخيل بالفرسان الدارعين واحتدمت المعركة بين طرفين غير متكافئين عدداً وعدة ولكنهما متوازيان فعلاً واشتد وطيس المعركة واستمات الفرسان الخمسة في جندلة الدارعين وترك خيولهم تتنزى بدون فرسان، أما الأخرس فأول ما بدأت الغارة اقتحم سربة الخيل الأولى وعرف السلطان بلباسه فانقض عليه وجندله عن فرسه يخور بدمه على الأرض، واستحر القتل فثبت الفرسان الخمسة لهذا الجيش الكثيف على ظهور تلك الخيول التي تم الحصول عليها بفضل مسعى أختهم عميرة ولما رأي شهوان وابنه ما حل بالحملة نجيا على ظهري جواديهما تاركين ميدان المعركة خلفهما، وعند ذلك هرب من نجا من فرسان الحملة بنفسه وبقيت الحملة بما تحويه من خيل وإبل وأثقال غنيمة للفرسان الخمسة وبعد انتهاء المعركة لصالح عمير وإخوانه إجتمع عليهم مجموعة من رجال قومهم الذين علموا مؤخراً بما جرى وذلك ليهنئوهم على ما أحرزوه من نصر على تلك الحملة الموجهة ضدهم وما ظفروا به من غنائم وأموال فأعطى عمير رجاله مما أحرزه من كسب وتصدر المجلس ليروي للقوم ما حدث له في تلك المعركة، منحياً باللائمة على عمه وابنه اللذين جرا عليه تلك الحملة وذلك للقضاء عليه وعلى إخوانه لكن الله أنجاهم منها بفضله ثم بفضل تلك الخيول الأصيلة التي جلبتها لهم أختهم عميرة بطريقتها الخاصة، واستمر الحديث في نفس الموضوع وما كان من عمير إلا أن تنهد وقال:

٤٥ شَـايِبٍ لَنَا يَمْشِي عَـلَى مَا يِضِـرِّنَا ... وْهُـوْ بَالعَيَـا مِنْ يَوْمْ شَبْ وْشَـابْ

٤٦ يَبُـوْنْ مَيْثَـا نَقْـوَةٍ مِنْ حَـرِيمْنَـا ... عَـلَى حَـذْوَةٍ وِافَـا مَـهَمْ جِـوَّابْ

٤٧ إِنْخَنَّـا بَالصَّـوْتْ يَاسَـا مْعَاتَنَـا ... بْحَاسَاتْ مِنْ تَحْتَ الْعَجَاجْ صْلاَبْ

٤٨ نَثْنِي عَلَيْهِنَ كِلَّنَـا يَـآل رَاشِـدْ ... عَلَى خَمْسْ مَـا نِقْعِـدْ لِهِنْ إِرْقَـابْ

٤٩ أَوَّلْ مَـا يَثْنِي عَقِيْـل بِنْ وَالِـدِي ... وْحِصْنٍ لِـزَبْنَ الجَـاذِبَـاتْ حْجَـابْ

٥٠ حْجَابٍ يِذُوْدَ الخَيْـلْ بِدَارِعْ القَنَـا ... وْحِـرٍّ بِـتُـوْع لَـلرِّجَـالْ ذَهَـابْ

٥١ تَـلاَقَى حْمَيْـدَانٍ وسِـلْطَانْ مَـارِدْ ... تَهَيَّـا مِـنْ هَـذَا لْـذَاكْ صِـوَابْ

٥٢ ضُـرُبُـهْ حْمَيْـدَانٍ بْـزَرْقَـا سِنْيِنَـهْ ... أَوْدَعْ صِمَـاصِيْمَ الـدُّرُوْعْ خَـرَابْ

٥٣ لَحْقِهْ بْحَدَّ الدُّمْثْ عِنَ الرِّمْثْ بَالْغَضَا ... وَاوْدَعْ جْنُـوْبُـهْ وَالـدُّرُوْعْ خْـطَابْ

٥٤ وَانْـحَى حْمَيْـدَانٍ لْسِـلْطَانْ مَـارِدْ ... كِسَيْتُـهْ مِنْ صَافْ الحَـدِيْدْ ثْيَـابْ

٥٥ يِسُبُّـونِي بَـالْقِصِرْ وَانَـا ابْن ضَيْغَمْ ... أَنَـا شَـوْقْ مَيْثَـا لَلِّرِجَـالْ عَـذَابْ

٥٦ أَنَـا جَامِـعٍ قِصِرٍ بْـظُفْـرٍ وْثَـرْوَةْ ... أَنَا شَـوْقْ مِنْ زَانْ الكِفُـوْفْ خْضَـابْ

٥٧ يِـلُوْمِـنِي وَانَّـا عَـلَى زَغْـزِغِـيَّـهْ ... عَـلَى فِلْوَةٍ مَـا ضِـرِّيَتْ لِلْعَـابْ

٥٨ ذِبْحتْ بَـالْحَـدِرْيْ تِسْعِـينْ مِلْبِسْ ... وْرُوْسَ الْعَـرَايَـا مَـالِهِنْ احْسَـابْ

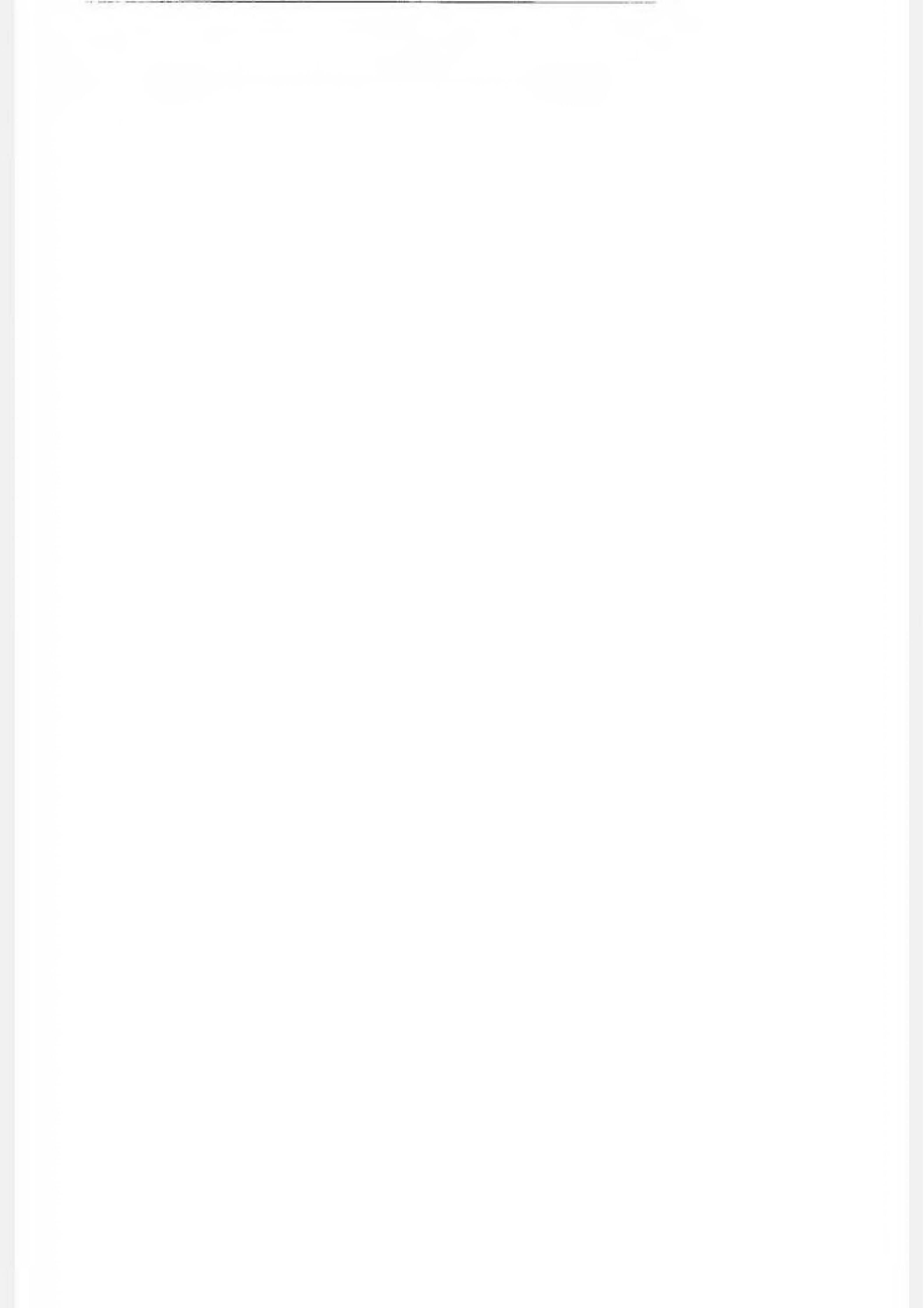
٥٩ لَـوْ انِّي عَـلَى الـدَّهَمَا الـطُّوِيْلَةْ مْـرَكَّزْ ... سَلْمَتْ يِـدَيْهَا مِنْ شْعُـوْثْ عَيَـابْ

٦٠ وِلْيَـا قَضِبْتَ السَّيْفْ بَـالْكَفْ لاَ تْخَفْ ... مَـازْمَـلْ لَـوْ إِنْ الجُمُـوعْ هْضَـابْ

٦١ وْلاَ يَنْفَـعْ الْمَضْيُـومْ غَـيْرِ ابْن عَمُّـهْ ... يَـا عَضْ بُـهْ مِنْ غَيْـرنَا بُـهْ نَـابْ

فقال له الحاضرون بلسان واحد، سلمت عينيك يا بن راشد وأبقى الله إخوانك سواعدك الفتاكة فلقد ثبت بالفعل ما يعجز عنه القول وستكون عقيدنا من الآن وأميرنا الذي نرجع إليه.

قصة رقم (٤)



«النظير»

أطلت الشمس بأشعتها الفضية في ضحى ذلك اليوم الربيعي الغائم، وكان لإطلالتها من بين ثنايا السحاب تارة واحتجابها أخرى نذير باختفائها طيلة ذلك اليوم بسبب السحاب المتراكم على الجهة الجنوبية الغربية التي ينشأ منها السحاب، وكان لا رتدام الأمزان في طبقات متراكمة بعضها فوق بعض ما يبشر بنزول المطر بغزارة في ذلك اليوم الذي استقبله الناس بالفرحة والسرور سواء من أهل القرى الذين يرجون الريّ لمزارعهم ليتمتعوا بيوم أو يومين من الراحة بما يسمونه «الاناخة» ويتوفر العلف لمواشيهم أو من أهل البادية الذين يأملون في توفر الكلأ لثرواتهم الحيوانية، وما كادت الشمس تحتجب تماماً خلف تلك المخيلة السوداء التي بدأت تتمتم بزاجر الرعد وتبتسم بلوامع البرق تجر رداءها الفضي المتألق على بقايا أشعة الشمس بحيث تتهلل خيوط هذا الرداء بعد أن لامست الأرض إلى شقائق وردية تنساب في الشعاب والأودية وتعطر خدود الرياض وأصداغ الجبال وتضمخ هامات القمم ليسيل أريجها عبر الخربان والتلاع حتى تتكون الروافد الكافية لامتلاء الوادي الكبير الذي يكون الشريان الرئيسي لمزارع تلك القرية الوادعة في حضن ذلك الجبل الناري الأسمر الشامخ، عند ذلك أسرع الفلاحون كل أصحاب مزرعة إلى ساقية مزرعتهم التي سبق أن جهزوها ومدوالها لسانا من الحبس في داخل مجرى الوادي ليتم عن طريق هذا اللسان إدخال الكمية الكافية من السيل للمزرعة الخاصة به، وقد تفاوت أصحاب تلك المزارع في وضع سواقيهم، فمنهم من أجاد حبس ساقيته بالدعامات القوية والمزاحيم الراسية، ومنهم من اكتفى بوضع عقم بسيط من التراب ما إن صافحته مقدمة

السيل حتى جرفته معها، ومن هؤلاء من تجاوز الحد المعقول حيث أدخل من ساقيته من الماء كمية هائلة ـ امتلأت منها المزارع والبساتين وفاضت على المساكن المجاورة بحيث هددتها بالغرق والدمار الكامل، ففزع الناس وخرجوا من مساكنهم، وأسرع الرجال ومعهم المساحي والزنابيل و «المناسيف» ليسدوا الماء من مدخله الرئيسي في ساقية أصحاب تلك المزرعة حيث وجدوهم هناك واقفين للدفاع عن ساقيتهم ضد كل من يريد قطعها من الفلاحين الآخرين، حيث يحتدم النزاع بين أصحاب المزارع عندما يمر سيل الوادي في كل مرة، خاصة إذا كانت كمية المياه قليلة فكل منهم يطمع في إدخال أكبر كمية من مياه السيل إلى مزرعته، ويعتبر قطع حبس الساقية بمثابة الاعتداء على مصلحة وممتلكات ذلك الشخص غير أن هذه المرة تختلف عن سابقتها حيث تتوفر المياه بكميات هائلة تهدد بالدمار والخراب والغرق سكان ذلك الحي.

وما إن رأى أصحاب المزرعة الرجال قد أتو مسرعين ومعهم أدواتهم حتى تحفزوا واستعدوا لمضاربتهم فاستقبلوهم بالعصي الغليظة قائلاً أكبرهم:

-: أين تريدون أيها الرجال؟

: نريد قطع هذه الساقية.

-: تقطعونها وأنا موجود!!

: نعم، لقد كدنا أن نغرق.

-: يعتنري عليهم بعزوته المفضلة قائلاً: أنا أخو علياء إرجعوا من حيث أتيتم، والله لن تقطعوها وأنا على قيد الحياة.

: لقد غرق الناس وتهدمت المنازل.

-: أقول لكم عودوا وراءكم وإلا . . .

: والا ماذا؟

-: والا فلقت رأسك بهذا العصا الغليظ.

: أتريد هلاكنا؟

-: لا، ولكني أريد سقي مزرعتي.

: لقد رويت مزرعتك، وفاض الماء على من هم أسفل منكم ودخل البيوت،

لقد غرق الناس ألا تفهم!؟

-: إرجعوا وراءكم، والله لن تمتد يد واحد منكم على هذه الساقية لتقطعها إلا كسرتها.

: تكسرها!! تكسر (. . . . .) أنا الذي سأقطع حبسهابيدي.

-: إن يدك قصيرة عن أن تمتد إلى ملكي.

: بل لأدفع الضرر عن نفسي وعن الآخرين.

-: وماذا نالك من الضرر؟

: لقد دخل السيل علينا في البيوت ألا تفهم؟

-: إنكم تكذبون علي.

: يتقدم أحد الرجال وهو يقول: سيطول الحديث مع رجل لايرى غير مصلحة نفسه، عليكم بالساقية فاقطعوها واتركوا لي الرجال أو تقبلوا الرجال واتركوا لي الساقية.

-: أنت تقول هذا الكلام؟

: نعم وقبل أن يهلك الناس.

-: لست أهلا لذلك.

: يثبت بالفعل مالا يثبت بالقول.

-: إن كنت رجلاً. وينقض على الساقية فيبجس عقمها وهو يتمتم. . . إن كنت أخا عليا فاقترب مني، والله لأغمسك في مقطع الساقية ليذهب بك السيل معه.

واشتبك الرجال مع بعضهم البعض في مشاجرة ومشادة عنيفة تبودلت خلالها ضربات العصي والمساحي وتركت مجموعة من الشجاج والكرمات والجروح ورأى أصحاب الساقية أنهم مغلوبون لامحالة بسبب كثرة العدد فعاد كبيرهم للاعتزاء مرة أخرى قائلاً:

-: «أنا أخو عليا» تقطع ساقيتي يابن (. . . . . .).

: إن كنت أخا عليا فهلم إليَّ أغمسك في هذا السيل لتذهب معه إلى حيث ذهب.

ولم يمض غير وقت قصير حتى طارت دعـائم الساقية من بطن الوادي وتـوقف تدفق الماء إلى داخل المزرعة في وضع لايمكن أستعادته الا بعد توقف السيـل، عند ذلـك أسرع الـرجال إلى البيـوت ليساعـدو من يصرفـون المـاء عنهـا، بينـما هـاج أصحاب المزرعة وزمجروا غاضبين ثم ذهبـوا من مكانهم إلى أمـير القريـة يشتكون أولئك الرجال الذين أعتدوا عليهم بالضرب وقطعوا حبس ساقيتهم فقال الأمير:

-: من هم الرجال الذين اعتدوا عليكم؟

: هم مجموعة من الرجال وعددوا الأسماء عليه.

-: إذهب يافلان واحضرهم في الحال واخبر النظراء بالحضور هنا. يوجـه الكلام لأحد رجاله الذي يسمى «العدّاد»

: يحضر الرجـال وفي مقدمتهم ذلـك الذي قـطع الساقيـة بيده حيث قـال: ها نحن حضرنا أيها الأمير ماذا تريد بنا؟

-: لقد جاء آل فلان مشتكين منكم.

: شاكين!! المفروض أن نبادر بشكواهم.

-: بشكواهم!!

: نعم، لقد طبقوا المثل القائل «ضربني وبكى وسبقني واشتكى»؟

-: ماذا تقول؟

: أقول ما سمعت.

-: عجبا!!

: ليس في الأمر عجـب أيها الأمير، لقد كدنا أن نغرق وأن تتهدم علينا منازلنا.

-: منازلكم!! من أي شيء؟

: من السيل الذي تدخله ساقية هؤلاء الرجال.

-: وهل بلغ السيل إلى ذلك الحد؟

: نعم، لقـد طغى الماء من فـوق العقم وانطلق مـع الشـوارع ودخـل البيـوت المنخفضة.

-: أحقاما يقول صاحبكم؟ بوجه كلامه للرجال الآخرين.

: إنه الحق أيها الأمير إذا لم يكن فلان قد تحرص في كلامه.

-: عسى ألا يكون قد تضرر أحد؟

: ليس هناك مضرة تذكر حتى الآن ولولا ما فعلنا من قطع الساقية لغرق من من في المنازل.

-: لماذا لم تخبروا أصحاب الساقية في الأمر؟

: أوه، عندما جئنا إليهم لنخبرهم بدءوا يزبدون ويرعدون.

-: يزبدون ويرعدون!!

: نعم، والله لو سمعت كلامهم واعتزاءهم لظننت أنهم لن يقف في وجههم أحد.

-: على من يعتزون؟

: علينا.

-: أيخطئون على الناس ويعتزون عليهم!؟

: وماذا فعلتم بهم؟

-: عندما لم يستجيبوا لمطلبنا قطعنا الساقية رغما عنهم.

: رغما عنهم!!

-: نعم.

: يقولون إنكم «تحاشمتم» عليهم وضربتموهم حتى سال دمهم.

-: يستأهلون ما أصابهم لأنهم البادئون بالشر.

: المفروض أن يتم ذلك بالمفاهمة لا بلغة العصي.

-: لقد أبوا ذلك.

: أبوا!!

-: نعم، فلقد حاولنا إفهامهم بالأمر ولكنهم رفضوا.

: وكيف يرفضون بعد أن أحدثوا المضرة على الآخرين؟

-: لم يصدقوا كلامنا، إنهم يحسبوننا نريد تقليل كمية المياه عليهم.

: عجبا!! الا يصدقون مجموعة من الناس واكثرهم من الثقاة.

-: هذا ما حصل.

: إنني أريد الصدق، هل قال صاحبكم ما هو غير صحيح؟ يوجه كلامه للآخرين.

-: لم يقل كلمة واحدة فيها زلل.

: وأنتم ماذا لديكم؟ يوجه كلامه للفريق المشتكي.

-: يتكلم أكبرهم قائلاً: لقد أتونا هؤلاء الرجال، تسوقهم الحمية مغترين بكثرة عددهم، وتكالبوا علينا وضربونا وهذه آثار عصيهم الغليظة واضحة المعالم بهذه الكدمات والشجاج والرضوض والجروح التي تراها بادية على رءوسنا وأكتافنا وسواعدنا.

: أيكم الذي بدأ بضرب صاحبه؟

-: هم.

: أصدقني القول، ان هناك رجال حضروكم.

-: الحقيقة أننا عندما رأيناهم مندفعين نحونا قابلناهم بالعصي وتبودلت الضربات بيننا وبينهم علماً بأنهم أكثر منا عدداً.

: ألم يكن هناك لغة تتفاهمون بها غير الضرب؟

-: هاه!!

-: ألم يطلبوا منكم أن تقطعوا الماء حتى لا يغرق الناس؟

: بلى، بلى ولكننا لم نصدقهم.

-: إن هؤلاء المجموعة من الصعب تكذيبهم كلهم.

: لقد حسبناهم كذلك.

-: أكثر هؤلاء ليس لهم مزارع تحت مزرعتكم حتى تقولوا إنهم يريدون ماء السيل لمزارعهم ولذلك فليس لهم هدف غير النجاة من شر هذا السيل.

: إيه لقد طنت في أذهاننا هذه الفكرة وصار ما صار.

-: إيه، لماذا لم يذهب أحدكم ويعرف حقيقة الأمر ثم يخبركم؟

: لم نفكر في هذا الأمر إطلاقا.

-: إذا انتم مخطئون في حق من حقوق جيرانكم.

: وما أنت فاعل بنا؟

-: سننظر في أمركم إذا حضرت هيئة النظر.

وفي هذه الأثناء حضرت هيئة النظر برئاسة ذلك الشيخ الجليل عيسى، السويداء وسلموا على من بالمجلس وأخذوا أماكنهم في صدر المكان، وقص عليهم

الأمير ما حدث وأقوال الطرفين وطلب منهم إبداء مرئياتهم نحو هـذه المشكلة فقال رئيس الهيئة.

-: هـذا المـوضـوع يتكـرر في أكـثر الأحيـان عنـد نـزول الغيث بحيث يتـزاحم الفلاحون على السيل وكل يريد أن يدخل أكبر كمية منه لفلاحته.

: ليس الأمر يقتصر على عملية المزاحمة!!

-: وهل وصل إلى ما هو اسوأ منها؟

: أوه كما قلت لكم حصلت مضاربة بين الفريقين.

-: مضاربة!!

: نعم،

-: ومن هو المخطىء منهم؟

: كل واحد منهم يدعى أنه المظلوم وأن صاحبه هو البادىء بالشر.

-: عسى ألا يكون هناك شيء مؤثر؟

: لم يكن ما حدث ذا أثر يذكر.

-: ماذا جرى بالضبط؟

: لقد حصلت المضاربة كما سلفت واثناءها أصيب كل من اشترك فيهـا بضربـة أو كدمة أو شجه أو جرح.

-: دعنى أرى الكدمات والشجاج.

: لم تكن تستحق الذكر.

-: يمر الشيخ على كل واحد يتجسس ضرباته وهو يقول: حقـاً إنها لم تكن شجة عميقـة ولا ضربـة بليغة ولا كـدمة عنيفـة إنها مثلما يحدث أثنـاء المشـاجـرات العادية.

: إيه، هذه قد تكون بسيطة، ولكنى أخشى أن تكون بداية شر في البلد.

-: ليس في ذلك شك، فالشر أوله بسيط وآخره عميق.

: يجب علينا أن نبحث عن جذور الشر ونقتلعها من أساسها.

-: أنا مؤيد لما ذهبت إليه.

: لقد استدعيتكم لهذا الغرض.

-: ونحن قد أتينا لنفس الهدف.

: ماذا ترون حيال الموضوع؟

-: ما يتعلق بالضربات والشجاج أرى أن يقدر البليغ، والعميق ويؤخذ الإرش بين العميق والسطحى، فإن كان الإرش للمعتدي فيسقط حقه وإن كان للمعتدى عليه فيصرف له.

: إيه، لكن المشكلة أن كل من الطرفين يدعى أنه هو المخطى عليه.

-: وأنت أيهما المخطىء في نظرك؟

: في نظرى أن أصحاب الساقية قد أخطأوا بحيث أدخلوا كمية كبيرة من الماء على جيرانهم وربما عرضت حياتهم للخطر.

-: هذا صحيح.

: الخطأ الثاني، أنهم قد جاءوهم جيرانهم ونبهوهم للخطر المحدق بهم ولم يتثبتوا من الأمر بل ركبوا رءوسهم وأخذوا مواقع المدافعين دون أن يتحققوا أنه ربما أصاب الآخرين الضرر من جراء إصرارهم.

-: إيه، قد يدعون أنهم أحرار في حقهم وملكهم.

: إن لحريتهم الشخصية حدود.

-: أعرف ذلك يا «وليدي» أن لكل شخص حريته الشخصية وحدودها تقف عندما تصل إلى مضرة الآخرين.

: بلاشك، بلا شك!!

-: مادمت قد تيقنت أن هؤلاء المخطئون فأرى أن تأخذ السلطة منهم حق الاعتداء ومدة اليد من الجانبين وما تبقى من الأمور كالضربات والشجاج يجرى تقديرها كما ذكرت.

: إيه، أما حق السلطة فسوف آخذه أنا وسوف أربطهم بوضع أرجلهم في هذه الخشبة، المدة الكافية.

-: أنت وشأنك.

: لكننا نعود للأهم.

-: ما هو؟

: وضع حل جذرى لمثل هذه المشاكل.

-: هذا صحيح، والحل الجذرى عندى إذا وافقتم عليه.

: ماذا ترى؟

-: أرى أن يوضع على مدخل كل ساقيه بوابة تطوى بالحجر ويوضع لها بابا يمكن إغلاقها فيه.

: تغلق فيه!! كيف؟

-: نعم، عند ما تأخذ المزرعة كفايتها من ماء السيل يتم إغلاق هذه البوابة لتذهب كمية الماء الزائدة في بطن الوادي بدلاً من أن يضربا لآخرين.

: هاه!! هذا رأى وجيه، ولكن كيف يكون وضع الباب؟

-: يوضع في ساريتى البواية مجارى للباب الذي يجب أن يصنع من ألواح الخشب الثخينة بحيث يكون وضع الباب بشكل أفقى، ومتى اكتفى صاحب الفلاحة من الماء أسقط هذا الباب وسد المجرى.

: هذا حل طيب ويجب تنفيذه.

-: وعلى الجميع بدون استثناء.

: لكن الذين لن ينال الآخرين منهم أذى لا جدوى من وضع تلك البوابة عندهم.

-: إنني أرى ضرورتها للجميع.

: ترى ضرورة تعميمها؟

-: وذلك لعدالة توزيع ماء السيل إذا كان قليلاً.

: لم أفهم.

-: عندما يكون السيل قليلا فكل واحد منهم يطمع في استيعاب كمية كبيرة منه وإذا لم يكن هناك بوابة تتحكم في كمية الماء الداخلة عليه فقد يستوعب كميات هائلة، وغيره من المزارعين لم يصل إلى مزارعهم، فيتوقف الوادي دون أن ينال منه الآخرون شيئاً.

: نعم، نعم، هذا رأى سديد، ولكن ذلك يحتاج إلى تحديد كمية المياه التي تدخل كل مزرعة.

-: أجل، ويجب وضع علامة ثابتة بكل مزرعة متى وصل إليها الماء فتغلق البوابة ويصرف الماء إلى المزرعة الثانية.

: هـذا صحيح، وربـما قلل من المشاكـل التي تحدث بعـد كل مـرة يجري فيهـا الوادي.

-: ياولدي، الكل يعرف أن سيل الوادي حق مشاع للجميع ولا يمنـع عنه أحـد ويجب أن يستفيد منه كل فلاح لسقي مزرعته بشرط أن يكون بينهم بـالسويـة ودون أن يلحق الضرر بأحد منهم.

: مـا دام الأمر كـذلك، فـإنني موافق عـلى الـزام جميـع المزارعـين بوضـع هـذه البوابات على سواقيهم.

-: حتى تسلم يابني من المشاكـل والمشاحنـات والمشادة التي تحـدث في كل مـرة، وربما صاحب ذلك مضاربة أثناء قطع حبس الساقية كما حدث.

: إيه، ولكن تنفيذ ذلك يحتاج إلى هيئـة دائمة تحضر عنـد كل فـلاحة في حـالة جريان الوادي.

-: أوه، يابني هذا خير الله مده سخي وعطاؤه جزيـل إذا جاء بكميـة هائلة مثلما حدث هذا اليوم فسوف يرتوي كل واحد ويتـرك كمية الميـاه اختياراً، أمـا إذا كانت الكمية قليلة فلا مانع من إشراف الهيئة على الموضوع.

: هذا صحيح.

-: يجب أن يجتمع المزارعون هنا لاطلاعهم على هذا الأمر والاستفادة من آرائهم نحوه إذا كان هناك أية تعديلات أو إضافات إليه.

: حقا، إن هذا هو الرأى الصائب.

وبعد أن قضى أطراف النزاع في حبس الأمير يوماً وليلة نال كل منهم ما يخصه من العقاب جزاءاً لتطاوله على الآخرين عنـد ذلك حضـرت الهيئة مـرة ثانيـة وتم تعويض المتضررين من جراء دخول السيل إلى بيوتهم وحمّل المتسبب هذه التبعـات ثم تنازل أصحاب الحق عما لحق بهم من أضرار إكراماً لجارهم الذي أخـطأ عليهم عن غير قصد عند ذلك تنازل لهم عما لحق به من ضربات وكدمـات وحمل لجيـرانه كـل حب وتقديـر، وتعهد الا يعـود مرة أخـرى لمثل هـذا الأمـر وقـام الجميـع ثم

تبودلت قبلات التسامح في نفس المجلس وعاد كل إلى عمله.

وبعد ذلك جمع الأمير الفلاحين أصحاب السواقي وأبلغهم ما توصل إليه مع هيئة النظر بشأن توزيع مياه السيول على كافة المزارعين بالسوية ووضع الضوابط التي تتحكم بكمية المياه الداخلة إلى كل مزرعة بحيث يستوعب كل فلاح ما يكفيه بالفعل ويترك الفرصة لغيره ليستفيد من مياه السيول المحملة بالطمي والتي تفيد الاراضي المزروعة بالغلات الزراعية وتفيد بساتين النخيل بالكميات الهائلة من المياه التي تغطى أرضية كل بستان وترتفع فيه مسافة جيدة. قد أثلج هذا الخبر صدور الفلاحين ورضوا بما جاء فيه ونفذوه بكل دقة، وقلت على أثره المشاكل التي كانت تتكرر في ربيع كل عام؛ ولم يكد أبناء الفلاح يتزوج آخرهم وتدخل زوجته بيت إخوته الهادىء المتماسك حتى أوجدت الشقاق بين نسائهم والفرقة بين أبنائهم وألوت بهذه الأسرة عاصفة هو جاء بعثرت ما كان ملتئماً وخلخلت ما كان متماسكا، فاصبح كل منهم يريد الخروج من هذا المأزق بأي طريقة، لذلك طلب كبيرهم اللجوء إلى هيئة النظر النظراء وعندما وصل إلى رئيسهم قال:

-: لقد جئت إليكم يا أبا سالم لتذهبوا معنا.

: أهلا وسهلاً بكم، ولكن لماذا نذهب معكم؟

-: لتقسموا بيننا فلاحتنا.

: فلاحتكم!!

-: نعم الفلاحة والمنزل.

: لماذا يابني عسى ألا يكون حدث ما يوجب ذلك.

-: إيه، تعرف يا أبا سالم تحدث ظروف قهرية.

: ما أعرفه عن أسرتكم أنها أسرة طيبة ومعظم «حمولتكم» رجال طيبون متماسكون متحابون.

-: إيه، تجرى الرياح بمالا تشتهي السفن.

: ما هي الرياح التي عصفت بكم؟

-: أنت شيخ لنا جميعاً ولا يجب أن نخفى عليك شيئاً.

: ماذا حدث يابني؟

-: منذ أن تزوج أخي الصغير وجاءتنا زوجته دخل معها الشر.
: جاء معها الشر!!
-: نعم يا أبا سالم، لقد فرقت بيننا.
: وتكون إبنة من؟
-: إنها ابنة فلان.
: إن فلانا نعم الرجل كفؤ لذلك.
-: لاشك، ونعم به، ولكن ابنته كما اخبرتك.
: أريتك من هي زوجة أبيها لقد غابت عن ذهني الأن؟
-: إنها فلانة ابنة فلان.
: أوه.. أوه.. لقد خسرتم. يقول الشخ ذلك بنغمة مجرورة.
-: لماذا ياعم؟ يناديه بعم، تقديراً لسنه.
: إن جدتها من أمها من ذوات اللسان الطويل.
-: لم نكن نعرف ذلك.
: أنا أعرفه تماماً والله إنهن يدخلن بين العود وقشره.
-: لم نعرف عن أمها هذه السجية.
: أنا أعرف بها منكم يا وليدي، لاشك بمعرفتك لأحوال الناس.
-: والأن ماذا تريد مني بالضبط؟
: أريد أن تقسم بيننا الفلاحة والبيت بمعرفتك.
-: أقسم الفلاحة والبيت!! ليس عندي مانع من ذلك ولكن..
: ولكن ماذا؟
-: لكن يابني مصادر الأرزاق ضيقة وليس أمامكم غير هذه المزرعة التي ورثتموها من أبيكم.
: لاشك في ذلك لاشك.
-: إنني أراكم واسمع عنكم أنكم متعاضدون ومتعاونون تكدحون في سبيل الله لتكسبوا رزقكم ورغيف العيش لأبنائكم من سلت عرقكم بهذه الفلاحة.
: كل ماقلته صحيحا ياعم.

-: ولا يخفاك يابني أن الفلاحة إذا ضربتها أسهم القسمة انتزعت بركتها وقل ريعها.

: هاه!! صحيح ما تقول ولكن.

-: الشيء الثاني يابني إذا قسمناها بينكم وصرتم كلكم في نفس البيت ونفس الفلاحة ستزداد الشحناء وتكثر المشاكل التي ستنشأ عن إحتكاك الأطفال بعضهم ببعض ومحامات النساء معهم.

: وهذا صحيح أيضا، ولكن ما لعمل؟

-: الأفضل يابني أن تبقو يداً واحدة وحزمة واحدة متماسكة لاتفرقكم نزوة عابرة من فتاة طائشة، فأنتم أربعة.

: لكن المشكلة في أخينا الأصغر!!

-: ماذا به أخاكم؟

: هو الذى سيشذعنا.

-: وهل من المعقول أن واحداً يغلب ثلاثة إذا تضامنوا؟

: إن لثلاثتنا رأي واحد.

-: إذا كنتم كذلك فستدركونه لينظم إليكم.

: كيف؟

-: هذا ما تستطيعون التغلب عليه أنتم.

: أشر علينا بما تراه.

-: إنني يابني لا أحب التدخل في شئونكم الداخلية، ولكن متى رآكم متماسكين فلن يشذ عنكم.

: إيه، إنك لاتعرف نفسيته.

-: صحيح، إذا دك به عرق من أخوال أبيه.

: أخوال أبيه!! إن أخوال أبيه أخوالنا وماذا بهم؟

-: لا شيء، أبرأ إلى الله منهم، غير أنهم لا يخلون من النزر والنزاقة.

: قد يكون تأثربهم.

-: المهم يابني. إنكم متى تضامنتم ووقفتم موقفاً صلباً فسوف يعود فينضم

إليكم، أو على الأقل يحترمكم أو يخشاكم.

: ولكن ما رأيك لو جبرناه على تطليق زوجته؟

-: هذا يعود إلى اقتناعه هو.

: سيتزوج إمرأة بدلاً عنها.

-: من الصعب أن أحكم عليه الآن قبل أن أسمع منه.

: هي إمرأة بدلاً عنها أخرى.

-: إذا توصلتم إلى حل كهذا يابني واردتم تزويجه مرة أخرى فعليكم بالنساء الفاضلات ذوات العرق الطيب.

: لكم حرصنا على ذلك، ولكن الأقدار جرت بمالا نشتهي.

-: إيه، إيه... ياولدى.

: ماذا بك يا عم؟

-: إنني أفكر بحل آخر ولكن منافذه عسيرة.

: ما هو الحل الذي تفكر به؟

-: لو كان هناك مجال لجعل أخاكم يستقل عنكم بفلاحة لوحده.

: يمكن ذلك.

-: الامكانية صعبة.

: لماذا هي صعبة.

-: متي سيبدع له بئراً ويغرس على مائه النخل ومتى سيطلع النخل ويثمر الزرع؟ إنها سنوات طويلة!!

: لا داعي لكل هذا، فهناك فلاحة جاهزة الآن، قد توفى صاحبها ويمكن أن يأخذها من أطفاله القصر بالسقاية على ربع الثمرة.

-: فلاحة من؟

: بستان فلان.

-: آه، ذكرت، ذكرت، رحمه الله لكن ليس مثل الملك شيء يابني.

: لاشك في ذلك، ولكن هذا الحل مؤقت.

-: ثم إنه إذا انفصل بفلاحة مستقلة فسوف تشطنه وتتعبه وتبذه، فالوحيد لهيد كما يقال المثل.

: نحن لا نريده يستمر إلى الأبد.

إلى متى تريدونه؟

-: نريده حتى يتعلم درساً من دروس الحياة.

: آه، إذا كنتم كذلك فهذه طريقة سليمة.

-: هو الآن في نطاق العمل لايقوم إلا بالقليل منه ولا يشعر بثقل العبء الملقى على عواتقنا، وربما إذا استقل بفلاحة لوحده، ساعتها يشعر بما تحمله كواهلنا من مسئولية الفلاحة.

: وهل له رغبة في ذلك؟

-: نعم، فلقد طلب منا إما اقتسام المزرعة أو الخروج في مزعة مستقلة.

: إذا كان قد طلب منكم ذلك فدعوه إلى حال سبيله.

-: سنتركه ونرى «مشيه بالسروال»!!

: المهم يابني ألا تقتسموا الفلاحة أو البيت.

-: إذا لم تجبرنا الظروف على ذلك.

: حاولوا إقناع أخاكم بالعدول عن تصرفاته.

-: ما رأيك لو ساعدتنا عليه؟

: إنني مستعد يابني، وأمشي لكم بالخطوة الطويلة، ولكن من الأفضل أن تصلحوا شأنكم بأنفسكم دون تدخل من أحد، أما إذا أعيتكم الحيل فعند ذلك لابد من التدخل لاصلاح ذات البين مني أو من غيري.

-: بودي أن تساهم معنا في الحل.

: إنني مستعد، ولكن أخشى إن أنا فعلت أن يترتب على ذلك عتب من أخيك.

-: عتب!!

: نعم، قد يعتب عليك، ويقول إنك شهرت به ونشرت تصرفاته بين الناس.

-: لقد عرف الناس الكثير من تصرفاته وتصرفات زوجته.

: وإن يكن يابني، فالمفروض ألا تشعر المسيء بأنه قد أساء إليك، وإلا فإنه سيتمادى في إساءته.

-: وماذا أعمل إذا؟

: إذا وضعت الحطب أو المواد القابلة للاشتعال على النار زاد ذلك في تأججها، لكن إذا قطعت ذلك عنها أو سكبت عليها الماء البارد إنطفأ أوارها.

-: هاه!! ماذا تقول؟

: أقول عليك أن تدفن إساءات أخيك وتظهر عدم المبالات بها، وتحاول امتصاص ثورة غضبه وعنفوان نزوته بالمعاملة الحسنة، فإن لم يرتدع فأعطه حرية الانفصال، ومتى رأى منك ذلك ربما يرعوى ويعود عن تصرفاته التي ذكرتها.

-: أشكركم ياعم، وسأنفذ ما أشرت به مع السلامة.

ولم تكد حرارة الشمس في وهج القيظ تداهم هامة ذلك الرجل فتؤذى رأسه بحيث صار يحث دابته ليصل إلى كهف ظليل في ملتقى ذلك الريع بالآخر، وما درى أن هناك مسافرون آخرون قد يمموا ظل ذلك الغار يحثون دوابهم، وكان الركبان في سباق مع بعضهما البعض حيث وصلا إلى نقطة النهاية في وقت واحد لم يستطع أحدهما أن يتنازل عن حاجته للآخر، ولاسيما في هذا الوقت من النهار، وكل واحد منهما قد جاء من قرية غير قرية صاحبه، وما إن وصلوا إلى ظلال الكهف الفسيح حتى سلم الرجال بعضهم على بعض وتعانقوا ثم نزلوا عن دوابهم، وبادر أحدهم باحضار أدوات القهوة التي كانت معه وجاء «بمطبقة التمر» وبعد أن جهز القهوة وانسابت القهوة في فناجينها ترتشفها الشفاه حتى قال كبير المجموعة لهذا القادم الوحيد.

: من أين أتيت يا محمد؟

-: أتيت من قريتنا.

: أين تقصد؟

-: أريد هذا البلد. ويشير بيده إلى الوجهة المعلومة.

: ما غرضك فيها؟

-: أريد هيئة النظر.

: هيئة النظر!!

-: نعم، ولماذا كأنك مستغرب؟

: أبداً، لاغراية في الأمر ولكن. .

-: ولكن ماذا؟

: لا شيء لا شيء. يقول ذلك وهو يبتسم وينظر إلى رفاقه.

-: عفواً، هل قلت خطأ؟

: حاشا، يا أخي، ولكننا قد جئنا لنفس الغرض.

-: آه. . هذا ما يضحكك!!

: نعم ولا شيء غيره، هاه، عسى ألا يكون بينك وبين أحد مشكلة؟

-: ليس هناك شيء جوهري، وكلما في الأمر أن فلانا قد قدم شكوى يدعي فيها أن له حق عندي.

: حق عندك!!

-: هكذا يدعي.

: ومن أين له الحق؟

-: يدعي بشقص إمرأة قد مات عنها جدى قبل ثلاثين سنة.

: إن كان ذلك صحيحاً فإن معه حق.

-: ولكن لماذا سكت كل هذه السنين؟

: هذا عائد له، فالسكوت لا يضيع الحق.

-: لو كان له حق لما سكت كل هذه المدة.

: عموماً أمامك الشيخ عيسى فهو الذي سيفصل ما بينكم.

-: ثم إن فلانة لا تمت إليه بصلة.

: قد يكون ورثها بالعصب.

-: من أين يأتيها العصب؟

: أمامك من سيخبرك عن الموضوع بالتفصيل، إنه لايخفى عليه أحد من سكان قرى الجبل بأكمله.

-: وهل أنت صادق فيما تقول؟

: إنه يعرف سكان هذه القرى واحداً واحداً منذ حوالي مائة سنة ويعرف مزارعهم شبراً شبراً.

-: كلامك هذا يجعلني أطمئن أكثر.

: أبداً كن مطمئنا، فإن كان لفلان حق بعصب أو غيره فسوف يبرز حقه وإن لم يكن له شيء فسيطرده عنكم بالبرهان القاطع.

-: بالبرهان!!

: نعم، أنسيت أنه متبحر في علم المواريث التي تسمى الفرائض؟

-: لم تكن لدي كل هذه المعلومات عنه.

: لو لم يكن كذلك لما شددنا إليه الرحال، ولولا معرفته بهذه الأمور لما اقتنع أهل هذه القرى الكثيرة بقسمته فيما بينهم، ولما أخذوا بآرائه.

-: هاه!! وانتم ماذا جاء بكم إليه؟

: لقد جئنا لنفس الغرض فهناك اختلاف في نصيب إمرأة توفى عنها زوجها أخى، وأبت إلا أن يخرج نصيبها من المزرعة والمنزل والثروة كلها.

-: أوه.. كل عليه من زمانه واكف!!

: إيه.. يا بن الأجواد، الحق لا شك فيه، ولقد حاولنا شراء نصيبها من زوجها بثمن مجز لكنها رفضت.

-: لماذا ترفض؟

: لقد رفضت البيع إلا بعد ابراز حقها أولاً

-: قد يكون معها بعض الحق، إذا كيف تبيع مجهولاً؟

: إيه.. يابن الأجواد نحن لا نريد الناس أن يكشفوا حالنا ويطلعوا على وضعنا الداخلي.

-: إيه ما في ذلك شك، ولكن هذا شيء لابد منه.

: حسبي الله ونعم الوكيل، كل شيء يسهل سوى كشف المستور من الأمور الداخلية.

-: لا عليك يا أخي، فهيئة النظر لن يذيعوا سراً من أسراركم.

: لا شك في ذلك، فلدينا كامل الثقة بهم ولكن تعرف الحق في كل شيء من كبير وصغير، ومتى سيخرج سهم أخي من بين ثمانية ذكور وسبع إناث وزوجة ثم يخرج منه الثمن، فكم ستبلغ قيمة هذا الثمن.

-: أوه، لن تبلغ شيئاً يذكر.

: لهذا السبب عرضت عليها قيمة مجزية.

-: وهل ستدفع لها هذا الثمن بعد بروز حقها؟

: قد أدفعه، وقد لا أدفعه!!

-: إياك أن تتأخر عن دفع الثمن لحظة واحدة.

: لماذا؟

-: حتى لا يدخل عليكم غصة جديدة أخرى.

: ماذا تقصد؟

-: أعني أنكم إذا لم تشتروه بالثمن الذي تطلبه فربما يشتريه أحد كالغصة التي لا تنزلع ولا تنبلع.

: الله يستر الحال يا أخي.

-: لكن الحرص واجب فلا تترك الفرصة تفوتك، فمتى تبين حقها من الكبير والصغير فعليك بشرائه منها بدون قيد أو شرط.

: حقاً إن بعض الناس كالعود إذا اعترض في الحلق.

-: مثل صاحبنا.

: غيره كثير.

-: لقد أحضر صاحبنا خطاب تكليف من أمير المنطقة يأمرني فيه أن أبرز له حقه بمعرفة هيئة النظر.

: ما دام معك خطاب يمكن أن يبدأون بكم قبلنا.

-: ليس في ذلك فرق فقد يمكثون عندنا يوماً واحداً أو يومين ينتقلون بعدها إليكم.

: هذا إن لم يكونوا مكلفين بأعمال أخرى في قرى ثانية.

-: أعانهم الله على كثرة هذا التنقل.

: وهل ينتقلون دائماً؟

-: نعم، إنهم في تجول مستمر على هذه القرى. يحلون مشاكلهم.

: أعانهم الله، ترى هل لهم مخصصات من الحكومة؟

-: لا أعتقد ذلك، اللهم الا إذا كان هناك شيئاً من الزكاة أو الصدقة فقد يميزون بنصيبهم عن غيرهم.

: يالله، أمن أجل عطاء بسيط يقطعون هذه المسافات على طول السنة

ويتحملون كل هذه الاتعاب.

-: إنه التطوع لاداء ما يشعرون بأنه واجب عليهم لايترددون في أدائه.

: جزاهم الله خيراً.

وأمسى عند رئيس هيئة النظر ثلاثة وفود من ثلاث قرى متباينة بالاضافة إلى من قد وعدهم يوم أمس وعادوا إلى قراهم بانتظار قدومه، فأخبر هؤلاء أنه ورفاقه سوف يأتون إليهم تباعاً حيث قال لهم:

-: سوف نأتي إليكم بعد أن ننتهي من آل فلان بالقرية الفلانية وسوف لن نطيل المكوث عندهم.

: إننا مستعجلون لحضوركم يا أبا سالم حيث أن فلانا يتهددنا ويتوعدنا.

-: لا خوف عليكم لن أطيل المكوث هناك، فالموضوع بسيط وهو خلاف على جدار ومرسام وساقي.

: أوه، هذا الذي نشب بحلوقنا من أجل شجرة أثل.

-: شجرة أثل!!

: إي والله، إنه يقول إن أغصان الأثلة تتدلى إلى بستانه ويتساقط هدبها و«كرمعها» عليه.

-: ماذا تقول؟

: أقول إنه قد طلب منا اقتلاع الأثلة من جذورها خلال ثلاثة أيام وإلا فإنه سوف يقتلعها بنفسه.

-: هل جن الرجل؟

: والله إن هذا ما حصل منه وعلى ذلك شهود الحال.

-: هل تحت الأثلة من جهة مزرعته نخل؟

: أبداً، إن ما يقابلها فراغ ليس فيه أية شجرة.

-: هل أخشاب الأثلة مستندة على الجدار الفاصل بينك وبينه ويخشى على الجدار من السقوط بسببها؟

: ليس فيها غير أخشاب غليظة مرتفعة إلى أعلى لا تلامس الجدار أبداً.
أصدقن القول يابني.

-: والله لم أقل لك غير الصدق.

: إذا كان قولك صحيحاً فليس له حق الاعتراض.

-: ومن يفهمه ذلك؟

: لـو أن كل واحـد طلب من جيرانـه اقتلاع الأشجـار القائمـة بينهم وبينـه لما التصقت البساتين وتشابكت أشجار السياج فيها.

-: هذا منطق من يفهم.

: من لا يفهم هناك من يفهمه.

-: وإذا كان أعوجاً؟

: هناك من يمسكه الجادة والطريق القويم.

-: ياليت!!

: سنمر عليكم يا ولدي ونحل إشكالكم.

-: لكني أخشى أن ينفذ تهديداته، وفي تلك الحالة لن نقف مكتـوفي الأيدي إزاء ما سيقوم به.

: لن يفعل يابني.

-: إنك لم تسمع كلامه.

: وإن يكن، إيه يا وليدي أنت لا تعرف «حمولته»!!

-: إن تصرفاتهم غير مرضية.

: أنا أعرف بهم، إنهم من الذين يقولون مالا يفعلون.

-: ليست الأمور كما تخبر.

: إن يده أقصر من أن تمتد على عود واحد من فلاحتك.

-: أوه... إنه على خلاف ما تعتقد.

: هـاه!! إن عائلتـه ليس فيهم شر، إلا إذا دَكَّ به عـرق من أخوالـه فـإنهم شر منزل على الأرض.

-: هذا ما أخشاه.

: أتدري يابني، عليك أن تسري لأهلك هـذه الليلة وتمر في طـريقك آل فـلان بالقرية الفلانية، وأبلغهم سلامي واخبرهم أننا سـوف نأتيهم بعـد غد لأنهم

أناس لن يفوت عليهم شيء من التأخير، وسوف نصبح عندكم يوم غد إن شاء الله .

-: ونحن متى تأتينا أطال الله في عمرك يا أبا سالم؟ يقول ذلك أحد الوافدين الذين التقيا في الغار.

: آه، ماذا عندكم يابني؟

-: لدينا فلان يدعى أنه يرث فلانة التي توفى عنها جدى قبل ما يزيد على ثلاثين سنة .

: فلان . . فلانه!؟ يقول الشيخ ذلك وهو يضع رأس إبهام يده اليمنى على ثنيته ويسرح في تفكير عميق يتذكر من خلاله عائلة المرأة ويستعرض علاقة هذا الرجل بهم ثم يقول: إيه، إيه، يا وليدي، معه حق ولكنه ليس الوحيد الذي يرثها، إنه يدلي بسهم واحد من عدة أسهم إن كان أبناء فلان منهم أحد على قيد الحياة .

-: ومن هو فلان؟

: ألا تعرفه!؟ ذلك الذي ذهب «للغربية» عمّان وتلك الجهات قبل أربعين سنة .

-: وهل يشترك معه؟

: «أفا» عليك يابني إنه أقرب منه .

-: أقرب من هذا!؟

: نعم يابني، هذا لرجل المدعي يدلي مع أبناء، أبناء فلان .

-: هذا يعني أنه ليس له حق عندنا؟

: لم أقصد ذلك يابني، ولكني أقول يجب التثبت من أبناء فلان أو عصبتهم إن كانوا على قيد الحياة قبل أن تقسم الفلاحة والمنزل .

-: ما دام الأمر كذلك فلن نرضخ له.

: سأمركم إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة وانهى الموضوع فيما بينكم .

-: ونحن يا أبا سالم متى تأتي إلينا؟

: يبدو أنه ليس عندكم مشكلة تذكر، سأمركم بعد أن انتهى من آل فلان كما سمعت قبل قليل، أريتك ما هي مشكلتكم لكأني نسيتها؟

-: جاءنا فلان وابنته.

: ما به فلان؟ إنني أعرفه رجل طيب.

-: وألف نُعْمٍ به، لكن الأقدار لها أحكام.

: ماذا جرى؟

-: لقد عانده أخي الاصغر وتلاسنا، وعندها أصر على إخراج نصيب ابنته من أخي المتوفى إلى رحمة الله من حبة الدخن فما فوق.

: إيه، العناد عاقبته وخيمة، يقولون لي إن أخاكم الصغير طفق و«ملقوف» و«اللقافة» يا ولدي سيئة العواقب هاه!! عسى ألا يكون قد حدث بينهما شيء؟

-: أبداً، كلما في الأمر مشادة كلامية انتهت به إلى الاصرار على إخراج نصيب ابنته من كل شيء.

: «جْهَدِيْ» ياوليدي يا ما حذرت الكثيرين من سوء مغبة التسرع.

-: بالفعل لقد تحملت عاقبة حماقته.

: لماذا لم تدفعوا عليه وجاهة من كبار جماعته لعله أن يتراجع عن قراره هذا.

-: لقد حاولت فلم أفلح، وحاولت إعطاء ابنته تعويضا عن نصيبها من أخي دون أن يحدث قسمة لممتلكاتنا ولكنه رفض ذلك حتى يتم الإقتسام.

: عجبا!! إنه رجل طيب وكريم وربما اغضبتموه؟

-: ألهذا الحد يبلغ به الغضب؟

: إياك بابني وغضبة الكريم.

-: المهم، لعلك إذا أتيت إلينا تنهى الموضوع.

: سينتهي إن شاء الله.

-: أريد منكم إقناعه بأن يطلب المبلغ الذي يريد دون أن تضرب أسهم القسمة فلاحتنا.

: ولماذا تدفع له ما يريد؟

-: لاقناعه بالتنازل عن رأيه.

: بالتفاهم مع الطرف الآخر وتقدير قيمة حق ابنته من جميع الممتلكات يمكن أن يضاف إلى قيمة المقدار الذي برضيه ويدفع له وعند ذلك تنتهي المشكلة.

-: أوه، كأنك تتكلم عن واقع.

: سيصبح ذلك واقعاً إن شاء الله في جلسة واحدة.

-: في جلسة واحدة!!

: نعم يابنى، إذا أتيت الرجال مع الطرق السليمة والمعقولة.

-: إيه، إنك لم تشاهده ولم تسمع كلامه.

: أوه، يابني الرجال كالأبواب المقفلة، فإذا أتيتها مع الطرق السليمة واستعملت المفاتيح الصحيحة أمكنك افتتاح الباب والدخول منه إلى حيث تشاء، وإذا أردت فتح باب مغلق بدون مفتاح أو استعملت العنف في افتتاحه فإنه لن ينفتح، بل ويغلق عليك زيادة.

-: علم الله أننا كلما حاولنا افتتاح ذهنه كلما أغلق أشد وأشد.

: لأنكم أغلقتموه في المرة الأولى بشدة.

-: هذا صحيح، ولكن ذلك جاء على يد أخي الأصغر.

: وتحملت أنت تبعات خطئه.

-: إيه، الحمد لله، إذا ننتظركم بعد يومين.

: وربما ثلاثة أيام أو أربعة حيث يوجد أمامنا الآن ثلاث قرى سنمر بها كما سمعت قبل قليل ولكل منهم مشكلته الخاصة التي سيتم حلها إن شاء الله.

-: أعانكم الله على ما في وجوهكم من المهام.

: جزاك الله خيراً يابني.

-: في أمان الله.

: مع السلامة.

ولم تكد هيئة النظر تعود من سفرها حتى علمت أن أمير البلد قد انتقل إلى جوار ربه، وبذلك أصبح مكانه شاغراً فاجتمع أعيان البلد ورجالها في بيت رئيس الهيئة وقال متحدثهم:

-: كما تعلم يا أبا سالم أن فلانا انتقل إلى الرفيق الأعلى ونحن الآن بحاجة إلى أمير للبلد.

: ولماذا توجه الكلام إليَّ بالذات؟

-: لأنك الوكيل، وبيدك الحل والعقد.

: الرأي مطروح للجميع يا أبنائي.

-: لاشـك في ذلك، ولكن في النهاية نعود لرأيك لتختار لنا الأمير المناسب ليصرف شئوننا.

: ولكنى لست الوحيد في هذا المجلس، دعنا نسمع آراء هؤلاء الرجال أولاً ومن يختارون؟

-: أنت أعلم بشئون البلد وكل الأمراء الذين رشحتهم في السابق جاءوا على ما يرام.

: إن رأيي لاحق يابني ولكن دعنا نسمع آراء هؤلاء الجماعة.

-: لو أردنا أن نختار بدون رأيك لما جئنا إلى هنا ولكن رأيك فيه الكفاية.

: وإن يكن، إنني أحب معرفة آراء الآخرين.

-: لا تكلنا إلى هؤلاء فقد تختلف كلمتهم وبذلك تبقى البلاد بدون أمير.

: لن تبقى بدون أمير، إنني أعتبر بلاداً لا أمير فيها فإنه قد يتأمر بها الشيطان.

-: هذا ما نخاف منه.

: لا تخافوا يا أبنائي، وعليكم باختيار الرجل الكفؤ الذي بيده شيء من الثروة والمال ليستطيع منه استقبال رجال «الشيوخ» والوفود والضيوف الذين يفدون على أمير البلد.

-: يعني أن هذا الجانب أحد العناصر التي يتم بموجبها اختيار الأمير؟

: «بالحيل» أتريدون أن تختاروا فقيراً لايستطيع أن يقرى ضيوفه.

-: لا، ولكن إذا كان من عائلة كريمة فهو محل للاختيار.

: إذا حصل هذا فهو نور على نور، إذا لم يحصل فإن من لديه ثروة أو مزرعة يستطيع من ريعها اقراء ضيوفه فهو الأمير.

-: لماذا نراك متردداً هذه المرة أراك قد تغيرت طريقتك.

: إيه.. «واعزي لحالك ياوليدي»!! أما تدرى أن الأمراء الذين سبق أن رشحتهم لم يرض عليهم بعض سكان البلد.

-: ومن الذي لم يرض عنهم؟

: بعض من لهم أغراض وأهداف معينة يسامعونني بالكلام بين الحين والآخر، ويحملونني تبعة تصرفات بعض هؤلاء الأمراء.

-: دعك من كلام «هليان ورقيعان» إننا نعرفهم لم يتصرف منهم أحد بشيء يوجب الملامة.

: لاشك في ذلك، لاننا كنا نساعدهم في كثير من الأمور ولكن أصحاب هؤلاء، كلما حك عود عود قالوا هذه نتيجة تصرفات عيسى واختياره.

-: رضى الناس غاية لا تدرك.

: لا شك في ذلك، ولكن نحن نحاول إرضاء أكبر عدد ممكن.

-: عليك أن ترشح من تريد كائن من كان ونحن موافقون على رأيك.

: دعنى أسمع آراءهم أولاً.

-: تكلموا.

: تكلم الحاضرون وتم اختيار عدداً من الأشخاص بدرجات متفاوتة وتبعاً لرغبات معينة فقال الشيخ:

-: إنني لا أطعن بهؤلاء المختارين، ستر الله علينا وعليهم لكن هذه الاختيارات لاتخلوا من الاغراض والأهواء بما قد لا يخدم مصلحة سكان البلد فأرجو أن تختاروا واحداً غيرهم.

: من ترانا نختار؟؟ هكذا ضج المجلس بالسؤال بشكل جماعي.

-: إختاروا غير هؤلاء، أو اتفقوا على أحسنهم.

: كلهم بدرجة واحدة تقريباً.

-: إذا ما رأيكم بفلان؟

: فلان!! لا بأس به ولكنه شاب حدث، وخالي الكف من المال الذي يعتبر إحدى ركائز الاختيار، وغائب عن المجلس الآن.

-: الشاب يصلب عوده وينضج ويعقل، ودواء الفقر يكمن في مساعدتكم له، والغائب يرسل إليه فيعود.

: مادمت قد اخترته فإننا لا نعارضك.

-: هل أنتم موافقون على ذلك؟

: نعم، قالها البعض وسكت البعض الآخر.

-: سأذهب غداً إلى المدينة وآخذه من عمله هناك وأدخل به إلى أمير المنطقة ليتم ترسيمه.

: أنت «مائن» ولك حق التصرف.

-: وعند ذلك انبرى أحد الحاضرين قائلاً: إنني لا أوافق.

: فرد عليه الشيخ: أنت الشاذ لو حدك من بين هؤلاء الرجال إذا إضرب برأسك هذا الجدار فإن لم يقنعك فعليك بالجدار الآخر.

-: صدق الشيخ، صدق وعليك باتمام ما عزمت عليه يا أبا سالم.

: سيكون ذلك غداً إن شاء الله.

لقد اعتاد الشيخ الوقور أن يدنف إلى بيت أقاربه بين الحين والآخر متوكئاً على عصاه، يجلس بين أفراد العائلة يداعب الصغار ويعلل الكبار، وذات مساء نمى إلى سمعه خبر مفاده أن هذه الأسرة قد خطبت لابنها البكر إحدى كرائم إسرة من القرية فسأل رب الأسرة قائلاً:

-: هل صحيح يابني أنكم خطبتم لفلان، ابنة فلان؟

: هاه!! صحيح ياعم يقول ذلك وهو يبتسم.

-: هل وافقوا على ذلك؟

: لقد أعطونا الموافقة المبدئية، ووعدونا أن يعطونا الموافقة النهائية بعد تشاور العائلة مع بعضها البعض وأخذ رأي البنت.

-: إيه.. ليتكم لم تفعلوا.

: لماذا ياعم؟

-: إن ابنكم لا يزال صغيراً على الزواج.

: صغير!!

-: نعم يابني.

: «أفَا» عليك ياعم لقد صام هذا العام.

-: «وَلَوْ» يابني إنه صغير على الزواج.

: أبداً، كل الرجال كانوا يتزوجون وهم في سنه.

-: إيه، ثم إن طبائعه تختلف عن طبائع بقية الشباب، إنه شاب هادىء.

: وهل في ذلك عيب؟

-: أبداً يابني إنها خصلة حميدة ولكن.

: ولكن ماذا؟

-: الفتاة التي اخترتموها له على نقيضه.

: يعني أنها شريرة؟

-: لم قصد ذلك، ولكن طبعها يختلف عن طباعه.

: إنها لا تزال شابة ولا يستطيع أحد إن يحكم عليها.

-: ولكنها مثل طباع أمها.

: وماذا تأخذ على أمها؟

-: ألف نعم، إنها من خيرة النساء لولا أنها صلفة في آرائها، بطيئة التحول عن الفكرة التي ترسخ بذهنها ومن هنا فقد تصعب قيادتها.

: سيهديها الله.

-: أتمنى ذلك، ولكني أقول إنها تحتاج إلى رجل غير ابنكم ليسيطر عليها.

: وابننا فيه البركة.

-: إن شاء الله فيه بركة ولكنها قد تتعبه في المستقبل وتتعبكم من ورائه.

: هاه!! ماذا تقول ياعم؟

-: أقول لو بحثتم له عن إمرأة أكثر تجاوباً معه واكثر إدراكاً لآرائه ومفهومه وأقرب تشابهاً في طبيعته وأخلاقه.

: أوه ياعم، كأنك لا تريدنا أن نزوج ابننا؟

-: أبداً إذا عدنا للواقع فإنهم حتى الآن لم يوافقوا.

: «كُنْبُهْ» يا ولدي عسى ألا يوافقوا.

-: أوه، وهل أنت صادق فيما تقول؟

: نعم يابني.

-: لماذا؟

: لأنني أعلق عليه آمالاً كبيرة وأتوخى فيه كل خير ولذلك فإنني ظنين به أن يكون عنده من يكدر صفوه أو ينغص عليه عيشته.

-: وهل تتوقع أن فلانة ستنغص عليه عيشته.

: إيه، لا يعلم الغيب إلا الله يـابني، ولكن إن صــدق ظني فسيقـع شيء من ذلك.

-: سيستر الله ياعم.

: وأنا أتفاءل مثلكم، ولكن أيكما الذي اختارها له؟ أنت أم أمه؟

-: كلنا معاً.

: وهل كان راضيا عن هذا الأمر؟

-: كل الرضى، وهذا هو بجانبك يمكنك أن تسأله.

: هاه!! ماذا تقول ياوليدي؟

-: يهز الشاب رأسه بحركة الايجاب.

: تحدث يابني بلسانك، إنني لا تكفيني الإيماءة بالرأس.

-: لقد رأى أبي وأمي أن يخطبوا لي تلك الفتاة واشاروا علي بها فقبلتها.

: هل كان قبولك بها عن قناعة أم بالاكراه من أهلك؟

-: لم يكن في الأمر إكراه يا عم.

: أقصـد يابني هـل أنت الـذي طلبت من أهلك أن يخـطبـوا لـك هـذه الفتـاة بالذات أم لا؟

-: لقد مدحتها لي أمي، وحاولت إلقاء نظرة عليها من بعيد ثم اقتنعت بها وعند ذلك ذهب والدي لخطبتها.

: إيه، إنه رجل ولله الحمد يا عم، الا ترى منطقه؟ هكذا تكلم الأب.

-: لم أقل في منطقه شيئاً، وأتـوقع منـه أكثر من ذلـك لأنه شـاب عاقـل وهادىء ولكن «ما من قبيل»؟

: «مامن قبيل»!! ماذا تعني؟

-: إن الفتاة مثل أمها لا تخلو من بعض الهبل.

: أرجوك ياعم، ألا تشوه صورة الفتاة عند خطيبها.

-: هذا الواقع يابني.

: ما دام أبي وأمي قد اختارا لي هذه الفتاة فأعتقد جازماً أنهم لن يغشوني بها.

-: إيه، ولكنك ستتعب فيها بعد.

: الله الساتر.

-: لو لم تكن عزيزاً علي لما أنذرتك.

: جزاك الله خيراً ياعم.

-: إيه، مبروك وألف مبروك وارجو لكم التوفيق.

وما إن تم الزواج حتى بدأت المشاكل تعصف بهذه الأسرة وقد حملت أم الزوجة ذروة هذه المشاكل، وبدأت في كل مجلس تشهر بزوج ابنتها وعائلته وطريقة معاملتهم لها وبدأت تبث كل صغيرة وكبيرة عن هذه الأسرة على رءوس الأشهاد، فضاق والد الفتى ذرعا بالأمر وعرج على عمه الشيخ يستشيره في الأمر حيث قال له:

: لقد جئت إليك ياعم لأخذ رأيك.

-: في أي شيء؟

: في هذه الورطة التي وقعنا فيها.

-: أي ورطة تعني؟ يقول الشيخ ذلك متجاهلاً.

: هذه المرأة التي زوجناها ابننا.

-: وماذا جاءكم منها؟

: أوه، لم تترك أمها من جلودنا شيئاً.

-: إيه، «ما طعت شوري يوم انا أقول حذرا»!!

: الحمد لله على ما قدر، لم نحسبها بهذا الشكل.

-: إنني أعرف نساءها جميعاً، إذا تزوجها رجل عنيف استمرت معه في حياة زوجية قوام أولها الصراع والعنف حتى تمسك الطريق ثم تصبح زوجته تسير رهن إشارته، أما إذا أمسك بيدها إنسان مثلك أو مثل ولدك هادىء وساكن فإنها تريد أن تركب فوق غاربه.

: والآن، ما هو الحل؟

-: الحل كان بيدك لو أطعت مشورتي أولاً، أما الآن فالحل يتركز في إيقاف أمها عند حدها، وتدريب البنت حسب رغبتكم وارادتكم.

: أوه، لقد طفح الكيل، فالأم ليس لنا سلطة عليها، أما البنت فهي التي

نستطيع التحكم بها الآن إلى حد ما، لوسلمنا من أمها.

-: حاول إقناع الأم بالتي هي أحسن يا بني واستملها إلى جانبك.

: إنها صعبة القياد ياعم.

-: حاول إقناعها، فكثير من النساء يلين رأسها بالمعاملة الحسنة والمبرة المتصلة، وحاول أن تعاملها وكأنها والدة لك حتى تكون إلى جانبك، فستراها بدلاً من التشويه الذي تقول إنها تبثه ضدك، سيكون هناك مدح وإطراء.

-: هذا لا يمكن أن يكون.

: أوه.. لماذا الجزم بهذه السرعة يابني؟

-: تلك المرأة التي عرفتها من الصعب استمالتها.

: وهل هي خافية عليك لهذه الدرجة؟

-: نعم، إن معرفتي بها سطحية.

: أوه، «واعزي لحالك»!!. إننا أهل قرية واحدة ونعرف بعضنا البعض تماماً كما قال المثل «كلنا أهل قرية والكل عارف أخيه».

-: ولكني كنت مغروراً بها.

: لا تقل هذا، بل قل أعمتنى الرغبة الجامحة في تزويج إبني من ابنتها الجميلة.

-: إيه، هذا ما حصل والشكوى إلى الله.

: إذا عليك إقناعها بالطرق السليمة وسوف تكون إلى جانبك.

-: ولكن كيف؟

: كما قلت لك يابني إقطع لسانها.

-: أوه، وكيف الوصول إلى لسانها أو الاقتراب منها.

: إيه... لم آمرك أن تقطع لسانها بالسكين.

-: أجل بماذا؟

: بالصلة.

-: بالصلة!!

: نعم، والمعاملة الحسنة، واصبر على ما سيأتيك منها لفترة معينة حتى تكف عنك وتنقلب موازينها.

-: وهل سيأتيني منها شر؟

: ربما، ولكن تحمل ولا تلتفت لما تقول وعند ذلك ستكون إلى جانبك.

-: أوه، ومن سيجاريها إلى آخر العمر؟

: هذا اختيارك وعليك تحمل تبعاته.

-: الحل عندي!!

: عندك؟

-: نعم، نطلق ابنتها ونرتاح من بقية شرها، وكما يقول المثل «إهرب عن الداب وشجرته».

: لا، لا يابني لا تفعل.

-: سأفعل وأرتاح.

لقد ضم المجلس مجموعة من الرجال وكان محور حديثهم أولئك الرجال الذين ينتمون إلى أسرة واحدة وكل منهم قد فتح الله له باب الرزق من مزارع وبيوت ومواشي وغير ذلك، ولما وصل الشيخ أفسحوا له المجلس فأخذ مكانه، واسند عصاه على الجدار ليتكىء عليه بيده اليمنى ثم قال بعد أن سمع طرفا من الحديث:

: عن أي شيء كنتم تتحدثون يا أبنائي؟

-: كنا نتحدث عن الفلان.

: هاه!! ماذا بهم؟

-: أبداً، ليس فيهم غير الخير والعافية.

: ولم الحديث عنهم إذا؟

-: لا ندرى ما الذي جاء بسيرتهم على ألسن البعض منا.

: عسى ألا يكون الحديث عنهم من باب الغيبة.

-: حاشا لله، فكل ما في الأمر استعراض وضعهم والثناء عليهم.

: يستأهلون، وانهم رجال فالحون.

-: والشيء الثاني، هذه الثروة التي ملأت أيديهم من النقود والمزارع والبيوت والمواشي.

: عسى الله أن يزيدهم خيراً.

-: ففلان له مزرعة كبيرة بالاضافة إلى مجموعة من الإبل ورعية كاملة من الأغنام .

: زاده الله خيراً وبركة .

-: وأخوه يملك مزرعة في أسفل البلد وأخرى في أعلاها ولديه عدد من المواشي .

: لا أعرف تفاصيل ثروته ولكن بارك الله له فيها .

-: وإخوتهم الثلاثة الصغار مع أمهم يديرون تلك المزرعة الكبيرة التي ليس لها مثيل بالبلد ولديهم المواشي الكثيرة وكمية كبيرة من النقود النائمة .

: نقود!!

-: نعم ، إن لديهم الريال «الفرنسي» والجنيه الذهبي «العِصْمَلِّي» النائم .

: من أين لهم رحم الله حالهم؟

-: رحم الله حالنا نحن ، أما هم فعندهم تلك المرأة التي تمسك بالريال من هنا وتخفيه فلا يعرف طريقه إلى النور مرة أخرى .

: إيه ، كفانا الله شركم!!

-: وماذا رأيت من الشر ياعم؟

: لم أر شيئاً ، ولكن من قال لكم أن تحصوا على الناس أرزاقهم؟

-: هذا مجرد استعراض .

: لو وكل إليكم هذا الأمر لما استطعتم القيام به ، فكيف تتعرضون أحوال الناس الغافلين؟

-: إنه التطوع!!

: والفراغ الذي جعلكم تستعرضون أحوال عباد الله .

-: لم نتعرض لهم بسوء .

: أوه ، الحديث يجر بعضه بعضاً ، الآن لن تتعرضوا لهم بسوء ثم لا تدرون إلا ودخلتم في اغتيابهم وبذلك تكون قد أصبتم منهم محرماً .

-: أعوذ بالله ، لن نصل إلى هذا الحد ، إننا نتعجب من سرعة نمو الثروة بيدهم إيه ، لم نحاول قطع رزقهم ، إنما نذكر الله على ذلك .

-: «كُنْبُهْ» يا وليدي نرجو الله أن يزيدهم خيراً وأن يكفيهم شر «قَرَادَةٍ» أهلهم .

: أهلهم!!

-: نعم يـابني، إن ستـر الله عليهم من سـوء خط أهليهم فسـوف ينبتـون ويترعرعون.

: وهل كان أهليهم «مقاريداً»؟

-: نعم، إنهم سيء الحظ لدرجة كبيرة.

: كيف؟

-: يخبرنا من كانوا قبلنا أن هذه الأسرة منذ أكثر من مائة وخمسين سنة مضت لا يتعدى رجالها ثلاثة ذكور.

: ثلاثة ذكور!!، أسرة بكاملها هذا عدد رجالها؟

-: نعم، لماذا الاستغراب يابني؟

: الاستغـراب لأننا نعـرف الأسرة في المـاضي وحتى زمننا الحـاضر لا يقل عـدد أفرادها عن العشرة رجال إن لم يزيدوا عن ذلك بسبب كثرة الزواجات.

-: لا بأس يابني ولكن «حمولتهم» كلما كبر أحد الذكور وعُدَّ من الرجال مات من هو أكبر منه، ولذلك فهذه الأسرة لا يزيد عدد رجالها عن الثلاثة.

: هذا والله شيء غريب!!

-: إنها ارادة الله.

: قد يكون الواحد منهم يكتفي بزوجة لاتنجب.

-: أبداً، بل يتزوج الواحد منهم الواحدة والإثنتين ويـرزق أطفالاً ذكـوراً وإناثـاً ولكن الله يختـارهم إلى جواره وهم في سن الـطفولـة فلا يعتق منهم سـوى ما ذكرت.

: هاهم ولله الحمد خمسة الآن.

-: ستر الله عليهم ووقاهم شرور الأيام.

: هل كان أوائلهم مثل أواخرهم؟

-: أوه، كانوا أجود منهم، إنهم نعم الرجال شجاعة وظفراً وكرما ومروءة ودينا، وكل الخصال الحميدة تتوفر بهم، لولا حظهم السيء.

: إيه، الحظ هبة من الله وكيف يسوء حظهم؟

-: ما عرفته ووعيته يابني أن الواحد منهم يكون لديه فـلاحة ممتازة يوقـر نخيلها بـالطلع فـإذا حان وقت التمـر رأيت القنوان ذاويـة ملتويـة تصير بعـد ذلـك

حشفا.

: قد لا يجيدون تعديل قنوان النخيل فتتكسر عراجينها؟

-: لا، يابني إنهم أحرص الناس على هذه الناحية.

: لاحول ولا قوة الا بالله.

-: ويزرعون الزرع فيطلع من أحسن المزارع وعند استوائه تجده قد أصيب باحدى الآفات الزراعية «كالرُناق» أو الحطام فتكون غلتهم منه أقل بكثير من المتوقع.

: كفانا الله شر الحوادث.

-: وينمون الماشية من الابل والأغنام باعداد كبيرة فتجد الابل إما أن تضيع أو تصاب بمرض من الأمراض كالهيام للابل والنحاز وغيره للاغنام بالاضافة إلى الذئب الذي قد يسلط عليها.

: أعوذ بالله من سوء الحظ.

-: صدقني يابني أن الذئب إذا هاجم رعية الغنم فأول ما يعمل نابه في افتراس أغنام هذه الأسرة من بين رعية الغنم.

: آمنا بالله وعليه توكلنا.

-: قد يكونون مقصرين في إخراج الزكاة مثلاً؟

: أبداً، فهم من خيرة الناس في هذه الناحية، ولو لم يخرجوا من الزكاة غير ما يذبحونه منها ويقدمونه لضيوفيهم، بينما نجد أناساً غيرهم أقل منهم إنفاقاً وأندر منهم حوادثاً.

-: إذا، ما دام الأمر كذلك، فهو عائد لسوء الحظ.

: بلا شك يابني، أما سمعت المثل القائل «إذا قام هديب غطى العيب»!!

-: إيه، ولكن يا عم يمكن أن يكون حظهم قد قام.

: أوه، عسى، إذا قام «السلوقي» فلا خوف بعد قيامه.

-: ثم إن الأمور قد تغيرت، ليست كما كانت سابقاً.

: أقول «كنبه» يا وليدي.

-: لا، الأمور تغيرت ويمكن أن يكون حظهم قد قام.

: لعل وعسى الله أن يذرى عليهم بذراه ويستر علينا وعليهم.

وتمر الأيام، ويشاء الله أن تتوالى الكوارث على الأثنين الكبيرين ثم يلحقان بجوار ربهما ويبقى الثلاثة تعصف بهم بين الحين والآخر منغصات الحياة ومنها فقدان والدتهم عند انتقالها إلى جوار ربها وهي التي يعتبرونها الدعامة القوية لهم، وبقى الإخوة الثلاثة يعيلون أسرهم بالاضافة إلى أرامل وأسر إخوانهم، ودار الحديث مرة أخرى بين الشيخ وأحد جلسائه حيث قال:

-: أتذكر ياعم حديثنا قبل سنوات خلت؟

: وأي حديث تعني؟

: حديثنا عن أسررة آل فلان!!

-: آه، أريتك ماذا كان موضوع الحديث؟

: لقد حدثتنا عن هذه اوسرة، بأنها لا يزيد عدد أفرادها عن ثلاثة رجال.

-: إيه، لقد تذكرت، لقد تذكرت!!

: إنظر إليهم الآن، لقد أصبحوا ثلاثة.

-: ايه ستر الله عليهم، وأبقاهم لاعالة هذه المجموعة من الأرامل والأيتام.

: سبحان الله لقد صدق ما حدثتنا به.

-: هذه إرادة الله يابني وليس حديثي.

: ولكنك أخبرتنا به.

-: لقد أخبرني من كان قبلي بذلك، ورجوت الله أن يكون غبار الحظ قد انقشع عنهم.

: لا يزال حظهم رابضاً.

-: هكذا يابني بعض الأسر تتوارث الحظ، أو سوء الطالع كما تتوارث الصفاة والسجايا أباً عن جد.

: كيف؟

-: إنظر يابني أسرة آل فلان منذ ما يزيد على مئتي سنة وهم في هذا النمو المضطرد حتى صاروا شعوباً وقبائل.

: نعم، إنهم ينتشرون في أكثر من خمس قرى، أترى ذلك يعود لحسن الحظ؟

-: قد يكون ذلك، ولكنه ليس العامل الرئيسي، ولكنها إرادة الله وبقاء دزية هذه الرجل أوذاك وانقرض نسل هذا الرجال أوذاك.

: من هي الأسرة التي انقرضت أو في طريقها للانقراض؟

-: كثيرة يابني، ومنهم على سبيل المثال «حمولة» آل فلان.

: صحيح إنها كانت أسرة كبيرة.

-: لقد نمت هذه الأسرة وتكاثرت بشكل كبير حتى احتلت جزءاً كبيراً من البلد فطغوا وتجبروا ثم دب بينهم الخبث والنجاسة وشتتهم أسهم الشحناء فتساقط عدد كبير منهم في ذلك المرض الذي عم البلد قبل عشرات السنين وبقي منهم من بقى حتى تدانى عددهم ولم يبق منهم الآن غير عدد قليل جداً يعدون على أصابع اليد الواحدة.

: حقا، إننا نعرف من بقى من هذه الأسرة.

-: إيه، لم يبق منهم الا الذنانة.

: لا حول ولا قوة إلا بالله، ترى ما هو سبب فنائهم؟

-: لا أدرى يا بني، ولكن يتهمونهم بالتهاون ببعض أمور الدين!!

: إلى جانب الأمور الأخرى التي تهدم البيوت.

-: أعوذ بالله عن حالهم، إذا تهاون المرء بأمور دينه فماذا أبقى لنفسه؟

: إن الشيطان حريص على استقطاب أكبر عدد من البشر،

-: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

: خصلتان يابني من تمسك بها فقد نجا، أو لا هما المحافظة على الشعائر الدينية وعدم التهاون بشيء منها، وثانيهما الطهارة بالنفس والبحث عن النساء الطاهرات المطهرات كرائم الأسر الكريمة.

-: أوه، لم تترك شيئاً ياعم.

: إن هناك من يتعلق بأشياء أخرى.

-: مثل ماذا؟

: كالتفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والتباهي بالجاه.

-: إن مثل هؤلاء قد يكونون من خيرة الناس.

: ولكن أكثرهم زبد وغثاء كغثاء السيل.

-: إذا غرر الشيطان بالانسان وركب رأسه فإنه حينئذ ينسى من أين أتى.

: تنسيه نفسه أنه خلق من طين لازب وسيعود إلى تراب داكن.

-: أوه، ليت الناس يتذكرون هذا.

: يتذكره قوم ويتركه آخرون.

-: أرى الحديث قد طال بنا إلى أن حان أذان العصر، ها هو المؤذن قد اعتلى رأس منارة المسجد وهو يستعد لاطلاق صوته بالأذان.

-: الله أكبر، نعم الله أكبر من كل شيء في الوجود، هيا يا أبنائي من لم يكن منكم على وضوء فعلية أن يتوضأ ولنتوجه جميعاً إلى المسجد إستجابة لنداء داعي الله، حي على الصلاة حي على الفلاح،

ويقفز الجميع من المجلس للتوجه إلى البيوت لاسباغ الوضوء أو الذهاب إلى المسجد لاداء صلاة العصر جماعة.

ضم المجلس إثنين ممن يرون في نفسيهما، فروى أحدهما نكتة أو طرفة أضحكت الجلوس وأعتبرها الثاني تعنيه، فأتى بقصة قديمة لمز فيها رفيقه، وما إن انتهى من روايتها حتى بدت إشارات الغضب على الأول وشطت الكلمات والجمل بين الأثنين حتى تلاحيا، وعَبَّر كل واحد منهما عن صاحبه بلمز نسبه، فما كان من الأخر إلا أن تحدا خصمه باتهامه أنه ليس صريح النسب واشتط الكلام بينهما حيث قال أحدهما للآخر:

: نحن أنقى منكم نسبا وأرفع حسباً.

-: إيه، كل واحد «يُنَقِّي نَفْسَهُ حِنْطَة»!!

: أجل تريدنا مثلكم.

-: وماذا بنا؟

: إن جدكم الأول كان مجهول النسب.

-: إنه خير من جدكم الذي جاء من مقاطعة كذا لا يعرف إلى أي القبائل ينتسب.

: إخسأ أيها المجهول.

-: يخسأ المجهول مثلك.

: أنا لست مجهولاً، إن قبيلتي في المكان الفلاني.

-: هكذا تدعي.

-: ليست دعوى، ولكنها الحقيقة.

-: ما أبعد دعواك عن الحقيقة.

-: أتسمعون ما يقول أيها الرجال؟ لتكن معكم شهادة على قوله.

-: إشهدوا عليَّ بما أقول إن جد هذا الرجل ذهب إلى قبيلة كذا وهم يشبهون إسمهم، فقال لرئيس هذه القبيلة إنني منكم وإليكم أنتسب فسكت كبير القوم، وأعطاه كسوة وزوده بما يحتاج ورجع إلى هنا يدعى أنه من قبيلة كذا.

-: نحن أقرب منكم إلى قبيلتنا لكن حياة الحضر جعلتكم تعتقدون ذلك.

-: نحن الذين لا نزال على بِرِّنا وقومنا معروفون.

-: حاول أحد الحاضرين التدخل لحسم الخلاف وهو يقول: الكل منكم الآن متشبث برأيه فهل لكم إلى رجل يحسم الأمر بينكم؟

-: ومن يكون هذا الرجل؟

-: أترضون به لو أخبرتكم به؟

-: إن كان محلاً للثقة فسنرضى به.

-: إنه الشيخ عيسى.

-: ونعم، لقد رضيت به حكما بيننا.

-: وأنا رضيت به أيضا.

-: إذا لنذهب إليه الآن.

-: في هذا اليوم غير موجود في داره إنه مسافر إلى القرية الفلانية وعندما يعود فسوف نذهب إليه.

-: اتفقنا على هذا.

وعندما عاد الشيخ ذهب إليه المتنازعان حيث دخلا عليه فوجداه مع بعض أهل المشاكل الذين أتو إليه في منزله وبعد أن فرغ ممن عنده التفت إلى الأثنين وقال:

-: حياكم الله، ماذا جاء بكم في هذا الوقت؟

-: أبقاك الله يا أبات ابراهيم.

-: ماذا عندكما؟

-: يـوجد بيننـا خلاف عـلى موضـوع معين ورضينـا بكم بيننا حسب معـرفتـك ببواطن الأمور.

-: خلاف!! حول ماذا؟

-: لقد تطاول علينا فلان هداه الله بين مجموعة من القوم.

-: بماذا تطاول عليكم؟

-: يتهمنا بأننا مجهولي النسب.

-: مثلما تطاول علينا بنفس التهمة.

-: ماذا تقولان؟

-: نقول إن كل منا قد اتهم صاحبه بغمز النسب

-: «أفا» «أفا»!!أنا لا أصدق أن كلاماً كهذا يصدر من رجلين عاقلين مثلكما.

-: هذا ما حصل بشهادة الشهود.

-: الأمر لا يحتاج إلى شهادة يا أبنائي، كل منكم قد نطق أمامي.

-: ولكن ماذا تقول في أمر كل منا؟

-: المفروض يابني ألا يلجأ أي منكما لمثل هذا الأمـر، فقد نهانـا ديننا الاسـلامي الحنيف عنه، وقد جـاء في الحديث الصحيـح عن النبي صلى الله عليـه وسلم «كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

-: لكن هذا يعتبر مسبة لنا أمام الناس.

-: أنت السابق إلى ذلك. هكذا نطق الخصم.

: إسمعا يابني، هذه الأمور لايتكلم بهـا إلا جاهـل، فالإنسـان يجب أن يكون عصامياً لا عظامياً.

-: ماذا تقول ياعم؟

: أقـول يجب على كـل إنسان إذا أراد أن يفتخـر، أن يفتخر بـافعالـه هو حينـما يكون نفسه بنفسه، وربما حاز من الفضل والتفوق بما قدم للآخـرين ما لم ينله من قبله وهذا هو العصامي، أما من يكتفي بالافتخار بـآبائـه واجداده، دون أن يحذو حذوهم أو يزيد عليهم في الافعال الحميدة فهـذا هو العـظامى، أي الذي يفتخر بالعظام النخرة.

-: آه، فهمت، ولكنه قد نشب في حلقي.

: بماذا؟

-: إنه يقول بأنني مغمور النسب مع أنني من عائلة تنتمي إلى قبيلة معروفة.

: انظرا يابني، إذا استثنينا عنصراً واحداً هو العنصر الأفريقي فكل من على هذه الجزيرة العربية وخاصة وسطها يمتون إلى أرومات عربية تنتهي إلى جذور القبائل العربية.

-: ولكن من يفهم؟

: إياي تعني!! ألا تستحي؟

-: إسمع يابني إنه لا يعنيك فكثير من الأسر التي عاشت حياة الحضر إضمحل انتماؤها القبلي شيئاً فشيئاً ومع مرور الزمن وتعاقب الأجيال ضرب النسيان على هذه الناحية طبقة سميكة بحيث أصبح أحفاد الأحفاد لا يعترفون بهذه الناحية.

: لقد شطح بنا الحديث ياعم!!

-: وهناك أمور أخرى سأبينها لكم وهي الظروف الصعبة التي تمر بها القبائل المستضعفة أمام القبائل القوية حيث يستهتر القوي بالضعيف وقد يضعه دون الطبقة الثانية أو الثالثة.

: هذا يحصل للقبائل فقط.

-: وكذا الحال يحصل للافراد، فالجاني الهارب الذي يخفى نفسه عن أي إنسان، والفقير الهالك الذي يحاول اكتساب لقمة العيش من أي مصدر مشروع وما شابه ذلك، كل هؤلاء يعانون من الظروف الصعبة التي تجعل الناس ينظرون إليهم بنفس المنظار.

: أوه، نحن لا نريد هذا، وإنما نريد أن تثبت لنا فيما جئناك من أجله، وأن تخرج هذا الموضوع من ذمتك.

-: الأفضل يابني أن يثوب كل منكما إلى رشده، ويترك مثل هذه الأمور والخوض فيها فكلنا من قبائل عربية قح سواء على المدى القريب أو البعيد، ولا داعي لما أنتم فيه.

: نحن نريد أن تخرجها من ذمتك وتعدلنا ما تعرف.

-: من الصعب أن أعد لكم ما أعرف.

: لماذا؟

-: لو عددت لكم ما أعرف لارتفع أناس إلى القمة بعد أن كانوا يعتبرون في الحضيض، ولهبط أناس إلى الحضيض ممن يعتبرون أنفسهم في القمة.

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول إنه من الأفضل أن يقتنع كل منكما بما هو عليه الآن، وأن يعفت من كريمات القبائل و«الحمائل» زوجات له ويترك مثل هذه الأمور التي عفى عليها الزمن إلى غير رجعة.

: هل أغضبك كلامي؟

-: أبداً، ولكن يابني أردت أن ألمح لكم عن الحقيقة، فلو أن كل إنسان أراد أن ينبش في حفائر القبور، ويدس يده في مثانى الجحور فر بما لن يحمد عاقبه هذا التصرف.

: إيه، ولكنك لم تفدنا.

-: أفيدكم أن الكل يعود إلى أرومة عربية ويجب أن يستمر على هذا الاعتبار الذي يرى فيه نفسه.

: يعني أننا من قبائل معروفة؟

-: أجل، أجل يابني.

: هاه، إسمع يافلان، فلا تتعود أن تنطق بكلمة واحدة بعد ان سمعت ما سمعت.

-: ولن يتفوه أي منكما بمثل هذه الأمور، المفروض أن تطرقوا مجالاً فيه منفعة لكم لا أن تضيعوا الوقت في هذا الكلام الذي ليس له فائدة.

: حقا المفروض ذلك، ولكن الشيطان حريص.

-: إيه، يا وليدي، يؤلب الشيطان من يطيعه في القول والعمل عند ما يكبر المجلس لتنطلق من هناك شرارة الشقاق والشر.

: أعاذنا الله منه، نستودعك الله.

-: مع السلامة يا أبنائي، ودعوا عنكم هذه الأمور.

واحتدم النزاع بين أحفاد وورثة أسرة كبيرة ومشهورة تولت السلطة ردحاً من الزمن على اقتسام ممتلكات هذه الأسرة التي تتكون من فرعين رئيسيين وكان أتباع كل فرع يرى الحق إلى جانبه، ولاسيما أن الأوراق والمستندات قد أصبحت مفقودة وهم في هذه الحالة يعتمدون على معرفة الأشخاص فقد أعيتهم الحيل للوصول إلى الرأي القاطع لكل شك والصائب في حل هذا الاشكال فاستعانوا بكبار السن ممن لديهم المعرفة بمثل هذه الأمور، وتجمع منهم حشد كبير لدى القاضي فأدلى كل منهم بما لديه من معلومات لكن هذه المعلومات لم تكن شافية ومقنعة لأي من الطرفين وهنا قال أحد الحضور موجهاً كلامه لأحد أطراف النزاع:

: إذا أردتم أن تصلوا إلى نتيجة مقنعة فعليكم بالشيخ عيسى.

-: الشيخ عيسى!!

: نعم، قد يكون لديه الكلام الفصل في موضوعكم.

-: ولكنه بعيد عن هؤلاء وقد لاتكون لديه المعلومات الكافية.

: ليس ببعيد عن الموضوع.

-: ما دخله بأمور تحدث بعيدة عنه؟

: لاتقل هذا يا أخي، فالرجل يعرف المنطقة بكاملها، لديه معرفة لكل قرية بتفاصيل مذهلة.

-: ماذا تقول؟

: أقول إنه يعرف كل قرية شبر شبراً ويعرف سكانها فرداً فرداً على مدى مئتي سنة وربما أكثر.

-: هل لديه تاريخ أو سجلات حتى يحفظ ما ذكرت؟

: أبداً، إنه لم يدون شيئاً، ولكنه يحفظ ما يسمع من كبار السن، ولديه قوة عجيبة في حفظ هذه المعلومات.

-: لم أصدق!!

: صدقني إنه يعرف أسماء أهل القرى، يعرف الرجل وزوجته أو نسائه وأبنائه وبناته ومن تزوج من تلك البنات، ومن اقترن بأولئك الأولاد من النساء، فبمجرد قولك إنني فلان الفلاني من القرية الفلانية تجده يسألك هل أنت ابن فلان وأمك فلانة ابنة فلان وجدك فلان وجدتك فلانه... الخ ويستمر

يعدد لك آباءك وأجدادك حتى يوصلك إلى تِرْكَ الأول.

-: أصحيح ما تقول؟

: نعم ألا تعرف هذا الرجل من قبل؟

-: لدي بعض المعلومات عنه ولكني لم أحسبه هكذا ثم ما دخل ذلك بموضوع أرضنا؟

: الأرض والمزارع والبساتين والسواقي والأودية والشعاب الجبال والتلاع جلها إن لم تكن كلها لديه معلومات عنها.

-: كيف جمع هذه المعلومات؟

: إنه صافي الذهن يحفظ كل ما يسمع ويعرف كل شيء يمر عليه، ولا تنسى أنه كبير هيئة النظر الذين يقومون يومياً بحل مشاكل الناس، وفض نزاعاتهم حول أمور مشابهة لهذه المشكلة.

-: هاه!! لقد حيرتني.

: لا تتحير يا أخي. فوالله لو جاء فربما وجدتم عنده حل هذه العقدة، وربما قسم البساتين بنفسه ونال كل واحد من هؤلاء الورثة حقه.

-: وهل يستطيع قسمة الميراث؟

: إنه عالم بحر في علم الفرائض وقسمة المواريث لا يجاريه فيها أحد اللهم إلا القاضي.

-: ما دام هذا وضعه لماذا لا نستدعيه؟

: عليكم بالطلب من القاضي استدعاؤه ولن يضيركم ذلك فإما أن يكون زودكم بمعلومات عن نفس الموضوع أو اخبركم بما سمع عن أشياخ سبقوه في السن.

-: هذا صحيح.

وفي اليوم التالي إتفق كبار الأطراف المعنيين أمام القاضي وطلبوا منه أن يوجه دعوة للشيخ عيسى ليرى ما لديه من معلومات عن هذه الاملاك المتنازع عليها، ولم يمض سوى أيام قلائل حتى حضر وعندما سأله القاضي عما لديه من معلومات حول الموضوع حيث قال:

: ماذا لديك يا عيسى عن ملك آل فلان؟

-: أملاك آل فلان كثيرة فعن أيها تسأل؟

: وهل لديك معلومات عن كل ملك على حدة؟

-: لدي معلومات سمعتها عن الآخرين.

: ما هي هذه المعلومات؟

-: كنا ذات يوم في مجلس الأمير وتطرق الحديث للمزرعة الفلانية الواقعة باسفل الوادي فاجمع من حضر المجلس من كبار السن أنها لفلان خالصة له ولـذريته وأحفاده وورثته من بعده.

: جميل جداً، أتستطيع أن تذكر لي من كان بالمجلس؟

-: نعم، إنهم فلان وفلان... الخ وكلهم رجال ثقات.

: هذه واحدة إتضح فيها شيء من الدليل.

-: يعلم الله إن هذا ما حصل، وسمعت أن أخاه فـلان قد تنـازل له عن كـامل حقه في هذه المزرعة.

: وهل كان له حق فيها؟

-: يقولون إن فلانا هو الذي غرسها وتولى سقيها والعنـاية بهـا وذات يوم خـرج الأخوان في نزهة إليها، فقـال الأصغر ممـازحاً أخـاه، ألا تعطيني غـريسة من هذه النخلة؟

: فقـال صاحب البستـان؛ كل البستـان وما فيـه من النخـل ملك يـدك وتحت تصرفك.

-: فرد عليه سلمت يا أخي وبقيت لي ذخراً ومستنداً وسلمت يداك التي غرست هذا النخل، ومعاذ الله أن آخذ غرساً غرسته بيـدك وتعهدت بسقيـه ورعايتـه حتى أصبح هكذا.

: ليس بيننا فرق في ذلك، فالملك بيننا مشترك كسائر أملاكنا الأخرى.

-: أبـداً، عسى الله يسلمك وهـذا ملكك لـوحدك أمـا الاملاك التي نشتـرك بها فهي التي ورثناها عن والدنا رحمه الله أو التي اشتركنا فيها من بداية الأمر.

: آه ـ ليتهم كتبوا ذلك وأراحونا.

-: أوه، يا أخي إن الأولين رجال طيبون وعلى نياتهم إذا قـال الواحـد منهم قولاً

فهو أقوى من الكتابات والوثائق ولا يمكن أن يحيد عنه .

: إيه ، ولكن جيل هذا الزمن لا يكتفون إلا بالكتابات والوثائق .

-: عسى الله أن يستر الحال، فقد يأتي جيل من بعدهم لا تنفع معهم حتى الوثائق والصكوك.

: أحسن الله خاتمتنا في هذه الدنيا على الإسلام قبل أن يظهر ذلك الجيل.

-: آمين يارب العالمين .

: أتقول إن أولئك الرجال الذين بالمجلس قد أقروا هذا الكلام؟

-: «بالحيل» وبكل تأكيد لكأني بينهم الآن .

: منذ متى صار هكذا؟

-: منذ ما يقارب الأربعين سنة .

: وماذا عندك من معلومات عن المزرعة الفلانية؟

-: هذه للأخ الأصغر حيث غرسها بعد ذلك وأعطاه أخوه الأكبر فسائل من بستانه السابق ذكره فغرسها واعتنى بها وهي له خالصة .

: إذا ما هي الأملاك المشتركة بين الأخوين؟

-: على ما أعرف أن الاملاك المشتركة بينهما هي فلاحة والدهما الواقعة في أعلى البلد وحدودها ومعالمها معروفة ، والحيور الواقعة بقرب القصور، والقصور والمنازل.

: لقد ثبت لدي أن ملك والدهما قد أعطياه لفلان الذي باعه فيما بعد .

-: ما دام الأمر كذلك فالموضوع ينحصر في البساتين الواقعة بقرب القصور وقصورهما.

: جميل هذه النتيجة التي توصلنا إليها.

-: عسى الله ألا يخفي حقا.

: ما دام الأمر كذلك ، فدعنا نتعاون على قسمة المتبقي من هذه المنازل والبساتين.

-: إن قسمتها صعبة أيها القاضي .

: صعبة!!

-: نعم، لابد عند قسمتها القسمة الصحيحة بحصر ورثة كل من الأخوين ومن مات الأول منهما وعدد ورثته علماً بأنه تعاقب من أحفادهم أربعة أو خمسة أجيال ولم يبق الآن الا عدداً يسيراً منهم لا نستطيع أن نملكهم هذه الأراضي والمنازل على ذمتنا لاسيما وأن الأمر تدخل فيه نساء كزوجات من عائلتهم ومن قبائل شتى فلا نستطيع أن نضيع حق صاحب حق ونحلل حرام لآكل.

: لقد خطرت ببالي هذه الأفكار وأحببت أن أرى ما عندك.

-: أقول من الأفضل أن يبقى الجزء الذي فيه الاشكال على ما هو عليه، وأن يجعل جزءاً منه سبيلا لمنفعة المسلمين وأجره من عند الله لاصحابه الحقيقيين، فكل حبة تدل بيت أهلها.

: لكن هؤلاء مصرون على أن يأخذ كل ذي حق حقه.

-: هناك حل آخر.

: ما هو؟

-: لقد سمعت من فلان وفلان وكلهم رجال ثقات ومن خاصة العائلة أن الأخوين الكبيرين في أخريات حياتهما قد اقتسما البساتين بصفة خاصة دون أن يشهرا ذلك للناس وأنهما اتفقا على وضع علامتين في جنوب البستان وشماله حيث حفرا لرضمتين سوداوين ودفنا هما تحت الأرض حتى لا يشتهر ذلك للناس، يقال إن واحدة منهما بجانب نخلة «الطريق» والثانية بجانب نخلة القسبة في الجهة المقابلة بطرف الحير، وكذا فعلا في الحير الشرقي حيث وضعت حجرة بقرب شجرة الاثل والثانية بمحاذاتها في الجانب الآخر الشرقي، فعليكم بالبحث عن هذه المراسيم فإن وجدت فيكون لورثة كل أخ الجزء المخصص لهم أما القصور والمنازل فكل واحد يعرف منازله وعلى ورثته التصرف فيه بما يحسن لموتاهم.

: أما هذه المراسيم فقد سمعت بها ولكن لم أجد من يحددها بالضبط كما فعلت. وعليكم بالبحث عنها في نفس الأماكن هكذا أمر القاضي أحد الرجال.

-: هذا ما سمعته من أناس يعتبرون من خاصة العائلة ويعرفون الكثير من أسرارهم.

: لكن هؤلاء المطالبين يريدون أن نخرج حقهم.

-: أوه، لو خرج لهم حقهم صحيحاً قد لا ينالون شيئاً يذكر ثم إنهم وكلاء لورثة يريدون مصلحتهم قبل كل شيء.

: لقد بحثنا في الأماكن المحددة ووجدنا المراسيم كما ذكر عيسى.

-: إيه، الحمدلله، ما دام الأمر كذلك فقد عرف الآن حق كل من الأخوين وعلى ورثته التصرف فيه بما يحفظ حق الوارث، وما كان للميت فيه من أوقاف فيبقى وقفا على أفعال الخير.

: لقد ساعدتني بمعلومات أفادتني في اتخاذ الحكم الشرعي لهذا الموضوع.

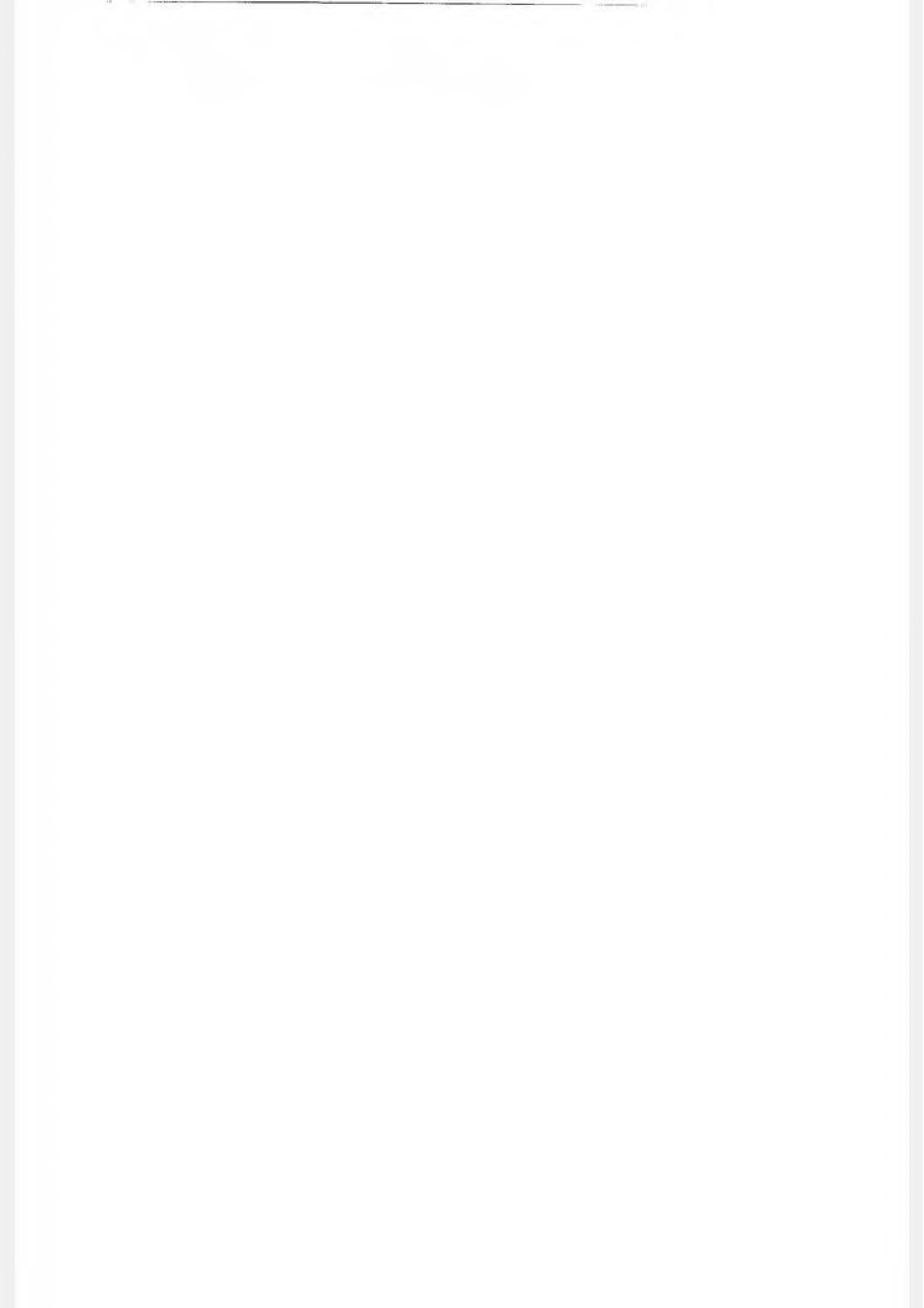
-: الواقع إن هذا الموضوع متشابك وملتبس وأرى ألا تستعجل في البت فيه، فلربما جاءتك معلومات جديدة عنه لأنه كما تعرف منذ ما يزيد على مائة سنة على نشأة الأخوين وكم أنجب كل منهما؟ وكم تزوج؟ وكم جاء من بعده، وموت أفراد هذه العائلة قد يأتي أحيانا بصورة مفاجئة، فالأمور فيها تداخلات وحقوق مهملة لا تتحملها ذمة المرء ليقدمها لقمة سائغه للآخرين.

: صحيح ما تقول، لكن هؤلاء حريصون على البت في الأمر.

-: البت بيدك والآن وقد عرف كل واحد حق آبائه واجداده بصرف النظر عن حقه الخاص عليه أن يحسن وربما قد يسيء ويكون ذلك على مسئوليته وفي ذمته.

: حقاً، إن هذا عين لصواب.

قصة رقم (٥)



الفارس الملثم

بات الركب يتحلقون حول موقد النار في داخل عِنَّـة وجدوهـا على إثـر عرب رحلوا لتوهم من ذلك المكان، وكلما لسعت ظهورهم لفحـات البرد القـارسة تناولوا من حطب تلك العنة فجذبوه وألقو به فوق موقـد النار ليـزيد تـأججها وتتقطع ألسنة لهبها محاذية لرؤس الواقفين منهم، حتى إذا خف أوارهـا جلسوا إلى جانبها مرة أخرى يتصلون الجمر المتوهج وذلك التماساً للدفء حيث قال عقيدهم:

-: إرفقوا بالحطب ولا توقدوا به مرة واحدة.

: نريد الدفء لأنفسنا.

-: إذا استمر جذبكم لجـذوع هذا الحـطب بهذا الشكـل فلن ينتصف الليل إلا والتهمت النار كل هذه العنة على أيديكم.

: دعها تذهب إلى غير رجعة.

-: إن وجودها يذريكم عن لفحات هذه الريح الشمالية.

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول إن انتصاب هذا الجدار من الحطب سيرد عنكم لسعات برد هـذه الليلة الشاتية.

: أتريدنا أن نبيت بدون نار؟

-: لا، ولكن الاقتصاد في إيقادها واجب.

: إيه، لا تنس أننا قد آذانا البرد.

-: كبر النار لا يطرد البرد عنكم نهائياً.

: بل سيدفئنا.

-: أنتم تشعرون بذلك عندما تكبر النار أن الدفء قد شمل مقدمة أجسادكم بينما ظهوركم لا تزال باردة.

: حقاً، إنك صادق فيما تقول، فإن الجهة الموالية للنار من جسمي أشعر أنها دافئة، أما ظهري فكأنه يتراكم عليه طبقات من الصقيع البارد.

-: لهذا أقول لكم اقتصدوا في إيقاد النار.

: ولماذا نقتصد؟

-: حتى لا ينفد الحطب قبل الصباح، لا سيما وأن برد الصباح الباكر أشد كثيراً من برد الليل.

: أوه، الحطب كثير ولن ينفد، حتى لو جلسنا هنا عدة أيام.

-: إنني أعلم منك، إنه قليل وليس كما تعتقد.

: لنضع منه ما يذهب البرد عنا.

-: إيه، إنك لم تتعب فيه، ولذلك فلا تشعر بقيمته.

: ومتى تعبنا في شيء؟

-: ماذا تقول؟

: أقول إننا في مجموعتنا هذه نعيش على ظهور الآخرين.

-: دعك من هذا الحديث وعليك بتنفيذ ما أقوله لك.

: أمرك منفَّذ، ولكني قد خلجني البرد وأريد الدفء.

-: وإذا نفد الحطب فسوف تقوم بنفسك بإحضار بدلاً عنه.

: في هذه الليلة القارسة؟

-: كل يد وما قد مت!!

: أمري إلى الله سألتحف إذاً بهذا «العِدْلْ» ليساعدني على الدفء.

-: لا أسمع من يتأحح غيرك من بين خمسة عشرة رجلاً.!!

: كلهم يحسون بما أحسن به.

-: لكنهم صابرون.

: لأنني أخدمهم في إيقاد النار.

-: أصحيح ما تقول؟

: تكلم أحدهم فقال: دعونا من هذا الكلام الذي لا يفيد.

-: ماذا تقول؟

: أقول لقد شطح كلامكم في هذه الجلسة حول البرد والدفء عن شيء أهم من ذلك.

-: ماذا تعني؟

: أعني، المفروض أن نناقش على ضوء هذه النار الخطة التي سنسير عليها غداً.

-: صحيح، معك حق، لقد ألهانا رفيقك عما نحن بصدده.

: يجب ألا تلهينا القشور عن اللب، فالبرد لم ولن يؤثر علينا بأي حال من الأحوال، فليست هذه هي المرة الأولى التي نعاني فيها من لسعات البرد في الشتاء، أو لفحات الهجير والظمأ في الصيف، أو نقاسي فيها من ليالي السغب ولويات الجوع.

-: صدقت، صدقت يا أخا فلانة، فنحن أبناء هذه الصحراء لا تؤثر فينا هذه العوامل، ولا تهد من عزيمتنا مثل هذه العوارض، ولئن أصابنا البرد فلسوف ننطلق على شجيرات الرمث ويلوى كل واحد بعشرات منها ونمكث عليها حتى الصباح، والله لكأنك نبهتني من حلم.

: ماذا عندك لنا من خطة أيها العقيد؟

-: الخطط لا تأتي إلا لشيء معلوم.

: كيف؟

-: لكل موضوع ما يناسبه من الخطط، ونحن لم نعثر في اليومين الماضيين على أي شيء نخطط لاحتوائه غنيمة لنا.

: صحيح إننا لم نعثر على أحد، ولكن ألا يجب أن نفترض أننا عثرنا على إبل أو غنم أو غيرها فكيف سنحوزها؟

-: لكل حدث حديث، ولكل موقف ما يناسبه.

: زدنا إيضاحاً.

-: إفرض أننا الآن وجدنا ذوداً أو أذواداً من الإبل فوضعنا خطة للاستيلاء عليها ففي هذه الحالة، يتطلب افتراض وجود المدافعين عنها وقوة من يحميها ودرجة

استعدادهم وغير ذلك من الاحتمالات التي تتحكم في الموقف، وبذلك نغرق في تلك الأمور بدون مبرر.

: متى إذاً نضع الخطة لحيازة الغنيمة؟

-: كما اعتدنا عليه فيما مضى.

: لكن طرقنا السابقة لم تكن ناجحة دائماً.

-: إذا رأينا أية فرصة للغارة والكسب فإننا نرسل من رفاقنا من يسبر لنا هذه الغنيمة، ويرى قوة حمايتها، فإن وجدنا الفرصة مؤاتية أغرنا عليها، وإن كان ذلك سيكلفنا الشيء الكثير تركناها إلى غيرها.

: هذه الطريقة قد سرنا عليها زمناً طويلاً ولم يحدث عليها أي تجديد.

-: ألم تعجبك؟

: بلى، بلى ولكن بعض من يحذروننا قد عرفوا أسرار خطتنا ولذلك فقد يضعون بعض عوامل التمويه لإيهامنا بقوة حمايتهم لمواشيهم وذلك خلافاً للواقع.

-: وماذا لديك من جديد في هذا المجال؟

: أقول، لو أدخلت بعض التجديدات على خططنا لكان ذلك أفضل.

-: ماذا ترى من التجديدات الواجب إدخالها؟

: ليس الرأي لي وحدي، وإنما لكل واحد من هذه المجموعة رأي قد يكون صائباً ونافعاً.

-: إنني أطرح الرأي للجميع، فكل منكم يدلي برأيه فيما سندخله من تعديلات.

: أهم عنصر يجب أن يدخل هو عنصر المفاجأة.

-: صحيح إن المفاجأة تفيد أحياناً كثيرة ولكن يجب أن تحسب حساباً لما بعدها.

: وماذا سيكون بعدها؟

-: قوة الطلب مثلاً، وسرعة المطالب، وإصراره على استعادة ما في أيدينا ودرجة استماتته في ذلك.

: أوه، إذا باغتنا الخصم فلن يستفيق من أثر الصدمة ويجهز من يجهز لاستعادة المسلوب إلا وقد قطعنا مسافات بعيدة.

-: ليس ذلك دائماً.

: أراك وكأنك لا تقبل إدخال أي تجديد!!

-: أبداً، إنني على استعداد لتقبل أي شيء نافع.

: وهذا الذي قلته لك أليس نافعاً؟

-: بلى، بلى يا أخي لا تتعجل!! إن لدي الخبرة الطويلة في هذا المجال، وأعرف أسرار هذا التصرف، وبلا شك أن المباغتة مفيدة في كثير من الأحيان إذا عرفت مقدار قوة الخصم.

: ولماذا تعرف مقدار قوته؟

-: للتوجه إليه بالضربة الموجعة، حتى لا تنقلب موازين الأمور ويلحقك بأذى.

: أوه، نعود بالحديث إلى حيث بدأنا!؟

-: إفرض أننا باغتنا أذواد حي كبير من العرب وأخذنا إبلهم فذهب إليهم الصائح وجاءت الأفزاع في كواكب من الفرسان كل كوكبة تسبق الأخرى بعد أن ذهبنا بإبلهم قليلاً فماذا نكون أمام تلك الخيول المغيرة ونحن على ظهور مطينا؟

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول إنهم سيلتهموننا ويفنوننا عن آخرنا.

: أنت دائماً، ترهبك الكثرة والقوة، ولذلك فعنصر المغامرة عندك مفقود.

-: لنفرض أنهم لم يكونوا مجموعة من الفرسان، وكان المطالب باسترجاع الإبل فارس شجاع يلتهم الجموع، ونحن خمسة عشر رجلاً أمامه فلربما آذانا وقتل منا أو على الأقل إسترجع ما بأيدينا.

: افتراضاتك لم تدخل في ذهني.

-: إذاً دعونا نسير على ما نحن عليه من خطط، نرى الغنيمة أو الفرصة السانحة لاحتوائها بعد معرفة سلبياتها ثم ننقض عليها.

: صحيح ما يقوله العقيد.

-: هل سبق أن أصابنا أذى أو استعيد ما بأيدينا منذ أن بدأنا هذه المهنة على مدى سنوات عديدة؟

: حاشا وكلا، فدائماً الفوز بالغنيمة حليفنا.

-: إذاً ماذا تريدون أن ندخل على خططنا؟

: لا شيء، لاشيء، إلا ما تراه.

-: لن أنفرد برأي حتى أستشيركم فيه لأن مصيرنا واحد.

: معنى هذا إنك لم تقبل برأيي.

-: لقد قبلت به يا أخي، ولكن بعد أن نضع أمامنا كامل الإحتمالات.

: يعني إنك ستضع كامل حساباتك هذه؟

-: نعم يا أخي، من لا يقيس قبل أن يغوص فقد يفرق!!

: لكن هذا الكسب الذي نحرزه بموجب خططك لا يسمن ولا يغني من جوع.

-: ولكن تتوفر فيه السلامة، أجل تريد أن تستغني بمرة واحدة؟

: أجل، قاطر الحلق لا يفيد.

-: لكن الطمع عاقبته وخيمة.

: نريد أن نستغني مرة واحدة.

-: لن تستغني أبداً.

: لماذا؟

-: لأن ما تأخذه من صاحبه غصباً فلن يغنيك أبداً.

: لن يغنيني!!

-: نعم، لأنه حرام.

: لماذا نأكله إذاً؟

-: للضرورة.

: للضرورة!!

-: نعم. فليس لنا رزق سواه.

: ما دام الأمر كذلك فأنا لن أشارككم أبداً.

-: لماذا؟

: ما دمنا لن نستغني من هذه المهنة فلا داعي للاستمرار بها.

-: أوه، لن يستغني غير صاحب المال الحلال، أما المال الحرام فيذهب وربما ذهب بصاحبه.

: وسأكون ممن يستغني بالمال الحلال بعد عودتنا من هذه الغزوة إن شاء الله.

-: وسينضم إلينا بدلاً عنك واحد خير منك.

: ليسلك كل منا الطريق الذي يرتضيه لنفسه، إذاً تصبحون على خير.

ومع الصباح الباكر امتطو ركابهم باحثين عن غنيمة مناسبة وبعد مسيرة قليلة وقع نظرهم على مجموعة من الإبل ترعى في مفلاها، عند ذلك أرادوا الاستيلاء عليها لكنهم قبل أن يشرعوا في ذلك أرسلوا رقيبتهم وعاد مسرعاً بعد أن استبان النزل العظيم مستتراً عنهم بسلسلة من التلال والقارات عند ذلك اعتبروا أنفسهم ضيوفاً عند أهل تلك النزل في الليلة القادمة إن لم يجدوا في طريقهم أحداً يأخذون إبله فسيعودون ليلتهم القابلة، عند ذلك ضربوا أعناق مطيهم يمنة ويسرة طوال ذلك اليوم يرقبون الهضاب والمرتفعات علهم أن يرو جهاماً ييممونه أو ذوداً يختطفونه، لكنهم لم يظفروا بشيء رغم إدلاجهم طيلة يومهم ومن ثم عزموا على العودة إلى القطين الذي مروا به ضحى ذلك اليوم ليكسبوا الدفء في تلك الليلة الشاتية كضيوف على أهل ذلك الحي، ولما دنوا من النزل كانت الشمس تودع الأفق في ذلك الأصيل القارس برده، فتفرقوا على البيوت اثنين إثنين، ما عدا عقيدهم فقد ذهب مع اثنين من رفاقه حلوا ضيوفاً على رئيس القوم، ومع تناول القهوة على موقد النار، سأل المضيف ضيوفه:

-: من أين أتيتم يا ضيوف الرحمن؟

: جئنا من المكان الفلاني.

-: ما الذي جاء بكم في هذه الأرض؟

: لقد جئنا نبحث عن إبل ضائعة لنا.

-: كم عددها؟

: خمس نياق وثلاثة جمال.

-: أوه، هذا ذود من الإبل.

: نعم أيها المضيف الكريم.

-: ما ألوانها؟

: إنها مختلفة الألوان.

-: مثل ماذا؟

: ناقة حمراء، وأخرى قمراء، وثالثة شعلاء، والرابعة وضحاء والخامسة ملحاء.

-: فعلاً إنها جامعة معظم الألوان.

: ألم تكن من سلالة واحدة؟

-: إنها نوادر من بين أذوادنا.

: أوه، وما ألوان الجمال؟

-: أحدها أملح، والثاني أزرق والثالث أدبس.

: كيف اجتمعت هذه الألوان عندكم؟

-: كما قلت لك إنها عينات من إبلنا.

: ما وسم هذه الإبل؟

-: وسمها المشط مع الشاهد عن يمينه.

: على أي موضع؟

-: على صفحة الخد الأيمن.

: كلها تحمل نفس الوسم؟

-: نعم، ما عدا بكرة واحدة فهي غفل لا وسم عليها.

: لماذا لم تضعوا عليها الوسم؟

-: لقد تمادينا في ذلك حتى ضاعت.

: وهل على أي منها وسوم أخرى؟

-: أبداً، أبداً، إنها من سلالة إبلنا.

: إيه، عقل الله عليكم، إنها لم تذكر لنا.

-: لقد تعبنا في البحث عنها.

: سنسأل عنها رعيان الإبل إذا عادوا.

-: جزاكم الله خيراً.

: وماذا رأيتم في طريقكم إلينا هذا اليوم؟

-: لم نر أحداً.

: أما رأيتم أهل خمسة عشر مطية قد مروا ضحى هذا اليوم بالقرب من إبلنا؟

-: لم نتبين أحداً منهم.

: لقد ذكروا لنا في هذا الصباح متوجهين إلى الوجهة التي قدمتم منها.

-: لم تقع أنظارنا على أحد، ما أكثر الركبان، قد يكونون مثلنا يبحثون عن إبل ضالة لهم أو لغرض آخر.

: خمسة عشر مطية يبحثون عن إبل!! هذا لا يعقل.

-: لماذا؟

: المعروف أن من يبحث عن ضالة قد يكون واحداً أو إثنين وقد يصلون الثلاثة على أكثر تقدير.

-: قد يكون لهم غرض آخر كوفد إلى أمير أو غيره.

: إنني أخشى أن يكونوا غزواً.

-: غزو بهذا العدد!؟

: إنني أخشى أن يكونوا غزواً أو من تلك الفئات الذين يزعجون الناس وينهبون أموالهم.

-: لا أظن ذلك، فالغزو لا بد لهم من استعداد كحملة ترافقهم معها الماء والطعام.

: هذا يا بني إذا كان الغزو بأعداد كبيرة، أما هؤلاء، ومن في مستواهم فهم قلة يعتبرون من قطاع الطرق «الحَنْشَلْ».

-: وماذا تفعلون بهم لو ثبت لكم أنهم من هذه الفئة التي ذكرتم؟

: إذا رأينا منهم أذية فسوف نطردهم، وإن أصروا على نيل مرادهم منا فسنفتك بهم.

-: يستأهلون، يستأهلون. يقول ذلك وفي حفيظة نفسه وجل مما قد يحصل له ولرفاقه فيما لو علموا أن هؤلاء الركب هم أولئك الذين مروا بالقرب من أنعامهم في الصباح وهنا استأنف الحديث قائلاً: في رأيي أن ركب كهذا لا بد أن يكونوا وافدين على أحد أمراء القبائل.

: لا يستبعد ذلك، ولكن ليس حولنا في هذا المكان من أمراء القبائل أحد.

-: قد يكون قصدهم بعيداً!!

: إنني أعلم أنه ليس في هذه الجهة من رؤساء القبائل أو الحكام أحد.

-: الله أعلم أين ذهبوا.

: ثم إن مظهرهم وهيئتهم لا تنبيء عن أنهم وفود كما نقل لي من شاهدهم.

-: أوه، المظهر بالسفر لا يدل على شخصية الإنسان فقد تكون ملابسهم قد احتفظوا بها ليلبسوها إذا وصلوا إلى الجهة التي يقصدونها.

: الملابس لا تهم قد يصدق فيها توقعك، ولكن حتى ركابهم ليس عليها من القشاط ما يدل على مكانة أصحابها.

-: مثل ماذا؟

: كالخروج المزكرشة والعثاكيل والدلال المصبوغ بمختلف الألوان وهذه من المظاهر المألوفة للوفود.

-: هاه!! ولكن قد يكونون في طريقهم إلى المدينة لإحضار الميرة لأهلهم.

: ولا هذا، لأن مثل هؤلاء لا بد أن يكون معهم أرعية للطعام، وقد تكون الأوعية مملوءة بمنتجات أهلهم كالأقط والسمن وغيره ليستبدلوه بطعام لأهلهم، أما هؤلاء فهم على ركابهم الخفيفة بعضها عليه أشدة والبعض منها حرذون ليس عليه ما يقي صاحبه متاعب الركوب.

-: ما صفة هؤلاء إذاً؟

: إن شفاك ظني فهم كما قلت لك «حَنْشَلْ» من قطاع الطرق يحوفون مواشي العربان لينهبوا منها ما استطاعوا نهبه، ويسلبوا هذه الأنعام من أيدي أصحابها.

-: لا أظن ذلك، ليس هناك إلا الخير. يقول ذلك وهو يود لو ينقطع هذا الحديث.

: نحن نتوقع الخير دائماً يا ولدي، ولكن بعض الناس يبتلينا بشره مما يضطرنا إلى الدفاع عن أنفسنا.

-: وهل سبق أن آذاكم أحد من هذا القبيل؟

: أوه، هناك محاولات عديدة، فقد لا يمضي أسبوع إلا وقد جرت محاولة من هذا النوع.

-: عسى ألا يكون أحد قد أخذ منكم شيئاً؟

: أبشرك يا بني أن جميع المحاولات التي جرت قد باءت بالفشل ولله الحمد.

-: إيه، الحمد لله، كيف استطعتم التغلب على هذه المحاولات؟

: بادئ ذي بدء، لقد ستر الله علينا، ثم إننا في انتباه جيد لكل ما حولنا، حيث نرسل من يسبر لنا المكان الذي ستسرح إليه مواشينا، وتأتينا المعلومات عما حولنا أولاً بأول، فإذا رأينا أن هناك أي حائف فهناك رجال مستعدون لأي طارئ، رجال يذودون عن القبيلة ويحمون ذمارها.

-: ما شاء الله، لقد رتبتم كل شيء.

: وهل تأتي زعامة قبيلة بدون ذلك.

-: ولكن حيكم كبير جداً وأفراد قبيلتكم كثيرون.

: لولا ذلك لما استطعنا ترتيب شئوننا.

-: إيه، أعانكم الله، ألا ترى أن ذلك متعب لكم؟

: أوه، هذه متطلبات الحياة يا بني في الوقت الراهن.

-: هل يعني هذا أن لكل واحد منكم عمله؟

: نعم يا بني هناك مجموعة من الرجال الذين يسبرون مفالي «الدَّبَشْ» ومجموعة الرقباء الذين يرصدون أي شخص أو أزوال حول مفالينا، ومجموعات الفرسان والرعيان وغيرهم.

-: أوه، ماشاء الله لم أر أحداً رتب شئون قبيلته مثلكم!!

: هذه متطلبات الحياة في هذا الوقت لكي يحافظ الإنسان على ماله الذي هو عصب الحياة، ضد أي إنسان متطفل يريد أن يسلبه منه.

-: كفانا الله وإياكم شر الأشرار.

: آمين، تفضل للعشاء.

وفي الصباح الباكر بارح الرجل منزل المضيف مع رفاقه وتجمع عليهم بقية الركب على مسافة من النزل، وأبدى كل واحد من الركب انطباعاته حيال من بات عنده من بيوت هذا الحي فقال كبيرهم:

-: إن مثل هذا الحي صعب المنال.

: لماذا؟

-: لكونه حياً منيعاً فيه رجال يحمونه من أي اعتداء.

: لا يوجد حي إلا وفيه ثغرة من الثغرات.

-: أما هذا فلا.

: دعنا نجرب، فقد وجدنا فيه مهمزاً.

-: أوه، هذا الحي الذي كلمني زعيمه ليس فيه «**مَصٌّ عَظْمْ**».

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول دعونا نذهب إلى حي غيره أو نمر بنزل صغير نتمكن من الاستيلاء على شيء من مواشيه.

: للأسف أن نمر بهذه المواشي ونتركها دون أن نستفيد منها.

-: إيه، ولكن دونها رجالها، ثم إننا قد ذقنا طعامهم وهذا في عرف العرب يمنعنا من إيذائهم.

: صحيح، إنك على حق.

-: ثم إنني سمعت من رئيسهم حديثاً تبين منه أنهم على قدر كبير من اليقظة لأي طارىء أو حائف.

: كيف؟

-: لقد سألنا أسئلة دقيقة وكان لديه عنا من المعلومات ما يكفي لاكتشاف أمرنا.

: هاه، ماذا تقول؟

-: أقول، لو لم نتفرق تحت جنح الظلام حينما اقتربنا من النزل لأصابنا منهم أذى.

: ولماذا يؤذوننا؟

-: إيه، لو سمعت تحليله لخبر مرورنا بهم لما استغربت مما أشرت إليه، لقد حلل وعلل وتوقع واستنبط وحكم علينا أحكاماً صحيحة.

: حكم علينا بماذا؟

-: حكم علينا أننا لصوص وقطاع طرق.

: وكيف عرف ذلك؟

-: الرجل ليس بالسهل الذي تتصوره.

: ولكن كيف عرف أن هذا هدفنا؟

-: الرجل داهية، لقد عرف هدفنا من هيئة ركابنا.

: وهل بين لك هذا الأمر؟

-: لقد عرفته ضمن حديث عابر بيننا على أساس أنهم ركب مروا من ذلك الطريق ميممين لتلك الوجهة.

: وهل سألك عنهم؟

-: أوه، لقد سألني عنهم أدق الأسئلة، وكأنه يريد أن يجرني لأي حديث عنهم.

: هذه والله الورطة، وماذا فعلت؟

-: لقد تملصت منه.

: كيف؟

-: لقد أجبته بإجابات مبهمة، وأنكرت أننا رأينا أحداً في طريقنا.

: إذاً، أنت على حق، يجب علينا تجنبهم.

-: لا من أجل ذلك فحسب، بل من أجل قوتهم، فلديهم من الفرسان من يدافعون بهم عن حيهم، إيه!! إنهم حزمة واحدة.

: إذاً «إهْرُبْ عَنَ الدَّابْ وِشْجِرْتُهْ»!!

-: هذا ما أراه، وعلينا بالذهاب إلى أناس ضعفاء، أو متفرقوا الأهداف والآراء.

: هؤلاء الذين نستطيع الظفر بما في أيديهم من مال.

-: إيه، لعل الصدف أن تأتي بهم.

واستمر الركب في مسيرتهم يجوبون الفيافي ويدلجون القفار ومع إطلالة صبح اليوم الثالث رأى رقيبهم جهاماً يتحرك ما بين أشجار تلك الغابة من الطلح وعند التدقيق فيه وجدها قافلة من الإبل المحملة بالأحمال التي يتوقع أن تكون من المواد الغذائية، وقد شرع أصحابها بشد الأحمال على إبلهم عند ذلك عاد إلى رفاقه مسرعاً يكاد أن يطير من شدة الفرح حيث قال:

: أبشروا أيها الرفاق، لقد عوض الله عليكم تعب كل تلك الأيام.

-: هاه، ماذا رأيت؟

: لقد رأيت قافلة محملة.

-: قافلة محملة!! ما أحمالها؟

: قد تكون أحمالها من الطعام.

-: إذا صح ذلك فهو ما نريد، إبل وطعام.

: أتوقع إنها كذلك.

-: عسى ألا تكون من أحمال الملح؟

: إذا كانت كذلك فيكون مكسبنا الإبل.

-: أراكم تحكمون على شيء قبل أن ترونه.

: هذه مجرد توقعات نأمل لها التوفيق.

-: قد تكون أحمالها مثل تلك الأحمال التي عثرت عليها يا فلان قبل فترة.

: أتعني أحمال «الجَلَّةْ» المكونة من دمن الإبل؟

-: أوه، أنتم لا تذكرون عني غير الشيء الرديء، سامحكم الله.

: هذا الذي رأيت وعثرت عليه.

-: الله أكبر!! أنسيتم تلك الحملة التي عثرت عليها قبل فترة والمكونة من أحمال التمر والحنطة والقهوة والهيل والكساوي؟

: إيه، إنها نادرة، مثل الشيبة بالرأس.

-: المهم أنكم قد تمتعتم بتلك الغنيمة فترة من الزمن.

: إيه، دعنا من تلك، المهم هذه.

-: هذه إن شاء الله مثلها.

: هل معها حماية؟

-: لم أقترب منهم بما فيه الكفاية لأرى عددهم ولكنهم لا يتعدون الأربعة نفر على أي حال.

: أربعة!؟

-: أو خمسة لا يزيدون.

: أخشى أن يكون أولئك «الزَّمَامِيْل»؟

-: هاه، لا أدري وماذا تتوقع غيرهم؟

: قد يكون معهم حماية مسلحة.

-: لا أظن ذلك.

: لماذا؟

-: لو كان معهم حماية مسلحة لظهروا مع صحبهم.

: إنك غير محق فيما تقول.

-: لم أفهم.

: قد يكونون عيوناً لرفاقهم.

-: عيون لرفاقهم!؟

: نعم، فكما أرسلناك للاستطلاع لنا، فكذلك هم قد يكونون بثوا بعض رفاقهم لسبر الطريق لهم.

-: هذا ما غاب عن بالي أيها العقيد.

: لا يغب ذلك عن ذهنك.

-: وماذا ترانا نفعل؟

: عليك بالذهاب نحوهم والاقتراب منهم، وكأنك عابر سبيل، وتوقف عندهم لترى ماذا يكونون من الرجال وكم عددهم وما عدتهم، وتسألهم من أين أتوا وإلى أين يريدون، ثم تذهب عنهم في نفس الاتجاه الذي قصدت لتلتف علينا من خلف ذلك الحزم وتخبرنا بأمرهم حيث سنكمن لهم في ذلك المنخفض من الأرض حتى نتبين اليقين.

-: وقد أسلبهم القافلة بنفسي إن كانوا بعدد أصابع اليد.

: أوه، هذا الأمر لا تفكر به الآن.

-: وإن رأيتهم ضعفاء؟

: لا يمكن يا أخي أن تسير قافلة كهذه بدون حماية مسلحة بأيد رجال أشداء.

وذهب الرقيب وعاد بعد زمن قصير وهو يكاد أن يطير من شدة الفرح فبادر عقيد القوم بقوله:

-: أبشروا هذه «خِرْنِقٌ مُجْحِرَةٌ».

: خرنق مجحرة!!

-: نعم ليس مع القافلة سوى ستة رجال من الحضر ولا سلاح معهم.

: وغير مسلحين!!

-: نعم، فوالله إنني لم أر معهم غير العصى التي يسوقون بها الإبل.

: وكم عدد «**الزَّمْلْ**»؟

-: خمسة عشر بعيراً محملة بالطعام.

: خمسة عشر وليس معها حماية!! هذا الكلام لا يعقل.

-: أوه، لماذا لا يعقل؟ دعنا نقتسمها فلكل واحد منا بعير بحمله، هلموا إليها.

: أخبرني، ما شِرَّةُ القوم عندما رأوك؟

-: لم أر على وجوههم ما يستنكر.

: أما رأيت أثراً للخوف على وجوههم؟

-: أبداً، لم أر شيئاً.

: إذاً، وراء الأكمة ما وراءها.

-: ماذا تقصد؟

: أقصد، كيف كان حديثهم معك؟ هل أجابوا على كل أسئلتك؟

-: أجابوا على بعضها وتجاهلوا البعض الآخر.

: كيف كانت إجابتهم؟

-: إجابة اللامبالي بالسائل.

: هذا ما أخاف منه.

-: ومم الخوف؟ من ثلة من الرجال العزل من السلاح!!

: إن إجابتهم تلك تدل على ثقتهم بأنفسهم.

-: يثقون بأنفسهم وهم عزل من السلاح؟ أبداً، ولكنهم من الحضر الذين لا يعرفون مقاصد الرجال.

: لا تقل هذا الكلام، إن صدق حدسي أنهم قد ركنوا إلى من يحميهم ويدافع عنهم.

-: لم أر أحداً غيرهم.

: قد يكونون اختبأوا عندما رأوك مقبلاً عليهم.

-: هاه، لا أدري، ولكني لا أتوقع ذلك.

: خذ الكلام الأكيد، لم يطمئن الرجال إلاّ وراء ظهورهم من يذود عنهم.

-: دعنا نباغتهم قبل أن يستكملوا تحميل إبلهم بالأحمال.

: ولكن كونوا على حذر.

-: هلموا نحيط بهم، فإن رأينا منهم مقاومة استعملنا معهم العنف.

وما هي غير لحظات حتى أحاط أهل الركائب بأهل الحملة وصوت عقيدهم بقوله:

: أيها الرجال، إتركوا ما بأيديكم من الحمول على الأرض وعليكم بالتخلي عن الحملة.

-: فرد واحد منهم قائلاً: أنترك أحمالنا وما في عهدتنا؟

: نعم، عليكم بتركها والابتعاد عنها.

-: ومن أنتم أيها الركب حتى نترك ما بأيدينا من أجلكم؟

: ليس ضرورياً أن تعرفوا من نكون، ولكن المهم أن تتركوها.

-: من أجل ماذا؟ يقولها أحد أصحاب الأحمال بلهجة الواثق من نفسه.

: من أجلنا.

-: إذا كان من أجلكم، فأبشروا حتى لو تريدون ما على أجسامنا من الثياب. يقول ذلك وهم لم يتوقفوا عن تحميل الإبل وكأنهم غير مبالين بالقوم.

: ولكنكم لم تتوقفوا كما أمرناكم.

-: دعونا نضع الأحمال على ظهور الإبل لنكفيكم تعب تحميلها ثم نسوقها معكم إلى ما تريدون.

: ماذا تقول؟

-: أقول لنسوقها معكم قبل أن تأخذوا أسلابنا.

: أتستهزىء بنا؟

-: أبداً، ولكننا نحاول خدمتكم.

: فاشتط عقيد القوم وقال: أقول لكم عليكم بالتوقف حالاً عن هذه الأحمال وإلا . . .

-: وإلا ماذا؟

: وإلا والله لنسلبكم حتى ثيابكم التي على ظهوركم وستذهبون إلى أهلكم حفاة عراة.

-: يأبى الله ذلك.

: ولكن هذا قرارنا الأخير.

-: مهما قررتم فلن نتوقف عن إتمام عملنا.

: يبدو أنكم تتحدوننا في استمراركم بالعمل؟

-: نحن نقوم بالواجب علينا.

: الواجب!!

-: نعم، وعليكم بالتخلي عنا وتركنا في حال سبيلنا، فنحن أناس نسعى لطلب لقمة العيش الحلال فوق ظهور ركابنا.

: هل هذا يعني أنكم «جَمَامِيلْ»؟

-: كما شئت أن تسمينا.

: ما دام الأمر كذلك فالمال ليس لكم.

-: ولكننا مؤتمنون عليه.

: إذاً عليكم ترك الإبل وما عليها إن أردتم السلامة لأنفسكم.

-: ماذا تعني أيها الرجل؟

: أعني إن لم تكونوا حريصين على سلامة أرواحكم فقد أنذرناكم، وقد أعذر من أنذر.

-: ها هي الأحمال كلها الآن جاهزة على ظهور الإبل.

: عليكم بتركها والمغادرة إلى الجهة المعاكسة.

-: هذا لن يكون.

: أتتحدوننا؟

-: ليس كما تعتقدون، ولكن من الأفضل لنا ولكم أن يسير كل منا في حال سبيله تاركاً صاحبه وشأنه.

: هذا شيء لا يعقل، أنترك لقمة سائغة تفلت منا بهذه السهولة.

-: ماذا تعني باللقمة السائغة.

: أعني هذه الأحمال التي تحوي مختلف الأصناف من الأطعمة.

-: أوه، أما هذه فهي أبعد على الواحد منكم من «حُبَّةْ مَرْفِقُهْ»!

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول ما سمعته.

: عليكم بالإبل أيها الرجال. هكذا قال عقيد القوم.

-: ولكن ثمن ذلك غالياً، فقد تدفعونه إذا كان هذا قراركم الأخير.

: هل أنت مجنون أم تدعي ذلك؟

-: لا عليك زيادة فيما تقول.

: هيا أيها الرفاق، عليكم بالقافلة واكتفوا كل واحد منهم يحاول مقاومتكم.

فنزل صحبه سراعاً عن أكوار مطيهم وفي هذه اللحظة انطلقت أعداد من العيارات الناريّة من البنادق فوق رؤس القوم من الكمين الذي ترَّس به الرجال المسلحون القائمون على حماية القافلة منه وقال قائلهم:

-: هيه، أيها الأوغاد، لقد أقسمنا بالله إن لم تطسُّوا عنا وتتركوا قافلتنا ورجالنا لتكون الطلقات القادمة برؤسكم، ولن يرى أحد منكم صاحبه بعد اليوم.

: إخسأ، ثم إخسأ أيها الجبان.

-: الجبان من لا يثبت عند قوله، فعليكم بالمضي في سبيلكم وتركنا وشأننا.

: لن نترككم ومعنا هذه البندقية، عليك بهم يا فلان.

-: لن يتمكن، إنني لن أقتله إذا هو رمى بالبندقية.

: ماذا تقول أيها الخسيس؟

-: أقول إن لم يتركها سوف آخذها منه وأنا بمكاني.

: تعجز!!

-: ذلك غيري، هه!! خذها. وضربت الطلقة الثانية البندقية الوحيدة مع الركب فتناثرت بين يدي صاحبها قطعاً مبعثرة على الأرض مع إصابته في كف يده.

: «إعْفِبْ» ما أرماك!!

-: أتريد الثانية في رأس صاحبك أم في غرابة الشداد؟

: هاه!! ماذا تقول أيها الخبيث؟

-: أقول سأجعلها في غرابة الشداد لتكون لكم نذيراً. وتناثرت غرابة الشداد بفعل الطلقة الثانية.

: وعندها تبادل الركب النظرات فقال عقيدهم: لقد وقعنا في ورطة وعلينا النجاة منها.

يقول ذلك بصوت خافت ثم رفع رأسه وقال: سيدحركم الله أيها الأبالسة هل أنتم من الجن أم من الإنس؟

-: إنس من خلق الله، ولكن عليكم إعطاءنا ظهوركم والذهاب في سبيلكم ولا نريد منكم شيئاً.

: هاه، ولكننا لن نعود خائبين.

-: بل تعودون سالمين فقط وهذه أكبر نعمة عليكم بعد أن تفضلنا عليكم بذلك.

: هذا لا يمكن.

-: عليكم بمغادرة المكان قبل أن يكون هناك تصرف آخر.

: سنذهب، سنذهب.

-: هذا لا يكفي.

: وماذا تريدون منا؟

-: نريد منكم عهداً وميثاقاً ألا تعودوا إلينا.

: عليكم عهد من الله ألا نعاودكم مرة أخرى.

-: إذاً مع السلامة.

وهكذا هرب القوم بجلودهم خائبين مما كانوا يتوقعونه وبعد أن أخذوا مسافة في الطريق قال أحدهم للعقيد:

: هاه، كيف نفلس من هذه الغنيمة؟

-: إيه، لقد حماها رجالها، والحمد لله على السلامة.

: لقد خسرنا بندقيتنا الوحيدة وأصبحنا الآن لا نملك غير السيوف والرماح.

-: سيعوض الله عنها.

: دعنا نعود إليهم.

-: هذا الشيء الذي لا يمكن فعله بعد أن عاهدناهم.

: ولكنهم غدروا بنا.

-: أبداً، نحن الذين حاولنا سلب نعمتهم ولكنهم حموها.

: «إهِبْ» ما أرماه!!

-: إيه، لا يقدم من القوم إلا خيارهم.

: لقد أشعلت فتيلة الزند وقبل أن أضغط عليه عاجلني بطلقته التي شعثرت البندقية بذخيرتها.

-: إنظر إلى غرابة الشداد كيف طيرها؟

: الحمد الله، لقد جاءتنا سلامة من الله.

-: ذاك الرامي قد يكون من الجن.

: ولكنه متمرس وحاذق في التصويب.

-: والله لو استمرينا معه لأفنانا عن آخرنا.

: إيه، ما كل سانحة غنيمة، فأحياناً إذا حصلت السلامة فهي مكسب.

-: إيه، ما كل بيضاء شحمة.

: ولكنها فرصة لا تعوض.

-: ياما من الفرص، ولكني قد توقعت ذلك حين أخبرني فلان أن القوم غير آبهين بنا.

: ما دمت قد رأيت ذلك فكيف تجشمنا مثل هذا الموقف؟

-: لقد أقدمنا عليه تلبية لإلحاحكم علي باغتنام مثل هذه الفرصة.

: «إمْحَقْ فِرْصَةْ»!!

-: لم نكن نعلم الغيب.

: سيعوضنا الله عنها.

-: على ألا تكون مثل هذه.

: بل ستكون مثل تلك المرات العديدة التي غنمنا فيها أشياء كثيرة.

-: ولكن هذا الشهر نجمنا خافت.

: لا ندري، فربما أراد الله بنا خيراً.

-: هذه طبيعة الصراع في الحياة من أجل البقاء.

وهنا تكلم الرجل الذي أراد الانفصال عنهم قائلاً:

: وماذا تريد الله أن يدخر لكم من الغنائم وأنتم تسلبون أموال الناس وتهرقون دماءهم؟

-: صَهْ!! لا تتلفظ بكلمة واحدة، فأنت لست منا منذ أن قررت العزوف عن الطريقة التي نسير عليها.

: نعم، لقد قطعت في نفسي ألا أشارككم في سفر أو غزوة بعد هذه المرة.

-: ذهاب أم عمرو!!

: سيغنيني الله من فضله.

-: ستضطر إلى مصاحبتنا مرة أخرى ولكننا لن نقبلك.

: سيغنيني الله عنكم.

-: إيه، سيتغير رأيك إذا هلكت من الجوع وسعى فيك القمل.

: الله جواد كريم، سأسعى لطلب لقمة العيش بالطريق المشروع.

-: بالرعي، أو العمل عند الفلاحين!!

: المهم أن يكون كسباً حلالاً.

-: أما نحن فسوف نستمر في عملنا هذا حتى يقضي الله أمره.

: ولكنه طريق خاطىء وكسب حرام.

-: وما أدراك في هذا الأمر؟ أكان لديك معرفة بالإفتاء؟

: يكفيني معرفتي بالشيء الحرام وتركه.

-: أنت وشأنك، دعنا في طريقنا.

: لعل الله أن يهديكم.

واستمر القوم في مسيرهم حتى اكتست الشمس بوشاح الأصيل الذهبي حيث رأوا من بعيد جهام مجموعة من الإبل، فغذوا السير نحوها حيث وجدوها ذوداً كاملاً من الهمل، وكانت الإبل غفلاً لا وسم عليها، فساقوها أمامهم حتى خيم عليهم الليل ثم عقلوها وباتوا ليلتهم تلك وعند الصباح ساقوها معهم حتى قدموا إلى أحد البلدان فباعوا الإبل واقتسموا أثمانها وساروا في طريقهم حتى

وصلوا إلى تلك القرية الوادعة في أحضان الصحراء، وعندما اقتربوا منها كانت الشمس تترنح في كبد السماء عند ذلك قال عقيد القوم.

-: ما رأيكم بهذه القرية؟

: وماذا عنها؟ إنها قرية صغيرة ومتناثرة.

-: إيه، ومحصنة أيضاً.

: نعم، إن صاحب كل مزرعة قد حصن مزرعته بهذا الحائط المرتفع وبنى بجانبها قصره الشامخ.

-: إنظر لذلك القصر الكبير، الذي يدل على أن صاحبه أمير القرية.

: أتريدنا أن نضيف أهل هذا القصر؟

-: ليس الوقت وقت ضيافة، إننا الآن قرب آذان الظهر.

: دعونا نستريح عندهم هذا اليوم ونشبع من طعامهم وفي الصباح نذهب لطلب الرزق.

-: ولكني لا أرى حول هذه القصور أحداً، وكأنها بلد خالية.

: أبداً، أنظر لذلك الباب الكبير مفتوحاً على مصراعيه.

-: إنه الباب الرئيسي لسور القصر الذي يقفلونه في الليل ولا يفتح إلا في النهار.

: لا يضيرنا لو نزلنا عنده ضيوفاً.

-: إذا ترون ذلك.

: لقد هلكنا من شدة الجوع فدعونا نشبع من طعام الحضر اللذيذ هذا اليوم.

-: كما ترون.

: إذاً، أنيخوا مطيكم عند باب القصر الخارجي، وعندما يسمع رغاء إبلكم من في داخل القصر فسوف يخرج إليكم من يدخلكم إلى غرفة القهوة، ويعمل لكم القهوة وربما جاء بطبق من التمر تأكلونه مع القهوة.

-: لقد أسلت لعاب بعض رفاقك بهذا الحديث.

: هذا واقع سكان الحضر، فطعامهم لذيذ ولديهم من التمر الغارق بالدبس ما يسيل له اللعاب.

-: أوه، ولكن ها نحن أنخنا مطينا ولم يتبين لنا أحد من سكان هذا القصر، غير تلك المرأة التي أطلت من إحدى شرفات القصر قبل لحظات.

: انتظروا، سيخرج إليكم من سيفتح لكم مجلس الرجال وغرفة الضيوف.

-: إن الباب مفتوح، وتلك الصبية تناديكم للدخول.

: هذا يعني أنه ليس في القصر من الرجال أحد!؟

-: قد يكون ذلك.

: أين تراهم ذهبوا؟

-: لا أدري.

: لندخل ما دامت تلك «النَّشْمِيَّة» قد دعتكم للتفضل إلى غرفة القهوة.

-: إسألها أين أهلها؟

: إنها تقول: لقد ذهبوا لأداء صلاة الجمعة في القرية المجاورة وسيعودون بعد ذلك.

-: أوه.. لقد نسينا أن هذا اليوم هو يوم الجمعة، هل ندخل؟

: إنها تدعونا للدخول إلى غرفة القهوة لنخدم أنفسنا بعمل القهوة وسوف تحضر لنا كل شيء.

-: توكلنا على الله، ولكن أنظر قبل أن ندخل.

: وماذا أنظر؟

-: يا الله!! أنظر لتلك النياق السمان الموجودة في مراغة الإبل داخل القصر.

: يا الله!! وكم عددها؟

-: إنها أكثر من عددنا، وهي من خيار الإبل، هاه!! هذه والله الغنيمة الدسمة، وليست تلك المجموعة من الهمل التي بعناها قبل أيام.

: ماذا ترون أيها الرفاق؟

-: الرأي ما تراه.

: أرى، أرى، أرى أنها غنيمة لا تفوّت.

-: أخبرنا برأيك النهائي أيها العقيد.

: إن هذه النياق المراديم لم أر مثلها في حياتي.

-: إنها سواني صاحب القصر.

: بعضها كما ذكرت وبعضها لم يركب عليها القتب.

-: قد تكون هذه لم تعسف بعد، ولذلك تراها بدينة وقد تراكم الشحم في

سنمها.

: ليس هذا المهم.

-: وما هو إذاً؟

: ما رأيكم أيها الرفاق؟

-: بماذا؟

: في أخذ هذه الإبل قبل أن نذوق ملح صاحبها.

-: الرأي ما تراه أيها العقيد.

: إذاً عليكم بالرجوع إلى ركابكم وتجهيز أشدتها ثم العودة إلى باب هذه البنية وفتحه واقتفاء الإبل ثم الهروب بها.

-: هاه، نخشى من أهل القصر.

: وأين هم؟ ما دام أهل القصر قد ذهبوا إلى الصلاة على ظهور دوابهم فلن يعودوا إلى هنا إلا قرب آذان العصر في ذلك الوقت نكون قد قطعنا بها مسافة طويلة ولن يلحقنا الطلب إلا بعد غروب الشمس واختفاء كل شيء.

-: هذا الكلام الصائب أيها العقيد.

: إذاً عليكم بتنفيذ الأمر.

-: أبشر، إنها غنيمة لا تعوض هذه النياق الحمر والقمر والملح متى يجود الزمان بالظفر بمثلها؟

: لقد استكملنا استعدادنا.

-: هيا، إفتحوا الأبواب، وصيحوا على الإبل واقتفوها.

: أبشر، ولكن..

-: ولكن ماذا؟

: لقد ذهبت الصبية تصيح وتولول.

-: وما يهمكم منها؟

: ربما تفزع علينا أحداً.

-: لا أحد في القصر، فالرجال قد ذهبوا للصلاة ولم يبق منهم أحد.

: إنك على حق.

-: يا الله، إنظر لهذه النياق.

: إيه، إبل حضر، ترعى أعشاب وحشائش البر وتنفع بعلف الحضر وماذا تراه ينقص عليها؟

-: كلها من خيار الإبل، ما عدا ذلك الجمل العود وتلك الناقة الفاطر.

: إيه، هذا «هِرْش» تالف وتلك ناقة هرمة ولكنها من العدد الزائد عن عددنا.

-: أما الخيار فهي على عددنا بالضبط.

: إيه لقد أبعدنا عن البلد.

-: بالفعل لقد اختفت عنا بتلك التلال.

: هذه والله الغنيمة الممتازة التي جاءتنا بدون تعب.

-: ألم أقل لكم أننا سنكون آمنين هذه المرة؟

: رأيك صائب دائماً، لا تدلنا إلا على الخير.

-: إيه، عليكم بالإسراع لنهرب بها ونقطع مسافة بعيدة قبل أن يلحقنا أحد من الأفزاع.

: ومن تراه يستطيع اللحاق بنا؟

-: لا ندري.

: نحن الآن في وقت صلاة الجمعة فما تنتهي الصلاة ويتوجه القوم إلى أهلهم ثم يصلونهم إلا وقد قطعنا مسافة لا يستطيعون الوصول إليها.

-: صدقت، صدقت.

: أترون ما أرى أيها الرفاق؟

-: هاه!! لا نرى شيئاً، ماذا ترى؟

: إنني أرى عجاجة منقادة وكأنها لفافة الصوف الأبيض تنساب مع الأرض.

-: إن «شَوْفَكْ شِجَرْ»!!

: ليس كما تدعون، لقد لحقكم الطلب.

-: طلب!! ومن سيطلب؟

: خذوا الكلام الصحيح.

-: هاه!! ماذا تقول؟

: أقول هذه عجاجة خيَّال.

-: خيّال!!

: انظروا إليه، لقد انسابت به فرسه مع بطين ذلك الحزم.

-: أوه، إنك تهذي، سيروا وتوكلوا على الله.

: لقد وصلكم وأنتم تتعامون عنه.

-: هاه، ها هو قادم إليكم.

: عليكم بالاستعداد له.

-: لقد صدق فلان، لقد بانت عجاجة الفارس.

: قد لا يكون قصدنا.

-: ومن يقصد إذاً؟

: «يَاعَنْكْ» إن هذا الطلب.

-: ما العمل أيها العقيد؟

: وتسألونني هذا السؤال!! من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه وذودوا عن غنيمتكم.

-: لقد وصل.

: دعوه حتى يكلمكم.

-: بل يبرز أحدنا له ويعرف ماذا يريد؟

: إعتنقه يا فلان.

-: ماذا تريد أيها الفارس؟

: أريد إبلنا التي سرقتموها.

-: لم نسرق لكم إبلاً.

: بل في وضح النهار، وما صفة السرقة في عرفكم؟

-: هاه!!

: ألم تكن الإبل محصنة في بيت عليه قفل؟ فكسرتم «الضبّةْ» واخرجتم الإبل في رابعة النهار؟

-: هاه!! بلى، ولكنها غنيمتنا.

: غنيمتكم!! عليكم بإعادة الإبل إلى حوشها وإلا.

-: وإلا ماذا؟

: ستروون ما يحل بكم من العقاب.

-: أتهددنا أيها الصعلوك؟

: ستروون من يكون الصعلوك، إن هذا إنذار لكم.

-: أراك تتهدد وتتوعد!!

: بل وسأفعل بإذن الله وأعيد الإبل إلى مباركها.

-: إنك أعجز من أن تفعل بخمسة عشر رجلاً مثلنا.

: العون من الله، فاذهب إلى رفاقك وأخبرهم بما علمت.

-: هاه، إخسأ.

: لا أريد مطاولتك بالكلام أيها اللص اللئيم.

-: أنا لص؟

: وأكثر من ذلك، فأنذر رفاقك قبل أن يحل بهم العقاب.

-: سأنقل إليهم ما تقول.

: وعاد الرجل إلى رفاقه فقال لعقيد القوم: هذا الفارس مصمم على ما جاء من أجله.

-: وما غرضه؟

: إستعادة الإبل.

-: الإبل!!

: نعم وبالقوة إن لم تنصاعوا لأمره.

-: أليس عيباً أن يهزمنا رجل واحد ونحن خمسة عشر رجلاً؟

: الرجل مصر على استعادة الإبل «بِالْمُرُوَّةْ أَوْ بَالقُوَّةْ».

-: ما هو من الرجال؟ أهو شاب أم كهل؟

: لم أر وجهه فقد تلثم ولم يظهر منه غير عينيه وجديلتان غليظتان منسدلتان على صدره، وقد عقد أردان ثوبه الطويلة خلف رقبته حتى بدا سواد أبطيه ويبدو أنه شاب.

-: ما هو سلاحه؟

: بيده سيف صارم ترتعش سلته على شعاع الشمس يهزه أثناء كلامه معي.

-: قد يكون فعله هذا من باب التهويل ظاناً أننا ممن يقرقع عليهم بالشنان.

: لا أراه كما تظن، فلا أعتقد أن ذلك الساعدان الطويلان المفتولان ممن يقول ولا يفعل.

-: وماذا قال لك؟

: طلب مني إعادة الإبل حالاً وإلا فإنه سيعمل سيفه في رقابنا.

-: لا تلتفت إلى كلامه وعليكم باقتفاء إبلكم.

: هاه، إنظر إليه لقد انتحى عنا جانباً.

-: إيه، ليفعل ما يشاء، فأرض الله واسعة.

: هاه!! لقد انقض من بعيد، أنظر إليه، أنظر ها... ها... لقد قطف رأس فلان من فوق مطيته.

-: أحقاً ما تقول!!

: نعم، وقد انصلتت به فرسه في الاتجاه المعاكس.

-: وماذا تراه فاعلاً!؟

: كأنك تجهل الأمر!! هل تتجاهل فعل الرجال؟

-: هاء... ها... لقد انقض ثانية، إن فلاناً يحاول صده هاء، هاء، أوه لقد جندل صاحبنا على الأرض.

: علينا بمقارمته ومقارعته، شدوا عليه أيها الرجال كونوا يداً واحدة.

-: لقد أقبل علينا، هاء... هاء... لقد تجشم فلاناً، ها هو قد ألقاه على الأرض صريعاً.

: «إهِبْ» ما أجرأه من فارس وما أشجعه؟

-: أيها العقيد، لنتق شره ويسلم بقيتنا.

: أننهزم أمام فارس واحد؟

-: إن هزيمتنا وبقاءنا أحياء خير لنا من أن نبقى طعماً للسباع وبغاث الطير بهذه البريّة.

: لا يدخل الرعب إلى قلبك.

-: ليس رعباً وإنما هي الحقيقة فالرجل مصمم على استعادة الإبل بالقوة إن لم نعدها إليه بالمعروف.

: إنها «غَمِيْضَةٌ»!! أن نتركها.

-: أرواحنا أعز منها، ها هو انقض من جديد لقد اتجه إلى مقدمة الإبل، هاء لقد ضرب فلاناً وانجعفت به مطيته على الأرض.

: «إهِبْ» هذه والله النقمة التي تسلطت علينا.

-: ما لنا وله.

: وماذا يريد منا؟

-: يريد إبله.

: دعني أتفاهم معه.

-: عليك أن تفعل قبل أن ينقض علينا.

: سأرفع له علامة تدل على طلب المفاهمة.

-: لقد اقترب منا بجواده.

: أيها الفارس الملثم، ماذا تريد منا؟

-: لا يخفى عليكم ما أريد، إبلي ولا غيرها.

: لك إبلك، بارك الله لك فيها.

-: لا يكفيني ذلك.

: وماذا تريد أيضاً؟

-: أريد أن تعودوا معي إلى حيث كنتم.

: أتريد أن تغدر بنا وتقضي علينا جميعاً؟

-: ليس الغدر من طبعي.

: الآن خذ إبلك واتركنا.

-: ستسوقوها معي حتى تدخلوها في المكان الذي أخرجتموها منه.

: أتريدنا أن نسعى إلى هلاكنا.

-: إذا سرتم أمامي فلن تروا ما يكدر «خوَاطِرَكُمْ».

: وماذا على كلامك هذا؟

-: عليه عهد من الله وميثاق لئن امتثلتم لأمري فلن يذوركم ذائر، فأنتم في وجهي ما نفذتم أمري.

: إن هذا الأمر صعب على نفوسنا.

-: إذا أردتم الحياة فامتثلو لأمري.

: هذه والله الطامة الكبرى.

-: لا تطل الحديث معي، أتريدون أن تسيروا أمامي بـالمعروف وإلا جعلت من يبقى منكم يسير أمامي صاغراً.

: قد لا تستطيع.

-: هذا إنذار لكم، وإذا أردتم بـرهاناً على ذلـك فعليكم النظر إلى من يسقط من رفاقكم.

: هاه!! أتدري،.. ولكن نخشى منك البوق.

-: ليس البوق من شيمتي، فقد وضعتكم في وجهي إذا أردتم النجاة.

: إيه، أمرنا إلى الله، سنسير معك.

-: لتسيروا أمامي، تقتفوا الإبل إلى حيث أخذتموها.

: أبشر، أبشر، ولكن دعنا ندفن جثث رفاقنا.

-: ستعودون إليهم بعد ذلك.

: هاه!! حاضر.

-: ولما وصلوا إلى بوابة القصر قال لهم: عليكم بإدخال ركابكم مع الإبل.

: هاه، أتريد الاستيلاء عليها؟

-: لست مثلكم، وعليكم التوجه إلى غرفة القهوة حتى يعود بقية الرجال.

: هذه القاضية علينا.

-: أنتم في وجهي، وسنضيفكم، وقد عملنا لكم غداءاً خاصاً.

: «إمْحَقْ» غداء. يقول ذلـك عقيد القـوم بعد أن أوصـد الفارس عليهم غـرفة القهوة وأخذ مفتاحه.

ولم يمض وقت طـويـل حتى عـاد الـرجـال من الصـلاة فـأخـبـروا بمـا حصـل بالتفصيل، وأن المعتدين قد أوصدت عليهم غرفة القهوة بالقوة، وذلك بفضل الله ثم بمجهود ذلك الفارس المغوار الذي ساقهم بعد أن ضمن الأمان على حياتهم من أهله وجعلهم في وجهـه ضد أي اعتـداء عليهم، فذهب صـاحب القصر وأبنائـه

وفتحوا غرفة القهوة على الرجال فوجدوهم فيها وطمأنوهم بأنهم لن يصيبهم أذى ولا مكروه طالما جعلهم ذلك الفارس في وجهه، ومتى تناولوا طعام غدائهم فعليهم الانصراف إلى حيث يريدون إن فضلوا ذلك حيث قال عقيدهم:

-: نحن آسفون لما بدر منا أيها المضياف الكريم.

: ما حصل قد انتهى ولا يمكن رده.

-: لقد أغرانا الشيطان عندما رأينا الإبل.

: إيه، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشر نزغاته.

-: والآن نريد منك الصفح والمسامحة.

: إيه، الحمد لله الذي عقل علينا سوانينا، ومثلكم لا يسامح.

-: يعني إنك غير راض عنا؟

: أرضى عنكم وأنتم تريدون استلاب مالي، فوالله لو لم تكونوا بوجه ذلك الفارس لم أترك منكم رطب الحلق.

-: هاه، ماذا تقول؟

: أقول ما سمعتم، أنتم من الذين يسعون في الأرض فساداً فيجب القضاء عليهم.

-: أنحن نسعى في الأرض فساداً؟

: لا؟؟ وما صفة الفساد باعتباركم!!؟ إذا كنتم تأخذون إبل إخوان لكم في الإسلام، فتحوا أبوابهم مرحبين بقدومكم لإيوائكم وتقديم الطعام والشراب والراحة لكم ثم تغدرون بهم.

-: ولكننا لم نذق طعامكم.

: وإن لم تذوقوا طعامنا، فإن دخولكم في نصيبنا من الأرض يكفي بأن تحترمونا.

-: هاه!! إن معك حق.

: بالتأكيد، فكما تعتبرون في حرمتنا ضد أي اعتداء عليكم عندما دخلتم مكاننا، كذلك لنا الحق نفسه بالسلامة منكم.

-: يا ابن الأجواد، هذا أمر مقدر أراد الله أن يخزينا أمامكم.

: إن الله يحمي عبده المسلم المتجه إليه بقلب مخلص ضد أي اعتداء.

-: حقاً، حقاً، لقد حماكم الله بفضل ذلك الفارس الشجاع.

: سلمه الله ولا أعد منا وجوده.

-: والآن أيها المضياف الكريم نرجو منكم السماح.

: إنكم لا تستحقونه.

-: لماذا؟

: لأنكم لا شيمة لكم ولا مروءة فيكم.

-: أتصمنا بهذه النقائص؟

: ولكنها فيكم.

-: والله لقد أغرتنا الإبل وزين لنا الشيطان تلك الفعلة.

: وأنجانا الله من شركم، وجعل كيدكم في نحوركم لأن هذه الإبل حلال طيب والحلال الطيب لا يضيع بل ينقذه الله.

-: حلال طيب والحلال الطيب لا يضيع!! يطرق ملياً ثم يستأنف والآن نرجو أن تطلقونا فقد وقف أبناؤك بالسلاح على رؤسنا.

: لن تذهبوا من هنا حتى تأكلوا غداءكم.

-: غداءنا!! نخشى أن يكون مثل غداء إبنة العرفجي؟

: أبداً، فغداؤكم لا ريبة فيه، فوالله منذ أن خبطتم رقاب مطيكم لأول وهلة، شرع أهل البيت في ترتيب غداءكم الذي ستأكلونه.

-: ولماذا وقف أبناؤك بكامل أسلحتهم على رؤسنا؟

: لا شيء، لا شيء، ولكن خشية وقوع بادرة منكم.

-: أيقع منا شيء ونحن على هذه الحال؟

: سبحان الله، أجل لديكم القهوة والتمر فإذا فرغتم منه أتينا لكم بغدائكم.

-: إنك والله لرجل كريم، ونحن نتمنى لو لم نكن قد أسأنا إليك، ولو عرفنا ذلك لما حدث منا ما حدث.

: إيه، ستر الله الحال، وأدام علينا سابغ فضله.

-: لقد أكرمتنا غاية الإكرام، فأحسن الله إليك كما أحسنت إلينا.

: إيه، ولكن بعد ماذا؟

-: نكرر الرجاء أن تسامحنا.

: لو تبتم عن سلوك هذا الطريق.

-: هذا الطريق!!

: نعم هذه الطريقة التي تسيرون عليها وتأكلون فيها مالاً حراماً.

-: ولكنها «سِهْمَتْنَا» التي نعيش من ورائها.

: يمكنكم الحصول على لقمة العيش بدونها.

-: كيف؟

: مثلما يعيش غيركم من الناس.

-: سنحاول، سنحاول.

: هناك طريقة الرعي وامتلاك المال الحلال وتنميته شيئاً فشيئاً حتى ينمو ويغني الله عبده المسلم بالحلال عن الحرام.

-: نرجو إن كان لديكم غداء أن تقدموه لنا أو تتركوا سبيلنا.

: حاضر، تفضلوا آمنين مطمئنين.

-: قد تكونوا وضعتم بالطعام ما فيه..

: ليس هذا من طبعنا ولله الحمد!! إيه اللئيم يحسب الناس كلهم مثله، هيا لنأكل معكم، هلموا يا أبنائي نشاركهم في الطعام.

وبعد أن تكامل الرجال تلفت عقيد القوم فلم ير من بينهم ذلك الفارس الذي أسرهم وهنا قال لمضيفه:

-: لي إليك حاجة أيها المضياف الكريم قبل أن أشرع في الأكل.

: هاه!! ما هي؟

-: لم نر الفارس الذي ردنا قد حضر معكم.

: آه.. إيه، إنه أحد هؤلاء الرجال كما ترى ألم يعجبك أحداً منهم؟

-: بلى، بلى، ونعم بالجميع ستر الله عليكم، ولكني لم أر تلك اليد التي رأيتها تقبض على ذلك السيف الصقيل.

: اليد. اليد!! إنه هذا. يقول ذلك الأب بصوت منهرج.

-: أبداً، ليست تلك الكف وذلك الساعد الذي رأيت.

: عليكم أن تتناولوا غداءكم، أما الفارس فليس موجود الآن.

-: لقد تواجد الفارس أثناء غيابكم فكيف يغاب إذا حضرتم؟

: تغدوا، وليس لكم دخل في ذلك.

-: وشك العقيد في الأمر وقال: والله لن نتناول غداءنا حتى يشاركنا فيه ذلك الفارس.

: إنا لله وإنا إليه راجعون!! ماذا تريدون به؟

-: نريده أن يشاركنا.

: أما المشاركة فلا، ولكنه سيطل عليكم.

-: يطل علينا!!؟

: نعم سترون تلك الفتاة الشجاعة التي دافعت عن أموالنا وقهرت أعدائنا أثناء غيابنا.

-: الفتاة!!؟ قالوا ذلك بصوت واحد.

: نعم، نادوا مِزْنَةْ لتطل علينا، يقول الشيخ ذلك لأحد أبنائه.

وأطلت مزنة بنصف جسمها من وراء الباب وقد تلفعت بثيابها..

-: إمرأة!! لا نصدق، لا نصدق أبداً.

: إنها هي ورب الكعبة.

-: هاه، نرجو أن ترينا يدها.

: أريهم يدك.

وحسرت الفتاة عن ذراعها وهي تهز السيف وتقول:

-: والله لو لم تطيعوا أمري أيها اللئام لم يبق هذا السيف من رقابكم واحدة يطرقها الهواء.

: حقاً، حقاً إن هذا المعصم وتلك الأزناد هي أزناد ذاك الفارس الملثم الذي قهرنا وجندل بعض أصحابنا وهذا صوته بالضبط.

-: عليكم بتناول غداءكم.

: لقد طابت أنفسنا من الطعام ولم تعد لنا فيه حاجة.

-: لن تخرجوا إلا بعد أن تأكلوه.

: ليس لنا نفس فيه، فنرجو إعفاءنا من ذلك.

-: إذاً هذه ركائبكم، وقبل أن نسلمكم إياها نريد منكم عهداً وميثاقاً ألا تؤذوننا فيها بعد أو تسيئوا إلى غيرنا.

: نعاهدكم ألا تروا منا أي مكروه.

-: أخرجوا لهم ركابهم.

وخرج القوم يجرون ثوب الفشيلة والذل يتمنون لو ابتلعتهم الأرض ولم تحصل لهم هذه الحادثة، ومروا برفاقهم القتلى، فواروهم بالتراب قبل أن تودع الشمس الأفق، وسروا ليلتهم حتى قرب انبلاج نور الصباح، فأناخوا مطيهم وخلدوا إلى النوم قليلاً، ومع انسياب أشعة الشمس استأنفوا مسيرهم، فقال عقيدهم:

: إنني لا أكاد أصدق نفسي أيها الرفاق، وكأنني في حلم.

-: ماذا تعني؟

: أعني ما حدث لنا يوم أمس.

-: هذا شيء مقدر ومكتوب علينا.

: «إهَبيْ» قاتلك الله من إمرأة ما أقوى بأسها!

-: إذا كانت هذه شجاعة المرأة فكيف تكون شجاعة إخوانها؟

: قد تكون أشجع من إخوانها؟

-: هذه والله الفتاة المخلوفة.

: والله إن حركاتها وتصرفاتها على ظهر الجواد لا تختلف عن تصرفات الفرسان المتمرسين.

-: أرأيت انقضاضها على الخصم وكأنها العقاب الكاسر؟

: إنها تغير وتحاور وكأنها أحد الفرسان المحنكين.

-: قاتلها الله من فتاة شجاعة.

: أرأيت حينما طيرت رأس فلان وتدحرج كأنه حدجة الحنظلة؟

-: هذه والله الزوجة التي تسوى.

: زوجة!! ومن سيقربها؟

-: لقد صدق، من سيقربها وهذا فعلها بالرجال؟

: الموقف هناك يختلف تماماً.

-: وماذا أريد بزوجة رجالية مثلها؟

: ماذا تريد منها!!

-: نعم، إنني أريد زوجة بها كامل مقومات الأنوثة، أما هذه فهي أقرب للرجل من الأنثى.

: إنها أنثى بتصرفات الرجل عند الحاجة.

-: لقد صدق!! هل تحسب أن الأنثى لا تدافع عن نفسها بالوسائل المتاحة لها؟

: لعلنا أن نسلم منها ونحن بعيدين عنها.

-: إنها لا تصلح لك ولا لأمثالك.

: لماذا؟

-: إنها «مَرْكَبْ حَاكِمْ».

: صدق فلان، مثل هذه المرأة تحتاج إلى من هو أقوى منها.

-: أوه، يا ما يوجد من أمثالها الكثير.

: لقد صدق، فكثير من بنات العرب يتمتعن بنفس الميزات وربما أكثر منها.

-: سأقول لكم الكلام الأخير عنها.

: هاه، ماذا عندك؟

-: أقول ما أسعد رجل تكون هي وأمثالها زوجة له تملأ عليه بيته أنجالاً يحمون ذماره ويدافعون عنه أو بناتاً مثلها.

: صدقت، صدقت.

-: والآن ماذا تريدون أن نفعل؟

: لو كان فلان حيار رحمه الله لأفتاكم فيما تعملون.

-: وماذا تراه أن يقول؟

: قد يفتيكم بطلب الرزق الحلال من الله بدلاً من السلب والنهب والعيش من المال الحرام.

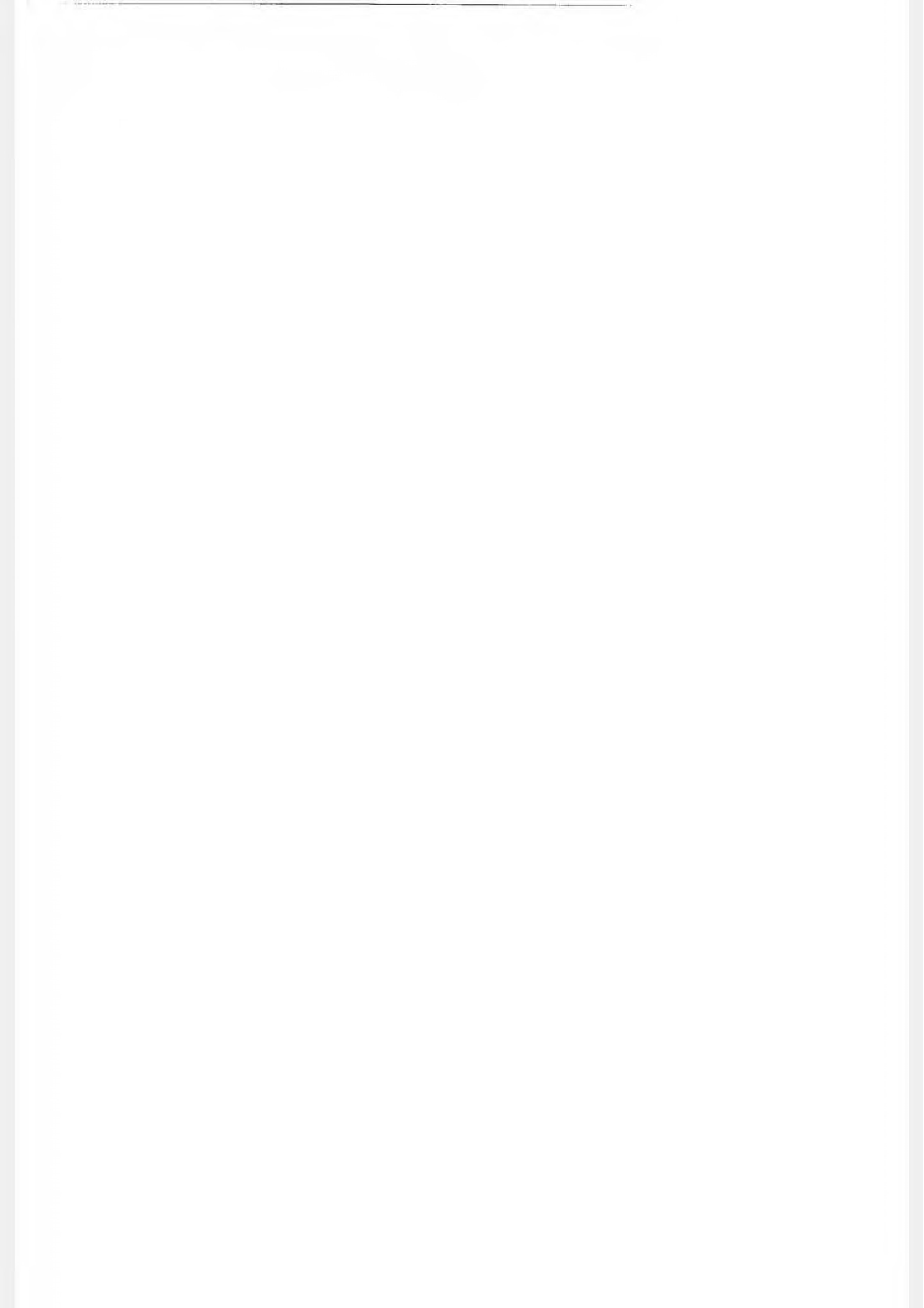
-: لقد أشار علينا في ذلك.

: إنه على حق.

-: إذاً فمن هـذا المكان سنعـود إلى أهلنا ونتجنب هـذا الطريق الأعـوج ونطلب الله من رزقه الواسع.

: كلنا موافقون على رأيك أيها العقيد.

قصة رقم (٦)



الضيف الغريم

جاد الغيث بوبله حين منَّ الله على عباده بشآبيب السحاب الوادقة التي لم تترك روضاً إلا رصعته بالخباري اللامعة على أشعة الشمس، ولا فيضة إلا وشت جوانبها بالغدران المترقرقة التي ما إن يعبث النسيم بسطحها حتى ينسج عليه بروداً شفافة تزوغ عن الأنظار ثم تظهر لها من جديد وكانت تلك السنة من سنوات الربيع التي تذكر كشاهد على كثرة الخيرات التي توفرت فيها من المراعي الخصبة للمواشي، والزروع الجيدة، وما إن انقضى فصل الربيع واحتاج الناس إلى الماء لمواشيهم حتى تضاربت الآراء، أي الموارد يمكن أن تتحمل أغنام ومواشي هذا الحي من العرب، حيث أن أغنامهم كثيرة ومياه ذلك المورد القريب منهم على قلته لا تخلو من الملوحة التي لا ترتوي منها الأغنام، لكنه واقع في وسط البقعة الخصبة ذات الأعشاب والحشائش الكثيفة بينما الموارد الأخرى التي تعتبر أعذب وأغزر ماءاً بعيدة بعض الشيء عن هذه البقعة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يملكها أبناء عمهم عند ذلك إجتمع رئيس العشيرة بالصفوة من رجال عشيرته للتشاور حول هذا الموضوع حين قال لهم:

-: كما تعلمون يا أبنائي، لقد قرب منا الصيف وحلالنا الآن بحاجة إلى الماء.

: صحيح ما يقوله الشيخ، نحن الآن «بِقْرَانْ حَادِيْ»!! وكما يقول المثل «قران حادي على الجو ترادي».

-: آه، هذا ما جمعتكم من أجله وأردنا التشاور فيه.

: الرأي ما تراه «يا طويل العمر».

-: وماذا ترون حتى أعرف وجهة نظركم؟ إننا كما تعرفون في وسط هذه البقعة

المباركة المكتسية بالمراعي الجيدة ولكن عيبها أنه لا يوجد بقربها مورد نسقي منه مواشينا المحتاجة للماء.

: إن هناك الآبار الفلانية.

-: أوه، ليست خافية علي، إنها عبارة عن ثمائل وليست آباراً.

: إن بها ماء غزير.

-: أنا أعلم بها يا أبنائي، إنها لا ترتكي لأكثر من ثلاثين رعية.

: ليست على عهدك بها، فقد ازدادت مياهها بعد تكاثر الأمطار.

-: قد يكون ذلك لمدة قصيرة، حتى تتوقف الأمطار ثم تعود مياهها إلى مجاريها الأصلية.

: أوه، لا يأتي ذلك الوقت إلا وقد انصرم القيظ وأبرد الجو بطلوع سهيل.

-: أوه!! إن هذا لا يدوم أكثر من شهر على الأكثر ثم تنزل مياهها إلى تلك الطبقة المالحة.

: ما بالها؟

-: إذا وصلت لتلك الطبقة فإن ماءها ينقص.

: ينقص!!

-: نعم، ويبغر الحلال دون أن يروى.

: الواقع إن هذا عيب كبير، هل جربته يا أبا فلان؟

-: نعم، أما تذكرون حين وردنا عليه تلك السنة تشرب الشاة والبعير ويكاد أن ينبجس بطنه دون أن يرتوي.

: صحيح، إن مع الشيخ حق.

-: لقد كادت مواشينا أن تهلك تلك السنة.

: ما هو المورد المناسب كما ترى؟

-: كثيرة هي الموارد، ولكنها بعيدة عن هذه البقعة الطيبة.

: لا يهم يعزب الحلال منها أو إليها.

-: المعزاب مرهق وبعيد.

: أمره هين ولله الحمد، فالمواشي حالتها طيبة جداً.

-: إنه بعيد على الأغنام.

: يمكن أن ترد الغنم لليوم الثالث، أما الإبل فيكفيها شرب الخِمْس.

-: أوه، إنه كثير.

: ليس كثيراً أيها الشيخ، فالأعشاب ولله الحمد لا تزال خضراء والأغنام يكفيها يوم ثالث والإبل الخِمْسْ.

-: لا تحسبوا يا أبنائي على هذه الأيام، وعليكم أن تتصوروا الأمر عندما تشتد جمرة القيظ عند طلوع الجوزاء، أو الكليبين.

: عند ذلك ترد الغنم يوماً بعد يوم والإبل ترد الرِّبع.

-: ستذهب عرقة مواشينا طعماً للطريق.

: في الأمر خير، ما هو الحل البديل الذي تراه يا شيخنا الكريم؟

-: ليست هناك مياه أقرب من تلك التي يمتلكها أبناء عمكم.

: هي ما نقصد، وقد جرى الكلام عنها قبل قليل.

-: إيه، ولكني.. ولكني أخشى.

: مم تخشى؟

-: أخشى أن يكون هناك احتكاك بينكم وبين أبناء عمكم لاسمح الله.

: دحر الله الشيطان وأخزاه.

-: وأنا أقول لعنه الله أيضاً، ولكن عند المياه لا بد أن تحصل بعض المشاكل.

: يستر الله.

-: نرجو الستر من الله جميعاً، ولكن يا أبنائي كما تروني شيخاً قد أشرفت على السبعين وقد عرفت ما لم تعرفوه، فكثير من المشاكل التي تحدث في فصل الصيف غالباً ما تكون بسبب الماء.

: عسى الله أن يديم ستره.

-: آمين، ولكني يا أبنائي أريد إذا لا قدر الله وحصل مشكلة ألا تكون مع أبناء عمكم.

: نرجو ذلك، ولكن إذا ترى أن هناك مورداً آخر غير الذي يخص أبناء عمنا فاهدنا إليه.

-: هذه المشكلة، فأقرب الموارد إلينا هو ما يخص أقاربكم.

: إذاً لا بد لنا من وروده، ولكن يجب الحرص بضبط النفس.

-: إيه، عسى الله أن يستر الحال يابني.

: نحن وإياهم أبناء عم والكل منا يدافع عن صاحبه.

-: لا شك في ذلك، ولكن الشيطان حريص.

: يستر الله.

-: إذاً عليكم بالتجهز اعتباراً من يوم غد.

: كما تعلم يا أبا فلان إن لدينا الكثير من المنتجات الحيوانية مما جمعناه في هذا الربيع من السمن والأقط ونحتاج إلى نقله إلى هناك مرة أو مرتين.

-: هذه الأحمال يجب عليكم بيعها وإيداع شيئاً منها عند رفاقكم من الحضر سكان القرى.

: صحيح، حتى نسلم من نقلها و «زَلْبَعَتِهَا» من مكان إلى آخر.

-: ألم يحن موعد مغادرة القافلة التي ستهبط لبيع هذه المنتجات إلى المدن واستبدالها بما نحتاجه من مستلزمات أخرى؟

: أتعني «الْحَدْرَةْ»؟!

-: نعم، هي ما أعني.

: إن الكثير يجهزونها وستغادر في الأيام القليلة القادمة.

-: إذاً عليكم بتخفيف جميع ما لديكم من منتجات وبيعها معهم.

: إن البعض سيحتاج إلى شيء من منتجاته للعام القادم.

-: أوه من الآن وحتى آخر الوقت يمكن من يريد ذلك أن يجمع ما يريد، فلم يزل الوقت مبكراً، وهدفي أن تخف أحمالكم أثناء الانتقال إلى قرب الماء.

: أمرك مطاع أيها الشيخ.

ومع إطلالة أشعة الشمس من ذلك اليوم الربيعي الدافىء الجميل قوضت بيوت الشعر وارتفع رغاء بعض الإبل التي لم تتعود كثيراً على الحمل، وكثر الكلام واللغط والمناداة في ذلك الحي، وخف الناس رجالاً ونساءاً يعلقون البيوت الملفوفة على أعمدتها، والأروقة المطوية على بعضها أو على أعمدة البيت وقد تدلت بعض الأوتاد من رؤوس الأطناب من تحت بطن البعير الواقف حين ناضت بعض الإبل

بأحمالها، وارتفع الصخب والنداءات والأسئلة عن الأعلاق التي علقت على الإبل وما تبقى منها على الأرض، وذلك خشية أن ينسى منها ما يحتاج إليه، وحينما نهضت الإبل بأحمالها، احتلت النساء المترفات والعجائز والشيوخ والأطفال بطون الهوادج، بينما سار الرجال عن يمين الظعن وشماله وأمامه وخلفه، إن مال حمل عدلوه، وإن شذ بعير بحمله عن خط سير القافلة أعادوه إليه، وسارت النساء الشديدات مع الرجال جنباً إلى جنب، يتبادل الجميع كلمات المزاح والنكت، لا يشعرون بالتعب ولا يحسون بالجوع أو العطش، ما دامت تلك الأسقية والصملان الملآنة باللبن محملة على بعض الإبل، فكل من أحس بالعطش أو الجوع أسرع إليها وسكب منها أو كرع في أفواهها حتى ترتفع أضلاعه ويناول أحياناً من هم بداخل الهودج إن لم يكن معهم شكوة يستقون منها.

وهكذا مضى يومهم كله وفي المساء أمرحوا في الطريق واضعين عن الإبل أحمالها حتى الصباح حيث حملوها واستأنفوا مسيرهم إلى هدفهم الذي لم يصلوه حتى زالت الشمس عن سمت الرأس فنزلوا غير بعيد عن الآبار، ولم يمض وقت طويل حتى انتصبت بيوت الشعر السمراء المزينة بأروقة مطعمة بنقوش بيضاء. وأسرعت النساء إلى الآبار لملء قربهن بالماء لعملية الطبخ والوضوء والتنظيف، كما استعد الرجال لغبق مواشيهم من تلك الآبار العذبة.

في هذه الأثناء قدم ثلاثة من الرجال من أصحاب الآبار وذلك للاستطلاع ومعرفة هؤلاء القادمين من أي قبيلة ولأي غرض وعندما وصلوا إليهم عرف كل منهم أصحابه، حيث سلموا على بعضهم البعض فدعاهم شيخ الفريق النازل قائلاً:

-: حياكم الله، تفضلوا واشربوا فنجاناً من القهوة.

: أغناكم الله، الحق لكم، أنتم الضيوف علينا ويجب أن نبادركم بالقهوة.

-: لا فرق بيننا وبينكم يا أبنائي، فكلنا أبناء عم وأقارب.

: وإن يكن، فالحق للقادم على المقيم.

-: لا شك في ذلك، ولكن هذا فنجان «وَالِمْ» تفضلوا.

: لا تعاف قهوتك يا أبا فلان.

-: لا عدمنا وجودكم.

: حياكم الله مرة أخرى.

-: أبقاكم الله، ما الذي جاء بكم؟

: جئنا لنرى من القادم؟

-: لن يأتيكم غير أصحابكم.

: نحن على يقين من ذلـك، ولكن قلنا سبحـان الله، فأقـل شيء أن نعرف من الذي حل بأرضنا؟

-: معكم حق يا أبنائي، وكل الحق.

: إيه، كما تعلم الدنيا وأحوالها.

-: والله يا أبنائي، لقد رغب أبناء عمكم أن ينزلوا على ماء ليروو منه أنعـامهم، وكـانت مواردكم هي أقـرب الموارد إلينـا، فقلنـا نعـرج عـلى بني آخينـا ولن يقصروا بنا.

: لا بارك الله بالشيء الذي سيقصر عنكم.

-: بارك الله فيكم يا أبنائي.

: فالماء لنا جميعاً، ولو أردتم أن نؤخر مواشينا حتى تشرب مواشيكم لفعلنا.

-: «لَا خَلَا وَلَا عَدَمْ»!! يا أبنائي، وهل الشيخ فلان موجود؟

: نعم إنه موجود ويتمتع بصحة جيدة وهو الذي أرسلنا إليكم.

-: إيه، الحمد لله الذي وهبه العافية.

: وهذا أحد أبنائه وهو الأوسط منهم.

-: ما شاء الله، مـا شاء الله، والله إن دمـه واضح عليـه، ولكني لم أعرفـه تماماً وعهدي به صبي صغير، كيف حال والدك يا بني؟

: إنه بخير ولله الحمد، يكفيه أنك سألت عنه أول ما سألت وهذا ما أفتخر به.

-: ومن الذي لم يسأل عن والدك؟ إنه «نَافِلْ جِيْلُهْ»!!

: سلمك الله يا عم.

-: أخشى أن يعارض على نزولنا وشربنا من الماء!! فما رأيك؟

يوجه الشيخ كلامه لإبن الشيخ وهو يغمز بإحدى عينيه.

: له حق الاعتراض على غيركم.

-: ونحن؟

: أنتم من «بَدِّتْنَا» ولا أعتقد أن شيمته ومروءته تسمحان له بالوقوف ضدكم.

-: إن كلامي على سبيل المزاح يا بني.

: أكرر على لسانه نيابة عنه مرة أخرى جملة أهلاً وسهلاً ومرحباً.

-: «بَعَدْ حَيِّيْ وْمَيْتِيْ إِنْتْ وَابُوْكْ اللِّي عَقَّبَكْ»!!

: تفضلوا إلى بيت الوالد لتناول القهوة وتبادل الأحاديث.

-: أغناكم الله، أنتم كما ترون لم نستقر بعد والآن باغتنا المساء ولا تزال بعض الترتيبات لم تستكمل بعد.

: حلاوة القهوة في مبادرتها.

-: أغناكم الله، بإمكانك أن تقول هذا الكلام لمن لا يعرفكم أما نحن فقد عرفناكم تمام المعرفة وليس هناك شك فيما بيننا.

: وإن يكن.

-: سنزوركم غداً، فالشك مرفوع ونحن مقيمون وعلى ماء كما يقول المثل.

: أهلاً وسهلاً بكم في أي وقت، أكرمكم الله.

-: حياكم الله.

وهكذا كانت الزيارات وتبودلت الضيافات بين الفريقين واستمر الوئام والمودة بين أفراد العشيرتين اللتين تنتميان إلى جذم واحد، حتى جاء ذلك اليوم القائظ فوردت أنعام الحي الضيف قبل أن تصدر أنعام أصحاب الماء، وكانت تشرف على الهلاك من الظمأ بسبب مجيئها من مكان بعيد، وكانوا في العادة يقهرون الأغنام والإبل ويرسلونها إلى الماء إرسالاً على دفعات وقطع تستوعبها حياض الماء، إلا أن ما حدث ذلك اليوم أن الأغنام لم يستطع الرعاة ضبطها وإرسالها كالعادة، فانقضَّت متهالكة تريد ورود الماء، لا تأبه بضرب عصى الرعاة ولا بحذفهم إياها بالأحجار، فجاءت الرعايا مختلطة متراصة كأنها السيل المنحدر فداهمت رعايا الآخرين، وهي لا تزال على الماء، فحصل ازدحام هلك على أثره مجموعة من أغنام الجانبين وفي أثناء ذلك حصل لغط بين الرجال من الفريقين حيث قال أحدهم:

«يَـا طَـيرْ ابِنْ بُـرْمَـانْ جِبْنَـاكْ جِنَّـا   يَـا نَاقِـلْ الحَيَّةْ عَـلَى رَاسْ رَاعِيْـكْ».

: لا تقل هذا الكلام يا أخي.

-: وما تراني أقول!! ما دام تصرفكم بهذا الشكل؟

: كما تعلم يا ابن العم، إنها بهائم ظمأى أتت هاجة على الماء.

-: لقد أدخلناكم بأيدينا وتريدون إخراجنا بأرجلكم.

: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، استعذ بالله من الشيطان يا أخي.

-: لقد ركب الشيطان فوق أكتافي، فماذا تريد؟

: هذا والله كلام «الْمَقْرُودْ».

-: أنا «مَقْرُودْ».

: لا، ولكن أمر وقدره الله.

-: لقد قصدتم ذلك بأنفسكم.

: لا والله يا بن العم.

-: ولكن ولكن لا لوم عليكم، اللوم علينا حين سمحنا لكم بالنزول على مائنا.

: إذكر ربك يا بن الأجواد، وتذرع بالحلم والصبر.

-: على أي شيء أتذرع بالصبر!! على هذا الوضع السيء، لقد تشابكت الأغنام وأهلكت بعضها البعض وكادت أن تخنقنا أنظر من يمتحون من الآبار لا يستطيع الواحد منهم أن يفرغ ما بدلوه من الماء حتى تهجم عليه الأغنام في مكانه.

: هذه بالفعل مشكلة وليس على المشاكل غير الصبر.

-: لو كنتم رجالاً لمنعتم أغنامكم حتى نفرغ من الماء.

: لقد حاولنا، ولكن العطش قد أخذ من الأغنام مأخذه فتجشمت الرعاة وتركت بعضهم طريحاً على الأرض بعد أن أعياه ردها.

-: لو كنتم رجالاً، لملكتم موارد تشرب منها أنعامكم.

: إذا رجعنا للحق، فالماء مشاع للجميع لا يمنع عنه شارب.

-: الماء ملكنا ولن يشرب منه أحد إلا بإذننا.

: لقد استأذنَّاكم.

-: كان ذلك بالأمس، أما اليوم فهناك أمر آخر.

: لا يصل بك الأمر إلى هذا الحد.

-: لماذا؟

: لأن هناك من هو أكبر مني ومنك يبت في مثل هذه الأمور.

-: ومن هؤلاء؟

: أتجهل شيخ عشيرتنا وشيخ عشيرتكم؟

-: والله لن تشربوا منا غير هذا اليوم.

: إذا كان الأمر بيدك.

-: إن لم يكن بيدي، فموعدنا غداً «تَرَكْ مَهْزُوْبْ».

: لا تقل هذا ولا «تهزب» الرجال.

-: بل وأتحداك أن تأتي إليَّ غداً على هذا البئر.

: كأنك تريد أن تبذر الشر بيننا؟

-: لقد أخبرتك بالعلم «الذَّابِلْ».

: كفانا الله الشر، وجنبنا شرور أنفسنا والشيطان.

يقول ذلك وهو يغادر المكان وسط زحام الأغنام، وانتقل خبر الشجار الذي حصل بين مزرم ومضحى إلى شيخي الحيين فاعتبراه ضمن ما يحصل عادة بين الشباب عند سقي الإبل والأغنام من مشادات كلامية، وأحياناً يصل الأمر إلى عراك بالأيدي ومصارعة على الأرض ولكن ذلك لا يلبث غير وقت قصير عندما يتدخل الحاضرون، ويفضون النزاع وتنتهي المشكلة دون أن تصل إلى أسماع من بيدهم الحل والعقد وعلى هذا الأساس لم يلتفت شيخا الحيين إلى هذه الحادثة التي حصلت في ساعة حرجة حشرت كل من الرجلين في موقف ضنك، وتم بعد ذلك ترتيب سقيا الأنعام بحيث لا يتكرر ما حدث لو أن الأمور استمرت على ما كان متوقعاً لها.

لكن الظروف لم تستمر طويلاً ففي صباح اليوم التالي ذهب مزرم مقتفياً ذوداً من الإبل ليلحقها بأليفاتها، وظنه مضحى سينفذ تحديه له بالورود إلى البئر فأسرع نحوه واعترض طريقه قائلاً:

-: أين تريد يا مزرم؟

: أريد إلحاق هذه الإبل مع الرعية.

-: أتريد خداعي؟ ليس مثلي من يخدع.

: ما بالك يا مضحى؟ أراك من الأمس وقد طالت غلفتك علي؟

-: إياي تعني؟

: نعم، فليس بقربنا في هذا البر أحد غيرك.

-: عليك أن تعود.

: لماذا أعود يابن أخي؟

-: إنك ستذهب إلى الماء.

: لن يمنعني من الماء أحد.

-: أتقول هذا؟ عد مع أثرك وإلا . . .

: ليس مثلي من ينثني بالتهديد، أو تجفله قرقعة الشنان.

-: إن خطوت خطوة إلى الأمام فسوف أقتلك.

: تقتلني!؟

-: نعم وهل أنت كثير على القتل؟

: يأبى الله، ومثلك لا يخيفني.

-: ساغمد هذا الخنجر بصدرك.

: استعذ بالله من الشيطان وعد إلى رشدك واترك عنك وساوس الشيطان.

-: وهل أنا مجنون حتى أعود إلى رشدي.

: لم أقل بأنك مجنون، ولكن ليكن في علمك أن ما تراه في نفسك يراه الآخرون في أنفسهم.

-: من تعني؟

: أعني كل الرجال.

-: إلا أنت.

: إلا أنا!؟

-: نعم، وهذا الخنجر في صدرك، هه . . هه.

: آ . . آ . . . سيعود إلى نحرك أيها المعتدي الآثم.

-: آ. . آ. . . آه، قتلتني يا مزرم يا مز. . مز. . مز. . مز

: أنت قتلت نفسك وبلوتني بشرك، إنـا لله وإنا إليـه لراجعـون، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

وعاد مزرم إلى النـزل مسرعـاً وأخبر شيـخ عشيرتـه بما حـدث فقال لـه شيخ العشيرة، عليك أن تختفي عن الأنظار حتى نتدبر الأمر بالتفاهم من إخوان الرجل وعاقلته بواسطة شيخ عشيرتهم، ومتى اتفقنا على شيء معين أخبرناك به، فتـوارى مزرم عن الأنظار.

وضج النزل بالصياح وتوالت الأفزاع من كل جهة واجتمـع كبار القـوم وعلى رأسهم شيخي الحيين لتطويق الحادثة وحصرها قبل أن يتسع الرتق على الراقع.

ولما اجتمع كبار القوم قال شيخ القبيلة التي منها القتيل:

-: تعلمون أيها الرجال أن مزرماً قتل ابن أخيه مضحي.

: وضجت الأصوات بلسان واحد: نعلم ذلك فماذا تريدنا أن نفعل؟

-: لا أريدكم أن تفعلوا شيئاً قبل أن نعرف رأي الشيخ.

يتكلم شيخ العشيرة الوافدة التي منها القاتل قائلاً:

: يا وجوه الخير، لقد حصل الأمر بالفعل، وهذا ما قـدره الله، وبلا شـك إنها نزغة شيطان بين الإثنين.

-: وماذا أنت فاعل الآن يا أبا فلان؟

: أريد الأمر بيني وبينك لنرى ما فيه الصواب.

-: لا بأس إذا رضي أهل القتيل.

: سنرضيهم بما يريدون.

-: من حسن الحظ أن إخوانه الآن في سفر ويمكننا التفكير في الأمر واختيـار الحل الأنسب بهدوء قبل عودتهم.

: بارك الله فيك، يا شيخ.

يتكلم ابن عم القتيل القريب منه قائلاً:

-: ليس هناك من الحلول غير القصاص من القاتل.

: يرد عليه شيخ العشيرة: ليس هذا مجال كلامك يا بني، وعليك أن تصبر حتى نصل إلى حل.

-: إن لم تأخذوا بثأر ابن عمي فسوف آخذه أنا بيدي، هل اغتنمتم فرصة غياب إخوانه لتهدروا حقه؟

: لا، لا يا بني لم نهدر حق أحد، وسنأخذ حقه حتى لو كنت في مطلع الشمس أو مغربها، فعليك بالتزام الهدوء.

-: لن أهدأ ما دام قاتل ابن عمي على قيد الحياة.

: قلت لك إلزم الصمت وإلا تصرفت معك تصرفاً آخر، فما دام يوجد له إخوان على قيد الحياة فلا كلام لك، فهم أقرب إليه منك.

-: ولكنهما غائبان الآن.

: سيعودان اليوم أو غداً.

-: ومن سيصبر حتى يعودان؟

: «إقْطَعْ وإخْسْ» ولا ترد كلمة واحدة.

-: أيها الشيخ لا تتح الفرصة لمثل هؤلاء يتدخلون في الأمور التي نعالجها نحن.

: لن يتكلم أحد الآن.

-: كما تعلم يا أبا فلان أن حيينا وعشيرتينا أبناء رجل واحد، وأن النقص الحاصل في أي من عشيرتينا يعتبر نقصاً على الأخرى، وأن مضحى نعتبره مثل أحد أبنائنا، وحينما زين الشيطان بعين مزرم قتل ابن أخيه فلا ينبغي أن نترك الشباب الذين يجهلون عواقب الأمور أن يتمادوا في تقتيل بعضهم البعض.

: هذا الكلام أغلى من الذهب، وكما يقول المثل «**يساق مع الديّة**» ولكن الرقبة يجب ألا نتهاون بها، هذا قتل، أنسيت ذلك؟

-: أعلم ذلك جيداً، ولكن بإمكاننا حصر الأمر في أضيق نطاق.

: لا أضيق من القصاص وهو حكم الإسلام الحنيف.

-: أنسيت البديل؟

: ماذا تعني؟

-: أعني الديّة.

: إذا قبل أهل القتيل.

-: قد يرضون!!

: أشك في ذلك.

-: قد يكون المقتول قد اعتدى على القاتل وجاء هذا في الدفاع عن النفس.

: الله أعلم.

-: ولكنه اعتدى عليه بالأمس بالتهديد والوعيد عند الماء.

: الكلام شيء والفعل شيء آخر.

-: أول النار شرارة.

: لا شك في ذلك.

-: أما ما حدث اليوم فلم يحضرهما أحد.

: ما دام قد حصل بينهما مشادة بالكلام والتحدي يوم أمس على الماء، فماذا يريد مزرم عندما ذهب إلى الماء مرة أخرى.

-: قيل لي أنه لم يذهب إلى الماء، وإنما ذهب لإلحاق مجموعة من الإبل إلى بقية الرعية بعيداً عن الماء.

: إيه، الحمد لله على ما قدر، أين القاتل؟

-: لم نعثر عليه، لقد هرب من مكانه.

: قيل لي أنه مر بالبيوت وأخذ قربة ماء وشيء من الزاد.

-: قد يكون ذلك ولكنه لم يلبث في النزل طويلاً.

: أين إخوانه؟

-: هذا أحدهم، أما الآخر فكان غائباً منذ عشرة أيام.

: والآن ماذا تريدنا أن نفعل؟

-: ينبغي علينا أن نضبط هؤلاء الشباب مخافة أن يعتدي أحد على أحد حتى يعود أخواه ونرى ماذا يقرران.

: عليك أن تتكفل بأبناء عشيرتك عن الكلمة والفعل.

-: أبشر فأبناء عشيرتي لن يأتيكم منهم أي أذى ما لم يأتهم أذى من أحد أفراد عشيرتكم باعتبارهم المعتدى عليهم.

: وحتى أبناء عشيرتي لن يخرجوا عن أمري قيد أنملة؟ إنهم كالخاتم بأصبعي،

فلن يضيركم منهم أحد بقول أو فعل بشرط ألا يخرج من أي واحد منكم همز أو لمز من الرجال أو النساء.

-: لن يحدث ذلك أبداً من الرجال أو النساء.

: النقطة الثانية في نظري وإن كانت صعبة عليّ.

-: ما هي يا أبا فلان؟

: تداركاً لما قد يحدث بين حيينا في المستقبل يجب التزام الحيطة والحذر.

-: نحن الآن نقطن في مكان واحد.

: ما كنت أريد قوله، لو تبرزتم عن الماء قليلاً كان ذلك أجدى وأنفع وأضمن من الالتماس والاحتكاك.

-: يعني تريدنا أن نرحل عنكم؟

: لم أقصد ذلك، وإنما أردت ألا تكون البيوت قريبة من الماء.

-: لقد عرفت، لقد عرفت!! أبشر يا أبا فلان، إنك على حق.

: معذرة يابن العم، فإنني لم أرد ترحيلكم عن الماء بقدر ما أريد رده الشر وإبعاد شبحه عنا وعنكم.

-: لن يحدث شر إن شاء الله، ما دام هناك مساعي حميدة بين الطرفين المتنازعين.

: أرجو ذلك، وعسى أن يعود إخوة القتيل لنحاول تهدئتهم علهم أن يتنازلوا عن غريمهم ويقبلوا بالديّة.

-: نرجو ذلك.

وفي وسط ذلك الحشد الكبير من الرجال المسلحين أعلن شيخ إحدى العشيرتين قائلاً:

: ليعلم كل واحد منكم أنني قد كفلتكم جميعاً رجالاً ونساءاً كباراً وصغاراً من أن يخرج من أي واحد منكم كلمة تسيء إلى أحد من جيرانكم بالهمز أو اللمز فضلاً عن الفعل باليد أو السلاح من أجل قضية اليوم حتى يعود أصحاب الشأن الذين يقررون ما يريدون من غريمهم، وعليه فإن أي واحد يصدر منه أي كلمة أو فعل سيتحمل جريرة ذلك أمامي.

وعند ذلك قام الشيخ الآخر وقال موجهاً كلامه لأفراد عشيرته :

-: ليكن معلوماً للجميع أنني قد كفلتكم جميعاً ذكوراً وإناثاً، رجالاً وأحداثاً من أن يخرج من أحد منكم أية كلمة نابية تمس شعور جيرانكم وبني عمكم فيما يتعلق بقضية اليوم وغيرها حتى يعود أصحاب القضية ويتخذوا ما يرونه حيال قاتل أخيهم فمن حضر منكم فعليه إعلام من غاب عن هذا التجمع، وكل إنسان يصدر عنه خلاف ذلك فعليه تحمل تبعية ما صدر منه .

ثم نادى كل شيخ أفراد عشيرته بالتوجه إلى حيهم، وهكذا انفض هذا الاجتماع قبيل آذان الظهر.

وبعد أن عاد شيخ الحي الذين منهم القاتل قال لقومه :

: عليكم بالتجهز للرحيل اعتباراً من يوم الغد .

-: أنرحل والقضية لم تنته بعد؟

: الأفضل أن نرتحل ونبتعد رداً للشر .

-: وماذا ستفعلون حيال موضوع القتيل؟

: ستبقى بعض البيوت معي ولن نرتحل حتى ينتهي كامل الموضوع .

-: ما دام سيبقى منا أحد لماذا نتفرق؟

: كان غرضي أن تذهبوا بمواشيكم والثقيل من أحمالكم، وتنزلوا على الموارد الفلانية، بينما نبقى هنا أنا وإخوة القاتل حتى يعود إخوة القتيل وينتهي الأمر.

-: هل يعني هذا أنهم راغبون في رحيلنا عنهم؟

: لم يطلبوا ذلك بصراحة ولكن شيخهم قد ألمح به .

-: إيه، كما ترى.

: هذا ما أراه، فكلما كان الاحتكاك أقل كلما قَلَّتْ إمكانية حدوث الشر.

-: لكني أخشى أن يهموا بكم إذا رأوا قلتكم .

: ما دام الشيخ موجود فلن يحدث ذلك .

-: إذا فات منكم أحد لا سمح الله فما ينفعنا الشيخ .

: لقد كفل أبناء عشيرته واحداً واحداً وكلمته مسموعة بينهم وله مكانته

واحترامه.

-: صحيح، صحيح، مثل مكانتك بيننا.

: إيه، عليكم بالتجهز اعتباراً من يوم غد ولن يبقى منكم غير خمسة أبيات.

-: ومن سيكون علينا أثناء غيابك؟

: معكم إبني فلان فهو رجل يصرف شئونكم حتى تنقضي هذه المهمة ونعود إليكم.

-: إيه، أعانكم الله على ما في وجوهكم.

: ودبرنا على أحسن تدبيره.

وبعد يومين حضر أخوا القتيل، فوقع الخبر عليهما وقع الصاعقة ولم يتمالك الصغير منهما أعصابه حيث تسلح وبدأ يبحث عن قاتل أخيه، حتى جاءه مندوب من الشيخ يطلب حضوره وعند ذلك قال الشيخ:

-: إدعو لنا الشيخ فلان.

: لقد دعوناه وها هو في الطريق.

-: السلام عليكم..

: وعليكم السلام، تفضل يا أبا فلان.

-: ماذا لديكم؟

: لقد حضر أصحاب الشأن.

-: حياهم الله وخلف عليهم، وجبر مصيبتهم فيما افتقدوه.

: أبقاك الله.

-: هذه مصائب الزمن وجنحاته كفانا الله وإياكم شرها.

ولكن يا أبا فلان «الَذِّيْبْ بالقَلِيْبْ» هكذا تكلم الشيخ.

: ماذا تعني يا أبا فلان؟

-: لقد حضر الأخوان وهما على غير ما توقعنا.

: ماذا بهما؟

-: أحدهما عاقل وصامت ولا ندري ماذا عنده، أما الثاني فقد بدأ يهدد ويتوعد.

: هاه!! خوفي من الأول.

-: ومن الثاني، إنه شاب طائش لا يسمع ولا يطيع.

: دعنا منه، وأخبرني أيهما أكبر؟

-: الأول هو الأكبر.

: ما رأيك فيه؟

-: إنه لم ينبس بكلمة واحدة يبحلق بنظره في الحاضرين وكأنه مختوم على فمه.

: قد يكون قد أخذته شدة الصدمة والفاجعة.

-: لا أدري، ولكنه لم يتكلم حتى الآن.

: إدعوهما إلينا وليكن المجلس مختصر علينا مع الأخوين.

-: لك ما تريد، وعليكم أيها الرجال بالذهاب إلى بيوتكم.

: أمرك مطاع.

-: هذان الأخوان قد حضرا.

: أدخلهما.

-: حياكم الله يا أبنائي.

: لا شك أنكم فجعتم مثلما فجعنا قبلكم بمقتل مضحى، فأحسن الله عزاءكم فيه وعوضه بجنات النعيم عن هذه الحياة الفانية.

-: هذا عمكم وابن عمكم الشيخ فلان يتكلم نيابة عن أهل القاتل وكلنا أمل أن نجد عندكم كل تفهم للأمر.

: وهل الأمر يحتاج إلى تفهم يا عم؟ هكذا نطق الأخ الأصغر.

-: نعم يا بني، إن أي أمر من الأمور يحتاج إلى تفهم ومفاهمة لاختيار الصائب من الآراء.

: يا أبا فلان، إننا نحترمك ونقدر لك كل خطوة تقوم بها، ولكن من يعوضنا عن أخينا؟ إنه أخونا ذهب ولن يعود أبداً.

-: لا شك في ذلك، وأنا معكم يا أبنائي، ولكن ما فات لايمكن رده أو التعويض عنه إلا من الله عز وجل.

: وماذا تريدان منا أيها الشيخان؟ هكذا سأل الأخ الأكبر.

-: نريد منكما أن تقدرا الموقف وتختارا من الأمور ما يشفي صدوركما ويطيب نفوسكما.

: آه، لن يشفي غليلنا سوى أخذ الثأر لأخينا.

-: «أفا» عليك يا أخا فلانة!! وجاءت منك؟

: لا لوم عليَّ في ذلك يا عم.

-: صحيح، ولكن ألا تعتقدان أن هناك بديل لهذا الرأي؟

: ما دام أخي الأكبر قد عبر عن هذا الرأي فأنا معه قلباً وقالباً.

-: لقد استكثرنا من أخيك الذي يصغرك سناً ما بدر منه من تصلب في الرأي في بداية الأمر وكنا نراك العاقل الذي يمكن التفاهم معه.

: إني أصلب من أخي قولاً وعملاً.

-: نرجو أن يهديك الله لما فيه الخير.

: الخير!! يقتل أخي وتطلبون مني الخير؟

-: أرجو أن تسمع مني يا بني.

: ها أنا مصغياً بسمعي لما تقول، ماذا عندك؟

-: لدي عرض قد يكون فيه المصلحة للجميع.

: هات ما عندك.

-: الرأي يتركز في حقن الدماء بينكم وبين أبناء عمكم وما تطلبونه منا ومن عائلة القاتل فسوف نحضره لكم.

: ما نطلبه!! والله لو جئتم بمثل جبلي أجا وسلى ذهباً أصفراً لما تنازلنا عن قاتل أخينا.

-: استعذ بالله من الشيطان الرجيم.

: لقد استعذت منه، ولكن مطلبكم هذا ضرب من المستحيل يصعب تحقيقه.

-: لم يكن ذلك مستحيلاً يا بني، ولا شك أنكم أصبتم بأمر جلل، ولكن لا يصبر على المصائب ويتحمل المصاعب غير الرجال الجحاجيح.

: لقد أصابنا في سويداء القلب حين قتل أخانا.

-: لدي علم بذلك يا أبنائي، ولكن المؤمن مبتلى وخيار المؤمنين من يصبرون ويصطبرون على البلاوي والمصائب ويثبتون أمامها وكأنهم الأطواد الشامخة.

: كلام جميل، ولكنه لم يدخل إلى أعماق أنفسنا.

-: إذا قتلتم ابن أخيكم هذا فإنكم ستقتلون أخا لكم في الدم والدين.

: ولكنه قد لوث يده بدم أخينا.

-: لقد هزه الشيطان حين فعل ما فعل.

: وسيهزنا الشيطان مثله.

-: أعوذ بالله من الشيطان ونزغته.

: سنأخذ ثأر أخينا.

-: إياكم والقطاعة يا أبنائي، فإنما أفنى القبائل وأباد الأمم السابقة قطع بعضهم ببعض.

: ليتك قلت هذا الكلام لمزرم حين قتل أخانا.

-: ذاك أمر قدره الله بدون ساعة خيار من أحد، فلربما كان أخوكم قد اعتدى عليه وأراد هو الدفاع عن نفسه وصار ما صار.

: وحتى لو كان كذلك فما يبرر قتله، لو أصابه بضرب أو جرح يدفع عنه شره بدون قتل لكان أهون علينا.

-: في تلك الساعة يا أبنائي قد تكون الخيارات قليلة وضيقة إذ ربما لو لم يقتله لقتله هو.

: أراك تحابي مع القاتل رغم فعلته الشنيعة.

-: لم تكن محابات بقدر ما هي تصورات لما كان عليه الواقع في تلك اللحظات الحرجة.

: والآن ماذا تريدان منا؟

-: نريد منكما ضبط النفس حتى نبحث عن الحل الذي يرضيكم.

: لن يرضينا غير الاقتصاص من القاتل.

-: وإذا قتلتم ابن أخيكم فماذا تستفيدون؟

: يبرد ما بأعماقنا من لهيب الحرقة، وتنطفىء جذوة الحزن في نفوسنا.

-: وإذا جمعنا لكم ديّة مجزية تفوق الديّة العادية عشرات المرات.

: ديّة!!

-: نعم، نجمع لكم مائة وخمسين ناقة.

: هه!! مائة وخمسين ناقة.

-: نجعلها مئتي ناقة.

: مئة!! مئتين!! إيه، إيه.. يقول ذلك بصوت مجرور.

-: لتكن ثلاثمائة ناقة نجمعها لكم من خيار الإبل.

: والله لو جئتم بملء ما بين الخافقين من النياق الحمراء والوضحاء لما رضينا عن دم أخينا بديلاً.

-: إستعذ بالله من الشيطان الرجيم، فالمسامح كريم.

: أما والله أيها الشيخان لو جئتماني في أي شيء آخر تطلبانه لتنازلت لكم عنه ما عدا دم أخي، فقد قلت لكم إنه من رابع المستحيلات التنازل عنه.

-: سيهديك الله، وعليك أن تطلب أي شيء تريده أنت، إفلذ ما تريد بلسانك.

: أفلذ بلساني!!

-: نعم، نعم، قل ما تريد يا بني.

: رأس القاتل.

-: رأس القاتل!!

: ولا شيء غيره.

-: هاه، لقد خاب ظني.

: وما الذي يخيب ظنك؟

-: لأنك أنت الكبير العاقل.

: لأني كذلك، أما لو كنت متهوراً لم أقبل حتى بمجرد الكلام مع أي إنسان حتى آخذ بثأر أخي.

-: لا تجعل الجهل يبلغ بك هذا المبلغ.

: هل من يطالب بدم أخيه يعتبر جاهلاً؟

-: لم أقصد ذلك بالضبط ولكني..

: ولكن ماذا؟

-: لم تتركني أكمل حديثي.

: لن أقبل من أي أحد صرفاً أو عدلاً، قبل الحصول على دم أخي، وعليكم

تدبر الأمر في غضون يومين سأمنع نفسي وأكبح جماح أخي إلى ذلك الأجل وبعدها نكون قد خرجنا منكم براية بيضاء، فعليكم إحضار القاتل في تلك المدة المشار إليها. يقول هذا الكلام بنبرة غضب وهو خارج مع أخيه من المكان.

-: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذه والله المصيبة.

: سيذهبان الآن وسيتصل بهما بعض الأشرار الذين يزيدون النار اتقاداً.

-: ما هو الحل؟

: الحل في رأيي أن نجمع لهما بعض من نتوسم فيهم الخير من عقلاء قومنا ونسوق لهما الوجاهة، علهما أن يقدرا الموقف ويحقنا دم ابن أخيهما.

-: إنني أستبعد جدوى ذلك.

: قد يهديهما الله.

-: لو كان سيوجهان أحداً لوجهونا نحن.

: سنذهب مع القوم ونجعلهم يتحدثون بالنيابة عنا ويلاطفوهما بالكلام فلعل الله أن يجعل بقلبيهما الرحمة والشفقة، والحياء من وجاهة هذه المجموعة من فضلاء قومهم.

-: أرجو ذلك، وما دمت ترى هذا الرأي فعليك بفلان، لأنه رفيق خاص للكبير منهما ولديه براعة فائقة في التأثير على المستمع، وذلك لعمق معنى كلامه وطلاوة حديثه وحلاوة كلماته.

: صدقت، إنه كذلك.

-: إذاً علينا أن نجمع من نختارهم هذه الليلة لتكون الوجاهة بعد صلاة الظهر من يوم غد.

: قبل هذا لي ملاحظة بسيطة.

-: ما هي؟

: تعرف أن فلاناً وفلاناً من مقابيس الشر فإن حضرا اجتماع الوجاهة فربما نقض أحدهما كل إبرامنا في كلمة واحدة يرميها على أسماع الحضور.

-: هاه!! صدقت، ما هو الحل لمنعهما من الحضور؟

: أرى أن تندب كل واحد منهما في مهمة هذه الليلة ليغيبا عن الحي يومين أو ثلاثة.

-: معك حق، سأرسل كل واحد منهما إلى جهة معينة ليصفى الجو للنقاش والحوار يوم غد.

ومن تلك الساعة أرسل إلى هذين الرجلين وكلفهما في الحال ليذهب كل واحد منهما إلى مكان معلوم يبعد مسافة ثلاثة أيام وفي نفس الوقت أرسل لمجموعة من الرجال الذين وقع عليهم الاختيار وتم استعراض الوضع ودراسته من جميع الجوانب في حوار دام إلى ما بعد منتصف الليل بين الشيخين وهذه الثلة من الرجال واتفقوا على الذهاب إلى بيت أخوي القتيل بعد صلاة الظهر مباشرة في مجموعة واحدة على رأسها الشيخان والتوجه على الأخوين والطلب إليهما بقبول الديّة على الوجه الذي يريدانه سواء أكانت إبلاً بأي عدد أو نقداً من الذهب والفضة بأي مقدار.

وبعد أن أدى سكان الحي صلاة الظهر عاد الأخوان إلى بيتهما دون أن يكون لهما علم فيما تم ترتيبه، بينما اتجه بقية الرجال إلى بيت الشيخ حتى تكاملوا ثم ساروا في مجموعة واحدة إلى الهدف المنشود وعند اقترابهم من الهدف قال أحد الأخوين.

-: أنظر، من هؤلاء الذين أقبلوا؟

: هاه، إنهم ربعنا.

-: ربعنا!! ماذا يريدون؟

: لا أدري.

-: قد يكون هدفهم تعزيتنا.

: لا أظن ذلك، لقد عزانا معظمهم اليوم بالمسجد.

-: أين يريدون إذاً؟

: قد يكون هدفهم الوجاهة.

-: وجاهة!!

: نعم، ألم تعرف وجهة نظر الشيخان البارحة؟

-: لقد عرفتها ولكنها غير مقبولة لدينا .

: قد يرددون نفس الكلام هذا اليوم .

-: ما رأيك؟

: رأيي لم يتغير أبداً .

-: إيه، عصب ظهري وسندي أنت.

: هيا قم، وشب النار واعمل القهوة قبل أن يصلوا .

-: إنني أكاد أرى معهم عدداً كبيراً من الرفاق .

: أما أنا فقد تأثر نظري من كثرة البكاء فلا أستطيع تمييز حتى تلك الأشجار من بعضها .

-: إن معهم رفيقك فلان .

: فلان!!

-: ها هو في مقدمة القوم على يمين الشيخ .

: إيه، ماذا يريدون منا؟

-: لا أدري، لننظر ما يريدون عند وصولهم، إن زبدتهم لا تزال في سقائهم .

: لا شك أنهم يريدون الوجاهة، ولكن ما أبعدها عليهم .

-: كأنك تقرأ ما بأفكاري .

: المصيبة واحدة، ها هم وصلوا .

-: إستقبلهم أنت وحي بهم باعتبارك الأكبر.

: حياكم الله، يا أهلاً وسهلاً عدد حبات الرمل التي لامست أقدامكم بخطواتكم إلينا .

-: أبقاكم الله وسلمكم يا أبنائي . قال الشيخان ذلك بصوت يكاد أن يكون واحداً .

: تفضلوا، تفضلوا، ما أبركها من ساعة قد أتيتم بها إلينا .

-: لم يكن غريباً مجيئنا إليكم، فكل يوم ونحن في مكانكم العامر، نشرب من قهوتكم ونطعم من خيراتكم جعلها الله وافرة ودائمة .

: مرة أخرى نرحب بكم أجمل ترحيب .

-: «المُهَلِّيْ مَا يُوَلِّي» رجال بالتمام والكمال.

وعندما رأى القوم هذه البشاشة والترحيب استبشروا وتوقعوا خيراً عند ذلك جلس رفيق الأخ الكبير منهما إلى جانبه وأخذ يحدثه بأسلوبه الجذّاب وجمله المقنعة، وابتساماته العريضة، وما إن وصل بحديثه إلى الهدف الذي جاء القوم من أجله حتى امتقع دمه وانكمشت أسارير وجهه وتكورت التقطيبة على جبينه وتجهم محياه، ولما رأى الأنظار قد اتجهت إليه، بدأ يصارع نفسه عله أن يستبدل هذه الانفعالات بما هو خير منها خاصة بحضور كبار قومه ووجهائهم، ولكن أنى له ذلك، حيث بدأت هذه الانفعالات تنقشع تارة وتعصف بوجهه أخرى واعتقد الحاضرون أن صاحبهم قد أثر على رفيقه بحديثه الهامس مما جعل الفرصة مهيأة أمامهم ليفاتحوه بالحديث.

في تلك الأثناء كان أخوه الأصغر قد انتهى من صنع القهوة وعندما حاول إدارتها على القوم امتنعوا عن أخذها واحداً بعد الآخر، فقال صاحب البيت:

-: لماذا لم تأخذوا القهوة؟

: فرد عليه أحد الشيخين قائلاً: لن نتناول القهوة في بيتكم حتى توافقوا على إعطائنا ما جئنا من أجله.

-: نعطيكم ما جئتم من أجله!!

: نعم.

-: فتجاهل الأمر وقال: ماذا تريدون؟

: فقال رفيقه: لقد جاء إليكم بنو عمكم وكبار قومكم طالبين منكم التنازل عن دم أخيكم بقبول الديّة الشرعيّة، أو ما تريدون زيادة عليها.

-: الديّة، الديّة، الديّة!!

: نعم يا ابن العم، وهذه قبلات من جميع كبار قومكم على رؤسكم شباباً وشيباً رجاء أن تقدروا خطواتهم وقدومهم إليكم، وقد جاءوكم يحدوهم الأمل وتحفزهم الرغبة في إصلاح ذات البين وحقن الدماء بين عشيرتينا.

وقام الرجال وأكبوا يُقَبِلون رأس الأخوين حتى انتهوا جميعهم.

-: استريحوا وخذوا القهوة، وسأخبركم بعد ذلك.

: والله لن نذوقها حتى توافق على ما جئنا من أجله.

-: لا تحلف يا عم، فشرب القهوة أو عدمه لا يساوي ما جئتم من أجله، ولكن من الأفضل أن تشربوها حتى إذا انتهيتم منها تحدثنا في الموضوع.

: أتعدنا؟

-: نعم، أعدكم بالحديث عنه.

: إذاً نأخذ القهوة وكلنا أمل فيك أن تحقق رغبتنا بحقن الدماء فيما بيننا.

-: إذا شربتم القهوة سأخبركم.

: لقد شربناها وانتهينا منها.

-: ما دمتم كذلك، ماذا تريدون؟

: نريد التنازل عن القصاص والقبول بالديّة.

-: بالديّة!!

: نعم وعليكم أن تطلبوا ما تريدون.

-: لا نريد غير ما أخبرتكم به الليلة الماضية.

: «أفّا» ألم تقدرونا، وتقدروا كبار جماعتكم حين قدموا إليكم في هذا الحشد، عانين لكم لهذه المهمة؟

-: بلى، بلى يا عم، والله إن خطواتكم علينا عزيزة، وعنوتكم إلينا غالية، وأبناء عمي ورفاقي قدرهم على العين والرأس ولكن أخي لن أتنازل عنه مهما كلف الأمر.

: إذاً لم توجهنا في هذه الحالة، ولم ترع خطانا.

-: اطلبوا مني أي طلب آخر وسترون ما أفعل بكم.

: أغناكم الله، لم نطلب منكم غير هذه المسألة.

-: أما هذه فلا، وعليكم باحضاره في الوقت المحدد.

: إحضاره!!

-: نعم.

: لقد هرب منذ ذلك اليوم ولا نعرف أين ذهب.

-: يعني تركتموه يهرب.

: لم يكن عندنا علم به.

-: كيف تريدون أن توصلوا له الخبر لو قبلنا بالديّة لو لم تعرفوا مكانه؟
: لم نعرف مكانه إطلاقاً، ولكن قلنا لو يمر علينا بعد أن ينتهي الأمر سنخبره.
-: أتتفاوضون عن هارب لا تعلمون مكانه؟
: إن جهدنا مسعى للإصلاح بين الفريقين.
-: لا صلح في دم أخي، وسأقتفي أثر القاتل حتى أدركه فأقتله أو أموت في سبيل ذلك.
: إن لم نجده، فسنقتل أخاه بدلاً عنه. هذا رأي الأخ الأصغر.
-: هاه!! ما ذنب أخيه؟ يتكلم الشيخ.
: إنه أقرب الناس إليه.
-: قتل من لا ذنب له بجريرة غيره يدل على العجز. يقول الشيخ ذلك بلهجة حادة.
: لن نفعل ذلك. قال الأخ الأكبر بنبرة جازمة.
-: ثم إن أخاه الأصغر بوجهي ولن يضيره أمر ما دمت حياً، أما الفاعل فما دمتم مصرين على قتله فعليكم بالبحث عنه.
: سننقب عنه في كل مكان وسوف أعثر عليه فآخذ بثأر أخي منه.
-: ولكن لا يزال لنا رجاء فيك وأمل عظيم ألا تقدم على مثل هذا الأمر يا بني.
: إنني عازم عليه ومصمم على تنفيذه.
-: معنى هذا إنك لم توجهنا.
: في غير هذا الأمر.
-: لم نأتك لغيره.
: لربما حدث ذلك في المستقبل.
-: لن يحدث، أكرمك الله.. نهض الشيخ غاضباً وتبعه الآخرون.
: حياكم الله..

هذا ما كان من أمر القوم، أما مزرم فبمجرد أن غادر منزل الحي فقد اختبأ في أحد الكهوف غير بعيد عن البيوت تلفه ساعات الإنتظار الطويلة والثقيلة لما عساه أن تفضي إليه المحادثات والمداولات بين سعاة الخير الذين يهدفون إلى حقن الدماء وبين إخوانه المتصلبين في رأيهم، وكلما اجتازت كاهله ساعة من ساعات

الانتظار الثقيلة قال: لا بارك الله بتلك الساعة التي قدر لـه أن يلتقي فيها بـذلك الإنسان الذي ابتلاه بشره وحمله جـريرة دمـه، فإذا خيم الليـل على الكـون وغرق الناس في سبات عميق بعد منتصف الليل جاء متسللاً من بين أذواد الإبل ورعايـا الأغنام يمشي محدودباً حيناً منبطحاً يـزحف على ركبتيـه أحيانـاً أخرى متى خشى أن تهـره الكلاب وينتبـه إلى من في الحي، حتى إذا وصل إلى بيتـه تلقى آخر الأخبـار وتزود بالماء والطعام ثم عاد من حيث أتى قبـل أن تدركـه أشعة الفجـر وكان هـذا ديدنه طيلة الأيام التي جرى فيها الأخذ والـرد، حتى إذا علم بآخـر ما انتهى إليـه البحث، وأن أبناء عمه قد بدءا بالبحث عنه وبث العيون لترصـده وتتبع خـطواته للقضاء عليه، عند ذلك أخذ حذره، وأطال غيابه عن الحي، ثم بدأ يغـاب عنهم بالشهرين والثلاثة ليأخذ منهم الطعام الجـاف كالتمـر والأقط في مزادتـه ما يكفيـه تلك المدة وشيئاً فشيئاً حتى عاش عـلى لحوم الـطيور التي يصـطادها، ويشـرب من مصـامد الميـاه وعيونها في مجـاهل الجبـال ومضت عليه السنـة الأولى وهو مشـرد لا يعرف عنه أهله أي خبر، ولم يقفوا لـه على أثـر حتى شكّوْا في استمـرارية حيـاته، بينما هو حي يرزق ينتقل من مكان إلى مكان وكلما نفذ ما معـه من زاد ضاف أحـد مضارب الأعراب وبـات عندهم ليلتـه تلك وقد يلمِّح لمن يتوسم في وجهـه الخير بأنه قـد نفذ زاده علّه أن يحصـل على شيء من الـطعام مـا يبلغه فتـرة إضافيـة من الوقت إلى أن يأذن الله بالفرج، أما غريمه فإنه قد حث الخطى وغذ السير بالبحث عنه والترصد له في كل مكان يتوقع أن يصل إليه واستمر هذا البحث ما يزيـد على السنتين، وذات مساء، استلقى مزرم على ظهره فوق بطحاء مسيـل ذلك الـوادي الذي قد سال لتوه، وبدأ يحدث نفسه.

آه، يا الله لا بارك الله بتلك الساعة التي أحـدثت منعطفـاً خطيـراً في حياتي، إيه. . هذه أقدار الله جل شـأنه، لكن الشيـطان والنفس الأمارة بـالسوء التي قـد تؤدي بصـاحبهـا إلى سحيق المهـالـك، ولكن من أجبـرك أيتهـا النفس أن تفعـلي بصاحبك هكذا؟ آه، لو تدري ما قيمة الحياة عندي؟ قيمة الحيـاة!! ماذا تعنـين؟ أعني أنني لو لم أتخذ من خصمـك ذلك المـوقف لأصبحت في خبر كـان الذي عفى عليه الزمن. يعني كان موقفك للدفاع عن الذات؟

بكل تأكيد، فقد كان عازماً على ارتكاب جريمته، ولو لم أردعه عن ذلك لفعل ما فعل، أخشى ألا تكوني صادقة فيما تقولين؟ ألم تره منذ اليوم السابق للحادثة وهو يصول ويجول، ويهدد ويتوعد ويحلف على نفسه ليحرمني شربة ماء من ذلك البئر الهمج؟ ولكنك أخطأت على كل حال بالفعل لقد أخطأت حين صوبت خنجره الذي تحمله يده إلى صدره، ولو أنني لويت يده التي بها الخنجر لتصيب أحد أعضاء جسمه وتشل حركته إلى حين يفيق من سكرة جنونه لكان أفضل، لكن تلك اللحظة الحرجة يصعب على المرء التصرف السليم إلا من وهبه الله قوة خارقة في سرعة التفكير واختيار البدائل. ما دمت قد أقررت بالخطأ فلماذا تحملينني تبعات التشرد؟ أنت الذي تحملت ذلك، هل يعني ذلك أن أستسلم للأمر الواقع وأسلم رقبتي لشفرة سيفه؟ لم أقل هذا. . إذاً ماذا تعنين؟

أعني الاستمرار على هذا الطريق حتى يأتي الله بالفرج من عنده، الله جواد كريم وفرجه قريب ولكن لا يبدو أن هناك أي بارقة أمل تلوح في الأفق، فبرغم مضي ما يزيد على السنتين إلا أن غريمي قد زاد تشدداً، وازداد صلفه عنفواناً، قد يأذن الله بالفرج ما بين لحظة وأخرى!! لا يأس من رحمة الله، ولكن من المشكوك فيه تحقيق ذلك. أما علمت بقصة صاحب الثور؟. . قصة صاحب الثور!! نعم ولم الاستغراب؟ لم أفهم.

يحكى أن سلطاناً حكم على أحد أفراد رعيته بأن يبقى في السجن حتى يموت ذلك الثور الفتى من الكبر، وكان يؤتى إليه يومياً بأفضل أنواع العلف بينما يؤتى للسجين برغيف شعير جاف، وكلما مد إليه السجان رغيفه ووضع للثور علفه قال السجين «إمَّا وَإمَّا يَا ثَوْرْ»، فنقل السجان كلام السجين هذا إلى السلطان ظاناً أنه يرغب بشيء من علف الثور فطلب السلطان السجين وسأله عن معنى كلامه، فقال للسلطان إنني أقول إنني بانتظار الفرج القريب من الله عز وجل، فإما أن أموت وأفارق هذه الحياة الفانية وإما أن يموت ذلك الثور فيفرج عني السلطان، وإما أن يموت السلطان فنخرج أنا والثور معاً.

وعند ذلك عفى عنه السلطان وأخرجه من سجنه. . .

آه. . ليتني أموت وأرتاح من هذه الحياة التي تشبه الموت، إذا كنت تريد ذلك

فالأمر بيدك. بيدي!! نعم عليك أن تسلم نفسك إلى غريمك وسوف ينهي حياتك في لحظة واحدة، ولكن، آه.. ما أغلى الحياة حيث لا يعادلها أي ثمن في الوجود، ما دمت كذلك فعليك أن تصبر على ما أنت فيه، ولكنها حياة مؤلمة، لم أر أهلي وأولادي وأقاربي، وقد ابتعدت عن دياري كلها مدة طويلة، عليك بالصبر فلا يتحمل المصائب إلا الرجال، إنني الآن في مأمن عن عدوي، في مأمن!! من أخبرك بذلك؟ إنني بعيد عنه وعن دياره ولكنني أخشى أن تصل الحال بغريمي إلى درجة اليأس فيقتل أخي أو يقتل أحد أبنائي عندما يكبروا، وهؤلاء لا ذنب لهم في الموضوع. أوه.. أنت دائماً تتوقع الشر؟ هذا مقتضى الحال إذاً ماذا تتوقعين من رجل قد رفض كل سبل الخير والطرق المؤدية إلى نجاتي؟ لا تعلق عليه كبير أملك ولكن علق رجاءك على ربك عز وجل، لم أقطع رجائي بربي ساعة واحدة، ولكن خصمي عنيد، عليك أن تكل أمرك على من بيده ملكوت السماوات والأرض وكل شيء على هذا الوجود، ونعم بالله ولكن ترى لماذا أعيش هكذا؟؟ لتطارد الأمل!! أما قلت إن الحياة عزيزة وغالية؟ نعم، نعم، ولكن حياة كهذه قوامها التشرد ومحورها الخوف وراحتها الحرمان ليست بحياة، قلت لك إن لم ترد هذه الحياة فعليك بالذهاب إلى غريمك، هاه!! ماذا قلت؟ الذهاب إلى غريمي!! نعم، مالي أراك قد فزعت وخفت من غريمك؟ غريمي الذي سينهي حياتي، ألا تعلمين أن ساعة أقف فيها بين هذه الأشجار يطرق فيها النسيم رأسي وساعة أتمدد فيها على هذا الرمل الناعم لا يساويها أي ثمن؟ ولا يضني في سبيلها تعب أو يمنع منها ظمأ أو يرد دونها سغب؟ آه.. ما أحلى الحياة وما أجملها!! حتى في حياة التشرد كما تذكر؟ حتى في زمن الضياع، يكفيني أن أكون حياً تصفقني هبات الرياح، أراك تراجعت عن قولك السابق؟ إيه، هذه عواصف الصراع، إذاً عليك بالصبر، وثق بالله، ما دمت لم تعتد على القتيل في بداية الأمر فإن الله سينجيك، والله إنني لم أعتد عليه، بل هو الذي ابتلاني بشره، وتطاول عليَّ بالكلام في اليوم السابق ثم اعترض طريقي أثناء خروجي بغرض خاص؛ إيه، الحمد لله على ما قدر، وما دمت بعيداً عن خصمك فعليك أن تترك هذه الوساوس وتنام قليلاً على هذه البطحاء النظيفة اللينة، وكيف يأتيني النوم في هذه الساعة وأنا منذ أن قضى الأمر لم أذق طعم النوم إلا مغالبة خفيفة تطيرها بين لحظة وأخرى سحابة الخوف التي

تلفني من كل جانب، إذاً عليك أن توقد النار لتعمل لنفسك طعاماً، أوقد النار!؟

نعم ولماذا؟ إنني أخاف أن يرى ضوءها غريمي فيهتدي إلى مكاني، أوه.. لماذا أنت خائف هكذا؟ لا توقد النار في جوف الليل مخافة أن يرى ضوءها غريمك ولا تمشي بالنهار مخافة أن يراك غريمك، ولا تجلس مع الرجال عند من تستضيفهم خشية أن يعرفوك ويذكروك له، ولا ترد الماء بالنهار مخافة أن يراك من يعرفك، وهذا اللثام الذي تظن أنه يساعدك على التستر قد حت شعر لحيتك، أكل هذا من شدة الخوف؟ بل حبًّا للحياة!! حبًّا للحياة؟ نعم، لم تكن كذلك، فعهدي بك الشجاع الفاتك الذي لا يهاب!! وأنت على عهدك بي فلقد تساوت لدى الحياة والموت الآن حيث صارت سيان، أوه.. رجعت مرة أخرى إلى الزهد في الحياة، فالظاهر أن الإنسان إذا تمادى به الخوف وعشش في ذهنه وسرى في جسمه مسرى الدم صار يخاف من كل شيء، لا تذكريني بهذه الناحية، أوه إن بينك وبين خصمك مسافات طويلة لا يستطيع الوصول إليك، فأنت في أرض قوم غير قومك ومن الصعب وصول عدوك إليك، صحيح، ولكن صاحب الثأر لا تمنعه حدود ولا تحول دونه مسافات، إنه يتخفى بين المسافرين، ويندس ضمن قوافل التجار للترصد لغريمه!! لأظن ذلك.

إيه، وقد يحدث جدب بأرض قبيلة ما وينزل المطر على أرض قبيلة أخرى فتنزح تلك القبيلة المحتاجة إلى أرض صاحبتها بعد تنسيق وتفاهم يتم بينهما على الرعي والشرب، وقد يكون خصمي من بين تلك القبائل، إيه إنك بعيد في خيالك عميق في تصوراتك، هاه!! نعم، أجل ما يدري خصمك بأنك تستلقي على بطحاء هذا الوادي المنزوي بين هذه الجبال الشامخة تحت ظلمة الليل، لا يؤنسك سوى هذه الأنجم المتلألئة التي تراها قريبة منك وكأنها تصغي إلى حديثك وتسترق السمع لهمساتك وهمهماتك الخافتة؟ أوه، ما أقساك يا نفسي عليَّ؟

أنت الذي قسوت على نفسك، وحرمتني من كل ملذات الحياة، ملذات الحياة!! نعم وأقلها أن تحافظ على جسمك من الانهيار، وهل هذا محله؟ إن لم تحافظ على جسمك الذي ينقلك ولو بأقل القليل من الزاد لأصبحت شلواً ممزقاً بين أحجار أحد الأودية ولانتهت حياتك نهاية سيئة، لا يهمني الطعام بقدر ما

يهمني الأمن، يا الله لا أحسبك هكذا!! إن هذا الشبح البسيط في البداية قد تضخم شيئاً فشيئاً مع الزمن حتى أصبح وكأنني أراه مثل الجمل الضخم الهائج يقضقض بأضراسه مصمماً على التهامي، وماذا لو هجم عليك؟ سألتقيه بالاستماتة والاستبسال حتى أقضي عليه أو يقضي علي، قد يكون هذا مجرد كلام لا حصيلة له؟ كلام!! آه.. آه لو يضعه الله بيدي؟

وأنت خائر القوى هكذا لم تذق غير جني الأرض منذ بضعة أيام؟ الجوع لا يؤثر فيَّ بالقدر الذي تزعمين، أوه، الجوع يهدُّ قوة السباع، ولكنه لا يمنعها من الانقضاض على فريستها بكل شراسة، إذا قلت أن الجوع يسعرها فأنا معك، إيه.. إنها مجرد تسميات تدل على معنى واحد، لا تقل هذا وانظر إلى أطرافك ترتعش ربما من شدة البرد، هه.. البرد لا يهمني!! أوه، ما أشد كبرياءك، البرد لا يهمك، الجوع لا يؤثر فيك، وعدوك لا تأخذ له حساباً؟ ألست أهلاً لذلك؟ بلى، ولكن عليك أن تبحث لك عن طعام يسد رمقك ويقيم صلبك هذه الليلة، فإن الجوع قتال والجني الذي اعتمدت عليه منذ أسبوع مضى لم يعد ينفعك الآن، فأنت قد لا تستطيع النوم هذه الليلة وأنت على هذه الحالة، لا أستطيع!! سأضيق حزام بطني وأضع مجموعة إضافية من الأحجار لتردع البطن عن طلبه؛ أوه... دع عنك هذا الصلف الزائد، وعليك أن تسعى برجلك قبل أن يهجع الناس، فلعلك أن تجد لديهم شيئاً من اللبن تغتبق به أو لقمة من طعام تطفىء بها لهيب أمعائك، وأين مني النزل؟ قد يكونون غير بعيد عنك، أما رأيت سوارحهم يوم أمس؟ ولكني قطعت مسافة طويلة منذ أمس وتلك المسافة من العسير أن نقطعها الليلة، قد يكون هناك حيٌّ من العرب بالقرب منك غير أولئك، من المستبعد ذلك، لماذا؟ لم أشم رائحة نار، ولم أسمع نباح كلاب، وهل تريد أن تأتيك هذه الأشياء وأنت في جوف هذا الوادي؟

هاه!! عليك أن تخرج وتنط رأس هذا الشفا فلعلك أن ترى وميض نار أو تشم رائحة دخان، فإن الرائحة تشم والصوت يسمع من بعيد غب نزول المطر، ومن سيرى وقت الظلام؟ ليس من الضروري أن ترى فقد تسمع أو تشم، إيه، لقد أثقلني هذا السيف من كثرة ما أنقله، فأين عصائي؟ ها هو مرمي بجانبي،

هاه!! لقد انهرس الليل ولن أجد أحداً، غير أنني سأهيم على وجهي فإن وجدت أحداً في طريقي فذلك هو المطلوب وإن لم أجد أحداً فسأنام في أي مكان يغلبني فيه النوم، عليك أن تسير وتجد في طلب الرزق وما التوفيق إلا من عند الله، إيه لا شك في ذلك، حسبي الله ونعم الوكيل، حقاً إنه نعم الوكيل!! هاه!! لكأنني أشم رائحة دخان يأتي بها الهواء، ألم أقل لك إن الأرض مليئة بالنزل حيث توافدوا على المكان الذي أصابه المطر؟ عليَّ أن أتتبع رائحة الدخان فلعل الله أن يجعل فيهم من يقري الضيف، بماذا تحلم وتطمع من عندهم؟ لا شيء في ذهني إلا ما يدفع عني غائلة الجوع الذي طوى أحشائي منذ ما يزيد على الأسبوع، أتريد لبناً أم طعاماً؟ وهل أنا في دور الخيار؟ إذاً عليك أن تسير، ها أنذا أتابع رائحة الدخان، أشق الروابي وأجتاز الوهاد، ألم تسمع الصوت؟ لا، لا أسمع الصوت مما أحسه يوشوش عند أذني من شدة الجوع، أما قلت أنك لا يؤثر فيك الجوع؟ أوه، ما أقساك عليَّ!!

ألم تر ضوح النار؟ لا أرى غير انعكاسات النجوم تومض في عيني، إذاً قد يكون هناك مسافة تفصل بينك وبين من تريد، لو أعلم ما مقدار المسافة الفاصلة بيننا لركضت وقطعتها في وقت قصير، ما دمت متأكداً من رائحة الدخان فبالتأكيد أن هناك عرباً غير بعيدين عنك؛ سأصعد رأس ذلك الحزم المطل على تلك الفيضة التي أعرفها، فإن كان في هذه الأرض أحد فسوف يتبين لي مكانه، وهل تستطيع الرقي إلى ذروة الحزم؟ بعون الله، هاه!! إنني أرى بصيصاً خافتاً من بعيد، أتراه وميض نار أو زوغان نجم قد ظهر لتوه على حد سمت الأرض، آه، سأعرك عيني عله يتبين لي وينكشف أمره، هاه!! إنه نار، إنها تلمع وتختفي، ما أسعدني إن وجدتهم عرباً، عسى ألا يكونوا من الرعاة الذين عزبوا عن أهلهم وظلوا ساهرين لحراسة أغنامهم من الذئاب؟ ولكن حتى هؤلاء قد أجد عندهم شيئاً من الحليب، وقد يضيفونني بذبح أحد صغار الغنم!! هاه، لقد زلت بي هذه الكلمة، فالرعاة نادراً ما يذبحون للضيف، ويكتفون بتقديم الحليب أو اللبن وما قد يصطادونه من الأرانب أو الجرابيع، إيه بركة إن حصل اللبن أو الحليب، إذاً علي أن أركض شوطاً طويلاً حتى أقترب من النار، هاه!! ربما قادني حتفي إلى هذه

النار؟ لا، لا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ونزغاته فكلما حاولت سلوك طريق من الطرق صب في أذني شيئاً من وساوسه، هاه، لقد اقتربت من النار، أوه، لم تكن ناراً واحدة بل هي نيران.

أوه هذه أصوات نباح الكلاب إنهم حي من العرب قد سكنوا هنا، الحمد لله ما داموا في هذا المكان فقد أجد عندهم ما يسد رمقي، ترى من أضيف منهم؟ سأكون ضيفاً على أقرب بيت منهم، هاه!!

لا، قد يكون البيت الطارف بيت عجوز أو بيت أحد الرعيان كما هي العادة، إذاً سأكون ضيفاً على رئيس القوم، آه.. ولكن رئيس القوم يجتمع عنده الضيوف من كل مكان، وقد يكون من بينهم من يعرفني، هه.. أنسيت أنك متلثم لا يظهر من وجهك غير عينيك وعرنون أنفك ولا يمكن أن يعرفك أحد ما دمت كذلك، إيه، من سيعرفني بهذه الديار، إنني الآن بأراضي القبيلة الفلانية بعيداً كل البعد عن أرض قومي أو حتى من يعرفني بالإضافة إلى أن الوقت بالليل، الحقيقة أنني قد أسأت إلى نفسي باستخدام «مِسْعَادَتَيْ غُتْرَتِيْ» للتلثم بها حتى في الليل، دعني أزيلها عن فمي ولحيتي، لقد اقتربت من البيوت، ولن أذهب إلى ذلك البيت الذي لا زالت ناره حية، إن هدفي المبيت الليلة في أحد البيوت ولن يعجزوا عن غبوقي بقدح من لبن، حيث يمتاز لبن أهل البيوت الذين لا يفد إليهم الضيوف بكثرة بالغلظة والطراوة، فلا تمزجه صاحبة البيت بالماء ليصبح شنينة خفيفة وذلك لمعرفتها أنه يكفيها هي وزوجها وأولادها ولو جاءهم ضيف واحد، أما أهل البيوت التي يقصدها الضيوف فتضطر ربّة البيت إلى شن اللبن بالماء ليفي بالتزامات الوافدين، إيه، سأكون ضيفاً عند صاحب هذا البيت الذي يبدو لي أن جهمته كبيرة، وربما يكون صاحبه من ذوي المكانة بين قومه ولكنه ليس بأميرهم لقد بدت الكلاب تهرني، إيه سأذود عن نفسي بهذا العصا الغليظ حتى أجتاز رعايا الأغنام، أو يخرج من أهل البيت من يسكتها عني عندما يعلم أن القادم ضيف، هاه!! لقد شاغلتني الكلاب ويبدو أن أهل البيت قد ناموا، هذا متوقع فالوقت متأخر الآن، آه، ليتني ذهبت إلى أهل ذلك البيت الحيّة ناره.

إيه ما دمت قد وصلت إلى هذا البيت فالأفضل أن آوي إليهم، ويتنحح

قائلاً:

-: السلام عليكم يا أهل البيت.

: وعليكم، من الطارق؟

-: ضيف.

: ضيف!! أهلاً وسهلاً تفضل على الرحب والسعة.

-: أبقاكم الله.

: تفضل هنا «بِالرُّفَّةْ».

-: أدامكم الله.

: حياك الله ياضيف، تفضل لذ وادخل في الداخل عن البرد.

-: لم يكن الجو بارداً.

: لكن الليل عادة يكون بارداً ولا سيما أن الأرض رطبة بعد نزول المطر، أدخل، أدخل، ضع قشاطك هنا.

ودارت الدنيا بمزرم حين عرف لهجة المضيف بأنها لهجة قومه فسيطر عليه الخوف وهو في داخل «الرفة» وبدأ يرتجف بدا ذلك من كلماته عندما قال:

-: لا والله إن الجو.. جو.. دافىء اليو.. و.. و... م.

فعندما سمع المضيف تقطع الكلمات بين شفتي الضيف ظنه من شدة البرد فبادره بقوله:

: تفضل واشرب من هذا اللبن الدافىء الذي وضع على بقية النار بإنائه حتى تدفأ.

إستخف مزرم من فوق الأرض لكن المضيف الذي كان يجهز الحطب في فم العنّة لإشعال النار قد حال بينه وبين سلاحه الموضوع بمدخل العنّة وحال دون هروبه عند ذلك تمتم قائلاً:

-: دعه حتى تشتعل النار لست مستعجلاً.

: إيه، النار تحتاج إلى بعض الوقت فالحطب قد أصابه ندى المطر ولا يشتعل بسهولة، والزناد الذي أقدح به قد ابتلت «وِذْيْحَتُهْ» أيضاً وقد يحتاج إلى بعض الوقت، ولكن عليك بالشرب من هذا اللبن الساخن ليدفئك حتى أشعل النار.

-: أغناكم الله، أغناكم الله، يقول ذلك وهو يحاول أن يهرب ولا سيما أنه قد شك في نبرات صوت مضيفه بأنها تشبه نبرات صوت ابن عمه.

: إجلس أيها الضيف، ووالله أن تشرب من هذا اللبن فلم يوضع في هذا المكان إلا لك ولأمثالك من هشال الليل تفضل حياك الله.

-: ولكني، ولكني.. يقول ذلك وهو يحاول إخفاء ما يجول في ذهنه ويخشى إن هو حاول الهرب أن يعتبره المضيف أحد اللصوص ويفزع عليه النزل وهم لا محالة مدركوه، عند ذلك قاوم نفسه وكبح جماحها بكل عنفوان وقسوة محاولاً فرصة إخلاء المضيف للممر ليجد الطريق للهرب.

: ولكنك ماذا؟ مالح يا أخي، نحن عرب ولله الحمد والدنيا بخير.

-: ليس لي نفس في الشرب أيها المضياف الكريم.

: ليس لك نفس وأنت ترتعش من شدة البرد والجوع.

-: هاه.. وخاف أن ينتبه إليه المضيف.

: والله تشربن من هذا الإناء الساخن وإذا كنت مستحياً فسأغرف لك بنفسي، أو أنت لم تر الإناء؟

-: إنني أراه، أراه، أغناكم الله.

: أجل خذ بهذا المغراف واغتبق ما دمت أذكى الزناد لإشعال النار «الْمَلْوِيَّةْ».

وتناول مزرم القدح الطافح بالقدر وملأه من الإناء الكبير وبدأ يزدرد الجرعات وهو يقول في نفسه قد يكون هذا اللبن حنوطي، وآخر رزق لي بهذه الحياة سيما أنه قد عرف أن مضيفه شبيه بصوت ابن عمه وغريمه.

: إشرب وارتو، فإن اللبن كثير وخير الله واجد ولله الحمد، و«الطَّرْقِيْ» يحتاج إلى اللبن لأول وهلة.

-: آه، لقد شربت وأكثرت.

: إغتبق، إغتبق، هذه النار على وشك الاشتعال.

ومادت الأرض بمزرم وكاد الدم أن يتجمد في عروقه عندما عرف ابن عمه فعلاً على ضوء النار دون أن ينتبه هذا إليه، ولا سيما أن سيفه بالقرب من ابن عمه عند ذلك قال:

-: لا حول ولا قوة إلا بالله .

فانتبه المضيف وتمعن في وجه ضيفه فعرفه وقال :

: مز. . مز. . مزرم!! هل أنت مزرم حقاً؟؟

-: نعم، نعم، أنا هو يا ضاحي!!

: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

-: جاء بي إليك قدري . .

: قدرك!؟

-: نعم، لقد اختفيت عنك مدة طويلة حتى جاء بي القدر وسلمني بين يديك أعزلاً من السلاح سوى من هذا الخنجر.

: مزرم، مزرم بين يدي!! يا الله هل أنا في حلم أم حقيقة!! يا الله!! هل شربت من اللبن؟

-: نعم، لقد شربت ملء المغراف ولا تزال «**الطَّاسَةُ**» في يدي .

: هل. . هل. . هل عرفت بيتي قبل أن تأتي إلى هنا؟

-: لا والله يا ابن العم، إنني لم أعرف ولا حتى النـزل ممن يكون حتى دخلت بيتك وتكلمت ولو عرفت ذلك لما وقفت بهذه الأرض وسلمت رقبتي لك .

: آه، ما أصعب ما يدور في نفسي!! ماذا تراني فاعل بك؟

-: ضيفك، وابن عمك، وغريمك في بيتك وقد ذاق «**مِلْحَكْ**» وهو الآن بين يديك، فافعل به ما تشاء .

: آه، آه. . ما أقسى هذه اللحظة علي!! وجاءت منك!؟

-: لقد ساقني الله حتى وقفت بهذا الموقف فافعل ما بدا لك .

: آه، والله ما دمت قد دخلت بيتي بدون علم وذقت من زاد بيتي وملحه فلن يذورك ذائر ما دمت على قيد الحياة .

-: ماذا على هذا الكلام؟

: عليه عهد من الله وميثاق .

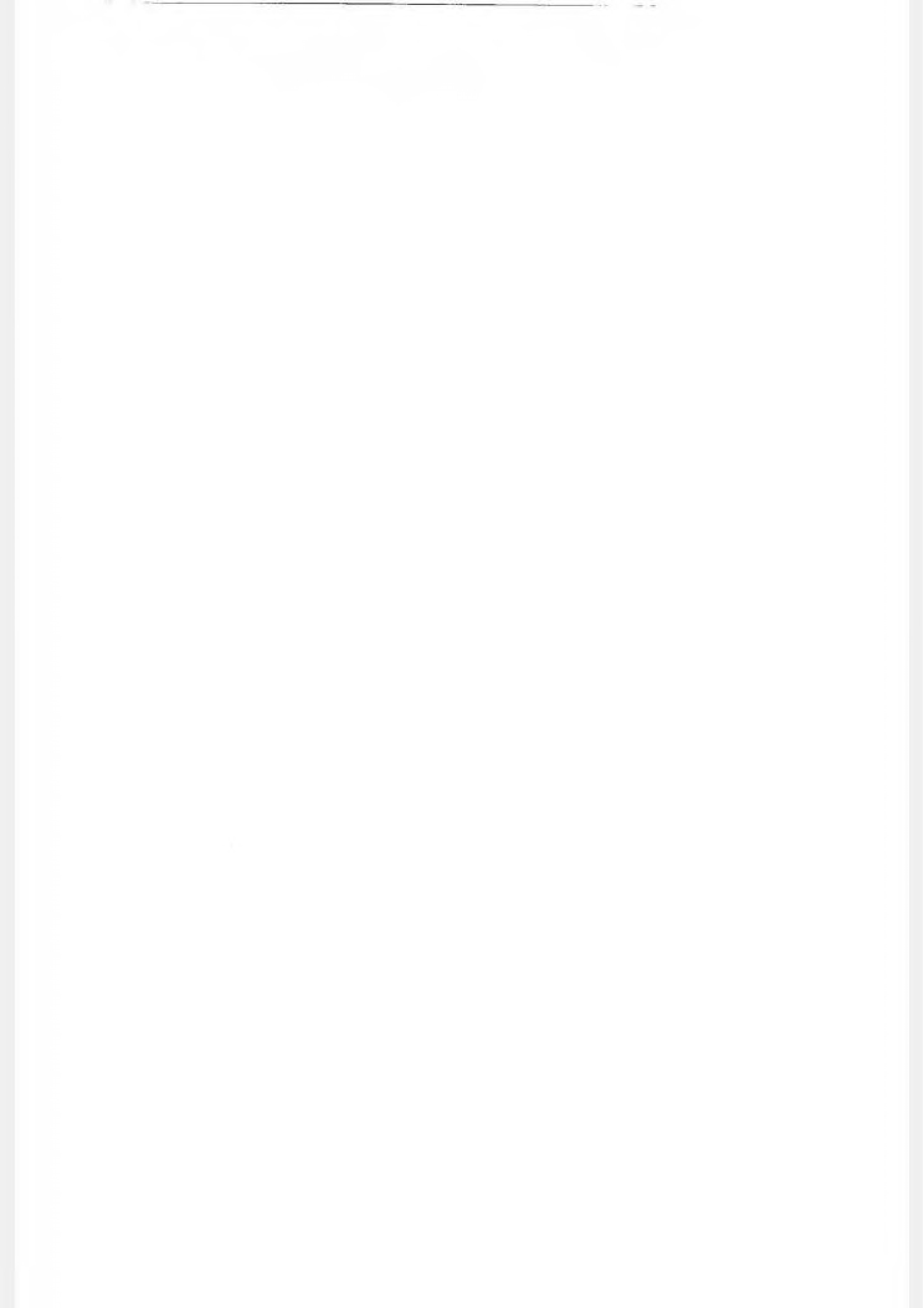
-: مد يمينك .

: هذه يميني وهذا صدري وخدي .

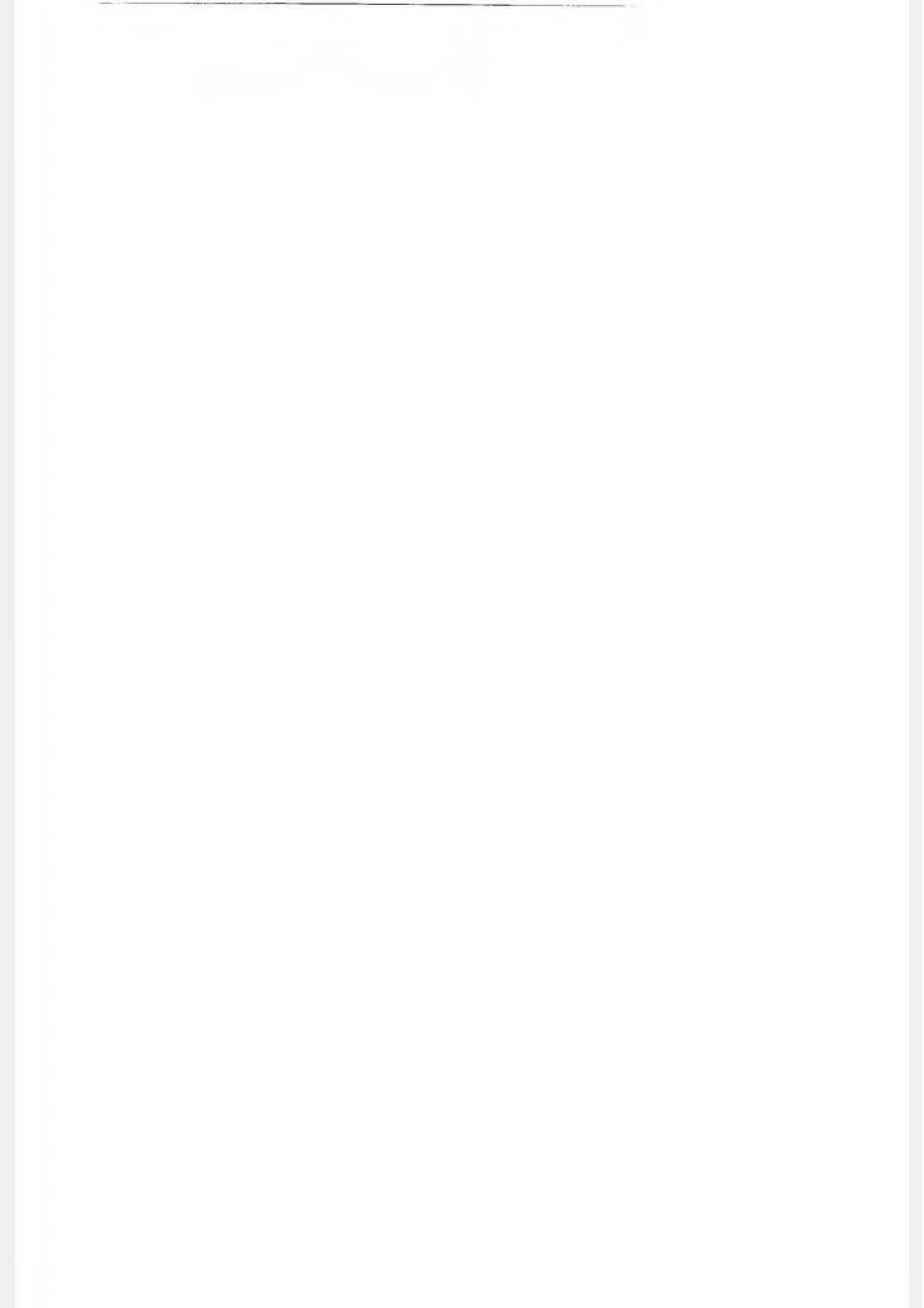
وتعانق الرجلان طويلاً على ضوء النار، والتقت السواعد المتناحرة بالأمس بلطف ورحمة على الصدور التي كانت حريصة على تمزيقها، وتناثرت دموع كل منهما على صدر صاحبه وتحجرت الكلمات بحيث غصت بها الحناجر وبقيا متماسكين وكل منهما قد أسند رأسه على صدر صاحبه.

أما إمرأة ضاحي فإنها عندما سمعت اسم مزرم أطلت من الخباء فرأت الرجلين وقد تماسكا فظنت أنهما يقتتلان فصاحت بأعلى صوتها عدة أصوات اجتمع النزل على إثرها، وعند ذلك أوقدت النار في منتصف الليل واجتمع الرجال وأعلن ضاحي وأخوه أنهما قد تنازلا عن دم أخيهما المقتول من قبل مزرم بعد أن تقدم ضاحي وأمسك بخصلة من ناصية ابن عمه وجزها بذباب الخنجر وفاء بقسمه، ليقطع رأسه.

وهكذا عادت الطمأنينة والأخاء إلى هذا الحي بعد مطاردة طويلة.



قصة رقم (٧)



نظرة صائبة

في ذلك اليوم الربيعي الجميل صعد الفلاح سلامة مجموعة من النخيل الواحدة تلو الأخرى ليأبر كل واحدة قد شقق كافورها في فصل التلقيح حتى يمسك النخل بالبسر ويصلح طلعه، وفي آخر نخلة صعدها قرب أذان الظهر كانت تطل على الشارع الرئيسي في البلد وبينما هو متعلق بالكر يتم عمله إذ سمع جلبة الفلالي، وفي نظرته لهم وجدهم مجموعة كبيرة من الرجال والنساء وقد أحضروا من البرشبكات كبيرة من الأعشاب على ظهور دوابهم، فبعضهم قد أمسك بشبكته على دابته والبعض الآخر قد تركها معتدلة على ظهر الدابة فهو يمشي مع رفاقه، وسرَّح سلامة طرفه بين هذا اللفيف من رواد البر وجامعي الأعشاب حيث وقعت عيناه على تلك الفتاة الطويلة الجميلة التي يهزأ قوامها بأغض الأغصان تخطرفا، وقد تحزمت بذلك الخيط الذي أبرز مفاتنها وجسَّد مغرياتها بالاضافة إلي تلك الجدائل المتدلية على صدرها الشامخ وأردافها النابية، وهي تحاول عبثا إضفاء خمارها على تلك الجدائل ولكنه أصغر من أن يغطيها، وعندما رآها سلامة من عَلٍ تسمرت عيناه عليها وكاد يسقط ما في يده من شماريخ البأر، وظل متعلقا في الكر ممسكا بيديه كرانيف النخلة وعسبها حتى اختفت تلك الفتاة مع رفاقها في إحدى منعطفات الشارع، عندها استعاد قواه ونزل من فرع تلك النخلة دون أن يكملها ثم أسرع إلى الفلاّي التابع لهم حيث وجده قد أنزل الشبكة لتوه فقال له:

-: القوة!! أعانك الله والبسك ثوب العافية.

: قوّاك الله وعافاك «ياعم».

-: ما شاء الله، من أين فليتم هذا اليوم؟

: من الرياض الفلانية.

-: ما شاء الله، جعلها الله للسيل، إني أرى أعشابها كبيرة.

: نعم، إنها بحجم الشجر، وقد أمطرت عليها السماء قبل ثلاثة أيام.

-: هذا ظاهر من هذه الأعشاب، هذا الأقحوان مشاجر.

: إنظر لشجرة الربلة، والصفار، والرقم، والحوذان، ما شاء الله، الحمدلله على دوام نعمته.

-: سنعود إلى تلك الرياض غداً.

: ستعودون بكامل رفاقكم،

-: نعم لقد تواعدنا ذلك المكان، رياض معشبة وكأنها حافة الزرع لا يؤثر فيها من يأخذ منها.

: ما أسعدكم أيها الفلالي.

-: ما أسعدنا!!

: نعم، تذهبون في كل صباح تتفقرون هذه الرياض، وتستنشقون من عبيرها، وتنتقون من أعشابها المزهرة الفواحة ما يطيب لكم وسط جو مغمور بالمرح وقلوب يملؤها الفرح.

-: كأنها قد طابت لك الفلاة ياعم.

: ألا تريد أن أعقبك غداً؟

-: تعقبني، تعقبني!!

: نعم، وماذا في ذلك؟

-: لاشيء، لاشيء ولكن جميع رفاقي من «الصبيان».

: وماذا في ذلك؟

-: لاشيء ولكن قد يتساءلون لماذا يذهب «المعزب» والأجير يرتاح؟

: لا يهمك يابني.

-: ولكن ماذا أقول لهم؟

: قل لهم إن «عمي» أعقبني في الفلاة لأعمل بدله في تلقيح النخل.

-: رأي صائب.

: إذا عليك أن تكمل النخلة الفلانية الواقعة على جانب السوق، فالكر والمئبرة معلقان بها.

-: أبشر، وبالمناسبة فقد تواعدنا يوم غد أن يكون «الزهاب» من المراصيع المخلوطة بالقشدة أو السمن على النساء، وتمر الحلوة الجيد على الرجال.

: أوه، يبشرون بما يريدون، وعلى ذكر النساء، من نكون تلك المرأة الطويلة ذات الحجال التي كانت تمشي في مؤخرة الناس؟

-: كثيرات النساء اللواتي يصاحبننا في الفلاة وأكثرهن طويلات ويلبسن الحجول، أهي صاحبة الثوب الأخضر أو الأحمر أو المشجر؟

: لا، ليست في كل ما عددت، إنها صاحبة الثوب البني، والحجول الجديدة.

-: آه، تلك هي علياء ابنة الفلان.

: لم أحسب أن فلانا له ابنة بهذه السن.

-: هي كبرى أخواتها، متى رأيتها؟

: لقد لمحتها مع الفلالي عندما كنت بالنخلة، ومروا مع السوق المحاذي لبستاننا.

-: هل أعجبتكم ياعم؟

: لم يكن إعجابا بالمعنى الصحيح لكنها لفتت نظري.

-: إنها لنعم الفتاة، خلقا ودينا.

: أراك تمتدحها.

-: لقد رافقتنا في الفلاة طيلة هذا الربيع ولم ير أحد منها ما يسيء إلى سمعتها أو يخرج منها أي كلمة تسيء لأحد.

: إيه، ستر الله علينا وعلى بنات الأجواد، إدخل وتناول غداءك، لقد أخرجته لك من الحوض،

-: حتى أفرغ من حل الشبكة ونشرها ليجف عشبها.

: عافاك الله.

ومع أذان الفجر ركب سلامة دابته وخرج مع مجموعة الفلالي يلفهم الليل بغلالته الرقيقة التي أخذت أشعة الفجر تمزقها شيئاً فشيئاً حتى تناثرت أشلاءها مع أشعة شمس ذلك اليوم الربيعي الصافي سماؤه وقبل أن يخرجوا من الشارع الرئيسي تناغط الرفاق وسلم بعضهم على بعض بتحية الصباح باصوات غليظة لا تزال بقايا النوم تغلفها مما يصعب على السامع معرفتها بسهولة، وما إن نطلقت بهم الدواب خارج أسوار البلدة حتى تلقاهم نسيم الصباح البارد، فتلفع كل واحد منهم بأطراف «غترته»، أما النساء فقد أضفت كل واحدة منهن طرف كم ثوبها الفضفاض على رأسها، وساروا في جلبة وصخب يصعب معه تمييز صوت أحد، ومع بزوغ الشمس عرف بعض الرفاق سلامة حيث قال له:

-: سلامة!! ما الذي جاء بك معنا؟

: أتكرهون أن أنظم إليكم؟

-: لا والله، يا أبا فلان، فأهلاً وسهلاً بك، ولكننا استغربنا مجيئك معنا ولديك أجير يكفيك مثل هذا العمل.

: واذا كان عندي «صبي» فهل يمنعني ذلك من أن أرافقكم إلى هذا البر الجميل وأشم رائحة هذه الرياض والخمائل الغناء.

-: أبداً، أبداً، فأهلاً وسهلاً بك.

: في الواقع لقد أحببت أن أعقب الأجير اليوم في الفلاة، لأريح وأغير الجو لنفسي، فأرى هذا الملفى الذي أحضرتم تلك الأعشاب منه.

-: أوه، إنها رياض تطرب من ينظر إليها وتنعش من يتمشى بين جنباتها،

: الحمد لله، فلقد أراف عليها واسبغ عليها شآبيب فضله.

-: ليس لنا محمود سواه.

: كم يستغرق من الوقت جمع ما يوقردوا بكم من العشب؟

-: الواقع إنه لا يستغرق غير وقت قصير.

: وقت قصير!!

-: نعم، فبعد أن نصل المكان وننزل عن دوابنا قشاطها في «المحبَّل» نخرج ما معنا من «الزهاب» ونطلق الريق بالفطور مما أحضرناه من خيرات الله ونمكث

حوالي الساعة ثم نبدأ بعملنا وما هي غبر فترة قصيرة حتى يجمع الواحد منا ما يوقر دابته وينضده بشبكة كأنها القصر.

: الحمدلله، إذا كثر خير الله سهل جمعه، فالجود من الموجود.

-: نعود بعد ذلك إلى مطبقات التمر والأرغفة وصملان وشكاء اللبن والماء لنلتهم بقيتها، ثم حملنا دوابنا بالعشب وعدنا إلى أهلنا.

: آه، لهذا السبب أنتم لا تأتون إلا أذان الظهر رغم قرب المسافة وكثافة العشب.

-: ما الذي يحدنا على أن نستعجل؟

: المفروض أن تأتوا مبكرين في فترة الصباح «الهدَّة» ليتمكن من يعودون في فترة ما بعد الظهر «الرَّدة» من إحضار كمية مثلة من العلف.

-: ومن يستطيع الذهاب في الهدة والردة؟

-: كل الناس يستطيعون ذلك حتى يجمعوا أكبر كيمة من العلف واختزانه لأيام الصيف.

: إيه، نحن لا يهمنا ذلك.

-: لانكم أجراء لن تشتروا غرزة واحدة من العلف.

: أراك جئت لتحثنا على العمل، وقد تخبر بنا «معازيبنا»؟

-: أوه، لو كان هذا هدفي ما أتيت.

: إذا ما هو هدفك؟

-: هدفي أن أرى البر والعشب وأختلط مع الغلالي.

: لو كان هدفك رؤية البر والعشب لامتطيت ظهر جوادك ومررت على ما تريد من البر!!

-: أذهب لوحدي!! إنني أحب مخالطة الناس والاستئناس معهم ومشاركتهم في مرحهم.

: الاستئناس معهم!! يقولها بصوت مجرور.

-: مالك تجر صوتك؟

: لا شيء، لا شيء ولكن.

-: ولكن ماذا؟

: ولكن أتحاول إرجاع نفسك إلى سن الشباب وقد تجاوزت الأربعين.

-: أتنكر أنني شاب؟ الآن بدأ نضوج الشباب عندي، أتطارحني؟ أتسابقني؟ إنني في عز الشباب.

: أوه، لم أقصد هذا، ولكن قد لا يروق لك بعض كلامهم ولا تناسبك بعض تصرفاتهم.

-: أبداً إنني مثلهم.

: خيراً إن شاء الله، أعانك الله على ما في وجهك إن أنت داومت معنا.

-: إنه اليوم فقط.

: أجل، لقد وصلنا المكان «سَنُحَبِّلْ» في وسط هذه الرياض.

-: على بركة الله.

وتجمع الفلالي بعد أن نزل كل عن دابته وقيدها وأحضروا ما معهم من الطعام وشرعوا في تناول الافطار، أما سلامة فإنه مشغول الذهن حيث تمتد نظراته بين الفينة والأخرى ليختلس نظرة من تلك الفتاة التي شغلت تفكيره منذ أمس، وهي تجلس القرفصاء مع رفيقاتها في طرف المجموعة وتتناول اللقمة من تحت الحجاب كحال رفيقاتها، وظل يمد نظره إليها بين الحين والآخر حتى امتلأت عينه منها مقبلة ومدبرة إلى أن حان موعد العودة، وفي المساء استدعى أحد المسنين وذوي الجاه من أقاربه وأطلعه على رغبته في خطبة ابنة فلان لنفسه سيما وأن زوجته الأولى قد ودعت الحياة منذ فترة من الزمن فأيده ذلك الشيخ بعد أن سأله أسئلة تتعلق بالزوجة، وذهب الاثنان إلى منزل والد الفتاة الواقع بمحاذات بستانهم، وبعد تناول القهوة عنده أبديا له رغبة سلامة في مصاهرته، فلم يتردد والدها مبدئياً، على أن يتركوا له فسحة من الوقت ليأخذ رأيها، ثم قام من عندهم، ودلف إلى منزله حيث وجدها تضع للابل علفها ففاتحها في الأمر وعندما سكتت عاد إلى رفاقه، وأخبرهم بموافقته، وتم الزواج في وقته وأصبحت علياء في ذمته بوقت قصير جداً لا يتجاوز الأسبوع، وذات مساء جر حديث الزوجين بعضه فقال لها:

: آه، الحمد لله الذي جعل حبا لك في يدي.

-: غريب هذا الكلام.

: وما وجه الغرابة فيه؟

-: كأنك استكثرت وجودي عندك!!

: نعم، لقد خفت أن يرفض والدك طلبي.

-: وحتى لو رفض فماذا.. يحدث؟

: أوه، ماذا يحدث؟ ربما أهيم علي وجهي.

-: تهيم على وجهك!!

: نعم.

-: لا يهيم على وجهه غير العاشقين المدنفين ولا أظنك منهم؟

: لماذا؟

-: لا يبدو عليك أثر ذلك.

: هاه، ما آثار ذلك؟

-: آثاره كثيرة، منها الشرود الذهبي والنحول الجسمي.

: لو طال الوقت لصرت كما تذكرين.

-: أجل أنت حديث عهد؟

: نعم، منذ مدة قصيرة.

-: إيه، لا يتعلق بما تقول ويغرم به غير الشباب الذين خرجوا لتوهم على الحياة.

: وأنا شاب في مقتبل العمر.

-: بلا شك، ولكنك قد تجاوزت مرحلة الشباب، وبلغت سن النضج ولا يتوقع منك أن تتعلق بما يتعلق به من هم في طفرة الشباب.

: صدقيني لو لم أحصل عليك لأصابني ما يصيبهم.

-: لا أرى لذلك سبباً، إنني إمرأة مثل بقية النساء.

: على العكس من ذلك.

-: على العكس!!

: نعم.

-: لست بأجمل النساء.

: بل أجملهن وأكملهن، وأقرمهن وأصلحهن.

-: الله، الله!! رويدك، رويدك، وهل أستحق كل هذا الإطراء؟

: آه، ليت الكلمات تسعفني لأبين بعض ما فيك من صفاة لم أجدهـا في غيرك من النساء.

-: هاه!! وهل أنت صادق فيما تقول، أم هي نظرة معجب قد أعماه هوى نفسه فرأى كل ما في حسن؟

: إنني أقول الحق.

-: لم أكن أعرف أنني كذلك في نظر الـرجال!! تقـول ذلك في زهـو ودلال وهي تهنف إليه بابتسامة عريضة ترتسم على وجهها وتنبلج من ثغرها.

: فلقد أعجبت بك من أول نظرة.

-: من أول نظرة!! أين كنت؟

: نعم، عنـدمـا كنت في فـرع النخلة ألقحهـا ومـررت مـع مجمـوعـة الفـلالي تتمخطرين بين رفيقاتك وكأنك الأملود المائس.

-: متى كان ذلك؟

: قبل حوالي شهر.

-: لا أذكر، لا أذكر؟

: أتذكرين ذلك اليوم الذي أعقبت فيه الأجير؟

-: آه، أذكره ولكن لا أعلم في أي يوم.

: كان ذلك في اليوم السابق له.

-: إذا، فـإن ذهابـك ذلك اليـوم بـدلاً عن «الصبي» لم يكن لله!! آه، مـا أكـثر حيلكم أيها الرجال.

: بالفعل كانت تلك العُقْبَةُ لمحاولة الاقتـراب منك لألمحـك عن قرب رغبـة في خطبتك.

-: أتصدقني إذا قلت لك، لقد ساورني الشك في ذلك اليوم من نظراتـك الحادة والمركزة عليَّ حتى أنني قد خجلت من نفسي وبـدأت أتفقد مـلابسي خشية أن يكون أحدها مفتوقاً، ثم أخذت في لملمة خماري على شعري مخافة أن يكـون شيء منـه قد تـدلى بغفلة مني، وكلما رنوت إليـك بطرفي وجـدتـك تنـظر إليّ

بتركيز شديد، حتى أكلتني نظراتك فهربت وابتعدت عنك.

: لقد لاحظت ذلك النفور، ولكن بعد أن رأيت ما سرني منك.

-: أوه، قاتلكم الله أيها الرجال ما أقسى نظراتكم؟

: كما يقول المثل صاحب الحاجة ملحاح.

-: إيه، كفانا الله الشر.

: كانت حاجة مشروعة ولله الحمد.

-: ألم تعرفني من قبل؟ فكلنا أهل بلد واحد.

: بلى، أعرف أن أباك له ثلاث من البنات ولكني لم أعرف أنك قد كبرت وصرت بهذا الشكل، فعهدى بكن صبايا تلعبن بالتراب بظل بستان أهلك.

-: أوه، تمضى الأيام.

: وكان هذا أسعدها.

-: إيه، كل إنسان وماكتب له.

: والآن ماذا تتمنين؟

-: أتمنى؟

: نعم.

-: إنني أتمنى على الله أن يهديك ويرضى عليك، وأن يقيم حظك وأن يقنعك بي ولا يولعك بغيرى، وأن يمنحك ثوب الصحة والعافية ويوسع عليك رزقك.

: الله!! هذه أمنيات جامعة شاملة لكل ما يطلبه الإنسان ويصبوا إليه، وماذا بعد ذلك؟

-: وماذا تريد أكثر من هذا؟

: هذا بالنسبة إليَّ، أما بالنسبة إليك فلم تتمنى شيئاً؟

-: على العكس إذا كنت في عز وجاه فبلا شك سأنضوى تحت كنفك.

: إنك على حق، بل وكل الحق.

-: عزي من عزك، وفخري من فخرك، وغناي من غناك.

: حقاً، إنك حكيمة.

-: ألا تعلم أن الرجل كالدوحة وارفة الظلال التي يتفيؤ تحتها: أهله وذووه، وحتى عابر السبيل يتقى لوافح الهجير تحت أغصانها فضلاً عما يناله من ثمارها

اليانعة.

: يا الله!! ما أبرعك بالكلام!!

-: أما إذا كان كشجرة قليلة الأوراق عارية الأغصان عاسلة الأشواك، فأول ما تكوي أشعة الشمس من يجلس تحت أغصانها.

: صحيح هذا التمثيل الذي يجسد الفارق بين من طاب حظه ومن تردى.

-: أما المرأة منذ أن تتزوج فهي تبع لزوجها على خيره وشره وحلوه ومره.

: هذا منطق العقل، ورب العرش العظيم.

-: هذا الواقع.

: ومن الذي يقدره؟

-: يقدره من منحه الله عقلاً مدركاً من الرجال والنساء.

: وماذا تتمنين أيضاً؟

-: أتمنى على الله أن يرزقنا بذرية صالحة من الذكور والاناث.

: أمنية غالية على قلب كل منا.

-: هي ما أتمناه.

: إيه، ولكن كما تعلمين في الوقت الحاضر، فالمرأة مهيضة الجناح في بعض الأمور التي يكون الدور فيها للرجل.

-: أبداً، فالمرأة شقيقة الرجل تحمل من الأعباء مثلما يحمل وتنوء بالمسئوليات كما يتحمل.

: لكن الأنثى ينظر إليها بعض المجتمع نظرة ثانية.

-: لا أوافقك على ذلك، صحيح إن دورها لا يبرز في أمور كالغزو، والقتال، والأعمال العنيفة الأخرى، ولكنها تقوم بدور مكمل لأعمال الرجل ومتمم له، وربما قامت بأدوار بارزة في الدفاع عن النفس والذود عن الممتلكات والأمثلة على هذا كثيرة مثل « العرفجية» وصاحبة «العوشزية» وغيرهما كثير.

: صحيح، لقد قامت كثيرات بدور مشرف في هذا الميدان لكن ما يفضل دور الرجل أنه يأتي في الواجهة أمام الناس يكرم الضيف ويحمي الذمار.

-: وحتى في هذا المجال، فالمرأة قد احتلت فيه مكانة بارزة، أنسيت مضيف «هيفاء» صاحبة روضة رمان وغيرها الكثيرات؟

: بلى، بلى، إنك على حق.

-: إذا، عندما أقول أتمنى على الله أن يهبنا الذرية الصالحة التي ترفع الرأس من الذكور والإناث فلا تلمني.

: لن ألومك أبداً.

-: آه، ما أسعد ذلك اليوم الذي أري فيه أبنائي أو بناتي تنحرهم مجموعات الضيوف، وتكون دورهم أو قصورهم موئلاً لعابر السبيل وهشال الليل.

: لا قطع الله بنفسك هذه الأمنية.

-: هذه أمنية لنا جميعاً، ومنها تنبع سعادتنا الزوجية.

: أتدرين ماذا سأقول؟

-: لا.

: لقد زادت محبتك في قلبي أضعا أضعاف ما كانت عليه من قبل.

-: من أجل ماذا؟

: لقد كنت أحبك كزوجة شابة جميلة الروح والطلعة، وزاد حبي لك عندما اكتشفت طموحاتك وتطلعاتك للمستقبل، لقد صادفت هذه التطلعات هو في نفسي وزاد حبك عندي ورسخ ودي لك.

-: إيه، جمع الله قلوبنا على ما يحب ويرضى.

: يا الله، ما أسعدني عندما أرى أبنائي في مقدمة الرجال يشار إليهم بالبنات في كثير من أمور الحياة.

-: حقق الله الآمال لنا جميعاً.

: وما أفرحني عندما أرى بناتي من ذوات المكانة المشهورة بين النساء حيث يقمن بتقديم الكثير من الأعمال الجليلة.

-: ما دامت أهدافنا قد إتحدت في قالب واحد فنرجو من الله أن نعيش زوجين متحابين ونرى أحلامنا وقد تجسدت إلى حقيقة ماثلة للعيان.

: الحقيقة أنني لم أكن أفكر بأن النساء ينظرن هذه النظرة للحياة المستقبلية.

-: هكذا تنطلق نظرة بعض الرجال للأمور من كوة ضيقة فلا يرى منها إلا ما حوله

: كنا نحسب أن أكثر النساء ينصب اهتمامهن على الأمور الشخصية البحتة

التي تتعلق بلباس الواحدة منهن أو حليها.

-: بلا شك إن بعض النساء كما ذكرت ولكن البعض الآخر لديها من النظرة الواقعة الثاقبة ما تفوق به تفكير بعض الرجال.

: حقاً، حقاً، وإنك منهن يا علياء.

-: أما البعض الأخر اللواتي لا يفكرن إلا بالمدى القصير من أمورهن الشخصية كالملابس والحلي فإنني أعتبرهن قاصرات النظرة لأمور الحياة المستقبلية.

: أكثر الله من أمثالك بين نسائنا.

-: ولا أعدمنا الرجال الذين يسندون ظهورنا.

ومرت الأيام فرزق الزوجان بأولاد ذكور وإناث، وحرص الزوجان على تربيتهم التربية الصالحة التي يريدانها لهم، حتى إذا بلغ الذكور مبلغ الرجال وبلغت الإناث مبلغ النساء تزوجت الإناث وذهبن مع أزواجهن وبقى ثلاثة من الأولاد، كان الأبوان ينظران إليهم نظرة إكبار ورجاء، أن يكون لهم أو لأحدهم على الأقل ما يرجوان من مظاهر الرجولة، كالكرم والشجاعة والمروءة رغم ما بذله الوالدان نحوهما من ضروب التشجيع والتوجيه والأخذ بأيديهم للاقدام على ما يرومان منهم من مزايا الرجولة، وذات مساء، بعد أن فرغ الوالدان من أداء عملها اليومي وتناولا طعام العشاء، استند الشيخ سلامة على سارية مدماك السقيفة وبجانبه زوجته علياء التي بلغت سن اليأس فقال الشيخ:

: أين العيال، ألم يأتوا بعد؟

-: لم يكن من عادتهم أن يأتوا في هذا الوقت.

: إيه، لا يأتون إلا بعد أن ننهي جميع الأعمال.

-: إيه خلف الله علينا تعبا تعيناه في سبيلهم.

-: مالك يا أم علي؟ كأن نغمتك نغمة اليائس!!

: لا تقل لي أم علي.

-: وبماذا أكنيك؟ أبأم سالم؟

: ولا سالم.

-: هه، هل أنكرت أبنائك، إذا فإنت أم محمد.

: ولا هذا.

-: ما بالك الليلة وكأنك غاضبة عليهم؟
: ومتى رأيتني راضية عنهم؟
-: كأنني أسمع نبرة صوتك الليلة قد تجاوز نبرة المزاح؟
: لست مازحة بقدر ما أقول الجد.
-: لماذا؟
: لأنهم ليسوا رجالاً.
-: هاه!! ليسوا رجالاً؟
: نعم.
-: إنهم رجال ولله الحمد.
: أغرتك أجسامهم؟
-: لا، ولكن ألا ترين ما يقومون به من أعمال الفلاحة؟
: ليس هذا ما أعنى.
-: وماذا تعنين؟
: لم أقصد أحلاس الأض، بقدر ما أعني الرجال حسبما تعنيه هذه الكلمة.
-: هاه، معك حق.
: نعم إن الرجال في نظري هم من يتمتعون بالخصال الحميدة كالكرم والشجاعة والمروءة والدين.
-: أما الناحية الدينية فهم متدينون ويؤدون الصلاة في أوقاتها.
: ولكن ينقصهم الكثير من مكملات الرجولة والدين.
-: مثل ماذا؟
: ذكاء الرجال، جديتهم، صلفهم، شهامتهم، أنفتهم، مروءتهم، إكرامهم للضيف، مساعدة المحتاج، إغاثة الملهوف.
-: هاه!! أما هذه الخصال فليس فيهم شيء منها وللأسف.
: هذا الذي يكاد أن يقصم ظهرى.
-: إنك على حق في هذا.
: إذا عدمت هذه الأشياء فماذا بعدها؟
-: الحق يقال فإن أبنائي فيهم من الخصال الحميدة الطاعة والسكينة.

: «وَاغَنَاتِيْ» هذا ما قطع قلبي ، فالطاعة التي تذكر نجدها حتى في البهائم المدربة حيث يسخرها صاحبها لأداء عمل معين حتى يقضي عليها .

-: هاه، هاه!!

-: أقول لك، عسى الله أن يخلف علينا، عز الله أننا لم ننجب!!

: ماذا دهاك الليلة يا أم البنين؟

-: دهاني هؤلاء الدعارم وتصرفاتهم .

: وماذا فعلوا؟

-: ليتهم فعلوا شيئاً يرفع الرأس .

: وماذا عملوا؟

-: لم يتركوا مجلساً إلا تلحلحوا فيه، ولا تفوتهم طبخة قهوة إلا شربوا منها، يجر جرون بطونهم في كل مكان .

: كثير من الناس يفعلون مثلهم .

-: لكن هؤلاء على الأقل يدعون الآخرين لشرب القهوة عندهم .

: هذا صحيح .

-: أما أبناؤك فإن «دَائِريَّة» الرجال تمر ببابهم ولا يرف جبين واحد منهم أو يندى عرقا عندما يرى الرجال يتعدون بيته .

: أما هذه الخصلة فإنها فيهم .

-: والأدهى من ذلك وأمر أنه لا توجد لديهم شهامة تمنعهم من متابعة من مروا بهم، بل يذهبون وراءهم بدون خجل أو حياء .

: هذه والله المشكة .

-: ليست مشكلتك لوحدك، بل مصيبتنا جميعاً .

: إن ما تذكرينه حقائق ثابتة .

-: وأكثر من ذلك .

: ألم توجههم نحو هذه الأمور؟ فإن عليك جزء من المسئولية .

-: أوه، لقد بح حلقي من كثرة ما أوجههم بدون جدوى، ولكن كما يقول المثل الديك يعاعي بالبيضة .

: حتى أنا دائماً أطلب منهم أن يدعو الرجال إلى القهوة أو العشاء والغداء .

-: وماذا يكون رد الواحد منهم؟

: إنه رد مخجل ورب البيت.

-: أعرف ذلك.

: تصوري، أنني عندما أقول لأحدهم أدع الرجال إلى الطعام أو القهوة يرد علي: أي واحد من هؤلاء الرجال؟

-: وعندما أطلب إليه أن يشملهم بالدعوة يذهب إليهم قائلاً: إن أبي يدعوكم.

: أنت تعرف هذا تماماً، فهم إذا على درجة من الغباء.

-: هاه، ما هذه المصيبة التي حلت بهم؟

: والله إنك لرجل كريم شهم، ذو مروءة، وكذلك أعامهم جميعاً فمن أين جاءهم هذا الاخفاق؟

-: هذا ما حيرني، فعندما أتذكر جدهم من أمهم وأخوالهم أجدهم من خيرة الناس، فيا ترى ما هو العرق الذي دك بهم؟

: إيه، خلف الله علينا تعبنا.

-: سيكبرون إن شاء الله وتتفتح قلوبهم.

: وهل ترجوهم أن يكونوا أكبر من ذلك؟

-: إيه، فالإنسان يزداد عقله تفتحاً في كل سنة.

: أوه، العُوْدُ وما حنى عليه، لا تصدق أنهم سيتغيرون عن هذا الطبع الذي أصبحوا عليه، فلو كان فيهم خيراً لتبين منذ الصغر.

-: وإن يكن.

: أبداً، لو أن فيهم لتبين، فإثنان منهم قد بلغا سن الحلم والثالث بعدهما.

-: سنزوجهم ويصبحون رجالاً.

: لا مانع من تزويجهم، فلعل الله أن يخرج من أصلابهم خيراً منهم.

-: وفيهم الخير أيضاً.

: لا يأس من رحمة الله، ولكني يائسة منهم.

-: قد ينفعوننا في المستقبل.

: لا أظن ذلك، إن نفعهم مشكوك فيه.

-: لماذا أنت متشائمة هكذا؟

: هذا الواقع ياسلامة.

-: ما هو الحل؟

: الحل عندي إذا قبلته.

-: عندك!! ولماذا لا أقبله؟

: لا أدري.

-: إن ما ترينه من حل فهو مقبول لدي.

: كما تراني قد بلغت سن اليأس.

-: هاه!! سن اليأس.

: نعم وأنت قد تجاوزت الثمانين.

-: إيه، ما يقارب هذا الكلام أو ينقص قليلاً.

: بل بالتأكيد قد وصلت الثمانين.

-: هاه!! ماذا عندك؟

: عندي أن تتزوج.

-: أتزوج!!

: نعم، وماذا في ذلك؟

-: غريب منك، هل يصدق أن إمرأة تطلب من زوجها أن يتزوج عليها زوجة ثانية.

: إذا كانت مخلصة له وحريصة عليه.

-: ولماذا أتزوج، إنني شائب منتهي.

: أوه، فيك بركة فلعل الله أن يرزقك بولد أو أولاد يحجون ويذرون.

-: هاه!! يحجون ويذرون؟

: نعم، أما إن تكلك الله على عيالك مني فلن تفلح أبداً.

-: لو صدر هذا الكلام من غيرك لرأيتك مُشْمَعِلَّةً تدافعين عنهم.

: الواقع لا يغضب العاقل.

-: هذا منطق الحكمة.

: إذا قطعنا الله من الذرية النافعة في بداية حياتنا، فقد يعوضنا الله بخير منها؟

-: ماذا تقولين؟

-: أقول عليك أن تتزوج.

: ومن هي الزوجة التي أتزوجها؟ فالفتيات قد لا يرضين بي وأنا في هذه السن.

-: كثيرات من يرضين بك زوجاً، ولكن لم يكن الهدف من الزواج اختيار الفتاة أو المرأة التي تعجبك.

: هاه، ما هو الهدف إذا؟

-: آه، الهدف أن تتزوج بامرأة تتوقع أن ينفعك أبناؤها.

: ماذا تقولين؟

-: أقول إن الغرض من الزواج وضع السبب فلعل الله أن يرزقك بولد يشب نارك، ويبقى ذكرك العطر من بعدك.

: وهل عرفت الزوجة المناسبة.

-: نعم لقد عرفتها.

: ومن هي؟

-: هي ابنة جارنا صاحب بيت الشعر النازل قبالة حيرنا.

: تقصدين ابنة الشمري؟

-: نعم هي.

: ألم تقولي بأنها عمياء؟

-: بلى، إنها كفيفة البصر، ولكنها مفتحة البصيرة، ومن محتد طيب.

: هاه، ولكن ماذا ستفعل الكفيفة؟ إنها لا تستطيع أن تتدبر شئونها الخاصة، فكيف ستصبح في بيت «حمولة» كبيرة؟

-: هذه مسئوليتي أنا، فكل عمل المنزل سأقوم به بنفسي، وفوق ذلك سأعتني بها بنفسي، وأعمل لها جميع أعمالها وضرورياتها الخاصة.

: وهل ستتحكمين بنفسك وتسيطرين على عواطفك؟

-: هذا شأني.

: أخشى أن تتراجعي بعد أن نتورط ونورط ابنة الأجواد؟

-: كن واثقا مني، هل سبق أن تعهدت لك في أمر من الأمور ثم تراجعت عنه؟

: حاشا لله يا ابنة الأجواد.

-: إذا، عليك أن تباشر في الأمر.
: هاه، هل ما أسمع منك صحيحاً أم أنه كلام ليل يمحوه النهار؟
-: وأكثر من الصحيح، وأرجو أن يوافقوا على تلبية طلبك.
: هل تتوقعين أن يعارضوا؟
-: لا أدري، ولكن ربما يكون اعتراضهم مبني على أساس أنها كفيفة لاتستطيع تحمل مسئولية بيت العائلة.
: ليس مستبعداً أن يحدث ذلك.
-: إذا، دعني أخطبها بنفسي وأقنع أمها بالتخلي عن الأشياء التي قد تتهيبها.
: إيه، عليك أن تجس النبض لتخبريني بما سيكون.
-: سأذهب إليهم غداً إن شاء الله وآتيك بالخبر اليقين.
: والله إنك لنعم المرأة.
-: هذا واجبي كزوجة مخلصة لزوجها تحرص أن يحتل المكانة الرفيعة بين قومه، وأن يكون له الأبناء والأحفاد الذين يرفعون الرأس.
: آه، يالك من زوجة مثالية تحفد على جذع زوجها، وتحاول أن ترفعه إلى أعلى المراتب.
-: ليس هذا بكثير على مثلك.
: أوه، إنك فريدة زمانك.
-: أنا!!
: نعم أنت، فكثير من النساء إذا سمعت من زوجها على سبيل المزاح والبرم إنه ستزوج، حنبت بعلبائها وكأنها العجل الغاضب.
-: أولئك من النساء قصيرات النظر.
: ومن تتحكم فيهن الأنانية.
-: إيه، إسكت، لقد جاء هؤلاء الدعارم، فلا تذكر لهم شيئاً مما دار بيننا من حديث.
: أنا أذكر لهم!! لم أكن سفيها حتى أخبرهم.
-: إذا، عليك أن تغير مجرى الحديث، واسألهم من أين أتوا.
: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأسعد الله مساءكم.

-: وعليكم السلام، لقد تأخرتم علينا، من أين أتيتم؟
: أتينا من آل فلان.
-: آل فلان!! إنهم في أسفل البلد، مالذى جعلكم تذهبون إلى هناك؟.
: أوه، لا تدرى يا أبي؟
-: لا والله، ليس لي علم بذلك.
: إن لديهم «كرمة».
-: كرمة!!
: نعم يا أبي لقد كانت وليمة كبيرة دعوا إليها مجموعة كبيرة من الناس وكنا من ضمن المدعوين.
-: هل من المعقول أن يدعوا الأبناء ويتركوا الآباء؟
: الدعوة كانت عامة حينما وقف مندوبهم في المسجد عصر اليوم ودعا الناس لاداء صلاة المغرب لديهم لتناول طعام العشاء معهم هناك، ألم تسمع صوت المندوب؟
-: هاه!! لا والله لقد صليت العصر في البستان.
: إيه، ألا ترى يا أبي أن بركات المسجد كثيرة، فبالاضافة إلى فضل صلاة الجماعة التي سمعناها من حديث خطيب المسجد فقد يحصل الدعوة لوليمة كهذه، أو قهوة عند أحد الجيران.
-: كفى، كفى، أيها الأوغاد.
: وهل قلنا خطأ يا أبي؟
-: الخطأ كل الخطأ فيما تقولون وتفعلون.
: لم نفهم.
-: ولن تفهموا إلى يوم القيامة.
: نرجو أن توضح لنا ما تراه من أخطائنا.
-: أخطاءكم!! إنها كثيرة ومنها هذا التطفل المستمر.
: «أفَا» عليك ياأبي، أتعدنا أطفالاً ونحن كما ترى الشعر قد ملأ وجوهنا.
-: ليتكم أطفالاً، لكان ذلك أبرد على قلبي!!
: وماذا نكون إذاً؟

-: طفيلين!!

: هذه الكلمة نسمعها منك لأول مرة ولا نعرف معناها.

-: ألا تعرفون معناها؟

: لا،

-: الطفيلي هو من يتطفل على بيوت الناس ويذهب إليهم بدون دعوة.

: ولكننا لم نذهب بدون دعوة.

-: لقد اكتفيتم بأقل إشارة، وقادتكم أقصر عبارة.

: إيه، ولكنهم قد دعوا الناس عامة.

-: قل لي، من ذهب من أهل مسجدكم؟

: هاه!! لقد رأينا ثلاثة أو أربعة، فالدنيا كانت ظلام ولم نميز أعداد الناس.

-: إيه، هؤلاء الذين يكفيهم رائحة القتار، فيأتون بدون دعوة مثلكم وأمثالكم.

: أوه، لو ذقت تلك «الكرمة» لتمطقت بها إلى يوم غد.

-: أعطاكم الله القداد الذي يقد بطونكم حيث لا تمتلىء إلا من الولائم الكبيرة.

: إيه، «شيء ببلاش ربحه بين»!!.

-: أبان الله فرجتكم وأراحنا منكم.

: أراك غاضباً يا أبي!!

-: إن معي كل العذر.

: ولماذا الغضب؟ أمن أجل أننا ذهبنا للعشاء في أسفل البلد؟

-: لم يكن هذا لوحده.

: وماذا بعد؟

-: أوه، كثير، وكثير، فلم تتركوا قهوة مشبوبة إلا تتابعتم إليها، ولم تعلموا بوليمة إلى جرتكم بطونكم إلى ولوج باب أصحابها.

: كما تعلم يا أبي، فالقهوة يحصل فيها شرب القهوة و«معروض» كأطباق التمر، أو صواني الخضار والفاكهة وهذا ما لا يجب تفويته، أليس كذلك؟

-: ألم يكفكم ما لدينا من خيرات الله؟

: بلى، بلى، يا أبي، ولكن ما عند الناس ألذ وأطعم.

-: أوه، خلف الله علينا وعوضنا عن تعب تعبناه فيكم.

: دعك من هذا، فو الله لو ذقت غداءاً أكلناه ظهر هذا اليوم عند آل فلان لما لمتنا على ما فعلنا.

-: غداء!!

: غير ما أكلتوه في البيت؟

-: أوه، غيره. يقول ذلك وهو يطق باصبع بإبهام يده مع الإصبع الوسطى.

: كيف ذهبتم أيها اللئام؟

-: هاه، بعد أن صلينا الظهر وخرجنا من المسجد رأينا الناس يتجهون إلى منزلهم فذهبنا مع أولئك الناس، وبعد شرب القهوة دعي الحاضرون إلى صواني الطعام.

: قاتلكم الله من متطفلين.

-: يا الله!! ما أكثر الأسماء التي ألصقتها بنا هذه الليلة؟

: إنني معذور في ذلك، ووالله لو لم تكن أجسامكم أكبر من جسمي لمددت الواحد منكم على الأرض ووطأت على خده بقدمي وضربته بهذا العصا حتى يتكسر عن ظهره.

-: وهل نحن مذنبون؟

: لم يكن ما فعلتموه ذنبا بالمعنى المحدد، ولكنه من سوء الأدب الذي يتطلب الزجر والعقاب.

-: كثير من الناس يفعلون كما نفعل.

: لاتقولوا كثير، بل قولوا الطفيليون مثلنا.

-: أوه، ما هذه الأسماء ياأبي، فإن الناس الذين لاعمل لهم إذا أدوا الصلاة في أكثر الأوقات، تحروا من يدعوهم لشرب القهوة في بيته، أو يذهبون إلى أهل «الفهاوي» المشهورة التي تشب بها النار وتعمل بهاالقهوة على أي حال وفي أي وقت كبيوت الكرماء، وأحيانا يذهبون إلى من يرون بقهوته دخان نار.

: قاتلكم الله، لقد أتقنتم هذه السجية وعرفتم طرقها.

-: ألم تر أننا نساعد بعض الناس ويساعدوننا؟

-: بأي شيء؟

: أنسيت يا أبي أننا نؤدي عملاً بهذه «القهاوي»؟ من «توسين» خلب النخل وفتله حبالاً وأرشية وغير ذلك.

-: أوه، هذا يتم في الشوارع تحت ظلال النخيل وفي أفياء الأشجار والجدران الطويلة.

: وفي غرفة القهوة يتم «التوسين» والفتل أما الجدل والادماج فيحتاج إلى مسافة طويلة.

-: أوه، لقد ضيعتمونا في الفتل والإبرام والجدل.

: إننا نتم عملاً لنا وللآخرين أثناء تواجدنا هناك.

-: لكن هذا العمل لا يرضيني.

: لا يرضيك!!

-: نعم، إن ما يرضيني هي أعمال الرجولة الأخرى.

: وهل تريد رجولة أكثر من ذلك.

-: أوه، يا الله إن العوض عليك، صحيح إن أمكم معها حق.

: لماذا تطلب من الله العوض؟

-: لأنني خسرت من يقوم مقامي ويشب ناري.

: وهل نحن لم نملأ عينك؟

-: لقد ملأ تموها رماداً.

: متى كان ذلك؟

-: منذ أن رأيت ما رأيت منكم.

: هاه، إنني لم أفهم.

-: لدي علم بذلك.

: ولكن ألا ترى أن أي واحد منا يشب النار في كرب النخل والسعف والرمث حتى يصل سناها إلى قرب السقف.

-: لم أقصد ذلك، ويعلم الله إن أمكم معذورة فيما أشارت به.

: وماذا قالت أمنا؟

-: رأت رأيا لا تفهمونه.

: نحن لانفهم!!

-: ولن تدركوا معناه إلى أن تموتوا.

: إيه، أمي هداها الله دائماً كلامها بالألغاز،

-: لم تكن الغازا، وإنما يفهمها من يفهم.

: سنكبر ونعرفها.

-: وهل ترجون أن تصبحوا أكبر منكم الآن؟

: إذا لم نعرفها فسوف نسأل عنها الرجال في المجالس.

-: تسألون في المجالس؟

: نعم.

-: إياكم وهذا النقطة!!

: لماذا؟

-: إذا لم تكن لكم آراء تميزون فيها بين الخطأ والصواب فالمفروض أن تسألوا فيها أناس بعينهم، لا أن تطرحوها وسط جمهور من الناس.

: وماذا في ذلك؟

-: إيه، قد يضحكون عليكم، وتتندرون بكم ويعدونكم من زمرة المغفلين.

: المغفلين!!

-: نعم، قاصرى الإدراك مثلكم.

: لم يكن لدينا قصور في ذلك.

-: إيه، الجمل لا يرى إعوجاج رقبته.

: أوه، ما دخلنا في الجمل؟

-: ولا شيء سأذهب للفراش، وعليكم أن تناموا للنهوض مبكرين لأداء عملكم غداً.

وفي الصباح ملأت السيدة علياء زنبيلا من حب القمح والشعير المخلوط وحملته على رأسها قاصدة بيت جارهم الذي سكن قبالة بستانهم في بيت من الشعر، حيث وجدت الرجل قرب دلاله في مجلس الرجال فسلمت عليه ودخلت إلى زوجته في قسم النساء حيث أنزلت الزنبيل عن رأسها فحيتها صاحبة البيت وأجلستها في المكان اللائق، وقدمت لها قدحاً من اللبن ثم جلست إلى جانبها

وبعد السؤال عن الأحوال والأولاد قالت علياء:

: الواقع أن لدي موضوع أود الكلام عنه ولكنني لا أدري كيف أبدأ؟

-: كيف تبدأين!!

: نعم، لدي نوع من الهيبة لأن موضوع كهذا يعتبر أول مرة أتكلم فيه طيلة حياتي.

-: لا تخافي ولا تخجلي، ياأخية وعليك أن تبدئي من حيث تريدين، فليس بيننا شيء وكلنا أخوات.

: إذا جئت للحق فإنني مرسلة لكم.

-: مرسلة!! خطواتك عزيزة علينا فعسى إن نتمكن من قضاء حاجتك.

: لقد جئت في أمر أحب أن آخذ رأيك فيه أولاً ثم نذهب لمن بيده الأمر النهائي.

-: هاه!! ما هذا الأمر الذي يحتاج لكل هذا الكلام؟

: أمر مفتاحه بيدك.

-: أنا!!

: نعم إن المفتاح بيدك، إن أردت فتحه أو إغلاقه.

-: أوه، أنتم أيها الحضر تحبون الفتح والإغلاق حتى في الكلام فضلاً عن أبواب الدور والقصور.

: إيه، لكل شأن من الشئون مفتاحه.

-: دعينا من هذا وأخبريني ما هو هذا الأمر؟

: أخشى أن تردديني فيه.

-: إن كانت لي مقدرة فيه فلن أقصر.

: لقد جئتكم خاطبة.

-: خاطبة!!

: نعم،

-: وهل عندنا من يخطب؟

: نعم، إن لديكم ابنتكم سعدى.

-: أتعنين هذه الكفيفة المسكينة؟ تقول ذلك بصوت خافت.

: نعم، إياها عنيت.

-: ومن أرسلك إلينا؟

: لقد جئت مرسلة من زوجي.

-: زوجك!!

: نعم.

-: أنت تخطبين لزوجك؟

: ولم لا؟

-: دعينا من هذا المزاح يا أخية.

: إنني جادة وليس في الأمر مزاح.

-: أقول لك دعي بنات الأجواد عند أهليهن.

: وإذا جاء إليهن الكفء؟

-: إنه كفء، وألف نعم بشاربه ولكن...

: لا تقولي هكذا.

-: سامحيني يا أختي إذا قلت لك إن هذا الأمر غير منطقي.

: لماذا؟

-: إدخلي على الله، ولا تتحدثي في هذا الأمر ولا تدخلينا في أمور جانبية.

: هذا الموضوع الذي جئت من أجله، إليك خاصة لأعرف وجهة نظرك، ثم بعد ذلك يتقدم هو لأبيها لخطبتها.

-: ولكن يا أختي أين هو؟ وأين هي؟

: من أية ناحية؟

-: نبرأ إلى الله ولا نقول في الرجل شيء يسيء إليه ولكنه رجل كامل ويرى في نفسه، وهي بدون نقص في حقها، ولكن الله ابتلاها بهذه العاهة التي وقفت في طريقها من بين أخواتها.

: إنه يعرف هذا الأمر، ولم يقدم على خطبتها إلا بعد معرفة كل شيء.

-: أوه، هذا لا يصدق، رجل عاش مع إمرأة مثلك ذات جمال وكمال وعقل وحسن تدبير، وإتقان صنعة في الطبخ وغير ذلك، يقنع بفتاة كفيفة عاشت طول حياتها في البادية لا تستطيع إتقان طريقة الأكل المقدم لها، فضلاً عن أن

تتقن صنعه.

: لا تقولي هكذا.

-: بل وأقول أكثر، هذه إبنتي وأعرفها تمام المعرفة، إنها تحتاج إلى من يقدم لها حتى ماء الوضوء.

: لا يهمك هذا الأمر.

-: لماذا لا يهمني، أيعقل أن أزوج مثل ابنتي لرجل يرى في نفسه ما يرى، ويأتي إليه الضيوف فيحتاج إلى من يعمل لهم طعامهم.

: لا هم لك في ذلك.

-: أوه، ياأخية، إنها ولله بحاجة أحياناً إلى من يلبسها ملابسها، فهي بالاضافة إلى كونها كفيفة البصر فهي عمياء الحركات.

: أعرف ذلك جيداً.

-: إذا كيف تريدين مني أن أجيب طلبك؟

: عليك الإجابة وعليّ ما تبقى.

-: إيه، إنك لا تدرين بخفايا الأمور.

: وإن يكن.

-: أنا أمها، وقد ربيتها منذ الصغر وبالكاد أتحمل تدبير شئونها.

: إذا كنت أنا سأحل محلك، فهل لديك مانع من ذلك؟

-: تحلين محلّ!!

: نعم، أحل محلك، أعتني بها، أغسل رأسها وجسمها وثيابها، أفرش لها فراشها، أرتب غرفتها، أقدم لها الطعام.

-: هاه!! إنني لا أكاد أصدق ما أسمع.

: وَلِمَ؟

-: أيعقل أن إمرأة تعمل بضرتها ما تقولين، إنك ستعملينه بها.

: وَلِمَ؟

-: أكيد، أنك.. أنك؟

: أكملي، أنك غير صاحية.

-: هاه!! لم أرد هذا القول.

: أحب أن إوكد لك أنني في كامل قواي العقلية، ولم أقل لك إلا ما أنا جازمة على تنفيذه بالوفاء والتمام وتحت أي ظرف من الظروف إن شاء الله.

-: هاه، لقد حيرني أمرك وأمر زوجك؟

: ولماذا الحيرة؟

-: ما الذي زين ابنتي هذه الكفيفة بعين زوجك وهو يستطيع الحصول على إمرأة سليمة سوية، بعمر ابنتي وربما أصغر منها.

: وإذا كان راغبا في قربكم؟

-: في هذه الحالة نحن نقول له أهلاً وسهلاً، ولكن البنت ليست على مقدار مكانته بسبب هذه العاهة.

: لا تحملي هماً يأخية للأمر، فالرجل مقدم على قربكم لا من أجل المرأة بالذات، إنما للرغبة فيكم.

-: هاه، وماذا رأي منا حتى يرمي نفسه على هذه المسكينة؟

: كوني مطمئنة، إنها ليست مسكينة كما تصورينها.

-: الله أعلم، من لا يرى بنفسه فهو مسكين.

: هناك من يساعدها، ويكون إلى جانبها.

-: «لَا خَلَى وَلَا عَدَمْ» يا أم فلان.

: إذا عليك أن توافقي.

-: ليس عندي ما يمنع، وكل كلامي السابق هو للاحتراز والتأكد من مصير ابنتي ومستقبل حياتها.

: المستقبل عند الله، فقد يرزقها الله منه بأولاد ينفعونها حية وميتة.

-: هذا ما نرجوه من الله لها.

: إذا، لا تقفي في طريقها، وتتسببي في قطع رزقها.

-: أبداً، إنني أؤيد ذلك، وجارنا أبو فلان رجل كفؤ ويستأهلها لو كانت سوية.

: لقد قبلها في حالتها الراهنة.

-: والله لكأنني في حلم، لم أصدق ما أسمع.

: صدقي، وكوني مطمئنة، إن كل شيء سيتم على ما يرام، وإنني كفيلة بابنتك، سأعتني بشئونها الخاصة والعامة ما دمت على قيد الحياة.

-: آه، يا أخيه إنني أخشى أن تؤثر عليك غيرتنا نحن النساء وعند ذلك يكون قد فات الفوت وانقطع الصوت.

: لم أتقدم بنفسي نيابة عن زوجي في بداية الأمر وأنا عازمة على التخلي عن أية كلمة قلتها.

-: إنك أمرأة نادرة وفريدة من جيلها، حقاً إنك إمرأة عظيمة القدر والشأن.

-: وهل لديك مانع الآن؟

: لم يكن لدي مانع منذ البداية.

-: أريد منك أن تقنعي زوجك وتتحدثي إليه في الأمر بهدوء ثم تأخذي رأي البنت، وسأعود إليك غداً مساءاً لمعرفة النتيجة.

: إنني سأركن على الكلام الذي تحدثت فيه.

-: نعم، وكأنك على جبل راسخ.

: إن شاء الله.

-: لقد نسيت أن أقول لك شيئاً ربما يخطر على بال أحد منكم وهو اقامتها بالحضر بينما أنتم ترحلون وتنزلون تبعاً للكلأ في فصلي الشتاء والربيع.

: وماذا في ذلك؟

-: أخشى أن ترون في هذه الناحية عائقاً في إتمام الزواج، وحياة الحضر كما تعلمين تمتاز بالاستقرار والراحة وهو ما يناسب الفتاة.

: كما ذكرت فالراحة أفضل لها من التنقل والترحال.

-: إذا، أعتبر الأمر منتهيا من جانبك بضمان الموافقة.

: بكل تأكيد.

-: ومن زوجك؟

: ذاك شأنه، وأمره بيده.

-: ولكن أرجوك أن تبيني له وجهة نظري وتحاولي إقناعه بالأمر.

: أبشري.

-: أستودعك الله، وسأراك يوم غد.

: حياك الله.

وغادرت علياء البيت ثم ذهبت المرأة إلى زوجها عند دلال القهوة وتحدثت

إليه في الموضوع، فأخبرها أنه سمع كامل الحديث الذي جرى بينهما وأنه استغرب هـذا الحديث وأكـبر في هذه المـرأة جرأتهـا وإقدامهـا وتضحيتها النـابعة من ثقتهـا بنفسها، وأعجبه موقفها المساند لـزوجها، كـما أطربـه رغبة هـذا الرجـل بمحاولـة مصاهرته والاقتراب منه.

وعندما سألته زوجته عن رأيه في الموضوع أجاب بعدم مما نعته طـالما أن تلك المرأة هي التي ستتولى شئون ابنته وتخدمها، إذ أنـه يحب لا بنته الـرفعة وأن تـأخذ نصيبها، من الحياة الزوجية.

وفي الموعد المحدد عادت علياء إلى رفيقتها لتجـد عندهـا الخبر اليقـين، وبعد ذلك بيومين، جاء سلامة إلى بيت رفيقه طالبا يد ابنته، وتمت الموافقة وعقد القران بنفس المجلس وزفت الفتـاة الكفيفة إلى زوجهـا، واستلمتهـا يـد تلك المـرأة التي بدأت بالعناية بهـا من صغائـر الأمور إلى أكبـرها، ومـا هي إلا شهور قـلائل حتى حملت، فكانت ضرتها أرق وألطف لها من قلب أمها في كثير من الأحيان، ومضت أشهر الحمل تترى حتى أطل ذلك الصباح الجديد وقد ظهر إلى الحياة صبي جديـد إختارت له علياء اسم «سعد» واعتنت به عناية فائقة وكأنه قد تمدد في أحشائهـا ثـم تعـاقبت الأيام والسنـين حيث أنجبت هذه الكفيفـة ثلاثـة من الذكـور واثنتين من الاناث وما إن شب سعد على الـطوق حتى برزت فيـه بوادر النجـابة وظهـرت فيه علامات الرجولة وذات مساء قالت علياء لزوجها:

-: أرأيت يا أبا سعد كيف رزقك الله بهؤلاء الصبية.

: الحمدلله، خيره كثير وفضله عميم يعطي من يشـاء بغير حسـاب، وكل هـذا من بركات الله ثم من بركاتك عليَّ.

-: معذرة يا أبا سعد، فإنني لم أفعل شيئاً.

: لم تفعلي شيئاً!!

-: نعم،

: لقد فعلت كل شيء، أنت التي طرحت الفكرة من الأساس وسعيت حثيثة لا نجاحها حتى وفق الله ونجحت.

-: لم يكتمل نجاحها حتى الآن.

: ماذا تقولين؟

-: أقول إنه يكتمل نجاحها عندما نقطف ثمار ما زرعناه.

: هاه!!

-: أقول، هل يكفيك من النخلة التي غرستها بيدك غريسة صغيرة أن تكون ودية «تطرخ» ذوائب سعفها أم تنتظر منها طلعها؟

: بل أتشوق إلى طلعها وأتلهف لتلميس قنوانها والتقاط جناها من ثنايا الشماريخ.

-: هاه!! هذا مالا أزال أرجوه من هؤلاء الصبية الذين ما زالوا في مراحل الطفولة.

: أترينهم يرجي منهم الفائدة؟

-: أما ترى بواد النبل في أكبرهم سعد؟

: لم أر منه سوى العبث وكثرة الحركة.

-: هذه من الدلائل.

: العبث وكثرة الحركة ليست دليلاً قاطعاً على النجابة والرجولة.

-: ولكنها من ضمن المؤشرات المشجعة، أما سمعت المثل القائل الديك يعاعي بالبيضة؟

: بلى، بلى، ولكن ابننا الكبير حينما كان صغيراً كان شقياً وكثير الحركة.

-: لكنها حركة هوجاء، وتصرفات وملامح بلهاء.

: قد يكون هذا مثله.

-: أبداً، فإن سعداً يختلف عنه كل الاختلاف، أما ترى عيناه المتقدتان، وتعابير وجهه المتحفز للاقدام والمغامرة؟

: إيه، لا تغرك هذه المظاهر.

-: أما ترى هيبته بين أقرانه الصبية، إنهم ينظرون إليه نظرة تقدير وإكبار.

: إنهم لا يعرفون الا كبار، وإنما خافوا من عصاه أو حصاه.

-: أوه، هذا جانب مشجع يولد فيه روح الشجاعة والاقدام.

: إيه، إنني أخشى أن يكون شريراً يجلب علينا المشاكل والمصائب مع الآخرين.

-: حقاً إنك لا تعرف إبنك، أو أنك تتجاهل ذلك.

: لا أعرفه!!

-: نعم، إنه ليس من النوع «المقرود» الذي تتوقعه.

: إذا سلم من «القرد» وسوء الحظ فلا عليه.

-: إنه عند حقه.

-: من حافظ على حقه وسلم من الطمع فلا خوف عليه.

: أما الطمع بما في أيدي الآ خرين فإنه من سماته.

-: هذه والله المشكلة.

: أبداً ليس طمعه في حب حيازة الأشياء لنفسه فقط.

-: أجل لماذا؟

: إنه يحوز الشيء ولا يلبث أن يجود به للآخرين.

-: كيف عرفت ذلك؟

: لقد عرفته عندما رأيته يختطف من أيدي لداته التمر والأقط ويجمعها في حضنه ثم يدعو رفاقه لأكل هذه الحصيلة مع بعضهم البعض بدلاً من أن يأكلها أناس دون الآخرين.

-: هاه!! هذه والله تدل على شيء.

: ولا حظته عندما يحضر وقت الغداء فإنه يأخذ ملء جيبه من التمر ويخرج به ليعطيه رفاقه.

-: إنك دقيقة الملاحظة شديدة الانتباه.

: ثم إنه صارم في تصميمه، فلا يمكن أن يرده أحد عن تنفيذ ما يريد.

-: هذه مشكلة.

: ليست مشكلة كما تصورها، وإنما هي من مميزات الرجال.

-: قد يكون متعنتا لرأيه إذا كبر فلا يقوى عليه أحد.

: سيهديه تفكيره آنذاك.

-: من الصعب الحكم على الإنسان منذ الصغر.

: لم أحكم عليه بالقطع والجزم، وإنما قلت إنها بوادر قد تدل على وجود بذرة صغيرة.

-: عسى أن تكون بذرة خير.

: ستكون بذرة خير وبركة إن شاء الله.

-: إيه، عسى ألا يكون فيه وبإخوانه شقاء وعنتا في أخريات حياتي، ولاسيما أنني قد أشرفت على التسعين.

: سترى من سعد ما يثلج صدرك، ويبهج خاطرك.

-: أنت متفائلة إلى أبعد حد!!

: أتريدني أن أتشاءم؟

-: لا أدري، فأحيانا أتوقع أنك تفعلين هكذا لأن أساس الموضوع من بنات أفكارك.

: لا والله يا أبا سعد، لو كنت أحب التحيز لصرت إلى جانب أبنائي الثلاثة هؤلاء الذين تراهم لا رجال مع الرجال ولا نساء مع النساء فعسى الله أن يخلف تعبي فيهم بهذا الصبي الصغير وإخوانه الأطفال.

-: جزاك الله خيراً يا أعز زوجة.

: ثم أنني رأيت من سعد حبه للرجولة وتعلقه بها، «فباسم الله عليه» إذا وافق الرجال بالشارع سلم عليهم وصافحهم واحداً واحداً وكثيراً ما يشنف آذانهم بكلمة الكرم المشهورة تفضلوا.

-: هل سمعت منه ذلك؟

: عدة مرات.

-: بشرك الله بالخير، بشرك الله بالخير.

: هل سبق أن علمته هذه الكلمة؟

-: لقد علمها الله له.

: هل سبق أن أدخل أحداً من الرجال إلى غرفة القهوة؟

-: لقد حاول، ولكن ربما لا يصدق الرجال الكبار عبارته وقد يحقرون أنفسهم من أن يجيبوا دعوة هذا الصبي.

: حقاً، حقاً، إن هذا الخبر قد أثلج صدري.

-: وسيفرحك فيما بعد.

: ياليت، متى يكون ذلك؟

-: عن قريب إن شاء الله يا أبا سعد، وفوق ذلك فهو دائماً يسألني أسئلة تدل على الذكاء الأصيل الذي فطره الله عليه.

: عن أي شيء يسألك؟

-: يسأل عن الفرق بين الرجل والمرأة، وعن بعض العادات والتقاليد، وعن معنى الكرم، والشهامة، والشجاعة والجبن وغيرها.

: هذه أسئلة عميقة بالفعل لايدرك معناها بعض الكبار فضلا عن صبي لم يتجاوز الثامنة من عمره.

-: فعلاً، إنها أمور مهمة.

: كيف تكون إجابتك على هذه الأسئلة؟

-: أبين له الفرق بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر والميزة والعاهة بأسلوب بسيط يفهمه.

: جزاك الله خير الجزاء.

-: هذا ولدي، ويجب علي تربيته وتعليمه مالا يعلم.

: إذا كان يسأل عن مثل هذه الأمور فبلا شك أنه يرجي منه خير.

-: أبشر بالسعد إن أبقى الله لك سعداً.

: متعنا الله وإياك بالصحة والعافية حتى نذوق نفعه.

-: آمين، وإن نفعه لقريب إن شاء الله.

: ولكني في هذه الأيام أحسن بآلام عميقة داخل صدري لم يفد فيها التدليك والمرخ، ولم ينفع معها شرب الأدوية بمختلف أطعمتها المرة والحامضة، ولم يفد معه الكي بالنار.

-: هاه!! وهل كويت بالنار؟

: نعم، لقد ذهبت إلى فلان بعد ظهر اليوم حيث وضع في جسمي ستة عشرة كية.

-: إي!! ليتك لم تفعل!!

: أبحث عن الشفاء.

-: شفاك الله ومنحك ثوب العافية.

: آمين.

ويـوم بعد، يـوم كان الشيـخ سلامـة يعاني من اعتـلال صحته ويقـاسي آلام الأمراض المبرحة في قلبه حتى وافـاه الأجل المحتـوم وانتقل إلى جـوار ربه، وبقيت السيدة علياء تدير شئون البيت والمزرعـة كما لـو كان حيـا وهي بانتـظار الفرج من ربها بينما أبناؤها مستمرون على سجيتهم يغـدون ويروحـون بين البستـان والبيت، يقضون أوقات فراغهم في مقاهي الغير بعد أن فشل والداهم في توجيههم الوجهـة السليمـة وعجزت والـدتهم عن جعلهم يملؤن الفراغ الـذي تـركـه والـدهم بعـد وفاته، لذلك بقى أملها الوحيد معلقا على ذلك الصبي الذي أربى على الثامنـة من عمره وهي تنتظر أن تنطلق منه شرارة البدء.

وذات يوم ذهبت إلى أحد أطراف البلد لبعض شأنها، وصادف أن رأي سعد مجموعة من الزوار المرموقين من خـارج بلدهم في مقاهي جماعته ينتقلون من بيت إلي بيت يتناولون القهوة وما تيسر معها من الطعـام كالتمـر وغيره، والتفت فـرأي إخوانه الكبار في مؤخرة النـاس يتهافتـون على صحـون التمر والفـاكهة لا يـأبهون بشيء، رغم إن هؤلاء الزوار في نفس الشارع الذي يقع فيه بيتهم وقد أقبلوا عـلى منزلهم، وتحين الصبي فرصة هدوء الأصوات في غـرفة القـوة فوقف وكـأنه الـرمح المركوز وقال بصوته الرفيع موجهاً كلامـه لكبار الـزوار ومضيفهم؛ تفضلوا حياكم الله، خذوا فنجانا من القوة في بيتنا، فأنا في انتظاركم هناك.

وعنـدها أرن من في المجلس ونـظر بعضهم إلى بعض بـاستضـراب وتسـاءل البعض الآخر، كيف يجرؤ صبي في الثامنة من عمـره أن يدعـو هذا الجمـع الكبير من الناس للقهوة، بينما إخوته الكبار لم ينبس أحد منهم بكلمة واحدة.

وغادر الصبي المكان ودخل إلى بيته ثم استعان بأحـد الجيران لعمـل القهوة، ودلف إلى داخل البيت ليوعز إلى «أمه» علياء بأن تعد للزائرين صحـونا من التمـر يقـدم لهم مع القهـوة «كمعروض» ولكنـه فـوجيء أنها لم تكن بـالبيت، فـأسـرع واستعان بأحد الجيران وأمره بكسر «ضِبَابْ» وأقفال الغرف التي يوجد بهـا التمر، ثم مد فرشاً طويلاً من سفيف خوص النخل وأمر مساعديه أن يخرجـوا من حياض التمر كميات كبيرة وضعوها على هذه الفرش وذلـك ليتمكن كل النـاس من تناول هذا التمر والشبع منه، وعندما دخل الزوار رحب بهم أجمـل ترحيب ودعـاهم إلى

أكـوام التمر المـزبورة عـلى الفرش وكـانت مفاجـأة للجميع حيث يقـدم الآخرون باطباق وصحون صغيرة ومحدودة بينما هذا الصبي قد قدم لهم هذه الكيمات وكأنه وقت الجذاذ، فأكل الناس وشبعوا وتعاقب على هذه الفـرش عدة دفعـات، حتى ترك الناس التمر شبعاً وكان لهذه الحادثة أثر سيء على إخـوة الصبي حيث تهددوه وتوعدوه بالويـل والثبور وعـظائم الأمور، وأنهم سينقلون خـبر فعلته الشنيعـة إلى أسماع أمهم حال قدومها من طرف البلد، وسينتظرون منها أية أوامر لتاديبه، غير أنه لم يبال بذلك، وعندما رأى الثلاثة أمهم قادمة من بعيد تسابقـوا إليها مسـرعين لينقلوا إليها تفاصيل ما حدث وما إن وصلوا إليها متهافتين حتى قال أكبرهم:

-: لو تعلمين يا أماه ما فعل سعد.

: ماذا فعل؟

-: لقد دعى الرجال إلى القهوة.

: بشرك الله بالخير، هذه بوادر السعد.

-: ولكنه لم يكتف بالقهوة. هكذا قال الثاني

: وماذا فعل؟

-: لقد كسر أقفال مخازن التمر.

: بشرى سارة، سلمت يمينه.

-: ولم يكتف بذلك؟ هكذا نطق الثالث.

: هاه!!

-: لقد أخرج كل ما عندنا من التمر وقدمه للناس.

: يستأهل، «فِدْوَةً» لعظام رأسه.

-: هاه!! هذا ردك يا أماه.

: نعم، هذا ردي قبح الله هذه الوجوه، ألهذا جئتم تتـراكضون إلي لتخبـروني بما فعل؟ وانحنت إلى الأرض فحثت بملء كفها من التراب على وجه كل منهم قـائلة: أهذا مـا أفزعكم أيـها الأوغاد؟ أهـذا ما ضـايقكم أيها البخـلاء؟ ثم زغردت بأعلى صوتها، الآن قام حـظي، الآن لمع نجم سعـدي، الآن بدأت أجني ثمار ما بذرت، تقول ذلك بصوت مرتفع وهي تحث الخـطى نحو بيتها

لترى بأم عينها صدق ما نقل إليها، ولما اقتربت من البيت سمع سعد صوت صياحها فأسرع إليها يستطلع الخبر، ولما رأته كادت أن تطير من شدة الفرح، وعانقته عناقا حاراً ثم لفته بذراعيها وضمته إلى صدرها ثم حملته علي نحرها وبدأت توزع قبلاتها على ثغره وعينيه وجبينه وهي تهرول نحو البيت وتردد «اَلاَ يَاَ بَعَدْ حَيِّ وْمَيْتِي، اَلاَ يَـا خْلَفْ الحيْ وَاَلميتْ، اَلاَ يَا بَعَدْ مِنْ غَدَا لِيْ»، لقد عوضني الله بثمرة من ثمار غرسى هذا ماكنت أتمناه من أعماق نفسي، الحمد لله الذي حقق آمالي، وعندما دخلت البيت ورأت ما فعل ابنها سعد غمرتها نشوة من السرور، وطفحت في لحظات من الحبور ثم قالت موجهة كلامها إليه وهي تربت على كتفيه :

: هذا يابنى ما كنت أتوقعه منك منذ زمن.

-: لقد صعب على يا أماه أن يمر الرجال في بيتنا دون أن يدخلوه بعد أن كان موئلاً للرجال والزوار في حياة والدي رحمه الله.

: هذه من شيم الرجال وأخلاقهم.

-: معذرة يا أماه، فلقد كسرت الأقفال، ولكن لا مناص لي من ذلك، حيث لا يمكن أن أقدم للزوار القهوة فقط وأنا أرى غيري يقدم لهم التمور وغيرها.

: الأبواب والأقفال مسمار في حذائك.

-: ثم إنك يا أماه قد حملت المفاتيح معك وأنت في طرف البلد، ولو أرسلنا من يحضرها فسوف يذهب الرجال قبل أن يعود من أرسلناه.

: من الآن فصاعداً سأسلمك المفاتيح وجميع مقاليد الأمور.

-: لا أستغنى عن مساعدتك يا أماه.

: أنا رهن إشارتك يا بني.

-: سلمك الله.

: آه، يا بنيً سعد!!

-: على أي شيء تتأوهين؟

: إن لي أمنية لم تتحقق.

-: أمنية!! تمني عليّ وسأحققها لك.

: إنك لا تستطيع يابني.

-: أنا لا أستطيع!؟

: لم يكن ذلك قصوراً منك.

-: أجل؟

: آه.. وتغرورق عيناها بالدموع.

-: هل ضهدك أحد؟

: أبداً يابني، أبداً.

-: ما بك إذا؟

: لا شيء، لا شيء.

-: هل في نفسك شيء تريدين تحقيقه؟

: فيها شيء ولكنك لا تستطيع إتمامه.

-: لن يردني شيء.

: ليس الأمر بيدك.

-: وحتى لو لم يكن بيدي، سأبذل المستحيل حتى أحققه، يقول ذلك وهو يتحفز للانقضاض.

: إهدأ يا بني، إهدأ.

-: لن أهدأ حتى أعرف ما يبكيك.

: سأخبرك، سأخبرك.

-: هل ضايقك أحد من إخواني؟

: لا، لا، هؤلاء لا يضرون ولا ينفعون.

-: إذا ما بك؟

: إنني أتمنى..

-: ماذا تتمنين، أخبريني.

: أتمنى لو أن والدك حيا!! أين أنت يا سلامة؟

-: أتعنين والدي؟

: نعم، أين أنت ياسلامة لترى ثمار ما أشرت عليك به؟

-: لم أفهم يا أماه.

: سأخبرك فيما بعد.

-: أنا لا أصبر، عليك أن تخبريني الآن.

: سأخبرك الليلة عندما تجلس عند أمـك الحقيقية.

-: أمي الحقيقية!! ما دخلها في الأمر؟

: ليس لها دخل وإنما أريد أن أسمعها القصة ليطمئن قلبها.

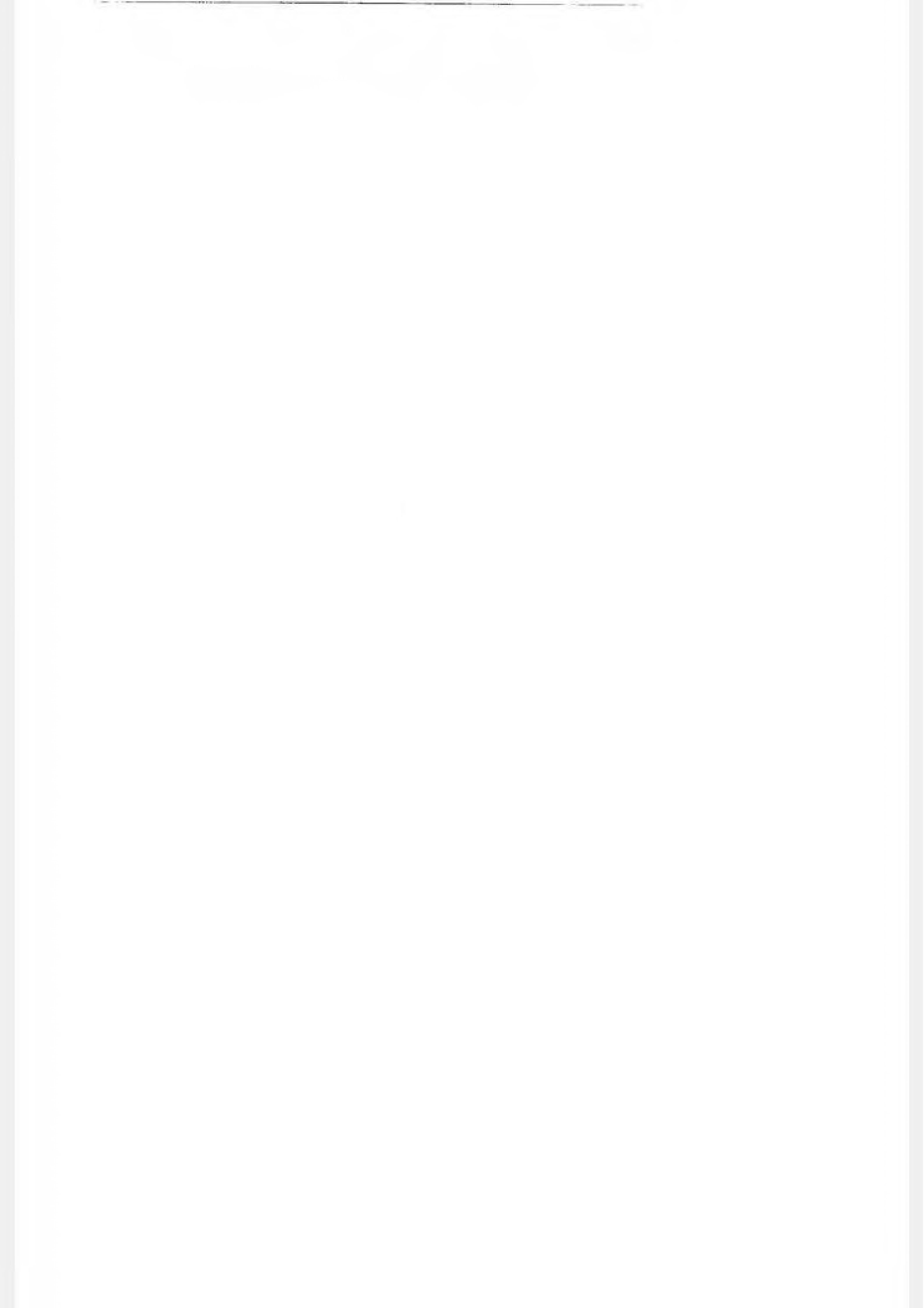
-: ليطمئن قلبها!!

: نعم وأخبرها أنها جاءت برجل ولا كل الرجال.

-: من تعنين؟

: إياك أعني، وتحتضنه مرة ثانية تقبل عينيه وثغره وجبينـه وهي تنثر عليـه دموع الفرح.

قصة رقم (٨)



القاضي الذكي

ما إن إنفلق شعاع فجر ذلك اليوم الربيعي الجميل حتى رفع المؤذن صوته لأذان الفجر الثاني، وتوافد المصلون على المسجد مجموعات ووحدانا ليلبوا نداء الله باقامة الصلاة، ومع بعضهم سراجاً متراقصا ليرى على ضوئه ما أمام قدميه أثناء عبوره للشوارع الضيقة والمتعرجة، ولم يمض طويل وقت حتى علقت في نواحي المسجد كتلة من النور الصادرة من هذه المصابيح فضلاً عن النور الروحي الذي يلفه بغلالته، وأحضر إثنان من المحسنين مدختنين تعبقان برائحة العود الهندي الأصيل، وبعد أن مر بهما أصحابهما على المصلين استقرتا عن يمن الإمام وعن يساره تنفثان بقية أريجهما وتوزعانه على بقية أنحاء المسجد، وحان وقت الصلاة، فأقيمت وبعد الفراغ منها أخذ القاضي مجلسه فوق تلك الحصباء الوردية التى تشبه الجوهر لونا وتضاهى حبات اللؤلؤ حجماً، جلس القاضي فوقها مباشرة بدون أي فراش، وتحلق الناس حوله، ثم رتل أحد الحاضرين آي من الذكر الحكيم، تلا ذلك طرح عدد من الأسئلة الفقهية على القاضي وكانت الإجابة عليها شافية، لما يمتاز به المجيب من سلاسة الأسلوب وسهولته، وهكذا استمرت هذه الجلسة إلى ما بعد طلوع الشمس، فقام من بالمسجد وصلوا ركعتي الاشراق، وخرج من له عمل إلى عمله بينما عاد القاضي وجلس في مكانه ليستقبل أهل المنازعات والخصوم، وفي هذه الأثناء سمع القاضي جلبة عند باب المسجد، وما هي غير لحظات حتى دخل ثلاثة رجال والانفعال والغضب يرتسم على وجوههم فتقدم أحدهم إلى القاضي وقال له :

-: يا شيخ، أطال الله عمرك، لقد قتلوا ولدي .

: قتلوه !!

-: نعم.

: من الذي قلته ؟

-: قتله آل فلان .

: كلهم أم أحدهم ؟

-: كلهم.

: كيف ؟

-: لقد ضربوه بالعصى حتى أثخنوه جراحاً وهو الآن على آخر رمق.

: على آخر رمق !!

-: لقد حطموا عظامه وهشموها في بطنه.

: إذا، هو لم يمت.

-: ولكنه على وشك الهلاك.

: أين هو ؟

-: عند باب المسجد الخارجي.

: عند باب المسجد !! إذا كان قد جاء هنا فلماذا تقول إنهم قتلوه.

-: لقد أحضرناه إلى هنا بنقالة.

: آه، جاء بنقالة، معك حق، معك حق يا ولدي !

-: إنظر إليه ياشيخ .

: أهذا هو ؟

-: نعم.

: يجس القاضي نبضه بسبابته فيجده قريب من النبض العادي ثم يقول : قاتلهم الله، لقد أثخنوه ضربا.

-: والله إنهم لم يتركوا له عظما سليماً، فقد كسروا جميع عظامه.

: أعرف هذا جيداً، إن الكسور واضحة، ولكن أين من فعل به هذا الفعل ؟

-: إنهم في بيوتهم بالمكان الفلاني الذي صارت فيه المضاربة.

: عجباً !! ومن ذلك المكان على مسافة يوم وليلة قد أتيتم به على النقالة ؟

-: نعم ياشيخ أطال الله عمرك وعلى أكتافنا.

: على أكتافكم ! ؟

-: نعم.

: يستأهل من ينقله على الأكتاف .

-: هذا ولدي، وليس على الانسان أعز من ولده.

: لاشك، لاشك، الآن سنوعز للأمير باحضارهم وسيلقون جزاءهم .

-: نريد أن تأمر بطحن عظامهم كما فعلوا بولدي.

: سنأمرهم لهم بما يستحقون، هؤلاء المعتدون على الآخرين.

-: جزاك الله خيراً يا شيخ.

: يقترب القاضي من المصاب ويناديه باسمه : فلان كيف حالك ؟

-: يرد أبوه : إنه لا يستطيع الكلام.

: وما يدريك ؟

-: أعلم ذلك، فهو لا يقدر على الكلام ولا يستطيع على أية حركة.

: كيف تريدني أن أحكم له على خصومه وأنا لم أستمع إلى أقواله وأرى ما بجسمه من كسور ورضوض.

-: هاه، هاه !!

: عليكم أن تبتعدوا كلكم عني مسافة طويلة وتتركوا لي المجال للتحدث معه وتفقد جسمه.

-: حاضر.

: يافلان، يافلان، أنا القاضي أجبنى.

-: أنت الشيخ ؟

: نعم أنا هو، كيف حالك ؟

-: كما ترى بين يديك.

: من هم الذين ضربوك ؟

-: ضربني آل فلان.

: كم عددهم ؟

-: عشرة رجال.

: عشرة رجال، مسكين !! لو كانوا عشرة لفارقت الحياة ولكن أخبرني

بالصدق كم عددهم ؟

-: لقد نسيت، أعوذ بالله من الشيطان، إنهم خمسة من الرجال.

: قاتلهم الله، خمسة رجال يتعاونون على واحد مثلك، ولكني لا أرى على جسمك غير أثر عدد قليل من العصي فأخبرني كم عددهم بالضبط ؟

-: آه، لقد أخلفني الألم كم قلت لك ؟

: لقد أخبرتني أنهم خمسة.

-: إنهم خمسة، أو هم ثلاثة لست متأكداً.

: آه، ثلاثة، قد يكون ذلك صحيحاً، سلط الله عليهم، ثلاثة رجال أشداء يضربون هذا المسكين، سينالون جزاءهم على يدي، أرنى ظهرك يابني، ياللهول !! إننى أرى آثار ضرب مبرحة ولكنها آثار لنوعين من العصي.

-: آه .. إنهما إثنان.

: ألم تقل أنهم ثلاثة ؟

-: الثالث جاء متأخراً.

: إيه، أخزاهم الله، الآن ياولدي سأتفقد جسمك عضواً عضواً لأعدد الكسور التى في عظامك، لكى نأمر بتكسير عظامهم مثلما كسروا عظامك، فلا تمتنع عن إعطائى أي معلومات أو فعل أو حركة.

-: حاضر، حاضر يا شيخ.

: أعطنى يدك اليمنى.

-: لا أستطيع لا أستطيع.

: إذا كيف تريدنا أن نأمر بتكسير يدى الخصوم بعدد كسور يدك.

-: هاه، خذها آه، آه.

: يبدو أن هذه اليد مكسرة تماماً !! يقول ذلك القاضي وهو يقص عظمها أنملة أنملة ثم يمسها ويثنيها فلم يجد فيها شيئاً عدا آثار الضرب.

-: آه، إنها تؤلمنى.

: أعلم ذلك يابنى من كثرة مافيها من الكسور لقد أحصيتها، هاه أعطنى يدك اليسرى.

-: آه، آه، إنها متحطمة.

: وهـذه أيضاً يبـدو أنها مكسرة مثـل أختها. يقـول القاضي ذلـك وهـو يقص عظامها ثم يمسها بيده ويثنيها حيث وجدها سليمة.

-: بين لي رجلك اليمنى.

: إنها محطمة يا شيخ.

-: أعلم ذلك، فإن كانت كما تذكر لآمرن بتحطيم رجل خصمك من عقبهـا إلى رأس الورك.

: آه، إنها تؤلمني كثيراً.

-: أعلم ذلك يابنى، حسبى الله على من فعل بـك هذا، ولكن دعنى أحـركها، ويمسـك القاضي بقـدمه ويقص عـظام ساقـه وفخذه ثم يثنيهـا شيئـاً فشيئـاً، والمصاب يتألم ويطمئنه القاضي قائـلاً : هذا من صـالحك يـابنى وذلك لنعـدد الكسور التى في رجلك، فعلاً هذه مكسرة تماماً أعطنى رجلك اليسرى.

: آه، إنها تؤلمنى أكثر.

-: قد يكون بها كسور أكثر، سلط الله عليهم، ويتناول القـاضي قدمـه، ويقص عظم ساقه وفخذه فيجد الرجل سليمة ثم يأخذ في ثنيهـا وتحريكهـا وسط تألم وصرخات المصاب. بالفعل إنها أكثر كسوراً من سابقتها. الآن ياولدي عرفنا عدد الكسور التي بيـديك، ورجليـك، وعليك أن تجلس يـابنى لأعرف عـدد الكسور التى في ظهرك.

: لا أستطيع الجلوس.

-: تعزّم يا ولدي الحق حق، فلكى نعطيك حقك من خصمـك يجب أن تتحمل بعض الألم، لكى نعدد الكسور التى في ظهرك.

: آه . . آه . . آوه.

-: يسنده القاضي بيـده حيث جلس معتدلاً ثم يبـدأ تلميس ظهره وهـو يقول : أخزاهم الله لم يتركوا خرزة في ظهرك إلا كسروها، سينالون جزاءهم.

: آه، إنه يؤلمنى كثيراً.

-: أعرف ذلك من كثـرة هذه الكسـور، والآن أريدك أن تبعـد عن هذه النقـالة قليلا لترتاح على الأرض فهى ألين لك.

: لا أستطيع .

-: حاول وأنا أساعدك .

: آه، آه، لقد أبعدت عنها .

-: حاول يابنى أن تقف .

: الوقوف علي صعب إننى لا أستطيع .

-: أعلم ذلك، ولكن ولو لفترة قصيرة حتى أرى مدى اعتدال وقوفك، أخشى أن يكون هناك عيب في وقفتك لكى نأخذ لك حقك من غرمائك .

: آه، لا أستطيع .

-: حاول وأنا أساعدك .

: آه، آه، أوه، لقد اعتدلت واقفاً .

-: آه، هذا ماكنت أخشاه يابنى، هذا ماكنت أخشاه .

: ماذا وجدت يا شيخ، ماذا وجدت ؟

-: عليك أن تمشي عدة خطوات .

: أمشي، أمشي، لا أستطيع .

-: لكى أستكمل ما رأيته فيك .

: وماذا رأيت ؟

-: عليك أن تمشي معتدلاً وبدون عصا إلى الجهة الثانية من الشارع .

: هاه !! لقد مشيت، ماذا رأيت فيَّ ؟

-: أقبل إليَّ .

: هاه، أقبلت .

-: أدبر،

: هاه، أدبرت .

-: يلطمه القاضي بظاهر كفه بين كتفيه وهو يقول : قِمْ قَمْ لله عصبك، أتريد أن توهمنا بما فعلت !!

: جاء والد المصاب مسرعاً وهو يقول : ياشيخ خاف الله .

-: إننى أخاف الله قبل أن أراكم أيها المغفلون لقد جئتم تنقلون هذا الدعرمة

على أكتافكم ليوم وليلة مدعين أنه على حرف القبر، وهو الآن سليم.
: يا شيخ، إتق الله.
-: سأكتب للأمير لاحضار الفاعلين وأخذ الحق منهم عن الاعتداء ومدة اليد، وآثار الرضوض والشجاج والسحوق الموجودة في ابنكم هذا ما لدي من حكم والسلام. وعاد إلى مجلسه، وقبل أن ينهى القاضي جلسته الصباحية على حصباء المسجد كالمعتاد، قبيل أذان الظهر، إذ أقبل عليه رجل وجثى أمامه على ركبتيه وتحين فرصة فراغ القاضي ممن كانوا يتخاصمون عنده فقال:
: أيها القاضي، أرجو أن تنصفنى ممن جار عليَّ!
-: من الذي جار عليك؟
: لقد استعسرنى فلان.
-: فلان!! بماذا؟
: لقد باع دلال قهوتي وفراش بيتي.
-: بأي حق؟
: سبق أن استدنت منه مبلغا من المال.
-: ولم توفه حقه؟
: لقد عسرتني الأمور أيها القاضي، وباعد الله بيني وبين الريالات حتى حل أجل الدين.
-: آه، تأخذ مال أخيك وتتمتع به حتى إذا حل وقت الوفاء به بدأت تتململ وتتضجر؟
: يعلم الله أيها القاضي إنى لم أترك الوفاء بما على من دين مما طلة أو ميناً، ولكننى أب لعدد من الأطفال لا أكاد أدرك لقمة العيش حتى أضعها في أفواههم فضلاً عن أن أفي بدين الرجل الحال بذمتي.
-: متى باع مقتنياتك؟
: لقد باعها ضحى هذا اليوم، وهى لا تزال بحوزه من اشتراها حتى ساعة أقبلت منه.
-: حسنا، إذهب إلى المشترى وأخبره ألا يتصرف في الأشياء التى اشتراها بأمر منى، ومر على خصمك بدكانه وأخبره أن يحضر معك الآن إليَّ.

: حاضر.

-: لا تتأخر.

وحان موعد صلاة الظهر، وقام القاضي إلى بيته المجاور للمسجد ليتوضأ للصلاة، وإذا بالخصمين قد حضرا، وبعد أداء الصلاة تقدم المدعى إلى القاضي قائلاً :

: لقد حضر خصمي يا شيخ .

-: ماذا عندك يابن . . . . ؟

: هاه، ليس عندي شيء.

-: لقد تقدم . . . . بحجة ذكر فيها أنك بعت دلال وفراش قهوته.

: لا أنكر ذلك يا شيخ ، وذلك لاستيفاء حقي منه ولكون هذه الأشياء تحت الرهن.

-: كم المبلغ الذي تريده منه ؟

: مبلغ كذا ريال.

-: عندما بعت هذه المقتنيات هل استوفيت حقك كاملاً ؟

: نعم، وزاد له بعض النقود.

-: متى استدان منك المال ؟

: لقد مكث المال في ذمته سنة كاملة.

-: سنة كاملة !! هل أخذت عليه ربحا عندما أعطيته المال ؟

: كان الربح مبلغا زهيدا.

-: ألا ترى أنك قسوت عليه ؟

: بماذا ؟

-: بأخذك دلال قهوته وفراشها.

: أريد حقي.

-: لن يضيع حقك.

: هاه !!

-: ثم إنه لا يستطيع استقبال الرجال أو ادخالهم محله بسبب ما عملت به رهذا

يعتبر نقيصة عليه وأنت السبب فيها .

: وماذا أفعل له ؟

-: ترد إليه مقتنيات قهوته .

: أردها !!

-: نعم تردها .

: ومالي ؟

-: مالك سيأتيك إن شاء الله .

: بأقرب فرصة إذا يسر الله له، أليس كذلك، يوجه القاضي كلامه للمدعى .

-: فيجيب المدعى ؛ نعم أيها القاضي وأعاهد الله على سرعة الوفاء في أول رزق يسوقه الله إليَّ .

: إذا، رد عليه أشياءه .

-: هاه، ولكن . .

: أما تسمع قول الله عز وجل، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ ؟

-: هاه، بلى، بلى .

: إذا رد عليه مقتياته وسوف يرد عليك مالك في أقرب فرصة .

-: حاضر، حاضر .

عاد القاضي من مجلس القضاء بالمسجد إلى بيته ليتوضأ لصلاة الظهر، وفوجىء في مدخل منزله بخرج مملوء بثمر البطيخ، فسأل أهل بيته عن سر هذا الخرج، وأخبروه أن رجلاً أتى به وأدخله قائلاً : إن هذا طعمة للشيخ من فلاحتنا، ثم قال إنه سيمر بعد العصر لكى يأخذ الخرج بعد تفريغه . فأخبر الشيخ أهله ألا يحرك من مكانه، وإذا جاء الرجل يطلب الخرج فأخبروه أن يأتي إلي بالمسجد .

ولما حضر الرجل إلى القاضي قال له :

: لقد حضرت أيها القاضي .

-: من أنت ؟

: أنا صاحب . .

-: آه، صاحب الخرج، سلط الله عليك لقد سددت باب بيتي بخرجك الملآن بالبطيخ على ما يبدو.

: إح، إح، إح !!

- لماذا أحضرته إلى بتي ؟

: هاه !! لقد أحببت أن تذوق ثمرة مزرعتنا هذه السنة.

-: آه، ثمر مزرعتكم !!

: نعم، نعم أيها الشيخ.

-: هل لديكم مزرعة جديدة ؟

: لا، إنها مزرعتنا القديمة.

-: لماذا لم يخطر على بالك أن تهدي إلى شيئا من ثمرها غير هذه المرة ؟

: هاه !! هاه، يردد هذه الكلمة وقد غص بالاجابة الصريحة.

-: أخبرني بصراحة.

: لقد طرأت علي هذه المرة.

-: إذا، خذوه ومددوه على الأرض واضربوه عشرين ضربة بهذا العصا.

: وبعد أن فرغوا منه قال للقاضي : ماذا فعلت أيها القاضي حتى تضربني ؟

-: لقد فعلت ما يفعله ذوو الأهداف الملتوية.

: الأهداف الملتوية ؟

-: نعم، أجل أخبرني لماذا جئت إلي بهذا الخرج ؟

: أقول لك بصراحة ولا علي في ذلك ؟

-: نعم.

: لقد حاول ابن عمى أن يأخذ جزءاً من أرضي فحاولت أن أتعرف عليكم قبل أن نحضر للخصومة !

-: آه، هذا ماكنت أتوقعه، حقاً إنك على جانب من البلاهة والغباء، أتظن أن خرجاً من البطيخ، أو حتى اللؤلؤ والمرجان أو الذهب والفضة سيطمس حقاً أو يظهر باطلاً ؟

: هاه، لقد أخطأت، وإنني أتحمل تبعات خطىء.

-: لقد أمرت بضربك عشرين مرة وهذه ثلاثين ريالاً عوضاً عنها.

: هاه، ثلاثين ريالاً !!

-: نعم، هل ترضيك عنى ؟

: كل الرضى، كل الرضى.

-: إذاً، إجلس هنا وعليكم باحضار الخرج الموجود بمكانه بفم الباب.

: دعه هناك أيها القاضي أرجوك ألا تفضحني.

-: أنت الذي فضحت نفسك يا بني.

: وبعد أن حضر الخرج قال القاضي خذ بضاعتك وتصرف بها، أما أنا وأهل بيتى فقد أغنانا الله من واسع فضله بالكفاف.

واشرأبت أعناق من بالمجلس من الرجال ليرو مابداخل الخرج فأمر القاضي بتحميله على دابة الرجل وأمره أن يذهب به إلى حيث يريد.

كان لهذه الحادثة وقع كبير انتشر الخبر في المنتديات والمقاهي بسرعة هائلة وسار بها الركبان إلى كل مكان، وقد رواها البعض كما وقعت بالفعل، وأضاف إليها البعض الآخر شيئاً من التطريز على حواشيها من نسج خياله، وعلى حدَّة أحد الشوارع دار هذا الحوار بين إثنين من الجلوس حيث قال أحدهما :

-: أريتك ماذا فعل الشيخ اليوم ؟

: ماذا فعل !! فعل فعلة ممتازة.

-: ممتازة !!

: نعم والله إنها أكثر مما ذكرت

-: أيأمر بضرب الرجل ويضرب أمام الناس وتقول إنها ممتازة ؟

: الرجل مستحق لما حصل له.

-: في رأيي أن الشيخ قد أخطأ.

: في أي شيء أخطأ ؟

-: في ضربه للرجل أمام الناس.

: لم يكن ضربا بمعنى الكلمة، وإنما هو كمن ينفض الغبار عن ظهره.

-: يكفيه التشهير به أمام الناس.

: قد تكون هذه النقطة ما أراد القاضي إبرازها.

-: إن القاضي مخطىء.

: وتصر على قولك هذا ؟

-: نعم، أصر فالأولى به أن يستر عليه، ويعيد عليه هديته دون أن يعلم به أحد.

-: قد يكون ستر على غيره.

: لم نسمع بمثل هذا.

-: لأنه ربما ستر على غيره، ولم يظهر اسمه فتمادى الآخر بسلوك نفس الطريق.

: أبداً، لم يحدث أن سمعنا بأي شيء من هذا القبيل.

-: إن القاضي على حق عندما شهر به ليمتنع من كانت تراوده نفسه لسلوك نفس المنحى.

: لو كنت في ثياب القاضي لما ضربته.

-: وماذا تفعل به ؟

: أرد إليه هديته، وأحذره من المعاودة لعمل مثلها.

-: إذا جئت للواقع فهو لم يضربه الضرب المبرح كما ذكرت.

: لقد ضربه وكفى وهذا ظلم واضح.

-: ياأخي، إن ضربه رجل مخطىء واحد تؤدب عشرات من الناس وربما مئات بل ألوفا منهم.

: كلامك هذا ينطبق عليه المثل القائل « الشَّاةْ الضَّعِيْفَةْ مِيْدَابِةْ الغَنَمْ ».

-: هذا الرجل لا يشبه بالشاة الضعيفة وإنما هو رجل بكامل قواه العقلية.

: وإن يكن.

-: ثم إن القاضي قد أعطاه من الدراهم ماطيب خاطره واستل من قلبه آلام هذه الضربة.

: سيبقى أثرها في سويداء قلبه.

-: ثم ألا تعلم أن جزاءه أكثر من ذلك ؟

: لماذا ؟

-: لأن هذه الهدية وراءها ما وراءها.

: وماذا وراءها.

-: لقد ألمح للقاضي ببعض التلميحات التي تدل على أن لها غرض معين.

: أما هذه فليس لدي علم عنها.

-: أجل، لم يطرأ عليه أن يحضر الهدية للقاضي إلا في هذا الوقت بالذات.

: ربما إحتسبها هدية الموسم.

-: هدية الموسم !! لا، أبداً بالتأكيد أن الرجل قد تكون لديه بعض المشاكل التى قد تصل إلى القاضي، وأراد أن يفرش الطريق أمامه ولو بثمر البطيخ الذي تدحرج به فوقع على الأرض.

: هذه هدية، والهدية لا ترد.

-: كلامك صحيح، لو أن المهدى إليه يربطك به نوع من القرابة أو الصداقة والمعرفة أو الرفقة، وكانت هذه الهدية تصله عند نضوج كل ثمرة وفي مناسبات مماثلة.

: ربما أراد أن يفتح باب صداقة مع الشيخ بهذه الهدية.

-: قد يكون هذا صحيحا، ولكن هذا بعيد الاحتمال، فالهدية لا بأس بها إذا كان لا يرجى من ورائها منفعة تتجاوز قيمتها أو يؤمل بسببها مضرة لأحد قد تطغى على منفعتها.

: أوه، لقد أطلت عليَّ بكلام لا أعرف أكثره.

-: القاضي يعلم من الشريعة الاسلامية ما لا نعلم، وربما عاقب الفاعل بأقل عقوبة لعلمه آخذاً بعين الإعتبار مبدأ حسن النية من المهدي.

: إيه، نحن في زمن حتى الهدايا ترد، وتؤول على غير ما قصد بها.

-: لماذا لم يعط الرجل هديته لك أولي مثلاً ؟

: لقد رجعت إلى كلامى الأول.

-: أقول أن بعض الناس يهدى من ثمرة مزرعته إما لما يرجو نواله، أو إلى قريبه أو صديقه ورفيقه.

: إذا فهديته للقاضي وراءها ماوراءها.

-: لا تفترى على عالم الغيب.

: لو لا ذلك لما ردها.

-: إذا كان القاضي لا مزرعة لـه ولا تجارة ولا مـواشي، ولا يقبل الهـدايا فيكف يعيش ؟

: لقد أغناه الله من فضله.

-: كيف ؟ إن لدي علم أنه لم يـرث من والديـه مالاً ولم يجـد كنزاً وليس لـه أي دخل بين يعيش منه.

: لقد رزقه الله بما هو خير مما ذكرت.

-: بماذا ؟

: لقد عوضه الله بالقناعة وهى الكنز الذي لا يفنى.

-: ولكن الوقت قد تغير ومتطلبات الحياة قد تعددت مما يجعل القناعة لا تفيد مع هذه المتغيرات.

: ألا تعلم أن للقنـاعة من القـوة ما يجعـل كل هـذه المتطلبـات تتحـطم عـلى صخرتها الصلدة ؟

-: لم أفهم.

: أعلم ذلـك، دعنى أفهمـك، فمتى قنـع الانسـان بـالقليـل من الأشيـاء، والمتـوسط من المقتنيات التى تفي بـالغرض وتؤدى نفس المهمـة فقد أخـذ من القناعة مسلكا يسير معه إلى آخر الطريق.

-: ولكن لا تنسى أنـه قـاضي البلد ويـأتيـه النـاس من كـل مكـان فيضـطر إلى مجاملتهم ومجاراتهم.

: هل يأتون إليه من أجل علمه أم من أجل مظهره ؟

-: هاه، بل من أجل علمه.

: إذا جـاءوا إليه من هـذه الناحيـة فهو البحـر الخضم، يغترفـون مما لـديه مـا يريدون وهذا مطلبهم.

-: « وَلَوْ » فالمظهر واجب.

: لم يظهر أمام الآخرين في جميع طرق حياته بما دون المألوف ولا فوقه.

-: أريتك ماهو الدخل الذي يعيش منه ؟

: لم يكن له من الدخل حسب علمي إلا ما يعطى له من الزكاة أو الصدقة.

-: يعنى مثله مثل الفقراء والمساكين.

: نعم.

-: ومع هذا يرفض الهدايا التى تأتي إليه.

: إنها القناعة ياأخي.

-: القناعة !!

: نعم، وعزة النفس، والشهامة، والتعفف عما في أيدي الناس.

-: وماذا تفيده هذه الخصال مع شدة لسعات الجوع ؟

: ألا تعلم أن من تتوفر فيه هذه الخصال لا يحس بالجوع ولا يشعر بالعري ؟

-: إنك تهذي !!

: لأنك لم تدرك مغزى كلامى.

-: وما معناه ؟

: معناه، اكتفاؤه بما في يده وتدبيره بحيث يكفيه إلى موعد حلول الزكاة الأخرى، وبذلك فلن يلوى الجوع أحشاء أبنائه، ولن يلوح العرى على أكتافهم.

-: إنك تتكلم بالمقلوب.

: ربما أنت تفهم هكذا.

-: لو كنت مكانه لما كفاني نصيبي من الزكاة والصدقه ولقبلت الهدايا من الناس.

: لذلك لم يختاروك قاضيا في البلد !! إذا نظرنا للأمور من هذه الزاوية.

-: ولماذا اختاروك مدافعاً عن القاضي على زاوية هذا الجدار ؟

: إذا تصبح على خير.

-: وأنت على مثله.

: مع السلامة.

إحتدم النزاع بين الرجلين على قطعة من الأرض، وقد تطاول أحدهما عليها محاولاً تملكها، ونافح دونها الثاني، وقارعه الحجة بالحجة، وألح الأول على أن يقف عليها القاضي بنفسه ليرى أحقيته لها، وأثلج هذا الطلب صدر الثاني دون أن يطلب ذلك، وتحت طلب الطرف الأول لأن يراها القاضي بنفسه أجابه إلى

طلبه دون أن يعين يوماً لهذه الزيارة، ومع صبيحة ذلك اليوم طلب القاضي من إثنين من جلسائه أن يصحباه ليقفوا بأنفسهم على الأرض التى عليها الاشكال، وكانت تقع في طرف المدينة وتبعد مسافة قد تتعب من يمشي على قدميه، كما سيضيع الوقت في هذه المسافة، لذلك أعدوا الدواب اللازمة وامتطوا ظهورها، وعندما عزموا على ذلك انطلق رجل قد أوصاه أحد الخصمين أن يخبره إذا سمع أن القاضي سيتوجه إليهم، انطلق هذا بسرعة البرق ليخبر الرجل بمجيء القاضي، فما كان من هذا ألا أن أسرع وذبح الذبيحة وأخذ بتجهيز غداء للقاضي وصحبه، وما إن وصلوا إلى المكان حتى كان كل شيء قد أعد وعلى وشك الانتهاء فرحب الرجل بالقاضي وصحبه قائلاً :

: أهلاً وسهلاً، حياكم الله.

-: أبقاك الله.

: تفضلوا، تفضلوا خذوا فنجانا من القهوة.

-: أغناك الله يا ولدى.

: تفضلوا خذوا فنجانا جاهزاً.

-: خلف الله عليك، لم نأت هنا لنشرب القهوة، وإنما جئنا لنقف على الأرض.

: سوف ترون الأرض بعد ذلك.

-: سنراها الآن فعليك أن تنادي لنا خصمك.

: إدخلوا إلى القهوة حتى يحضر الخصم.

-: إن ظل هذه الأثلة ظليل وبارد وسنمكث فيه.

: والله لتدخلن بيتى.

-: والله لن ندخله.

: هذا مخالف للعادات والتقاليد والأعراف العربية.

-: نحن نعرف ذلك يا بني.

: أتعرفون ولا تدخلون ؟

-: لو جئناك ضيوفا أو عابرى سبيل لدخلنا عندك و« مَـالحْنَاكْ » ولكن وضعنا الآن يختلف، وليس هناك ما يبرر دخولنا بيتك.

: دعونا إذا، نحضر القهوة « والقِدُوْعْ » هنا.

-: وحتى هذا لا تفعله.

: ساحضره، أنتم الآن ضيوفي وفي جزء من حمى بيتى.

-: أنا لست بحاجة إلي شيء.

: وبعد أن أحضر القهوة وصينية كبيرة من الرطب قال : تفضلوا تفضلوا.

-: لن أذوق شيئاً أبداً، وإذا أردتم أن تتناولوا شيئـاً أيها الـرفاق فلن أمنعكم من ذلك.

: مادمت لن تذوقه فنحن مثلك.

-: لقد أرسلت إليه من يدعوه.

: دعوني وشأني، أمـا أنتم فعليكم أن تجبروا خاطره.

-: خذ ولو رطبة واحدة وفنجانا من القهوة.

: قلت لك لن أذوق شيئاً، وعليك أن ترسل لرفيقك حتى ننهى الموضوع.

-؛ لقد أرسلت إليه من يدعوه.

: ألم يحضر بعد ؟

-: لقد حضر.

: حسنا، أرونى الأرض التي عليها الإشكال.

-: هذه هى أيها القاضي.

: أين حدود مزرعتك يافلان حسب الوثائق التي معك ؟

-: هذه حدود مزرعتي، وهذه المراسيم والعلامات.

: آه، وأنت يافلان، أين حدودك حسب وثائقك ؟

-: هاه، هذه حدودي، لكن هذه الوصلة داخلة ضمن مزرعتي.

: هل هي بوثائقك ؟

-: هاه، لا، لكنها داخلة ضمن سمت المراسيم.

: ماالذي أدخلها ؟

-: ألم تراها أيها القاضي.

: بلى، بلى، إنها واضحة كوضوح الشمس.

-: نعم، إنها جزء من مزرعتي.

: سلط الله عليك، أتتجرأ وتقول هذا ؟

-: أعطني وثائقك يافلان.

: خذها.

-: أقيسوها أيها الأخوان، ثم أقيسوا عرض الجزء الموالي لها من مزرعة كل منهما.

: لقد قسناها فوجدنا مزرعة المدعى كذا بوعاً كاملاً أما مزرعة المدعى عليه فلا تكتمل وتوازى المزرعة الأولى حتى تضاف إليها تلك الشريحة.

-: آه، إذا النقص على المدعى عليه وهى ضمن وثائقه.

: هكذا يبدو أيها القاضي، كان هذا رد أحد رفاقه الذين قاسوا الأرض.

-: إذا، فهذه الوصلة داخلة ضمن ملك المدعى عليه حسب نصوص وثائقه وبموجب ما قستم بأنفسكم.

: هاه، ماذا تقول أيها القاضي ؟ هكذا تساءل المدعى.

-: أقول إن الأرض له وليست لك.

: هاه، هاه !!

-: هيا أيها الإخوان لنعد من حيث أتينا، فالحق واضح.

: تفضلوا أيها القاضي مع رفاقك للغداء يقول المدعى ذلك بصوت متهدج.

-: أغناك الله.

: لقد ذبحت لكم ذبيحة جاهزة الآن.

-: آه، ذبيحة من أجل الأرض، أليس كذلك ؟

: لا والله أيها الشيخ.

-: لقد ثبت أن الأرض لخصمك ويخلف الله عليك ذبيحتك.

ومع هذه الكلمات غادر القاضي وصحبه المكان بعد أن أضاف القاضي هذه الشريحة من الأرض إلى وثائق المدعى عليه ومهرها بخاتمة الذي يحمله بجيبه دائماً.

وفي مجلس القضاء بعد صلاة العصر على حصباء المسجد تقابل الخصمان فقال المدعى :

: إن هذا الرجل أيها القاضي قد سرف نعجتي.

-: سرق نعجتك !!

: نعم.

-: آه، ولكن عينيه ليست تشبه عيني السارق.

: لقد سرقها.

-: أبداً، أنا أجزم أن هذا لا يعرف السرقة،

: وما يدريك ؟

-: لا أعلم الغيب ولكن ملامح الرجل لا تدل على ذلك فعليك أن تبحث عن أدعاء آخر.

: هاه، لقد سرقها، لقد سرقها.

-: حسنا، ماذا تقول أنت ؟ يوجه كلامي للخصم.

: لم أسرق النعجة أيها القاضي بل أشتريتها.

-: من أين أشتريتها.

: لقد جلبها بدوي مع مجموعة من الأغنام فاشتريتها كما اشترى غيري مثلايتها.

-: آه، متى كان ذلك ؟

: قبل حوالي الشهر.

-: بكم اشتريتها ؟

: بستة عشر ريالاً.

-: بستة عشر ريالاً !! إنها رخيصة أليس كذلك ؟

: بلى، بلى، إنها رخيصة.

-: ألم يساورك الشك عندما رأيتها رخيصة، فشككت في أمرها، لربما تكون مسروقة ؟

: لم أشك في الأمر، لأنها كانت هزيلة جداً لا تستطيع الوقوف على قوائمها.

-: آه، معك حق، وماذا عملت بها ؟

: لقد اعتنيت بها وأطعمتها من قوت عيالي حتى تحسنت حالها.

-: وكيف هي الآن.

: إنها طيبة، فلقد در لبنها وصرنا نحلبها.

-: هل لديك شهود على شرائك لها ؟
: نعم، لدى العدد الذي تريده فلقد بيعت مع مثلاتها في وسط سوق الغنم.
-: هاه، وماذا تقول أنت ؟ يوجه القاضي كلامه للمدعي.
: إن هذا غير صحيح، وأنه سرقها.
-: وماذا لديك من الحجج غير هذه.
: إننى أريد نعجتي.
-: آه، تريدها الآن بعد أن ردت إليها حالها وجادت باللبن ؟
: نعم، إنها شاتى لم أبعها، ولم أعلم عنها إلا بعد أن عدت من سفرى.
-: قد تكون زوجتك باعتها بغيابك وذلك للانتفاع بثمنها عندما كانت هزيلة تشرف على الهلاك، والآن بعد أن تحسنت حالها جئت لتتهم الرجل بأنه سرقها.
: أنها نعجتي.
-: قم وأذهب للبحث عمن باعها فليس لك بها حق مادام الرجل قد اشتراها في وسط ملأ من الناس.
: هاه، ماذا تقول ؟
-: أقول قم، أنت فالنعجة لك، وأنت أيها المدعي، عليك بالبحث عمن باعها وخذ ثمنها منه.

وما إن بسطت الشمس أشعتها على الأرض حتى وقفت سيارة الشحن « اللورى » وعليها ما ينوف على خمسين شخصا من رجال ونساء، وكلهم من المصابين ما بين شجاج ورضوض وسحاق، إثر شجار جرى بين هذين الحيين المتجاورين من قبيلتين مختلفتين من العرب ولم يكن هناك من العناية الطبية ما يسعفهم على الوجه السليم، بل ترك كل مصاب على حالته التى هو عليها، مجاراة لخصمه وأنزل المصابون عند باب المسجد ليطلع القاضي على إصاباتهم ويقيس شجاجهم، وبالفعل سارع القاضي ومعه مقياس الشجاج، فبدأ بالفريق الأول ينظر إلى المصابين ويقيس شجاجهم حسب عمقها وسعتها، وكان هذا الفريق مثل خصمه خليط من الرجال والنساء ممن شملتهم المضاربة، وعندما أتى الدور لامرأة

عجوز كبيرة قد أصابتها شجة عميقة في رأسها واقترب منها القاضي ليلمس موضع الشجة صرخت العجوز قائلة :

: أي، أي، وارأسي.

-: أصبري ياأختى لنرى مابك ؟ هكذا قال القاضي.

: وكلما أراد القاضي لمس الموضع من رأسها قفزت من مكانها وهى تولول : آه، أي، حتى ضاق القاضي منها فقال :

-: إجلسي « رَامْض يَرْمِضْ حَيْلِكْ ».

: آه، واويلي.

-: لماذا تولولين ؟

: آه، من شدة الألم ياشيخ، عظم الله أجرك.

-: مالذي جاء بك للمضاربة.

: آه، أوه، لا أدرى.

-: لا تقولي هكذا، فالمضاربة للرجال الذين يتحملون نتائجهـا، وليست لعجوز مثلك.

: آه، لم آتها والله لم آتها.

-: لا أصدق ذلك، لو لم تأتيها لما أصابك ما أصابك.

: لقد ضربنى أحدهم بعصى غليظة فلقت رأسى.

-: إيه، من حصل على شيء يستأهله !!

: لقد بلونى بشرهم يا شيخ.

-: لا أصدق ما تقولين.

: أنت لا تصدقني !!

-: نعم، أنت عجوز كبيرة المفروض ألا تفارقى مصلاك، والمبادرة بافعال الخير، لا أن تدخلي في المضاربات مع الرجال.

: صدقني يابنى إنني لم أضرب أحداً منهم.

-: آه، كـأنني أراك حملت عمود البيت عـلى كاهلك، وركضت بـه مسرعـة نحو المتضاربين، لتعطيه أحد الرجال من قومك ليضرب به خصومه.

: هاه !!

-: وكأنني أتخيلك تحملين مجموعة من الرضم لتمديها إلى أكف المضاربين من رجال عشيرتك.

: هاه، ماذا تقول ؟

-: أقول ماسمعت.

: هل أخبرك أحد بذلك ؟

-: أبداً، وربما أتيت لتحجزي بين إثنين من المتضاربين وفي هذه الحالة يقول المثل « لَابُدَّا لحَجَّازْ مِنْ ضَرْبةْ عصاَ ».

: لم تبق الأيام لدى من القوة مايؤهلنى للحجز بين المتضاربين،

-: أجل، أحضرت للرجال حصى أو عصا ؟

: هاه، ولله لكأنك تعلم الغيب !!

-: لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن إمرأة مسنة مثلك لا تصاب حتى تقترب من ساحة المضاربة.

: هاه !!

-: أقول ولا تقترب من المكان إلا إذا كانت قد حملت أحد أعمدة البيت، أو ملأت يديها أو حضنها بالأحجار لتسلمه إلى أحد المضاربين من قومها.

: إيه، هذا أمر قدره الله، والله أيها القاضي إن هذه الشجة في رأسى من أحد أعمدة بيتى التى حملتها إلى ميدان المضاربة.

-: مادام الأمر كذلك فإنك تستأهلين ما نالك.

: لا مفر من إرادة الله.

-: ألم تسمعى بكلام الله عز وجل حين قال : « **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** » ؟

: بلى، بلى ولكن إذا حكم القدر عمي البصر.

-: إذا، فاصبري حتى أقيس فلقة رأسك.

: آه، أوه، واويلى ويلاه.

-: إذكري ربك ولا تدعى بالويل والثبور.

: آه، إنه يؤلمنى.

-: هذا حصاد مازرعته يداك.

: هل انتهيت ؟

-: نعم، وعسى أن تكون هذه لك عبرة كيلا تعودي لمثلها.

: يأبي الله أن أعود مرة أخرى.

-: إذا لم ينفخ برأسك شيطان الحمية.

: التوبة، وألف نوبة.

-: عسى أن تصدقي، وإن كانت بعض العجائز لا تثبت على حال متى رأت الاغراءات والدواعى التي تحتل مكانة في نفسها في يوم من الأيام.

: سامحك الله.

وهكذا يستمر القاضي في الكشف على بقية المصابين من الفريق الثاني ليجد هناك شيخاً كبيراً قد أصابته جائحة في مقدمة الرأس، وعندما اقترب منه القاضي، وحاول أن يقيس شجته رفض الشيخ الكبير قائلاً:

-: ماالذي تريده مني أيها القاضي ؟

: أريد أن أعرف هذه الفلقة في رأسك.

-: إنها كبيرة فوق ما تتصور.

: دعني أراها.

-: وماذا تريد بهذا المسمار الذي بيدك ؟

: هذا مقياس الشجاج.

-: إن أدخلت هذا فقد تصل إلى مخي.

: لا عليك، لا عليك، لست أول من قيس به.

-: ولن أكون آخر من قيس به، أبعده عني.

: من الضروري جداً أن نقيس المضرب.

-: لن تلمسه أبداً.

: من أجل أن نأخذ حقك من غرمائك.

-: حقي !!

: نعم، نريد أن نأخذ حقك على مقدار شجتك.

-: أوه، حقى، إن سلمنى الله وأحياني سآخذه بيدي.

: « وَلْ » يبدو أنك شيخ عنيد.

-: لا تقل إننى شيخ إن روحى لا تزال بريعان الشباب.

: شباب !! «إيْ بِلْصيْ» !! شباب وأنت قد شارفت على المئة من عمرك.

-: لا تغرك هذه الشعيرات البيضاء الطافحة على عوارضي

: « إهِبْ » !! والله إن أمرك ليس بالهين وأنت في هذه الحالة السيئة.

-: لو كنت في غير هذا الوضع لرأيت وسمعت خلاف ذلك.

: دعنا من هذا، ولننظر إلى جرحك.

-: أبداً، لا تنظر إليه، فإن قضت علىّ هذه الضربة سيظهر من يطالب بدمي وإن شفيت منها فإنني أعرف من ضربني وسأقتص منه.

: سلط الله عليك أيها الشايب.

-: لا تعبّر يا شيخ وأنت مثلي.

: أمسكوا بيديه لنأخذ قياس ضربته.

-: آه، لقد حلفت ألا آخذ عوضا عن ضربتي.

: إذا عرفنا سعتها وعمقها ورصدناها لدينا فهذا شأننا وبقية الأمر للحاكم.

-: إيه، خذوا ما تريدون، يقولها بنبرة التحدى.

: أوه، والله إن بنفسك قوتها وعنفوانها.

-: أجل، أجل.

: مادمت هكذا، يبدو أنك كنت في وسط المعترك.

-: بل وقائد ربعى.

: « إهِبْ » كنت أظنك عاقلاً ولا تدخل في مثل هذه الأمور.

-: ولاَ أزال عاقلاً، هل تنتقدني بشيء.

: إيه، أنك مثل عاقل « مُرَّةْ » المذكور.

-: هاه، ماذا تقول ؟

: أقول المفروض في شيخ بمثل سنك أن يسعى لاصلاح ذات البين بين الفريقين المتنازعين ويطفىء جذوة الشر فضلاً عن أن يشترك في المشاجرات

والمضاربات مع الشباب الذين لم يدركوا بواطن الأمور.

-: أما قلت لك بأنني لا أزال شابا ؟

: تخدعك نفسك بهذا.

-: إنما أقول الجد.

: كأنني أراك تقود الشباب وتقول بأنني منهم.

-: نعم، فأنا « **زيزومهم** » .

: إيه، إذا « **رَأْسَ الحَيَّةْ يَانَيْصُوْبْ** » .

-: بالتأكيد.

: أرجو أن يهديك الله ياأخي، وتترك مثل هذه الأمور الهدامة وأن تكون القدوة الصالحة للأجيال اللاحقة بالصلاح والتقى والحلم والهداية.

-: دعنا من هذا، هل انتهيت مني.

: نعم، ستر الله عليك، وهداك لكل خير.

وحينما اشتد النزاع بين الفريقين إثر اعتداء أحد أفراد هذا الفريق البارز، على أحد أفراد فريق بارز آخر فأرداه قتيلاً وعندما حضر الفريقان إلى القاضي قال المتكلم باسم الفريق الذي قتل منه الرجل.

-: لقد قتل هذا الرجل فلان أيها القاضي.

: قتله !!

-: نعم،

: بأي شيء قتله ؟

-: ببندقية كانت معه.

: ببندقية ؟

-: نعم.

: متى كان ذلك ؟

-: ضحى هذا اليوم.

: أين جثمان القتيل ؟

-: لا يزال موجوداً.

: هل تأكدتم من أن هذا الرجل هو القاتل ؟
-: نعم ولدينا شهود عيان.
: شهود عيان !!
-: بل وأقرَّ به بنفسه.
: هل أقر بذلك ؟
-: نعم، لقد أقر به أمام مجموعة من الرجال ويمكنك أن تسأله.
: هل قتلت الرجل ؟
-: نعم قتلته بطريق الخطأ.
: بطريق الخطأ ؟
-: نعم،
: كيف كان ذلك ؟
-: كنت أتصيد الطيور والأرانب وأطلقت طلقة من بندقيتي ولم أشعر إلا إرتمى على الأرض قتيلاً.
: في أي مكان حدث ذلك ؟
-: في واد به أشجار ونخيل.
: صف لي كيف حدث ذلك ؟
-: لقد صوبت بندقيتي على فريق من الطيور الكبيرة وعندما انطلقت الرصاصة لم تصب شيئاً من الطيور وإنما أصابت الرجل . .
: ماذا تقولون بكلام الرجل ؟ يوجه الكلام لخصومه.
-: إن هذا غير صحيح.
: هاه، غير صحيح !!
-: لقد قتله عمداً، ولم يكن هناك طيور ولا شيء آخر وإنما جاء بقصة الطيور لتكون ذريعة له يبرر فيها إرتكاب جريمته.
: هل بين الإثنين شيء من العداوة أو الخصومة السابقة ؟
-: ليس هناك شيء بَيِّن بينهما.
: إذا ماهو الدافع إلى أن يقلته ؟
-: إن القتيل رحمه الله، قد برز بأخلاقه الكريمة، وكرمه الجم، ورأيه السديد،

وقد يكون هذا الرجل قد استولت عليه الغيرة، وأعمت بصيرته حتى قتل أحد رجال قبيلته البارزين.

: قد يكون هذا، لو أنهما يتنافسان على زعامة قبيلة واحدة أو فرع واحد، إنما كل واحد منهما يتولى شئون فرعه الخاص من هذه القبيلة الكبيرة.

-: هذا ماحصل، وقد يكون القاتل يريد الزعامة أن تكون للفرع الذي يرأسه.

: هل هناك تعامل تجاري بين الأثنين ؟

-: لا نعرف شيئاً من ذلك.

: هل هناك أضغان أو أحقاد بينهما ؟

-: إن المقتول بكرم أخلاقه لا يحقد على أحد، بل على العكس كان يعتز بالقاتل في كل مناسبة.

: هل تعرفون أن هناك كلام أو تلميح بالكلام يدور حول المحارم ؟

-: حاشا لله، إنهما أرفع من أي يحدث منهما ذلك.

: إذا ماهو السبب في نظركم ؟

-: لا نرى سببا سوى الغيرة من الفاعل.

: من أي شيء يغار ؟

-: كان المقتول رحمه الله ذو كرم ومروءة ودماثة أخلاق فشاعت أخباره، وذاع صيته، ولمع نجمه فقد يكون القاتل حسده على هذه الناحية.

-: دعونا نسمع إجابته.

: لقد قتلت الرجل ؟

-: لقد قتلته خطأ كما أسلفت.

: ألا ترى الرجل بكامل جسمه ؟

-: لقد كان يمشي من بين الأشجار فلم أنتبه إليه.

: هل كان بينك وبينه عدواة قديمة أو حديثة ؟

-: أبداً، لا والله ومن ذا الذي يعادى فلانا رحمه الله ؟

: هل سبق أن تعاملت معه بمال أو تجارة ؟

-: لسنا من أرباب التجارة ولا أهل رءوس الأموال، وإنما كل منا يعيش عيشة الكفاف.

: أقصد هل استدان منك أو استدنت منه مبلغـاً معينا وحصـل مطل في الـوفاء من أي منكما ؟

-: أبداً لم يحصل ذلك.

: هل سبق أن اعتدى على أحد من أفراد عشيرتك ؟

-: إنه أرفع من أن يعتدى على أحد.

: هـل نالـك منه سـوء من فاحش القـول سواء أكـان ذلـك بـطريق مبـاشر أو بواسطة من ينقلون الكلام ؟

-: حاشا لله، إنه كان عفيف اللسان، ولم يسبق أن نالني منه أية كلمة عجفاء أو فعلة زوراء.

: هل لديكم خلاف على النخيل الواقعة في تلاع الجبال ؟

-: أبداً، أبداً.

: إذا، ماذا بينكم ؟

-: ليس بيننا سوى « **العَلِمَ الغَانِمْ** ».

: هل فعل فعلاً فأصابتك الغيرة منه ؟

-: الواقع أن الكثير من أفعاله طيبة وهى من أفعال الرجال الطيبين ولكن ذلك لم يصل إلى حد الغيرة منه.

: إذا ماالذي دفعك إلى قتله ؟

-: لقد قتلته بطريق الخطأ كما أسلفت.

: الإصرار على هذه الكلمة لا يفيد.

-: لا يفيد !! هذا مالدي.

: نعم لن يفيدك وينجيك من حكم الله حتى يثبت ذلك بالقرائن.

-: بالقرائن !!

: نعم حتى أرى المكـان بنفسي وأقف في الموضـع الذي وقفت بـه عنـد إطـلاق النار.

-: هاه، ماذا تقول ياشيخ ؟

: لقد سمعت ماقلت .

-: لقد قتله خطأ، ونحن مستعدون لدفع ديته. هكذا نطق أحـد أقارب القـاتل

المرموقين.

: إذا ثبت ذلك فهناك وجهة نظر.

-: هذا ثابت لا غبار عليه.

: ذلك من وجهة نظركم.

-: ونظر الشرع المحمدى.

: أما هذه فقد أخطأت فيها، فلم يثبت حتى الآن ماذكرت.

-: أتريد شهوداً على ذلك ؟

: أذا طلبوا منكم فعليكم إحضارهم، وأنتم ماذا ترون ؟ يوجه كلامه لأهل القتيل

-: نحن نقول : بالله ثم برأيك الكفاية، غير أننا لا نرضى بقوله من أن القتل عن طريق الخطأ، ولن نرضى بما دون القصاص كما جاء بمحكم كتاب الله.

: قد يثبت أنه خطأ.

-: ليس فيه ما يدل على صحة الادعاء بالخطأ.

: سأقف بنفسي على المكان الذي حصل فيه الحادث وأرى مدى صحة إدعائه.

وفي اليوم المحدد وصل القاضي إلى المكان وطلب من عصبة القاتل أن يوقفوه بالمكان الذي أطلقت منه النار وبعد أن وقف استدعى بالقاتل وسأله :

-: أين كنت واقفا عندما رميت صاحبك ؟

: بنفس المكان الذي تقف فيه أيها القاضي.

-: آه، عليك يافلان « من عصبة المقتول » أن تقف في المكان الذي قتل فيه صاحبكم.

: لقد وقف بنفس المكان يا شيخ.

-: أين الأشجار التى كان القتيل يتقي بها ؟

: هاه الاشجار.

-: نعم، وأين كان يمكن فريق الطيور أن ينزل حتى ظننت صاحبك واحداً منها ؟

: لقد كانت بتلك الأشجار التى ترى.

-: آه، حسنا، أيها أقرب الأشجار أم مكان الرجل.

: إنهما على حد سواء.

-: حسنا، كم يبلغ انحراف جهة الأشجار عن مكان الرجل ؟

: ليس كثيراً.

-: إنه كثير جداً في درجات التصويب، إن هناك إنحراف واسع.

: لقد انحرفت البندقية من يدي ساعة الاطلاق.

-: حسنا، لقد عرفت.

: عرفت !! عرفت ماذا.

-: عرفت أنك متعمد في القتل ووجب الحكم عليك بالقصاص.

: ماكاد القاضي يأخذ مجلسه المعتاد بعد صلاة العصر حتى دخل المسجد رجل يصحبه خادم من الأمير ومعه خصمه فمثل الرجلان أمام القاضي وقال المدعي :

-: أيها القاضي، لقد سرق هذا الرجل نقودي.

: سرق نقودك؟

-: نعم لقد سرقها.

: إين كانت نقودك ؟

-: لقد كانت في « مِزْوَدَةْ ».

: أتضع نقودك في مزادة وتدعى أنها سرقت ؟

-: إنها « مِزْوَدَةً » مقفلة.

: آه، يعني عليها حرز ؟

-: إن عليها قفل.

: هو ما أعنى، إنه الحرز.

-: لم أفهم.

: وأنت ماذا تقول ؟ يوجه كلامه للمدعى عليه.

-: هاه، إننى لم أسرق.

: لقد إتهمك الرجل بأخذ نقوده.

-: لم آخذها.

: قد تكون محتاجاً فتناولت منها مايفى بحاجتك.

-: الحاجة لا تفارق كثير من الناس، خاصة الفقراء.

: هذا ما أقوله، وربما يحتاج الواحد منا فيضطر لقضاء حاجته.

-: هاه، الحاجة أيها القاضي لعينة.

: هل يوجد على المزادة قفل ؟

-: نعم.

: وهل عثرت على مفتاح له ؟

-: أبداً، لا والله.

: كيف كان وضع القفل في المزادة ؟

-: إنه في آخر عروتين منها.

: هل حاولت كسر القفل ؟

-: أبداً، ولن أستطيع كسره،

: هل كانت إحدى العرى غير مشبوكه بجارتها ؟

-: بل كانت كلها مشبوكه، وفي نهايتها القفل.

: آه، كيف إذا أدخلت يدك إلى داخل المزادة ؟

-: لقد انقطعت إحدى العرى فأدخلت يدي من الفراغ الذي أحدثته.

: هل قطعت العروة بأسنانك ؟

-: هاه، لا أستطيع قطعها بأسناني لغلظتها.

: هل كانت العروة ضعيفة عندما جذبتها بيدك.

-: على العكس إنها قوية.

: أما ألمت يدك عندما جذبتها ؟

-: هاه..

: هل كان إطار المزادة الجلدي الداخلي مفتوحاً فخرجت الدراهم معه عندما قلبت المزادة ؟

-: إنه محكم أشد الاحكام.

: إذا، كيف تمكنت من إدخال يدك إلى داخل المزادة ؟

-: لقد قطعت إحدى العرى.

: بأي شيء ؟

-: بهذا الخنجر.

: هل كنت تعلم أن ما في داخل المزادة نقوداً.

-: نعم.

: كيف عرفتها ؟

-: لقد لمستها بيدي.

: بيدك؟

-: نعم.

-: ما مقدار ما أخذت منها ؟

-: لقد أدخلت يدي على عجل وكمشت كمشة بأطراف أصابعي ولما أخرجتها وجدتها خمسة ريالات.

: مادمت قد كسرت حرز المال هل كان في نيتك أن تكثر من الكمية ؟

-: نعم ولكني لم أتمكن من ذلك.

هل تراجعت في نفسك عن مثل هذا العمل ؟

: لا،

-: هل خفت من الله في مثل هذا الموقف ؟

: هاه . . هاه . . لقد سمعت صوت وقع خطى الرجل .

-: هل كان في نيتك أن تستزيد من النقود ؟

: نعم لو أتيحت لي الفرصة.

-: مادمت كذلك، أما كان باستطاعتك أن تحمل المزادة بكاملها وتهرب بها.

: إنها ثقيلة، ويبدو أن بها أشياء أخرى.

-: أتخاف من الناس ولا تخاف من الله وأنت تأخذ مال الرجل ؟

: هاه، إنها الحاجة الملعونة، والله غفور رحيم.

-: هذا لا يبرر الاعتداء على أموال الآخرين، ثم إن الله شديد العقاب كذلك.

: المهم هذا ماحصل.

-: أين كانت المزادة عندما وجدتها ؟

: من الدخل في حجر البيت.
-: من الداخل أم من الخارج ؟
: بل من الداخل مع أثاث أهل البيت ومتاعهم.
-: متى جئت إلى البيت ؟
: لقد أتيته ضحى اليوم الفلاني.
-: هل أتيت البيت من أجل السرقة ؟
: معذره، فقد قدمت إلى البيت كضيف.
-: وهل المفروض في الضيف أن يسرق مضيفه.
: هاه، لا، ولكن النفس أمارة بالسوء.
-: إذا لم تتحكم بها فستؤدى بصاحبها إلى المهالك.
: هكذا أوصلتني.
-: تقول إنك في البداية كنت ضيفا ثم سولت لك نفسك بالسرقة ؟
: نعم عندما قدمت إلى البيت لم أجد فيه أحداً فناديت بأعلى صوتي، فلم أسمع مجيباً، وتلفت يميناً وشمالاً فلم أجد أحداً، عندها سولت لي نفسي أن أبحث عن شيء آخذه، وبالبحث وجدت هذه المزادة المقفلة.
-: آه، إنه ينطبق عليك المثل القائل « خَاطِرْ وْهَبُوْجْ » !!
: هذا ما حصل.
-: حسنا، وكيف استطاع الرجل القبض عليك ؟
-: لقد استعان بمجموعة من رفاقه وطاردوني حتى أمسكو بي بعد أن عثرت رجلي بخبارة جرذان.
: « إِيْهْ » الله بالمرصاد لكل معتد على حقوق الغير، آه وأنت ماذا لديك من أقوال ؟ يوجه كلامه لصاحب المال.
-: ليس لدى إضافة إلى ما قلت لك وما سمعت من السارق.
: ولكنك قد فرطت في مالك.
-: أنا أفرط في مالي !!
: نعم.
-: إنه داخل بيتي.

: أعلم ذلـك، ولكن البيت لا باب لـه ولا قفل، إنما هو بيت شعـر تلعب بـه الرياح.

-: هذه بيوتنا في البادية.

: أعلم ذلـك ولكن التحرز واجب خـاصة لـلأشياء الثمينـة كالحـلي والأسلحة والنقود.

-: لقد وضعتها في مزادة مقفلة.

: قد يأتي أحد فيحمل المزادة وما فيها مع قفلها.

-: هاه، يحملها!!

: نعم، ألا تعلم أن المال السائب يشجع على السرقة؟

-: ولكنه ليس سائباً.

: « غَرْبَلَكْ اللّهْ » تضع كمية كبيرة من النقود في مزادة وتضعهـا في حجر البيت الذي يكون في أغلب الأحيان خالياً من أي إنسان؟

-: هذا ما أستطيع عمله.

: لو فرضنا أن جاءك سارق شره لما أبقى لك من نقودك شيئاً.

-: أين تريدني أن أضع نقودي أيها القاضي؟

: تستطيع أن تتدبر أمـرك بأن تضعهـا عند أحـد أصدقـائك في الحضر كـأمانـة عنده، ويكون بحوزتك ما يفي باحتياجاتك. أو أخفائها بمكان لا يرى.

-: هذا الرأى قد غاب عن بالي.

: إن عليك جزء من الخطأ بسبب إهمالك.

-: وهو؟

: عليه تبعة فعلته.

-: ومالي؟

: يرد عليك.

-: إذا حصل لي ما فقدت من مالي فلا أريد شيئاً.

: لكن الله يريد حكمه من الجاني.

-: مادام خصمي قد سامحنى فأرجو المساحة. هكذا نطق الجاني.

: ولكن الله لا يسامحك في تجاوز حد من حدوده.

-: هاه !! ماذا تقول ؟

: أقول ، هل أخذت النقود وأنت في كامل قواك العقلية .

-: نعم إنى بكامل صحتي .

: ونويت أخذ المزيد منها لو لم يباغتك الرجل ؟

-: إي، والله يا شيخ .

: ألا كنت تعلم أن هذا حرام عليك ؟

-: بلى، بلى، ولكن الحاجة أجبرتنى على ذلك .

: لو كل من احتاج سرق من مال أخيه لما بقى عند أحد مال .

-: هاه !!

: أعيدوه للأمير، لتنفيذ حكم الله فيه بقطع يده اليمنى .

ما كادت الأمارة يبلغها الخبر الجديد الذي حدث البارحة حتى أرسلت من يأتيها بالجاني وابنه، قبل أن يعلم أقارب القتيل بما حدث، وعندما حضر الطرف الأخر دفعهم الأمير إلى القاضي، وعندها مثل الطرفان أمام القاضي فتكلم أقرب أولياء القتيل قائلاً :

-: أيها القاضي، لقد قتل هذا الرجل وولده أخى .

: متى كان ذلك ؟

-: قبل بضعة أيام .

: في أي وقت ؟

-: لا أعلم بالضبط ولكنه كان في الليل .

: في أي مكان ؟

-: في منازلهم بالمكان الفلاني قرب قرية كذا .

: قد يكون أخطأ عليهم ؟

-: أبداً، أبداً .

: قد يكون حاول الاعتداء على شيء من ممتلكاتهم ؟ أو الاقتراب من محارمهم ؟

-: حاشا لله أيها القاضي.

: إذا كيف قتلوه ؟

-: لقد جاء ضيفا عليهم وجاء بمكان الرجال وما إن حضر هذا الرجل وابنه وعلموا بقبيلته حتى قتلوه .

: هل كنت معه ؟

-: لا والله .

: أتشهد بما لا تعلم ؟

-: هذه الأقوا الشائعة بين الناس .

: أقوال الناس !! نريد من يؤديها بالشهادة القاطعة .

-: إذا أردتم شهوداً على ذلك فسوف أحضرهم .

: حسنا، وأنت ماذا عندك ؟ يوجه كلامه للمتهم .

-: ماذا عندي !! هذا الرجل قتل ببيتي وحملت وزره .

: من الذي قلته ؟

-: لا أدرى، لا أدرى .

: أيقتل في بيتك ولا تعلم قاتله ؟

-: لقد قتل في الليل ولم أر قاتله .

: في أي جزء من البيت قتل ؟

-: قتل في « رُفَّةِ » البيت قرب الدلال .

: يعنى بمكان جلوس الرجال .

-: نعم .

: هذا يعنى أن الرجل لم يحاول التسلل إلى داخل بيتك لانتهاك حرماته أو سرقة محتوياته .

-: حاشا لله ، حاشا .

: يعني أن مجيئة على هيئة ضيف ؟

-: نعم، نعم ،

: في أي حزة من الليل جاء إلى البيت ؟

-: في أول الليل ، حوالي صلاة العشاء .

: آه، يعنى أن الناس كلهم لم يناموا ؟

-: بالطبع فالناس لم يناموا،

: لقد جاء به حتفه إلى هذا المكان.

-: وكان في بيتنا، لا بارك الله فيه.

: ترى من قتله ؟

-: لا أدرى، فالناس ذاهبة آيبة من البيت وإليه.

: مادام الأمر كما تذكر فإن القاتل لا يمكن أن يختفي.

-: هذا ما لا أعلمه.

: إن لديك علم به.

-: بأي وسيلة قتل الرجل ؟

: بخنجر أغمد في صدره.

-: مادام الأمر كذلك فإنه لن يبين القاتل.

: ولكنه لن يخفى عليك.

-: عليَّ أنا ؟

: نعم ولا غيرك أو على ولدك.

-: إننا برئيآن من دمه.

: هذا ما لا يصدق، إلا إذا ثبت خلاف ذلك.

-: كيف يثبت ؟

: إذا وجدنا من يشهد أن من قتله غيركما وفي هذه الحالة فإنه سيلحقكما بعض التبعة.

-: نحن بريئآن.

: كلامك مردود حتى يثبت العكس، وأنت ماذا عندك ؟ يوجه كلامه لابن المتهم.

-: لقد جئت من أذواد إبلى فوجدت الرجل مقتولاً على الشداد الذي يتكىء عليه الرجال قرب الدلال حتى أن نقطا من دمه قد رشقت على الدلال.

: متى تتوقع أنه قتل عندما قدمت ؟

-: عندما وصلت إليه كان قدمات لتوه، فدمه حينذاك كان رطبا، فحاولت رفع رأسه لمحاولة إسعافه وتلطخت يدي بدمه.

: من كان بقربه في المجلس ؟

-: لم أر أحداً على ضوء النار الخافت.

: ماهي الأداة التي قتل بها ؟

-: لا أعلم، ولكنها إما أن تكون سكيناً أو خنجراً.

: هل رأيت أداة القتل في جسمه أو بقربه ؟

-: أبداً، لم أر شيئاً.

: ماذا فعلت عندما رأيت المنظر ؟

-: لقد فزعت وارتبكت وحاولت أن أصوت لأبي ولكن . .

: ولكن ماذا ؟

-: لكنى فوجئت برجلين قد اقتربا مني، وعندما وقعت أبصارهما على صاحابي : لماذا قتلت الرجل ؟

: ثم ماذا حدث ؟

-: رأيت والدى أقبل مسرعاً من نفس الطريق التى جاء منها الرجلان، وعند ذلك كثر الكلام، وازداد لغط الرجال وتجمع الناس، فوجدت الأنظار تتجه إليَّ بالتهمة وأنا بريئي.

: أه، هكذا !! عليَّ بالرجلين.

-: وكان الرجلان جاثمين على ركبتيهما بالقرب من القاضي فقال أحدهما : لقد خطر ببالنا أن نذهب إلى بيت هذا الرجل لتناول القهوة كالعادة في أي وقت من الأوقات.

: وماذا رأيتما ؟

-: عندما دنونا من مجلس الرجال لم نجد فيه غير ابن الرجل وعلى ضوء النار الخافت رأينا جثة القتيل بقرب ابن صاحب البيت.

: هل كان الابن يحمل بيده أداة قتل من بندقية أو سكين أو خنجر وغيره.

-: لم نر معه أي شيء.

: هل رأيتم بقربه أداة قتل ؟

-: لم نر بقربه شيئاً، علماً بأن ضوء النار الخافت لا يساعد الانسان على رؤية ما حوله.

: حسنا، كيف رأيتم هذا الشاب في تلك اللحظة ؟

-: رأينا عليه علامات الفزع، وهو واقف بقرب الجثة ويده ومقدمة ثوبة ملطخة بالدم.

: ماذا فعل عندما رآكم ؟

-: لم يفعل شيئاً، إلا أنه قد بدت عله علامات الارتباك.

: ألم يحاول الهرب ؟

-: كلا.

: ماذا حصل بعد ذلك ؟

-: لم نلبث غير وقت قصير حتى جاء صاحب المنزل من خلفنا.

: آه، وماذا فعل ؟

-: لقد صرخ بأعلى صوته، وكان هناك مجموعة من الرجال قدموا لتناول القهوة وماهي سوى لحظات حتى تجمع الناس.

: كيف رأيتم صاحب البيت ؟

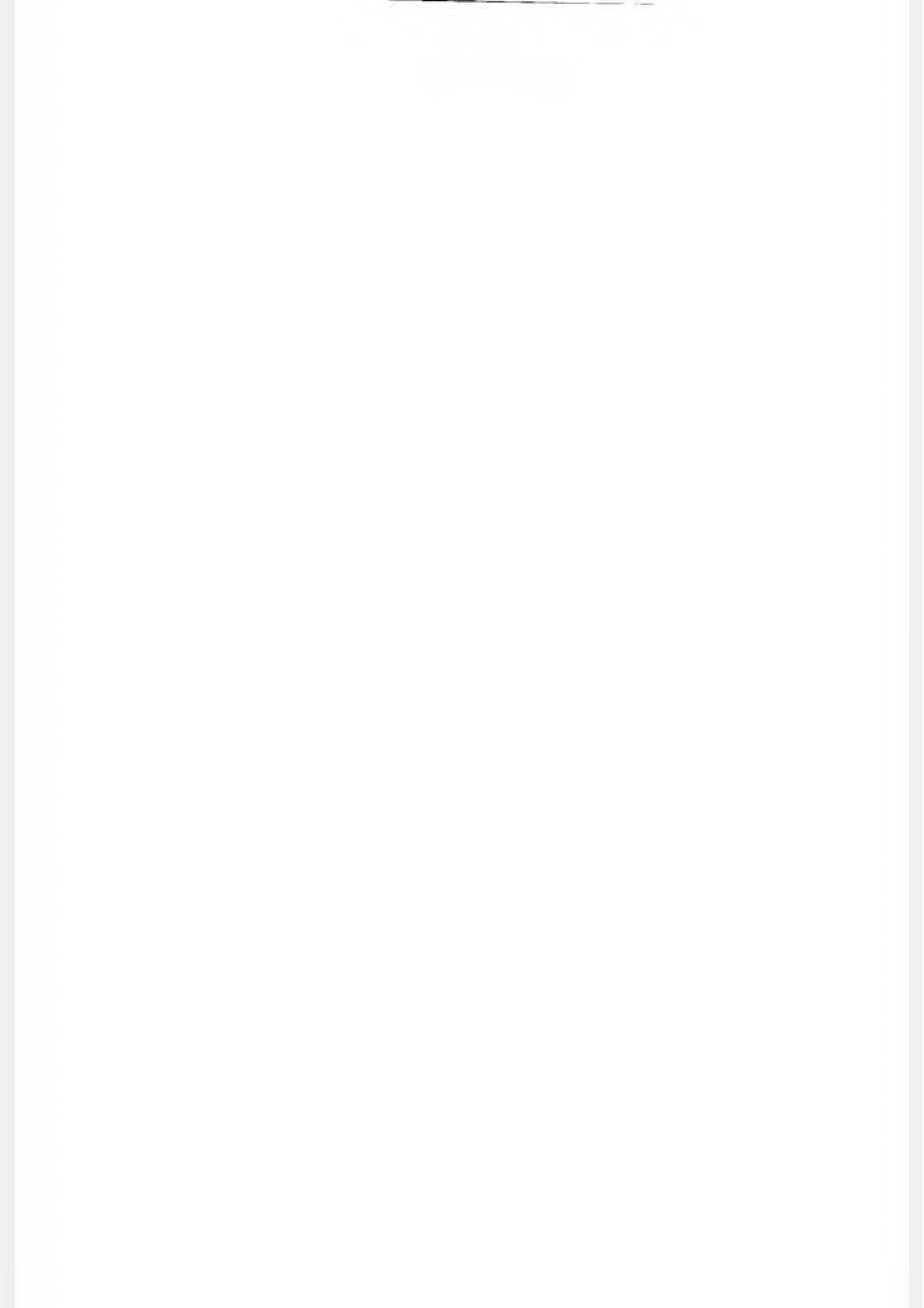
-: كان في حالة فزع وذعر شديد بخلاف ابنه الذي كان يسرح في ذهول عميق.

: آه، وماذا لديكم من معلومات أخرى.

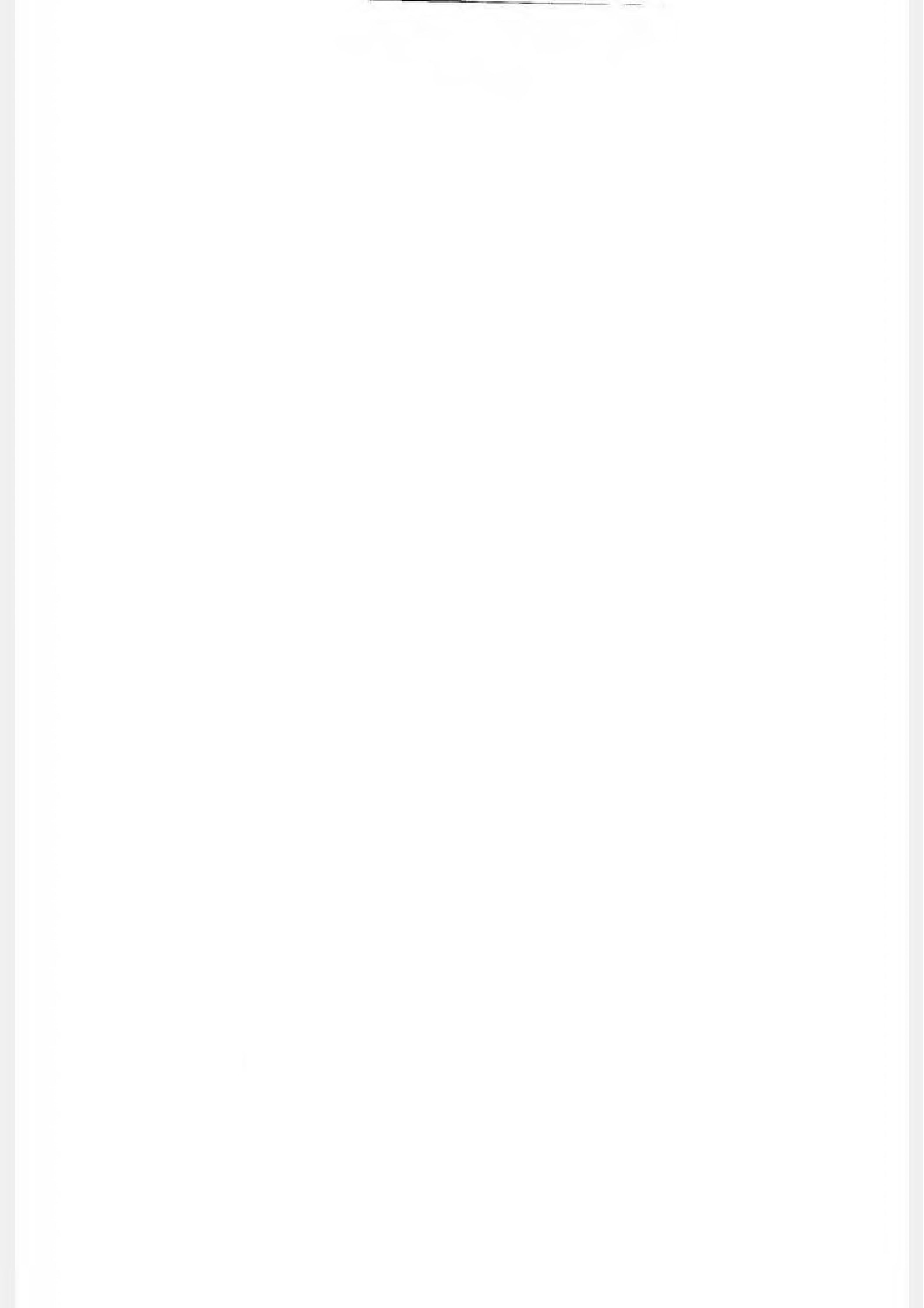
-: هذا ما لدينا ولا يوجد لدينا أية معلومات إضافية.

: حسنا، سنحضركم عندما نحتاج إليكم.

وبعد ذلك استكملت التحقيقات اللازمة مع المتهمين وأجريت أدق التحريات حول الموضوع، ولم تحم الشبهة حول أي إنسان آخر غير الرجل وابنه، وبعد تحقيق دقيق أقر الرجل بأنه قتل القتيل بنفسه وابنه على علم بالأمر عند قدومه من ابله ولما رأى الأب أنه قد تورط في الجريمة خرج من البيت بحيث جاء خلف الرجال الذين قدموا إلى بيته وذلك لابعاد تهمة القتل عنه، وبعد دراسة القضية من جميع جوانبها رأى القاضي أن يقتل القاتل فقط ويبقى ابنه وذلك استثناء من القاعدة الشرعية التي تعم المشتركين في الجريمة، وذلك لكون الأبن لم يشترك فعلياً في القتل، وبحكم أن الأب يقوم مقامه ومقام ابنه وليس العكس وعلى هذا جرى حكم القصاص بالأب فقط.



قصة رقم (٩)



الزوجـــة الوفيـــة

مع دخول فصل «الوسم» ترقب الناس بلهف إلى رؤية بارق السحـاب الذي يعتبر إحدى الدعائم الرئيسية لحياتهم المعيشية وبالأخص أهل المواشي الذين تمثـل الثروة الحيوانية العمود الفقري لحياتهم، وبقدر ما كانت العيون حريصة على رؤية السحاب في كبد السماء كانت أشد حرصاً على الاكتحال بوميض البـرق من خلال حنادس ظلمة الليل بين ثنايا السحـاب، إلا أن الانتظار قـد طال، وتـوالت الأيام دون أن يشنف الآذان سماع أي خبر يـدل على سقـوط المطر، بـالقرب من أراض هذه العشيرة، عدا ما تناقله الركبان من تنزل الغيث على أراض بعيدة عن مـواطن قبيلتهم، وهنا أجتمع الرجال ومن بيدهم الحل والربط وتشاوروا فيـما بينهم حيث قال رئيسهم:

-: كما تعلمون أن الأمطار قد تأخرت هـذه السنة، وقـد أراف الله على الأراضي الفلانية وهي بطبيعة الحال بعيدة عنا.

: ماذا تريدنا أن نفعل؟

-: نريد أن نتداول الرأي في هذا الأمر.

: ما رأيكم؟ لو بقينا في أرضنا وقتـا إضافيـا لعل الله أن يعـود علينا ويـرزقنا في أرضنا.

-: رحمة الله واسعة، وفرجه قريب، ولكن كما تـرون مواشينـا في الوقت الحـاضر حالتها جيدة، ويمكن أن تصل إلى ذلك المكان إذا سايرناها على مهلنا، أما إذا تركناها تأكل شحمها وتسوء حالتها فقد تهزل ولا تستطيـع الوصـول إلى ذلك المكان فيما بعد.

: إن ما يقول له الشيخ هو عين الصواب .

-: هذا الأمر عائد للجميع ، وما أعرضه عليكم هو مجرد رأي .

: أطال الله عمركم .

-: يبدو أن بعض الرفاق لديه رأي يريد أن يقوله؟

: إن الانتقال سيكلفنا الكثير من الجهد والوقت .

-: لا شك في ذلك ولكن لابد من النُّجْعَة إلى ذلك المرباع .

: إنه بعيد جداً .

-: بعيد!! كم يبعد؟

: أوه، أكثر من مسافة خمسة عشر يوماً للمطية، أما السير حسب مسيرة المواشي فقد تتجاوز الشهر .

-: أعلم ذلك، ولكن ما هو الخيار الثاني؟

: هاه!! الخيار؟

-: نعم ماذا ترون أن نفعل؟

: نبقى هنا لبعض الوقت بانتظار فزعات ربنا، عسى الله أن يرحمنا برحمته وينقذ هذه البهائم من الهلاك .

-: لا شك في رحمة الله ولكن مادامت مواشينا نشيطة فمن الأفضل أن نتحرك .

: لكن المدى بعيد .

-: ليس هناك أفضل منه أو أقرب .

: إذا مادمت ترى ذلك فلا راد لرأيك .

-: المصلحة مشتركة وليس هناك إجبار لأحد .

: أعتقد أن هناك بعض المعارضة .

-: صحيح ، أنني رئيسكم أستطيع أن آمركم فتنفذون أمري ولكن في هذا الجانب أنا كأي واحد منكم لدي من المواشي مثل ما لدي أحدكم ، وقوتنا جميعاً تكمن في سلامة هذه المواشي ونموها وكثرتها .

: صحيح ما قاله الشيخ .

-: ومتى هلكت أنعامكم فلا شك أن الفقر سوف يعتري القوي منكم بعد الضعيف .

: إننا موافقون على ما ترى. هكذا تكلم أحد الحاضرين.

-: أليس هناك من يعترض على الأمر؟

: من لديه أعتراض على مصاحبتنا فعليه البقاء بأرضه مع مواشيه.

-: لا نريد أن يتخلف منا أحد.

: وماذا تخشى عليه يا شيخ؟

-: أبداً، لا أخشى عليه شيئاً، غير أنه سيبقى لوحده دون أنيس، وفي نفس الوقت سيتحمل عبء الضيافة لهشال الليل وعابري السبيل، وتبقى مواشيه في هذه الأرض الجرداء التي سلبها الصيف حتى رمام أعشابها وخضرة شجيراتها فيدب فيها الضعف وتتساقط هالكة الواحدة تلو الأخرى.

: فرج الله أقرب من ذلك أيها الشيخ.

-: إنني على يقين من رحمة الله ولكن هذا على سبيل الافتراض.

: أعتقد أن الذنب ذنب المتسبب وليس ذنبنا.

-: وإن يكن، فإنني أريد أن نسير على رأي واحد.

: أجيبوا الشيخ هل هناك أحد معارض لهذا الرأي؟

-: إنه يسوؤنا أن يتخلف منا أحد وذهبنا إلى ذلك المكان المخصب ورتعت مواشينا بأعشاب الربيع ونعمنا بمنتجاتها ثم تذكرنا رفيقاً لنا بقي في هذا المكان المجدب.

: إذا جلس أحد فإنه يتحمل تبعات تصرفه.

-: ليس هذا ما أعني، ولكن هل يوجد أحد منكم لديه رأي مغاير لما تقرر؟

: أبداً، أبداً.

-: كأنني أرى عيادة وبين أذنيه خبر؟

: أبداً، أيها الشيخ ولكن..

-: ولكن ماذا؟

: ليس لدي إعتراض غير أنني أحتاج إلى بعض الوقت.

-: بعض الوقت لتفكر في الأمر؟

: لا، لأفكر في الأمر.

-: ماذا تريد في الوقت إذاً؟

: آه، كما تعلمون أنني لا أصبر عن الصيد.

-: كلنا مثلك.

: ولكني لا أتحمل أن أرى الظباء أو المها والوعول تمر من أمامي ولا أصطاد منها شيئاً.

-: أوه، ماذا تريد بهذه التَّعِلَّة؟

: أريد أن تصبروا لي مدة أسبوع.

-: أسبوع!! نحن سائرون غداً إن شاء الله.

: لن أرافقكم إذاً.

-: ولماذا تريد الأسبوع؟

: أريد أن أجهز كمية من ملح البارود تكفيني لمدة عام كامل حتى نعود إلى هنا.

-: أوه، متى تحضر الملح، الكبريت، الفحم، وغير ذلك من العناصر التي ستصنع منها ملح البارود؟

: هذه العناصر لا تحتاج إلى طويل وقت.

-: إذا ما الذي تحتاج؟

: الحاجة تدعو إلى بعض الوقت لسحق هذه العناصر وتجفيفها ثم تجربتها عدة مرات حتى تصل إلى درجة جيدة من سرعة الاشتعال وقوة الدفع وعدم التأثير في البندقية.

-: أوه، وكم يكفيك؟

: يكفيني اسبوعا واحداً كما قلت.

-: إيه، مدة قصيرة وبسيطة. هكذا تكلم أحد الحاضرين بسيطة عليك. رد عليه جليسه.

: يا أخي «يَجُوزُ العِيْد بْلَاحِنَّا»!! يجوز الرحيل بلا ملح بارود.

-: يجيبه عيادة، أنا لن أرحل معكم إلا ومعي الملح مهما كلفني الأمر.

: يا أخي، سنجمع لك من مذاخرنا الكمية التي تكفيك لمدة سنة كاملة ولا تعطلنا عن الرحيل.

-: لن أرضى بذلك.

: لماذا؟

-: أتريدون أن تجمعوا لي عدة مستويات من الملح يخرب بندقيتي.

: كل مستويات الملح جيدة.

-: وإن كانت كذلك، فلن آخذ من أحدكم جزء من ذخيرته التي يحتاجها لبندقيته.

: ولكنك ستعوقنا.

-: لن أتأخر عليكم إن شاء الله.

: أوه، أسبوع متى ينتهي؟

-: لا تقل هذا ولكنك ستؤخرنا ونحن متشوقون للربيع.

: كلنا كذلك.

-: نعم إننا نكاد أن نطير من شدة الفرح لقرب ارتحالنا إلى مواقع الأمطار ومنابت العشب.

: عسى الله ألا يعوق بشر.

-: إذا عليك أن تسرع.

: أوه، أسرع «أَرْوِجْ»!! أمامنا أسبوع كامل.

-: دعوا عيادة يجهزما أراد تجهيزه على مهل.

: حسنا، أنا معكم إن شاء الله بعد أن أنتهى من عمل هذا البارود الذي لا أستغنى عنه أبداً، وقد يصعب علينا عمله أثناء الطريق، كما قد يصعب شراؤه.

-: لم يكن هذا قصدك، ولكنك دائماً تريد أن تبرز في وضع معين عندما يعتزم رفاقك على القيام بأي عمل.

: هاه، من هذا الذي يتكلم؟

-: إنه فلان يحب أن يمازحك.

: إذا كان هذا مزاحاً فهو من المزاح الثقيل، لم أتأخر يوماً واحداً عن القيام بنصيبي كاملاً في أي موقف من المواقف.

-: لم يقصد ذلك.

: لقد كنت أفكر في التراجع عن أمر تجهيز الملح، ولكن لعيني فلان فوالله لن أذهب من هنا إلا بعد أن أنتهي من تجيز الكمية التي أريدها.

-: أوه، لك ما تريد يا أبا فلان فبدلاً من أسبوع لك عشرة أيام حتى تنتهي من عملك، فإذا انتهيت أخبرنا.

: شكر الله مسعاكم «يَالرِّفَاقَةْ».

ويبدأ عيادة في اليوم الثاني بتجميع العناصر التي سيحضر منها الملح، وبدأ في سحقه «بنجر» خاص هو عبارة عن صخرة كبيرة بها نقب دائري واسع توضع فيه هذه العناصر وتسحق بيد ثقيلة هي عبارة عن قضيب غليظ من الضخر المشغول لهذا الغرض لا تكاد اليد الواحدة ترفعه وإنما يرفع بكلتا اليدين ويدق ما بداخل النقب من المواد حتى تمتزج جزئياتها تمام الامتزاج، ويجثم من يدق الملح على ركبتيه ممسكا باليد الصخرية يهوي بها إلى النقب تارة ويرفعها أخرى بكامل قوته وبحذر شديد وظل على هذا الحال ثلاثة أيام، يسحق ويجفف ويجرب، وذات مرة كانت عين النجر مليئة بالبارود، فأهوى عليها باليد الصخرية التي يحملها بقوة، وحصل احتكاك بين الصخرتين تولد منه شرارة أشعلت كمية البارود الموجود بالعين فثارت في وجهه بعنف شديد، ألقته على مسافة أمتار ملقي على ظهره بعد أن احترقت مقدمة جسمه بالكامل، وعلى صوت الدوي الهائل الذي أحدثه الانفجار وارتفاع الصراخ بعده تجمع سكان الحي صغيرهم وكبيرهم ليجدوا صاحبهم في حالة سيئة يرثى لها فقال كبير القوم لزوجة المصاب:

-: كيف حال عياده؟

: إنه كما ترى، ولكن الرجاء بالله قوي.

-: ونعم بالله يا ابنة الأجواد، هل يتكلم؟

: أبداً، إنه فاقد الوعي، فضلاً عن الكلام منذ وقع الانفجار.

-: كيف حدث ذلك؟

: والله يا عم، لا أدري بالتفصيل، كما تعلم أنا في داخل البيت لتدبير بعض شئوني، وآخر عهدي به يريد أن يسحق الكمية التي سحقها بالأمس لأنه لم يقتنع بجودتها، بعد أن جربها في صباح هذا اليوم.

-: إيه، الحمدلله، قدر الله وما شاء فعل.

: له الحمد على أقداره.

-: ماذا عملت له؟

: إنني الآن مرتبكة لا أدري ماذا أفعل بـه، إن الحروق قـد شملت كل مقـدمة جسمه من أخمصيه إلى هامة رأسه، إنه «مُتَمَوِّسْ» لا أستطيع تحريكه.

-: إيه أعانك الله يا بنيَّة.

: سأضع له الفراش المناسب.

-: أحذري يا بنيتي ألا يكون الفراش من النوع الذي يلتصق عليـه جسمه وهـو في هذه الحالة.

: سأعتيني به عنايتي بعيني هاتين.

-: كثر الله خيرك، وأكثر من أمثالك.

: هذا زوجي!! إذا لم أعتن به بنفسي فمن تراه ينوب عني؟

-: أيه، أعانك الله ووفقك، هل من خدمة أو مساعدة نستطيع القيام بها.

: كثر الله خيرك يا عم، اللهم إنني أحتاج إلى من يساعدني الآن على وضعه على هذا الفراش.

-: ماذا فرشت له؟

: لقـد فرشت لـه حصيراً لكي يمتص الماء المتسرب من هـذه الحـروق دون أن يلتصق جلده بالفراش.

-: حسنا فعلت، ولكن ألا تؤذيه حروف الحصير؟

: لقـد وضعت تحت الجزء السليم من جسمـه والـذي يمكن أن يؤذيـه الحصـير فراشا لينا، أما الأجزاء المحترقة فالحصـير خير لهـا ليمتص ما يتسـرب منه من المياه والمواد الأخرى.

-: إنك لحكيمة في عملك هذا.

: الحمد لله على ما قدر.

ويمضي ذلـك اليوم بليلتـه فيضيق المصاب ليجـد نفسه بهـذه الحالـة السيئة، وينظر إلى من حوله من الزائـرين دون أن ينبس بكلمة واحـدة، وتجمع القـوم مرة أخرى للتباحث في هذا الأمر الجديد حين قال أحد الحاضرين:

-: لا حول ولا قوة إلا بالله.

: ماذا تعني؟
-: أعني أننا لن نبرح مكاننا هذه السنة.
: لماذا؟
-: وتسالني لماذا وأنت ترى هذه الحادثة التي حلت برفيقنا.
: أتعني عياده؟
-: نعم إياه أعني فلا نستطيع الذهاب عنه حتى يشفى أو يختاره الله إلى جواره.
: ماذا تقول؟
-: إيه، إننا لن نغادر مكاننا هذه السنة سوف يفوتنا الربيع وربما هلكت مواشينا.
: سوف يتماثل للشفاء قريباً إن شاء الله.
-: لكن ذلك لن يطول.
: أتعلم الغيب.
-: حاشا لله، ولكن الرجل إصابته خطيرة ولا نستطيع الذهاب عنه.
: الذهاب عنه!!
-: نعم، لو فكرنا بالانحدار إلى الأرض المربعة وتركناه خلفنا لن نسلم من السنة الشامتين.
: ومن قال لك أننا سنذهب عنه، فلن نبرح هذا المكان أبداً.
-: وإذا هلكت مواشينا؟
: حتى لو هلكت جميع ممتلكاتنا أتريدنا أن نتركه في هذه الحالة؟
-: إيه، هذا ما أخاف منه.
: سنمكث بجانبه حتى يشفيه الله أو يختاره إلى جواره.
-: تقول هذا لأنك خائف منه قبل خوفك من شمات الناس.
: خائف منه!!
-: نعم، إنه شاعر سليط اللسان سيصمنا بوصمة لن تذهب عنا مدى الدهر.
: إننا لن نخاف منه أو من السنة الناس بقدر ما نعمل بوحي من ضمائرنا تطبيقاً لتعاليم شريعتنا الاسلامية السمحاء واحتفاظا بعاداتنا وتقاليدنا العريقة.

-: أوه، كفى، كفى.

: أجل تريدنا أن نذهب عنه وهو في هذه الحالة، حتى ولو كنا لا نخاف الله، ولا نراعي صلة القربى، ووشائج الجوار وما تمليه علينا شيمتنا العربية.

-: معنى هذا أننا سنبقى بجانبه.

: سنبقى جميعاً بدافع من إنسانيتنا.

-: وتهلك مواشينا؟

: حتى لو لم يبق منها شيئاً.

-: الواقع أننا سنتضرر من هذا البقاء.

: لا ضرر لنا مع بقاء صاحبنا حياً سليماً.

-: إيه، لا بارك الله بتلك الساعة التي أصر فيها عيادة على أن يجهز لنفسه ملح البارود.

: لا تقل هذا يا ابن أخي، إنه شيء مقدر، ولا مفر مما قدر الله، وربما جعل الله في بقائنا خيراً لنا.

-: أوه، خيراً!! من أين يأتي الخير ونحن في هذه الأرض الجرداء؟

: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الخير من الله، إنه قريب مجيب رحمته واسعة ومداته جزلة.

-: لا شك في ذلك لا شك، ولكن..

: إن لكن، تفتح نقيض الأفكار فاجتنبها في مثل هذا الموقف أو تظن أن عيادة قد فضل أن يحصل له ما حصل؟ والله لو علم أنه سيحدث له هذا الأمر لما أصر عليه، إن كل لذة الصيد لا تساوي عنده شوكة تبط قدمه فضلاً عن إحتراق جسمه كما ترى.

-: صحيح، الحمدلله.

وكانت فهدة زوجة عيادة واقفة خلف عارض البيت تسمع هذا الحوار الجاري بين الرجلين في مجمع من أصحابها فقاطعتهما قائلة:

: أيها الرفاق، عليكم أن تنادوا لي رجال الحي جميعهم وعلى رأسهم الشيخ.

-: ماذا تريدين بهم؟

: أريدهم لأمر هام.

-: نادوهم ليجتمعوا إلينا.

: هاهم اجتمعوا ماذا تريدين بهم.

-: «يَالسِّيَافَا» كما ترون ما قدر الله على زوجي بهذه الكارثة في الوقت الذي كنا فيه على وشك الرحيل، وأحب أن أقول لكم عليكم أن ترحلوا ولا تتعطلوا من أجله.

: نرحل!!؟

-: نعم، عليكم أن تأخذوا قطعانكم ومواشينا وأغنامنا معكم وتنتجعوا مواطن الكلأ والربيع.

: ولمن نترك عيادة؟

-: إتركوه لله ثم لي لوحدي.

: لك لوحدك!!

-: نعم، إتركوه لربه ثم لي أعتني به وأعالجه حتى يشفيه الله.

: هذا الأمر مستحيل.

-: لا شيء اسمه مستحيل في هذه الحياة.

: أنتركك لوحدك مع هذا المريض؟.

-: أيها الرفاق، إذا جئنا للواقع فإنه لن يعتني به ويمرضه غيري ولو بقيتم أنتم بكاملكم عندنا.

: هاه، ماذا تقولين؟

-: أقول بالله عليكم أن تأخذوا أنعامكم وانعامنا معكم وتنحدروا بها إلى مواطن الربيع، وتتركوني مع زوجي في هذا المكان.

: دعي عنك هذا الكلام يا امرأة ولا تسخري منا.

-: ليس في الأمر سخرية ورب البيت.

: أجل تتكلمين جادة؟

-: بكل تأكيد، أجل تريدون أن تجلسوا فتهلك مواشيكم وثروتكم في وجوههكم عند رجل مريض لا يدرى متى برؤه؟

: أبداً، هذا لا يمكن.

-: أنا شدكم الله أن تذهبوا في سبيلكم بعد أن تنقلوه معي إلى ذلك الغار من الجبل حيث سأعيش معه فيه.

: هاه!! ونتركك لوحدك؟

-: لا خطر علي من ذلك، فالماء عندي والطعام عندي، ولا أخاف من أن أبقى لوحدي عند زوجي، فإن برأت حروقه وجروحه فهذا ماكنت أبغى، وإن إختاره الله إلى جواره فسوف أستعين بسكان تلك القرية لدفن جثمانه.

: إنها لكبيرة أن نذهب ونتركه في هذه الحالة.

-: إسمعوا كلامي وأذهبوا راشدين، وعليكم ترفرف الراية البيضاء دون خشية أن يقال عنكم أي سوء.

: يبقى معك أحدنا يساعدك عليه.

-: لن أقبل أن يبقى معي أحد، سأبقى لوحدي مع زوجي فإذهبوا لا لوم عليكم ولا مسبة تلحقكم.

: إذا، على بركة الله.

كان زوجها المصاب يسمع كلامها ويؤيد ما ترمي إليه بايماءة بسيطة تصدر عن شفته العليا السليمة وإغماضة خفيفة من إحدى عينيه، وكان يحاول الكلام ولم يستطع، غير أن إجابته بعينه اعتبروها موافقة منه على ذلك، سيما وأنه بديار قومه وأبناء عشيرته، لذلك ما إن أصبح الصباح حتى سارت الأظعان متجهة إلى المكان الخصيب، وبقيت فهدة مع زوجها المريض تحت ظلال هذا الكهف تعالجه بعدد من مساحيق الأعشاب، تضع المسحوق على الأجزاء الرطبة ليمتص الدواء السوائل الخارجة من الجسم، وتضع السمن الممزوج ببعض الأدوية على الأجزاء الجافة منه حتى تلين، وبعد ثلاثة أيام من رحيل القوم بدأ يتكلم بكلام ثقيل عند ذلك أخذت تلاطفه وتحاول تخفيف آلامه ثم صارت ترغبه في تناول الطعام، وشيئا فشيئاً حتى بدأ يتذوق الحساء الذي تصنعه له، ولما دبت الحياة في الأجزاء المحترقة من جسمه، وأخذت الجروح تلتئم والحروق تقش، شعر بالملل من طول اضطجاعه على ظهره فطلب من زوجته قائلاً:

-: فهده!!

: لبيك.

-: إنني أشعر بالملل والحبر في ظهري.

: «يَاظَهَرْ أُبُوْيْ وْجِدِّيْ»!! ماذا تريد؟

-: لي رغبة في أن أريحه بعض الوقت.

: من عيني الإثنتين.

-: تسلم عيناك.

: ولكن كيف أعمل بك «يَا بَعَدْ حَيِّيْ وْمَيْتِيْ»؟

-: هاه!! لا أدري.

: كما ترى لا أستطيع أن ألمس جسمك «المُتَمَوَّسْ».

-: إيه، ولكني مللت من الاضطجاع على ظهري.

: آه، يا ظهر «الحَيِّنْ وَالْمَوْتَى» ولكن كيف أفعل؟

-: حاولي.

: لو وضعت يدي من تحت ظهرك فربما آلمتك وآذيتك.

-: يديك لا تؤذيني، إنها بلسم شفائي!!

: أزال الله مابك وألبسك ثوب العافية.

-: «تَكْفَيْنْ» يا فهدة.

: «يَابَعَدْ عَمْرِيْ وْرَوْحِيْ» بودي أن أعمـل لك شيئاً ولكن ليس في يدي حيلة أتبعها.

-: حاولي رفعي بيديك.

: من أي جزء أرفعك وكل جسمك «متموس».

-: هاه، إن ظهري بدأ يؤلمني من الحبر أكثر من آلام الحروق.

: ولكن ما الحيلة «يَا بَعَدْ رُوْحِيْ»؟

-: فكري فلن تعجزك الحيلة.

: هاه، ألك مقدرة بالشد بأسنانك؟

-: بأسناني!!

: نعم، إذا كانت لديك المقدرة على ذلك فلدي الحل.

-: ما هو الحل؟

: الحل أن أعقد طرفي جديلتي الأماميتين من شعـر رأسي وأنحني عليك لتعض

بأسنانك ملتقي الجديلتين ثم أرفعك برأسي دون أن ألمس جسمك، ثم أبقى رافعة جسمك بعض الوقت حتى تستريح فأعيدك بنفس الطريقة إلى وضعك الحالي.

-: آه، دعيني أجرب.

: هذه ذوائب قروني فوق أسنانك فعليك بِعَضِّها.

-: آه، آه، إنني ثقيل، وأخشى أن يؤثر ثقلي على رقبتك أو ظهرك.

: لا تنقل هما لهذا الأمر، إنني أتحمل.

-: سيتعبك هذا العمل.

: تعبك راحة لي، المهم أن يريحك.

-: لا، لا، إنني ثقيل الجسم على عنقك الطويل وأخشى أن يتأثر.

: روحي وعنقي فداءاً لك، فعليك أن تمسك باسنانك ذوائب قروني المدلاة عليك.

-: آه، إيه، جعلها الله ذوائب لا تمسها النار.

: هل تشعر الآن بالراحة؟

-: آه، إيه، بعض الشيء.

: لقد أثلجت صدري بهذا الخبر.

-: آه، لقد ارتحت وأحس بظهري قد برد علي.

: الحمدلله، هذا ما أحرص عليه.

-: أعيديني إلى حيث كنت.

: سمعاً وطاعة يا ماء عيوني.

-: آه، فهـ. . فهـد. . . فهده «يَا بَعَدْ حَيِّيْ وْمَيْتِيْ» وقفزت الدموع من عينيه وغص ببقية الكلمات في حلقه.

: لماذا ظهرت دموعك، هل آلمك شيء؟

-: لست ممن يبكي عند الألم يا بنة العم.

: مالي أرى دموعك تتناثر؟

-: لقد استخرجها من مكانها لطفك وحنانك.

: وماذا عملت لك «يا روحي».

-: لم تتركي شيئاً حسنا إلا كانت لك اليد الطولى فيه.
: عفواً لا تخجلني.
-: أرأيت الأم الحنون ربما لم تخدم ابنها وفلذة كبدها الذي سبح في أحشائها مثل خدمك لي.
: أوه، دعك من هذا، ولكن ماذا تشتهي أن أصنع لك من الطعام؟
-: لا أريد طعاماً الآن بعد أن شعرت بالراحة بعض الشيء.
: وإذا صاحب هذه الراحة وجبة شهية تنفع جسمك أفلا يكون ذلك إفضل؟
-: آه، ولكني لا أريد أن أشق عليك.
: أوه، إنما تسميه مشقة هو غاية الراحة عندي لما أشعر به من راحتك أنت.
-: لا عدمت وجودك يا بنة العم.
: عسى يومي قبل يومك «يَا بَعْدْ عُمْرِيْ» فماذا تشتهي أن أطبخ لك.
-: كل طعام تصنعه أنا ملك أجد له لذة على كبدي.
: لا تبالغ في الأمر واخبرني ماذا تشتهي؟
-: يعلم الله إن هذا الأمر بعيد عن المبالغة، فحتى لونا ولتيني بيديك قليل من الماء فإذا شربته وجدته ينقع في جوفي وكأنه الشهد الصافي.
: هاه، ماذا تريد؟
-: أي شيء يخطر على بالك وتقدميه لي فهو مقبول.
: الآن، حيرتني حين وضعت الخيار بيدي.
-: أبداً، إفعلي ما تحبين.
: هاه، قد عملت لك هذه الطبخة التي قد تعجبك.
-: ما رأيك يا بنة العم؟
: في أي شيء؟
-: إنني أرغب أن تناوليني إياها وأنا جالس.
: أبشر، يا إنسان عيني.
-: تسلم العيون، وصاحبة العيون.
: إذا، دع الطعام يبرد قليلاً حتى إذا جلست يكون ملائما للأكل.
-: كما تريدين.

: لقد أصبح الطعام ساخنا مقبولاً للتناول.

-: إذا، أدلي عليَّ جديلتيك.

: أبشر، أبشر.

-: وتنحني إليه وهي تقول: عليك أن تنهض قليلاً قليلاً حتى لا تتأثر حروقك.

: إن مريضا أنت ممرضته لن يحس بالألم.

-: توكل على الله.

: آه، لقد استويت جالساً جعل الله رديئات العذاري فداء لعنق هذا الغزال الذي يرفعني من فراشي وأنا بهذا الثقل.

-: ها، ها. . كل العذاري؟

: نعم،

-: أخشى لو سمعك أحد منهن لمارضين عنك.

: لقد إشتثنيت الطيبات مثلك وأمثالك.

-: أوه، لو سمعتك أردأ هن لاشتاطت غضباً.

: لست مبال بغضبها أو رضاها.

-: ألا يؤلمك البقاء جالسا؟

: بل إنني أشعر بالراحة مع إسنادك ظهري بيدك وإطعامي وإسقائي بيدك الأخرى، لأنني أغص بالطعام واشرق بالشراب عندما أكون مضطجعاً على ظهري.

-: إنني أسعى إلى ما يريحك.

: جزاك الله عني خير جزاء.

-: وماذا فعلت؟

: بل ماذا تركت من الأفعال الحميدة.

-: أراك وكأنك تريد أن تضطجع.

: إي والله.

-: إذا، توكل على الله، وعلى مهلك.

: آه، الحمد لله على حسن تدبيره.

-: له الحمد والثناء، ما رأيك يا أبا فلان؟

: في ماذا؟

-: هل توقع أن القوم قد وصلوا إلى أرض الربيع؟

: آه، لئن كان سيرهم حثيثا فقد وصلوه أمس أو اليوم وإن كان مشيهم بطيئاً فلن يصلوه إلا بعد غد.

-: أوه، إنه بعيد.

: ليس على الحي بعيد، كم يوماً مر على رحيلهم؟

-: لقد مضى عليهم ثمان وعشرون ليلة.

: إذا، هم على مشارف الربيع، أو غطسوا فيه. وفقنا الله وإياهم.

-: إيه، قدر الله وما شا فعل، كنا نريد أن نرافقهم.

: لكنها إرادة الله يا ابن العم.

-: صحيح ما جاء في الحديث الشريف «تريد ياعبدي وأنا أريد وليس لك إلا ما أريد»!!

: ستبرأ بعد أيام وسوف نلحق بهم.

-: نلحق بهم!!

: نعم، وما المانع في ذلك؟

-: ليس هناك ما يمنع سوى وجود المطية التي توصلنا إلى ذلك المكان.

: لن نعدم الركائب إذا شفاك الله وعافاك.

-: أو يفرجها الله من عنده.

: فرج الله قريب.

-: أما رأيت سحابا عندما صعدت إلى ذروة الجبل؟

: لم أر شيئاً، غير أن الجو يبشر بخير.

-: ماذا رأيت من بوادر المطر؟

: لقد هبت الرياح جنوبية تحمل رائحة منعشة، وأرى سمت الأفق يكتسي بغلالة داكنة قبل غروب الشمس.

-: بشرك الله بالخير، مادام «الهَبُوبُ قِبْلِيّ» فهذه إن شاء الله من بوادر الغيث.

: ولكن حتى لو جاء المطر هنا وربعت الأرض فليس هناك رواعى ترعاها.

-: إذا نزل المطر فإن هناك من يتسفيد منه.

: كما تعلم أن جميع العرب الرحل الذين يقطنون في هذه المنطقة قد رحلوا وانحدروا إلى ربيع الوسم.

-: أنسيت أن هناك عدداً من القرى المليئة بالسكان وقد مكثوا في مزارعهم بانتظار الفرج من ربهم؟

: أوه، لقد نسيت، لقد إنحصر تفكيري في قطعان البوادي ونسيت من سواهم.

-: إيه، إذا كان البشر ينسون رفاقهم فإن الله لا ينسى من خلقه أحداً.

: أراك وقد داهم النعاس جفنيك؟

-: هاه، إي والله، لكأنني نعست فلا أكاد أرى ضوء السراج.

: لا بأس عليك نم هانئاً مطمئناً، وإذا أردت خدمة فأخبرني، أنا لست بعيدة عنك.

-: سلمك الله.

: تصبح على خير «يَا خَلَفْ جِدِّيْ».

-: وبعد إغماضة بسيطة صاح: فهده، فهده.

: لبيك، حاضرة ماذا تريد؟

-: أحس هذه الجهة من جسمي تؤلمني.

: تؤلمك!! «يَا كَبْدْ أبُوْيْ».

-: إي والله، إنني أشعر بأنها تقرصني.

: قد يكون بك «شَمَمْ».

-: آه، رياح اليوم ذات شذى عطر نقد تكون أثرت فيك.

: ماذا لديك من العلاج؟

-: لدي علاجاً ينقض «الشمم» سأنقعه الآن بالماء واسقيك كمية منه.

: أهو مجدي؟

-: نعم، إنه دواء ناجح لمثل هذا العارض.

: أين هو؟

-: ها أنذا أجهزه، وبعد فترة قصيرة سأناولك إياه.

: آه، إنه دواء مر، مم يتكوّن؟

-: أوه، يتكون من مجموعة من الأدوية من خلاصات الأعشاب والمواد الأخرى، فعليك أن تصبر على مرارته رغبة في شفائك.

: أه، إنه مرجداً، وبالكاد أزدرده.

-: جعل الله فيه الشفاء.

: آه، الحمد لله، لقد شعرت بزوال الألم شيئاً فشيئاً.

-: سيزول نهائياً وتنام إن شاء الله.

: لقد ذهب ولله الحمد، ولكن مالي أرى ضوء هذه الذبالة بدأ يتراقص؟

-: كأن الهواء اشتد؟

: إخرجي من الغار وتبيني الأمر.

-: فعلاً، لقد اشتدت الرياح وعصفت.

: إيه، قد يكون نفس سحاب؟

-: ليس ذلك ببعيد.

: هاه، كأنه يخيل إلي وميض برق؟

-: تخرج من الكهف لتتأكد ثم تعود وهي تقول: إنه برق من ناحية المنشأ.

: بشرك الله بالخير.

-: والبسك ثوب العافية.

: إسمع، هذا أزيز الرعد.

-: فعلاً، إنه الرعد والبرق الحي، لقد أقبلت علينا السحابة.

: جعل الله في طشها الخير والبركة.

-: هاه، لقدأ سبلت علينا السحابة صيب قطرها.

: الحمد لله رب العالمين مغيث البلاد والعباد.

-: اللهم أنزل البركة مع ما أنزلت من غيث.

: آه، ليت عظامي تنقلني لأخرج من هذا الكهف وأرى المطر بعيني.

-: سيعود الله عليك بالشفاء وتخرج طيبا معافي.

: الله كريم.

-: ولكن «يَا غَمِيْضَةْ» ربعنا لقد رحلوا.

: لا تقولي هكذا، فهم الآن ينعمـون بعشب الربيـع وتسبح مـواشيهم في تلك الفياض الغناء يتقفرون زهور تلك الرياض الفيحاء، أما مطر اليوم فقـد جاء متأخراً بعد انقضاء جزء من فصل الشتاء.

-: فعلاً إن فصل الربيع «الصيف» على وشك الدخول.

: لكن الله لطيف بعبادة يا بنة العم، فليت عظامي تنقلني.

-: ماذا ستفعل؟

: سأتنكب بندقيتي وآتيك غداً بشبب من الوعول.

-: منحك الله ثوب العافية وستلحق على ذلك بعد شفائك إن شاء الله.

: أريد أن نضع منه عيداً لله سبحانه وتعالى حين جاد علينا بهذه الأمطار.

-: لا يشغل بالـك هذا الأمر، فالعيد لله هو الحمد والشكر له.

: هذا شيء حاصل لكني أريد أن أبرهن علي القول بالعمل.

-: سبحان علام ما في الصدور.

: أراك وقد اشتهيت النوم؟

-: أبداً، أنا ساهرة لخدمتك.

: كثر الله خيرك، وأبقاك عصابة لرأسي وقـرة لعيني، فعليك أن تنـامي، فحتى أنا أحسست بالنوم.

-: إذا، تصبح على خير.

: قبل أن تنامي كأنني أسمع خرير ماء في جوف الغار.

-: حقاً، إنه ماء يتسرب من بين تلك الصخور وينزل من تحتنا.

: ألم يؤثر على شيء من أمتعتنا؟

-: أبداً، إنه ينزل من تحت الصخور ولا خطر علينا منه.

: إذا ارفعيني لأعتدل قائماً لو لفترة وجيزة تسبق النوم.

-: أبشر من عيني الإثنتين.

: سلمت عيناك.

-: هاه، لقد استرحت، أعيديني إلى وضعي السابق.

: حاضرة رهن إشارتك.

-: الآن تصبحين على خير.

: وأنت من أهله.

وهكذا مضت ثلاثة أشهر، وفهده تعتني بزوجها وتلاطفه لتحاول إزالة آثار المرض من نفسه، تماثل خلالها عيادة للشفاء وبدأت بعض الحروق تقش، لكن مقدمة بطنه وأسفل سرته وداخل فخذيه لا تزال حروقها تسيل صديداً فاستمرت في معالجته، وذات مساء قال لها.

-: آه، يا فهده، لقد أثقلت عليك في مرضي هذا.

: «أفَا» يا أخا فلانه أنت ثقيل عليَّ؟

-: آه، نعم ألا تعلمين أنني جضيع الفراش لما يزيد على تسعين ليلة؟

: أعانك الله يا أخا فلانه، ومنَّ عليك بالصحة والعافية.

-: أنا قد قدر الله على بهذه الكارثة ولكني آذيتك معي.

: لم تلحقني منك أذية قط، ووالله إن تلك المدة التي أشرت إليها مرت علي وكأنها ضحى يوم ربيعي ممطر.

-: أتقولين هكذا؟

: نعم فوالله لكأنني وإياك في رحلة صيد، لولا ما أجده في نفسي من ألم عندما أشعر أنك تتألم.

-: أما تؤذيك رائحتي الكريهة؟

: رائحتك!! إنها في أنفي كريح المسك.

-: أما يزعجك إيقاظي لك في منتصف الليل وحرمانك من النوم المتواصل؟

: أبداً، إنني أشعر بالسعادة حينما أنفض النوم عن أجفاني لأقوم على راحتك وأسارع في خدمتك.

-: ألم أثقل عليك من الطلبات عندما تعملين لي طعاماً؟

: إنني أعتبر طلباتك وتقلب آرائك كوقع صوت طفل يناغى أمه في سنوات الرضاع.

-: إنني أصرخ في وجهك دائماً وأتلفظ عليك بكلام غير لائق بمكانتك.

: أوه، إن المريض لا يؤاخذ فيما يقول من كلام، فوقع المرض أليم، والمريض في هذه الحالة معذور، ثم ألا تعلم أن كلامك ينساب إلى سمعي فيحدث

وقعاً يشبه جريان الماء البارد إلى الكبد الظمئة؟

-: يا الله!! ما أعظمك في عيني؟

: أوه، أمثالي من النساء كثيرات.

-: لا، ورب الكعبة.

: لا تحلف، فما أكثر النساء اللواتي وقفن وراء أزواجهن وأسندن ظهورهم حتى وصلوا إلى أعلى قمم المجد؟

-: علم الله، إنك واحدة من تلك العظيمات.

: معذرة، فإنني لم أبلغ تلك المكانة التي بلغنها.

-: إنك تساوين عندي الكثير من بنات حواء.

: الكثير!! هكذا تقول؟

-: آه، لو تعلمين بمقدارك عندي.

: رفع الله قدرك عند خالقك ومنحك الصحة والعافية التي هي أغلى شيء لدي الإنسان.

-: آمين وألحقني أملي لأرد إليك ولو جزءاً من المعروف الذي أسديته إليّ.

: معذرة يا أبا فلان، إنني لم أسد إليك جميلاً وإنما قمت بجزء من واجبي نحوك.

-: أتقولين جزءاً؟

: نعم إنه جزء، ألا تعلم أنني أصبحت جزءاً لا يتجزأ منك؟

-: لا فصل الله بين هذين الجزأين الملتحمين مدى الحياة.

: نفسي فداك «يَا يَعَدْ رُوْحِيْ».

-: إنك أحب عندي من المال والولد.

: القلوب شواهد لبعضها يا بن العم.

-: ألم تشعرى برغبة للنوم؟

: لن يلج جفني النوم مادمت أستمع إلى حديثك العذب.

-: آه، وأين جانب العذوبة فيه؟

: إن فيه نغمة سحرية أحس وقعها على كبدي كذوب الشهد.

-: من أين تأتين بهذه الكلمات؟

: أستلهمها من ثنايا حديثك.

-: لقـد طار النـوم عن عيني وشعرت بنشـوة غامـرة تكاد أن تعيـدني إلى عنفوان الشباب، هاه، أصحيح أنني مريض؟

: لا بأس عليك، عارض بسيط سيزول إن شاء الله.

-: حقاً، لقد نسيت الألم، وتجاهلت ما بجسمي من حروق إن نفسي تراودني أن أهب واقفا على قدميّ.

: سيعود الله عليك ولن يعوقك ما في جسمك من البثور والقشور الخفيفة.

-: في أي وقت نحن من الليل؟

: لقد بزغت نجمة الصباح.

-: نجمة الصباح!!

: نعم، إنها تغمزنا بضوئها المتألق وكأنها تريد مشاركتنا في الحديث.

-: إنك تسبحين في الخيال.

: وكأنه الحقيقة.

-: ولكننا لم ننم.

: ما قيمة النوم إذا حصلت المنـاجـات والمناغات بين الزوجين؟

-: حقا، حقاً، إن ذلك أغلى من النوم وأحب من كل شيء. إننا نعيش وكأننا في حلم جميل.

: بل في واقع أجمل «يَاخَلَفْ جِدِّيْ وْبِدِّيْ».

-: واقع!!

: لو لم يكن هذا العارض الطفيف.

-: إنني الآن أشعر بالنشاط والحيوية.

: لكنني ألمس بصوتك بوادر النوم.

-: هاه، لست بحاجة إليه مادمت إلى جانبي.

: وحتى لو اشتهيت النوم فلابد أن تؤدي صلاة الفجر قبل أن تنام.

-: نعم، نعم، نؤدي فرض الله الذي فرض علينا ولو بالإشـارة نـظراً لمقتضى الحال.

: إنني سأقوم لأتوضأ وأصلي الفجر قبل أن أنام.

-: إذا، إمسحي على الأجزاء السليمة من جسمي كما كنت تفعلين لأقوم بتأدية الصلاة.

ومع صباح ذلك اليوم الربيعي الجميل غابت فهده بعض الوقت إلى خريب بالجبل قريب من الكهف الذي تقيم فيه مع زوجها ثم عادت وفي يديها مجموعة من الأعشاب والشجيرات التي تنمو بالجبال ولما رآها عيادة شهق وهو يقول:

-: يا الله!! ما هذا الذي معك؟

: إنها أشجار من الحمّاض والجهق.

-: هل صار العشب بهذا الحجم؟

: نعم، لقد تسددت مسائل التلاع والشعاب بالأعشاب.

-: أحقا ما تقولين؟

: لم أقل لك غير الحق.

-: متى نبت هذا العشب؟

: منذ أن نزل المطر قبل حوالي عشرين يوماً.

-: الله، ما أسعد من يراه؟

: ستراه، إن شاء الله.

-: متى؟

: إذا ارتديت ثوب العافية.

-: ياليت ذلك يكون هذه اللحظة.

: لا بعيد على الله، ولكنك ستراه عما قريب.

-: ليت من قام على قدميه وتمشى في وسط تلك الأعشاب.

: أتريد أن ترعى الحيا بعيونك؟

-: أجل، أجل ولو بعيوني.

: الأعشاب بدون مواشي لا يستفيد منها الإنسان.

-: أتقولين هذا بحق؟

: هاه!!

-: ألا تعلمين أنه يطربنا رؤية خضرة الأعشاب ونتتشى من روائح أزاهير الرياض.

: لقد شوقتني إلى ذلك.

-: أجل، تقولين لي، ترعى الحيا بعيونك؟

: إنني أريد تخفيف ولعك فيه فلا يبقى في نفسك شيئاً يؤثر على صحتك.

-: الحمدلله، لقد ظننتك لا تهتمين بأعشاب الربيع.

: أوه، إنني أشد منك اشتياقا إليها.

-: مادام الأمر كذلك فأرجو أن تذهبي إلى المكان الذي أحضرت منه هذه الشجيرات ثم انتقي من عينات لكل عشبة واحضريها إلي هنا.

: إن الأعشاب كثيرة الأنواع فماذا تريد منها.

-: عليك أن تنتقي ما ترينه مناسبا وأحضريه لي في الحال.

: أبشر، إنني رهن إشارتك.

-: لا أعد مني الله هذا الجبين الضاحك على الدوام.

: ها أنذا قد أحضرت لك مجموعة من الأعشاب.

-: يا أ لله!! ما أكبرها، وأطرى أغصانها وأكثر زهورها!!

: لقد قمشتها لك على عجل، هذه شجرة حماض وهذه شجرة جهق، وهذه شجرة قريص، وهذه شجرة دربيا، وهذه....

-: كفي تعديدها، إنني أعرفها تماماً، ناولينها شجرة شجرة لأمررها أمام أنفي وأشم رائحتها.

: أتريد أن تستافها كلها؟

-: نعم.

: ولكن بعضها يحمل أشواكاً أخشى عليك منه.

-: آه، ما أغلاها عندي وأهنأ لسعات أشواكها.

: لكنها ستؤذيك.

-: دعيها تؤذيني «ما ضَرَّمَيِّتَ طَعَنَةٌ».

: هذه أول واحدة الحماض.

-: دعيني أقتطف من غض أغصانها ملء فمي.

: أخشى أن يؤثر عليك.

-: لن تصيبني إلا العافية.

: وهذه الجهقة.

-: ناوليني الغض من أوراقها.

: لا تكثر الأكل من الأعشاب خشية أن تنتقض عليك حروقك.

-: إن هذه الأعشاب الشفاء بعينه.

: جعلها الله لك بالشفاء.

-: ناوليني أزهار هذه القريص.

: إن أزهارها قارصة ولاذعة الطعم.

-: آه، ما أطيب نكهتها وأزكى رائحتها.

: معك حق فيما تقول.

-: يا الله!! كيف نمت هذه الأعشاب وأنا لا أدري.

: لها ما يزيد على العشرين يوماً تتعاقب عليها السحائب بشئآبيب مطرها.

-: لماذا لم تخبريني عنها في وقت مبكر؟

: إنني أعلم بولعك بالربيع وخشيت أن أخبرك وأنت لا تستطيع التحرك فتتألم ويؤثر على صحتك.

-: كنت على الأقل نقلت إليّ الأخبار أولاً بأول.

: لم يخف على ذلك، لكني أعرف نفسيتك وحسك المرهف فلم أرد أن أخبرك بشيء تحبه ولا تستطيع رؤيته.

-: هاه، إذا لماذا أحضرت إليّ اليوم هذه الأعشاب؟

: لقد طغى علي الفرح برؤية هذه الأعشاب وحملتها إليك بدون شعور مني.

-: آه، لقد فعلت خيراً فلو أصرم الربيع ولم أر هذه العينات من الأعشاب لزادني ذلك غمًا.

: إيه، سأحضر لك كل يوم عينات أخرى.

-: ليت قومنا لم يرحلوا من هنا.

: سيعودون بالسلامة إن شاء الله.

-: إذا فات موسم الربيع.

: سيجدون رمام تلك الأعشاب بالمسائل والأودية وستبقى شجيرات الصيف غضة طرية حين يعودون.

-: كم مضى على رحيلهم من هنا؟

: أوه، أكثر من خمسة أشهر.

-: خمسة أشهر؟

: نعم، لقد رحلوا عنا في دخول الوسم والآن يكاد الربيع أن ينصرم.

-: يا الله!! حوالي نصف سنة وأنا على هذا الفراش.

: بماذا أبشرك؟

-: بخير، بخير.

: أبشرك أنك ستقوم عن قريب في أتم الصحة والعافية.

-: هذا ما أرجوه من الله.

: ألا تعلم أنه من بات راجياً ربه فلن يخيب؟

-: ونعم بالله، ترى متى يعود رفاقنا؟

: قد يعودون إذا احتاجت مواشيهم للماء.

-: لكن المدى بعيد بيننا وبينهم.

: بعيد!!

-: نعم ومع البعد حرارة الجو، فقد تستغرق عودتهم ما يقارب الشهرين.

: شهرين!!

-: نعم، إنهم سيسايرون مواشيهم ويؤمنون لها الماء في طريق العودة، فهم مضطرون لمتابعة الموارد والمناهل حتى يصلوا إلينا.

: في ذهابهم قلت إنهم لن يمكثوا شهراً.

-: نعم لأن ذهابهم في بداية الشتاء والمواشي لا تحتاج إلى الماء يوماً بعد يوم.

: لو عددنا المناهل التي يمرون عليها أثناء عودتهم لما بلغت عشرين منهلاً.

-: لكنهم في بعض الأحيان يبقون على المورد الواحد يوم أو يومين.

: آه، إذا كان الأمر كذلك، فإنهم معذورون في تأخرهم.

-: هذا إن كانوا عزموا على العودة إلينا منذ أن يصرم العود فإنهم لن يصلوا إلينا

إلا عند طلوع الجوزاء.

: يعني في جمرة القيظ؟

-: هذا ما تتطلبه مسافة الطريق.

: يا الله، كم سيكون غيابهم عنا في هذه الحال؟

-: هاه!!

: إن المدة ستكون حوالي سبعة أشهر.

-: يعني أكثر من نصف السنة وأنا في هذا الحال.

: لن يجئي ذلك الوقت إلا وقد أصبحت تقفز كالحصان.

-: من فمك إلى باب السماء يا بنة العم.

: الآن أنت ولله الحمد على أعتاب العافية.

-: الحمد لله.

: ذلك بفضل الله الذي أنجاك من تلك الكارثة التي كادت أن تؤدي بحياتك.

-: ثم بفضل عنايتك الفائقة التي توليني إياها.

: أوه، إذا سلمت من التقصير.

-: حاشا وكلا، لم يحصل منك أي تقصير.

: لا تذهب بعيـــداً في إطرائي.

-: تستأهلين من يمدحك على رؤوس الأشهاد.

: شكر الله لك، ومنحك الصحة الكاملة.

-: وشكر مسعاك ياابنة الأجواد.

: ماذا تشتهي اليوم أن أصنع لك من الطعام؟

-: ما تريدين أنت ففي مزاجك الكفاية.

: ومع صباح ذلك اليوم الصيفي إعتدل عيادة جالساً وقال لزوجته:

-: إنني أشعر اليوم بالنشاط والقوة ولله الحمد.

: بشرك الله بالخير، وجعلك لا ترى الشر أبداً.

-: لقد اشتقت إلى مطاردة الصيد.

: أوه، مطاردة الصيد!!

-: نعم، لقد رأيت يوم أمس مجموعة من الوعول في لوح الضلع وشدنني هوايتي

إلى مطاردتها.

: أوه، وعول في عرض الجبل منذ يوم أمس!!

-: لن تبعد كثيراً عن المكان الذي رأيتها فيه.

: هذه البدون تمسي بمكان وتصبح بمكان آخر.

-: لن تتعدي ذرى هذا الجبل.

: وهل لديك مقدرة على الصعود لتلك الذرى؟

-: نعم، والحمدلله، فقد أمضيت ما يزيد على ستة أشهر رهين الفراش، والآن أحس بالنشاط يدب في كافة أنحاء جسمي.

: هذا ما يجعلني أتخوف عليك.

-: لا تخافي.

: لا تزال جروح بطنك نيئة وأخاف عليها أن تتمزع من جديد فتؤذيك.

-: إنني بخير، أنا أدري بنفس.

: جعلك الله كذلك، لكني أود لو تصبر قليلاً حتى نهاية الشهر لتقوىٰ عضلات بطنك.

-: الحمدلله، إنني طيب ولا أشعر إلا بالصحة والعافية.

: أنا أعرف مقدار ولعك بالصيد، وأخشى أن تطارده فوق تلك الصخور، لتخاتله من بين تلك الرءوس والذري فيؤثر عليك دون أن تدري.

-: أوه، جهزي لي البندقية والجعبة.

: أناشدك الله ألا تستعجل في الأمر حتى تبرأ تماماً.

-: لقد برئت والحمدلله.

: أجل إذا صدت وعلاً فعليك أن تذكيه وأنا آتي لأحمله عنك.

-: وهل يعقل أن أصيد صيدة وأعجز عن حملها؟

: الوعول كبيرة وضخمة ولا تستطيع نقلها في وضعك الحالي.

-: لقد استعدت قوتي ونشاطي ولله الحمد.

: جعلك الله من هذه الحال إلى أقوى منها.

-: لقد اشتقت إلى لحم البدون.

: صحيح إن لحمها لذيذ ولكن مطاردتها قد تؤذيك وتضر بصحتك.

-: لا تقولي هذا الكلام، ناوليني بندقيتي وحزامي.

: أوه، الحزام هو الذي سيؤذيك.

-: بل هو الذي سيشد بطني وظهري.

: وفقك الله.

-: إذا جهزي أدوات الطبخ، وسأعود إليك قريباً ومعي صيدتي.

: أبشر، ولكن عليك بالشبب منها.

-: ولم يمض طويل وقت حتى آب عيادة يحمل فوق ظهره أحد الوعول المتوسط العمر لا يكاد يزحزحه، ولما وصل رمي به قرب فم الغار قائلاً: أبشري بالشبب يا بنة العم.

: الحمدلله الذي أعاد إليك قوتك، وأراني باكورة صيدك بعدما جرى عليك.

-: له الحمد والثناء.

: أتريد منه شوية مستعجلة أم ستصبر حتى ينضج الطبخ.

-: أوه، خير البر عاجله، أعطينا منه قطعة مشوية، حتى تنضجي باقية.

: سمعاً وطاعة.

-: آه، آه.

: مالك تتأوه «يَا بَعَدْ رُوْحِيْ» هل أثقلك حمل الوعل عسى ألا تكون قد أحسست بشيء يؤذيك.

-: إنه لم يثقلني أبداً، ولكني أتعجب منك.

: تتعجب مني!!

-: نعم، وإن أمرك لعجب

: لم أفهم ما تعني؟

-: أعني أننا برغم هذه الظروف القاسية والوضع السيء الذي عشناه لبضعة شهور مضت وعلى رغم المضايقات التي أثيرها في وجهك لم أسمع منك كلمة تذمر واحدة.

: أنت تسبب لي المضايقات؟

-: نعم، طالما رميت المنغصات عليك في غرفة النوم وحرمتك لذيد الكري ولم أر أو أسمع منك أي إشارة أو عبارة تدل على انزعاجك.

: أوه، لا تقل هذا الكلام «يَا خَلَفْ مِنْ غَدَالِيْ»!!

-: هذه الجملة الحلوة وأمثالها هي التي جعلتني أتعجب منك.

: تتعجب مني!!

-: نعم، كنت أتوقع أن أسمع منك ولو مرة واحدة طيلة هذه الفترة الزمنية القاسية كلمة أو حتى صوتاً يدل على المضايقة.

: ماذا تعني بالمضايقة يا حياتي؟

-: أوه، يمر المريض بظروف صعبة للغاية تجعله لا يدري ماذا يقول، ولا يعرف ماذا يفعل فيرمي بالكلمة العجفاء، ويحدث الحركة النشاز فيتضايق منه من حوله، أما أنت فلم يحدث منك غير الكلام الذي ينصب في أذني وأحس وقعه على كبدي كذوب العسل، فلقد حدتني الضيقة المرضية في كثير من الأحيان إلى أن أشتمك، وأمقت الظرف والساعة التي أصابني فيها ما أصابني، فأراك تبشين في وجهي وتبادلين شتائمي بكلماتك الحلوة، وجملك الأخاذة المنسابة بصوتك العذب.

: عفواً، إن كنت قلت لي شيئاً من هذا القبيل فقد نسيته.

: ألا تذكرين

-: أبداً، لم يحدث شيئاً يستحق الذكر، وما رأيك أن تتذوق نتفة من هذه اللحمة المشوية إن كانت نضجت بما فيه الكفاية أم لا.

: ناوليني وذرة من هذا الكف الذي أرجو ألا أعدمه.

-: على شرط أن أضعها بيدي في فمك، فأغمض عينيك.

: آه، ما ألذ هذا الشواء!! أتذكرين حينما كنت تضعين الدواء على أحد الجروح، فآلمني ألما شديداً، مما جعلني أصفع جبينك وأبصق في وجهك؟

-: هاه!! لا أذكر ذلك.

: آه، أنا الذي أذكره تماماً، فلقد أزلت ما على وجهك من التفال وأنت تقهقهين بضحكة مدوية وتنحنين عليَّ وكأنني قدمت لك هدية ثمينة.

-: آه، إنني أحس حتى الآن برائحة ذلك التفال على وجهي وكأنه بنَّة العنبر والمسك.

: آه، ليتني سمعت منك كلمة سخيفة واحدة أعتبرها عقابا لي.

-: ولماذا تتمني أن تسمع مني مثل هذه الكلمة.

: هاه!! لأعتبرها رداً على كلامي عليك.

-: لم ولن تسمعها مني إن شاء الله.

: يا بنة الأجواد المريض يمر بأوضاع نفسية سيئة يصعب عليه التحكم بلسانه وتصبح نفسيته مثل نفسية الطفل الصغير.

-: إنني أعلم ذلك تماماً ولكنك لم تمر بمثل هذه المرحلة.

: آه، لقد مررت بها ولكنك كالروض المربع الذي تختفي فيه الأشواك والأغصان اليابسة والحجارة والدمن تحت أزاهيره الفواحة وأفوافه المتغطرفة.

-: أشكرك على هذا الإطراء الذي لا أستحقه.

: إذا لم تستحقيه أنت فمن ترى يستحقه من بعدك.

-: تستحقه النساء اللواتي هن أطيب مني.

: جعلهن الله فداك.

-: لا تفديني ببنات الأجواد.

: وأنت على رأسهن.

-: من أجل ماذا؟

: لأفعالك الحميدة، ومواقفك النبيلة معي.

-: أرجوك ألا تعطي الأمر أكثر من حجمه.

: إنك تستأهلين أكثر من ذلك.

-: هاه، إنني أرى زولاً قادماً إلينا.

: أرجو أن يكون قادم سعد، أراكباً أم راجلاً.

-: بل ممتطياً كور مطيته.

: جهزي له طعاماً.

-: لن يكون هناك أفضل من لحم هذا البدن الذي يطبخ على النار.

: حقاً، حقاً، لكنه ضيف ويحتاج إلى ضيافة.

-: هاه، لكأنني أعرفه.

: تعرفينه؟

-: نعم، إنه فلان، إنه فلان.

: حياه الله .

-: ها هو ينيخ مطيته وقد أقبل راجلاً .

: حياك الله ، أهلا وسهلاً بك .

-: الحمدلله على سلامتك بعد أن اسبغ الله عليك ثوب الصحة والعافية .

: أبشرك أنني بخير ولله الحمد، لقد استعدت كامل قواي وأصبحت كأن لم يحدث لي سوء .

-: إيه ، الحمدلله المبدىء المعيد .

: هاه ، ما أخبارك وما وراءك؟

-: الحمدلله ، أخباري جيدة ، وأبشر بفريقنا قد عادوا بكاملهم وهم بصحة جيدة ، ومواشيهم بحالة ممتازة .

: بشرك الله بالخير، وأين هم الآن .

-: على مرحلتين من هذا المكان ، فهم في المكان الفلاني .

: يعني أنك تقدمت عليهم .

-: نعم ، لقد جئت لسبر المكان ، كنا نخشى أن تكون أرضنا قد نزلت من بعدنا .

: أبداً إنها لم تنزل، وقد أراف الله عليها بالأمطار والخيرات وأصبح العشب بأحجام الشجر .

-: ما شاء الله ، لقد كنا نسأل عنها الركبان ونتلقى أخبارها أولاً بأول ونحن بعيدون عنها، ولقد شاهدت في طريقي أثر هذا الربيع .

: يمكن أن يكون ما شاهدته ما كان موجوداً في مسائل الشفايا والأودية ، أما لو صعدت الضلع لرأيت المسائل والخربات والتلاع وقد تسددت من الأعشاب والحشائش والشجيرات .

-: الحمدلله ، أجل تستطيع أن ترقى الجبل؟

: الشكر لله ، بل وأطارد الوعول فيه .

-: تطارد الوعول؟

: نعم ، وهذا الذي يطبخ على النار مما صدته صباح هذا اليوم .

-: الحمد لمن يعيد للانسان كامل صحته .

: آه، متى تتوقع أن يصل فريقنا إلينا؟
-: سيصلون بعد غد إن شاء الله .
: بعد غدٍ!!
-: نعم، يا الله، ما أشد شوقي لرؤية أبناء عمي ورفاقي .
: سيصلون بعد غد إن شاء الله وستقر عينك بلقائهم .
-: لن أصبر حتى يصلوا .
: ماذا ستفعل؟
-: سأعود معك على ظهر مطيتك .
: تعود معي؟
-: نعم .
: وزوجتك؟
-: آه، فهذه الغالية!! لن أتركها .
: ما رأيك لو جهمنا أنا وأنت فنصل إلى هناك قبيل الظهر وتسلم على بني عمك ورفاقك وتعود إليها في نفس اليوم وسوف تعود إليها قبل حلول الليل .
-: أتريدني أن أتركها لوحدها؟ بعد كل ما بذلت في سبيلي .
: وماذا في ذلك؟ إنها لا تخاف .
-: لا تطاوعني نفسي أن أتركها لحظة واحدة ولن تغاب عن نظري طرفة عين .
: إذا، ماذا تريد أن نفعل، فالمطية لن يركبها أكثر من إثنين؟
-: هاه، فكر .
: إتنازل لكم عن مطيتي وتذهبان عليها وتعيدانها إلي مع أحد الإخوان .
-: هذا هو الحل، وقد تبادر إلى ذهني، لكن شهامتي أبت على أن آخذ مطيتك من تحتك، ولكن حينها جاءت منك بنفس طيبة فهذا ما كنت أريد .
: جعلها الله فداك، إذا سأبقى في مكانكم حتى تعود إلى مطيتي .
-: حسنا، أعطينا ما عندك «يَا لَنْشْمِيَّةْ» .
: وتناولوا طعام العشاء، من لحم تلك الصيدة وباتوا ليلتهم، ومع خيوط الفجر الأولى! إمتطى عيادة كور المطية مستردفا زوجته خلفه حيث «زومعت» بهما متوجهين إلى منازل الحي، وعندما استرت الشمس في كبدا السماء كان

عيادة وزوجته يطلان على بيوت الفريق الذين ما إن عرفوا القادمين حتى علت أصواتهم بالفرح والاستبشار بهذا القادم الميمون وهنؤوه بالسلامة والشفاء التام، وأعيدت المطية إلى صاحبها وبقي عيادة وزوجه مع الفريق حتى وصلوا إلى منازلهم التي غادروها قبل ما يقارب السبعة أشهر، وهكذا التأم شمل هذه العشيرة بعودة الغائب وشفاء المريض، ومرت الأيام تترى عبر فصل الصيف وأوائل الخريف، وذات ليلة كان عيادة غارقاً في نومه فرأى في المنام كأن مطيته التي يعتلي كورها قد طعنها رمح بطعنة نجلاء في وركها مما جعلها تنهار وتجثم على الأرض، فأحس بقوة وقعها على الأرض واستيقظ من نومه فزعاً فقالت له زوجته.

-: ما بك ياعيادة؟

: خير، خير، بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

-: خير إن شاء الله.

: لقد رأيت رؤيا مفزعة كان لوقع أحداثها أثر في نفسي جعلني أفز من نومي.

-: ما هي رؤياك؟

: لا داعي لذكرها، إنها أضغاث أحلام، فعليك أن تنامي.

-: إذا، استعذ بالله من الشيطان. وسم بالله.

: إن شاء الله، نامي، نامي.

-: وأنت، ألا تريد أن تنام؟

: إنني أغالب النوم الآن. يقول ذلك وهو يتظاهر أمام زوجته أنه على وشك النوم يتثاءب تارة ويتمدد تارة أخرى، بينما هو قد أحاطت بأفكاره بعض الوساوس، وأيقن جازماً أن زوجته سينالها مكروه، إن صدقت رؤياه، فظل يتململ في فراشه حتى بزغ شعاع الفجر عندما سمع المؤذن ينادي لصلاة الفجر، فقام وصلى ثم عاد واجتمع عليه قومه في تهوته وزالت عن تفكيره تلك الهواجس، لكنه بقي كالمترقب لأمر قادم لا يدري مصدره، وظل هذا الحلم يشغل تفكيره فترة من الزمن، وكلما أراد أن ينساه أو يتناساه، تجسدت أمام ناظريه تلك الرؤية السوداء عن ذلك الحدث المنتظر الذي يتخوف منه.

وذات ليلة خريفية باردة، نام مع زوجته في فراش واحد وفي الهزيع الأخير

من الليل تنبه على صوت زوجته توقظه قائلة :

-: عيادة، عيادة، إنهض وشب النار، إنهض، أسرع.

: مابك، مابك؟ عسى أن يكون خيراً.

-: أسرع أوقد النار وضع المكوى فيها.

: سلامات.

-: أسرع أسرع.

: ويهرع من فراشه، فيأخذ الزناد و«الوِذْنِحَةْ» ويلف شيئاً من دقاق الحطب ثم يشعل النار، ويضع قضيباً من الحديد في النار ثم يعود إليها قائلاً: مابك، مابك!؟

-: إنظر ما في يدي.

: ما الذي في يدك؟ آه، يالله!! ياللهول!! ما أكبر هذا الثعبان عسى ألا يكون قد أصابك؟

-: آه، لقد غرس أنيابه في فطحتي، آه لقد أمسكت رأسه على موضع النهشه.

: يا الله!! ياهول ما أري!! آه، لقد قتلته.

-: أسرع بالنار، وعليك بكى الموضع بسرعة لابطال مفعول السم.

: ها أنذا أكوية.

-: لا أحس بذلك، آه، آه، آه وداعاً يا عيادة يا بعد عمري.

: فهده، فهده، فهـ. هآه، هاه، ماتت، آه، لقد فارقت الحياة. إنا لله وإنا إليه راجعون، قدر الله وماشاء فعل، رحمك الله يا أعز زوجة في الوجود، آه لقد فارقتني وبفراقها فارقنى أنسي، إنني أكاد أن أفارق الحياة، ليتني فارقت الحياة قبلها، رحمك الله واسكنك فسيح جناته. ياهول ما أرى!! لقد انتفخ جسمها وتمددت مفاصلها، إن كل عظم يكاد أن ينفصل عن الآخر، يا الله، ويصرخ صرخة مفزعة ثم يقع مغشيا عليه.

هرع أهل الحي على صرخته مسرعين حين وجدوه بهذه الحالة ووجدوا زوجته قد فارقت الحياة وانتفخ جسمها بتأثير السم فأسرعوا في تجهيز جثمانها للدفن بواسطة نساء الحي قبل أن يتهرأ ثم صلوا عليها صلاة الفجر وواروها مثواها الأخير، وضج الحي بكامله بالحزن والأسى وتتابعت وفود المعزين الذكور

والإناث على عيادة، الذي ضاقت الدنيا بعينيه، وأطبق عليه الكون بثقله فصار ينتقل من غيبوبة إلى أخرى من شدة وقع الفاجعة كلما طرأت عليه زوجته أو شاهد شيئاً من مقتنياتها حتى اضطر حضاته إلى إخفاء كل الأشياء التي تمت إليها بصلة، لكن الحزن بقي يعصف بقلبه كلما شاهد قبرها، مما اضطر شيخ العشيرة أن يطلب من الحي الرحيل من هذا المكان والنزوح إلى مكان بعيد عنه بعض الشيء، لعلهم أن ينتشلوا عيادة مما هو فيه، وعندما سمع عيادة بعزمهم على الرحيل قال قصيدته التي منها:

٦٢ نَـطَّيْتْ رِجْمٍ لَا سِقَى رَاسُـهْ الْحَيَـا   سِمِيْـحٍ مِنْ رُوسَ الْعَـوَالِيْ طْنُـوْبَـهْ
٦٣ وَلْـلِيْ يَـا عَـيْنٍ كِـلْ مَـا قِلْتْ هَـوِّدَتْ   يَـا تِقِـلْ بِـرْطِمْ شَنَّةٍ مِنْ غْـرُوْبَـهْ

وعندما تجهز القوم للرحيل من المكان وغادرت معظم الأظعان وقف بحذاء قبر زوجته يجسد انفعالاته وعواطفه بهذه القصيدة التي منها:

٦٤ يَـا مِـزْنَـةٍ غَـرَّانِشَتْ وَاسْتِكَنَّـهْ   عَلَى الْخَضَرْ وادْيَارْ غَمْقِيْنَ الاظْعَانْ
٦٥ تَـاقَفْ عَـلَى الـرَّكَّةْ تِقِـلْ يَـوْمْ سِنَّـهْ   مِنْ زَوْدْ سَيْلَهْ يِغْـرِقْ الْجِنْ وَالْجَـانْ
٦٦ وَالْـلِّيْ تَـعَـلَّا سَيْلِةٍ مِـسْـتِكِـنَّـهْ   حِلْوٍ عَلَيْكِنْ طَـامِيْ الْعِشِبْ رَيَّـانْ
٦٧ وَاوَنَّـتِيْ تَـاتِي ثْـمـانِـيْنْ وَنَّـهْ   مَـا أقْوَاكْ يَـا زَوْرِيْ عَلَى ثِقِـلْ مَاجَانْ
٦٨ وِنِـيْنْ رَاعِـي سَـابِـقٍ غَـرَّقَـنَّـهْ   شِهْبَ النُّواصِيْ مِرْخِيَاتٍ بَالارْسَانْ
٦٩ تِقَـطَّعَتْ بُـوْجِيْـهِـهِنْ وَاوْدَعَـنَّـه   بَنَـاتْ قَـوَّادْ السِّـبَـايَـا كْحَيْـلَانْ
٧٠ بِـرْمَاحٍ مِنْ فَـوْقَ الْبِـرِيْمِ اضْـرِبَنَّهْ   فَـوْقَ الْبِـرِيْمِ وَحَـدِرْ لِّمَاتْ الامْتَـانْ
٧١ عَلَيْـكِ يَـالْـلِي مَـالْهَـدِّتَنْ بْـوَنَّـهْ   يَـا بُـوْثِمَـانٍ كِنَّهِنْ وَزِنْ مِـيْـزَانْ
٧٢ يَـا مَـابِـدَيِّـيْ كِـلِّهِنْ لْمَسَـنَّـهْ   وَالسُّهِـرْ يَـامَا دَافِيْ الْوَسْطْ حَـاضَانْ
٧٣ غَـدَتْ عَـلِي مِثْـلَ الْقِـطَاةْ الْمِكِنَّـةْ   يَـا مَـا بِـرِيْتْ وْوَالْ الاقْـدَارْ عَـافَانْ
٧٤ عَـرَفَتْ يَـوْم غْـظَامَهَا مَـعْ مِزَنَّـهْ   هَـوْزَةْ عَـدِيْمِ هَـازْلَـهْ وَاطْلَقْ الـزَّانْ
٧٥ عَـزَّيْ لْعَيْنِي تِقِـلْ نَـاضُـوخْ شَنَّـهْ   مِنَ الْبِيْرِ يِجْذِبْنَهْ مَـرَاجِيْـحْ عِثْمَانْ
٧٦ بِخْـلَافِهِنْ رِقْطَ الْمَحَـاجِيْـلْ غَنَّـهْ   زِمَّـارْ دَوْلَـةْ عَسْكِـرٍ تِـقِـلْ دِيْـبَـانْ
٧٧ غِبَّ السُّـوَاقِيَ وَالثّـلَاثْ اطْـلَعَنَّـهْ   بِغْرُوْبْ يُـوْدِعْنَ اشْهَبَ الْمِي شِـلَّانْ
٧٨ وِدَاعَـتَـكْ سِخَـمَ الضِّـرَا لَا يْجِنَّـهْ   وِدَاعَتَـكْ قِصِيْـرِتَـكْ يَـا بْنَ جِـرْكَـانْ

ثم ودع القبر وسار مع الظعن للنزوح إلى المكان المقرر الجديد، وانتشرت القصيدة بين سكان الحي ثم ساربها الركبان وصارت تروى مع قصة الحارثة.

وعندما وصلوا إلى المكان الجديد ومع مرور الأيام خفت وطأة المصيبة على عيادة، لكنه مازالت تعاوده لواعج الجزن والأسى لتعصف بقلبه، فيصاب بحالة من الذهول وينسى من حوله ثم يجسد لواعجه بأبيات من الشعر.

وفي إحدى الجلسات كان يحدثه أحد الحاضرين عندما رأى محدثه قد سرح في نظره بعيداً، وتناقزت من عينيه زخة من الدموع تناثرت على لحيته ومقدمة ثوبه فسأله:

-: ما بك يا عيادة؟

: هاه!! لاشيء لاشيء.

-: إني أرى الدموع وقد انتثرت من عينيك.

: أحقا ما تقول؟ ويمر بيده على وجهه فيمسح لحيته ويجدها قد تبللت بالدموع فعلاً فيستأنف حديثه، آه، لقد قفزت هذه الدموع من عيني بالرغم مني.

-: رغماً عنك؟

: نعم، آه يا رفيقي، لقد عجزت عن السلو عن تلك المرأة رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه.

-: ألم تنسها بعد؟

: أنساها!؟

-: نعم، فكثير من الناس بمجرد مرور بضعة أيام على موت من يحبون يدخل الفقيد عندهم بحر النسيان.

: أولئك الذين لا عواطف لديهم.

-: لا يخلوا إنسان من العاطفة.

: بلا شك، لكن بعض العواطف متبلدة.

-: لا أوافقك على ما تقول.

: وإن كنت لا توافقني.

-: لكنك ذا عاطفة حساسة.

: آه، لم تر ما رأيت.

-: كيف؟

: لـو عاملتـك إنسانـة بمثل مـا عاملتني زوجتي لـرقت عاطفتـك حتى لو كـانت صخرة صلدة.

-: إنها رحمها الله، إمرأة مثل بقية النساء.

: لا، وألف لا، إنها تختلف عنهن تماماً.

-: تختلف عنهن!؟

: أطلاقا، إنها إمرأة مثالية.

-: مثالية!!

: إنها رحمها الله تحتل قمة المثالية، وصفوة الجمال، وذروة الكمال.

-: لم نعرف ذلك منك في حياتها.

: إنك لم تسألن مثل هذا السؤال، والا لعرفت ذلك مني.

-: رحمها الله.

: وخلد روحهـا في جنـات النعيم، صـدقني يـا بن العم إنني منـذ أن أمسكت بيدها، حتى اختارها الله إلى جواره لم أسمع منها كلمة شاذة واحدة، ولم تكدر صفوي بقول أو فعل ولو مرة واحدة.

-: ليس غريبا عليها ذلك، فهي من نساء طيبات.

: لقد فاقت كل النساء، إنها إلى جانب ذلك تتمتع برأي سديد وعقل راجح.

-: إن أباها ممن يتصفون بهذه الصفة.

: أرأيت رأيهـا عندمـا احترقت ونحن عـلى وشك الـرحيل، كيف وقفت ذلـك الموقف الذي لا يقفه بعض الرجال.؟

-: فعلا، لقد قامت بالمهمة خير قيام، وتركت الفـريق يذهب وشـأنه لا نتجـاع الربيع.

: لقـد عكفت عـلى واحـاطتني بعنـايتهـا وعـطفهـا مـا لم تفعله أم رءوم لابنهـا الصغير.

-: يا الله، ماذا فعلت؟

: لم تترك شيئاً فيه راحتي والعناية بي إلا فعلته.

-: مثل ماذا؟

: حينما رأتني لا أستطيع النهوض وحذراً منها أن تلمس جسمي المحترق بيدها، فقد كانت تنحني عليّ مدلية ذوائب جدائلها لكي أعضها بأسناني، فترفعني برقبتها حتى أستوى جالساً فتناولني طعامي وشرابي بيد وتسندني باليد الأخرى حتى إذا أنتهيت أعادتني بنفس الطريقة إلى فراشي.

-: يا الله!! وهل تستطيع أن ترفعك بجسمك الثقيل برقبتها؟

: آه.. لقد استطاع ذلك العنق الذي أرجو ألا تمسه النار.

-: رحمها الله.

: ووالله لقد مكثت في هذه الحالة ما يزيد على ثلاثة أشهر منها حوالي أربعين ليلة وأنا بالفعل لا أستطيع حراكاً، ثم جاءت بعدها فترة ثلاثين ليلة كان باستطاعتي أن اتحرك لكني أركن عليها، وجاءت بقية المدة وأنا أستطيع التحرك لكنني أردت امتحانها.

-: تمتحنها!!

: نعم أردت أن أرى شدة صبرها وقوة عملها.

-: وماذا وجدت منها؟

: لم أجد إلا المرأة الصبورة، ذات قوة تحمل هائلة.

-: إيه، غفر الله لها.

: وفوق ذلك، كما تعرف المريض أحيانا يكون عصبي المزاج متغير النوازع يرمي بالكلمة الرديئة ويفعل الحركة النشاز وينثر المنغصات، ويأتي بالمضايقات، أتدري ما موقفها؟

-: هاه، لا والله لا أدري.

: إنها تقابل كل كلمة رديئة بابتسامة عريضة، يبش وجهها عندما تراني عابساً، تضحك عندما تسمع مني بعض التمتمات وأصوات الضجر، تمتص آلامي بكلماتها العذبة وتخفف أوجاعي بجملها المطمئنة.

-: هذه ليست إمرأة، إنها ملاك ورب الكعبة!!

: وزيادة على هذا فإنني لم أسمع منها كلمة جزع أو نبرة تضجر، أو حركة تضايق، وكلما ناديتها حتى لو كانت في غرفة النوم لا يطرق سمعي منها غير

كلمة لبيك و «سم» تتبعها بجملها الجذابة المعهودة مثل «يَا بَعْدَحَيِّ» أويا «خَلَفْ مِنْ غَدِاَلِيْ» وأمثالها.

-: يا الله، إذا يحق لك أن تبكها، ومثلها لا يستكثر عليه الحزن.

: ليت الحزن أو البكاء يردها، إذا لبكيت وأبكيت، وحزنت وأحزنت، ولكن الحزن لا يرد ذاهباً.

-: الأفضل لك الرجوع إلى ربك، فلعل الله أن يعوضك بدلاً عنها، والدعاء لها بالمغفرة والرحمة.

: إنني دائماً أردد قول الله تعالى **﴿والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾** وأدعو لها بالرحمة والغفران، أما التعويض عنها بمثلها فإنني أشك في ذلك.

وما الداعي للشك؟

-: هناك بعض النساء لديهن بعض ما جمعته من أخلاق وصفات ولكنهن لسن في مرتبتها على كل حال.

: قد يعوضك الله بمثلها أو أحسن منها.

-: ليس ذلك على الله بعزيز، فأرجو ذلك.

: إيه، رحمها الله.

-: وأسكنها فسيح جناته إنه سميع مجيب.

وبعد مضي فترة من الوقت تسلل العزاء إلى قلب عيادة وكاد أن يسلو معظم وقته عدا إلمامات تحوم حوله لتخفق بشغاف قلبه بين الحين والآخر حتى جاء ذلك اليوم الذي جلس فيه بمجلس الرجال ولديه مجموعة من رفاقه يتحدثون بمختلف شئون الحياة، إذ قدم عليهم رجل ما إن إقترب منهم حتى عرفوه، فرحب به عيادة وفاز بلقائه، وبعد أن جلس يتناول القهوة ودارت الأحاديث قال الرجل القادم.

: يا عيادة، لماذا تركت هذا الجواد الكريم يتعذب من أجلك؟

-: من أجلي!!

: نعم من أجلك وأجل إمرأتك.

-: هاه!! من يكون هذا الجواد؟

: إنه سوهج .

-: سَوْهَجْ بنْ جِرْكَانْ؟

: ولا غيره أحد .

-: ماذا عمل؟

: أما تدري ماذا عمل ويعمل؟

-: لا والله ، ليس لدي علم بذلك .

: إنه جالس كالحارس على قبر زوجتك .

-: هاه!! زوجتي؟

: نعم .

-: كيف حصل ذلك؟

: إنه في كل ليلة عندما يتناول عشاءه يحمل سلاحه ثم يمتطى صهوة جواده ويغادر بيته ليذهب بقرب القبر بحرسه عن السباع حتى يصبح ثم يعود إلى أهله مرة ثانية .

-: هاه!! من متى؟

: منذ أن غادرتم المكان قبل شهر من الزمن .

-: هذا الذي لا أعتقد أنه يصير؟

: لقد صار، وهذا ما حصل .

-: هاه!! لقد أفزعتني بهذا الخبر.

: إذا كان مجرد الخبر يفزعك فقد بلوت هذا «الأجودى» منذ شهر لم يذق طعم النوم متحفزاً بسلاحه عند قبر إمرأتك .

-: كأنني لا أصدق ما أسمع .

: لم أنقل لك غير الصحيح .

-: حاشا يارفيقي ، أنا لم أكذبك ، ولكني لا أتصور أن سوهجاً يفعل هذا .

: أوه ، لقد فعله ولا يزال يفعله منذ أن رحلتم من عند القبر.

-: هاه!! «عَوْذَا»!! «لَحَذْ»، «يَاأَلله الخِيَرةْ»!!

: إن كنت لم تصدقني فعليك أن تذهب إليه الليلة وترى بعينك .

-: لم أكذبك يا رجل ، ولكني أتعجب من فعل سوهج الذي ذكرت .

: المهم ألا تترك ابن الأجواد يتعذب دون مبرر.

-: سأذهب إليه هذه الليلة.

: وفي المساء لاذعيادة بكـور مطيتـه متجهاً إلى نفس المكـان حتى وصله مع أذان الفجر فوجد سوهج غير بعيد عن القبر يؤدي صلاة الفجر فـانتظره حتى فـرغ من صـلاته فنـاداه عيادة وأجـابه سـوهج وسلم فـرد عليـه السـلام، وتعـانق الرجلان، وضم كل منهما صاحبه على صدره والدموع تـذرف من عينيه فقـال عيادة.

-: ما الذي تفعله هنا يا أخي سوهج؟

: أحرس قبر المرحومة مخافة أن تنبشه السباع والضباع.

-: تحرسه أنت؟

: نعم، أنا أحرسه ومن ترى يحرسه غيري؟

-: من متى «يا بعد حيي وميتي»؟

: منذ أن رحلتم من هنا.

-: منذ أن رحلنا!!

: نعم.

-: وتأتي من مكانك البعيد؟

: وفاء لذمتي.

-: ما الذي حدك على ذلك؟

: لقد حدني بيتك الذي أوصيتني فيه على جثمان زوجتك بداخل قبرها وجعلته لدي وداعة.

-: هاه!! بيتي؟

: نعم، أما قلت:؟

وداعـتـك سحـم الـضَّـرا لايجـنـه وداعتـك قصيرتـك يـابن حـركـان

-: آه، لقد قلت ذلك، ولكن على سبيل المزاح وتمشيا مع القافية.

: لقد أبت علي مروءتي أن أترك جارتي في قبرها تنبشها السباع.

-: هاه!!

: مـا الذي يستر وجهي أمام قبيلتي من الحـزم جنوبـا وحتى الجزيـرة الفـراتيـة

شمالاً لو حام سبع حول قبرها ونبثه أو جاء ضبع ونبشه؟

-: ألا يا سوهج ياخير الرجال، وأوفي الأوفياء، وأكرم الكرماء، عزيز الجار، منيع الذمار، أرجوك أن تسامحني عما اقترفته عليك وما ارتكبته في حقك من زلة لسان.

: هي لم تكن زلة بالمعنى الصحيح.

-: لقد اخطأت عليك في هذا البيت.

: لم تخطىء يا بن العم، وإنما أو صيتني بوديعة تحت هذا الرمس، فحافظت على الوديعة، لبينما تشرب الأض أبلالها وينقطع إمكانية وجود الرائحة التي تجذب السباع إليها.

-: جزاك الله خيراً يا أبا فلان، ولا غرابة أن تكون وفيا لجارك، فأنت أهل للوفاء، وقمين بحفظ الوديعة وكفؤ للذود عنها.

: «ما عليك زود» يابن العم، فكلنا من عشيرة واحدة ولا أستحق منك هذا الإطراء.

-: لقد مضى عليها الآن أكثر من شهر، وأظن أنه ليس هناك إمكانية لوجود رائحة تدعو السباع أن تحوم حول القبر.

: قد يكون.

-: إذا، يا ابن العم، عد إلى أهلك، فلقد وفيت بعهدك وحفظت وديعتك، بيض الله وجهك من كل شهر ثلاثين ليلة، ولا زالت الراية البيضاء ترفرف فوق رأسك ورأس من جاءوا بعدك.

: لن أترك وديعتي قبل أن أتأكد من الأمان عليها.

-: والله لن تلبث عندها ساعة واحدة، ولن تعود إليها ليلة ثانية.

-: لا تحلف يارجل.

-: ناشدتك الله يابن العم، كفى ما مضى.

: مادمت مصراً على ذلك، فعليك أن تنتظرني حتى أعود. وانطلق سوهج على ظهر جواده وبعد ساعة من الزمان عاد وقد حمل معه خروفين من الضأن على ظهر جواده فقال عيادة.

-: ما هذا؟

: هذه الذبيحة سأذبحها على اسم الله وأتركها فلعل رائحتها أن تضيع ما قد يخرج من الجدث من رائحة .

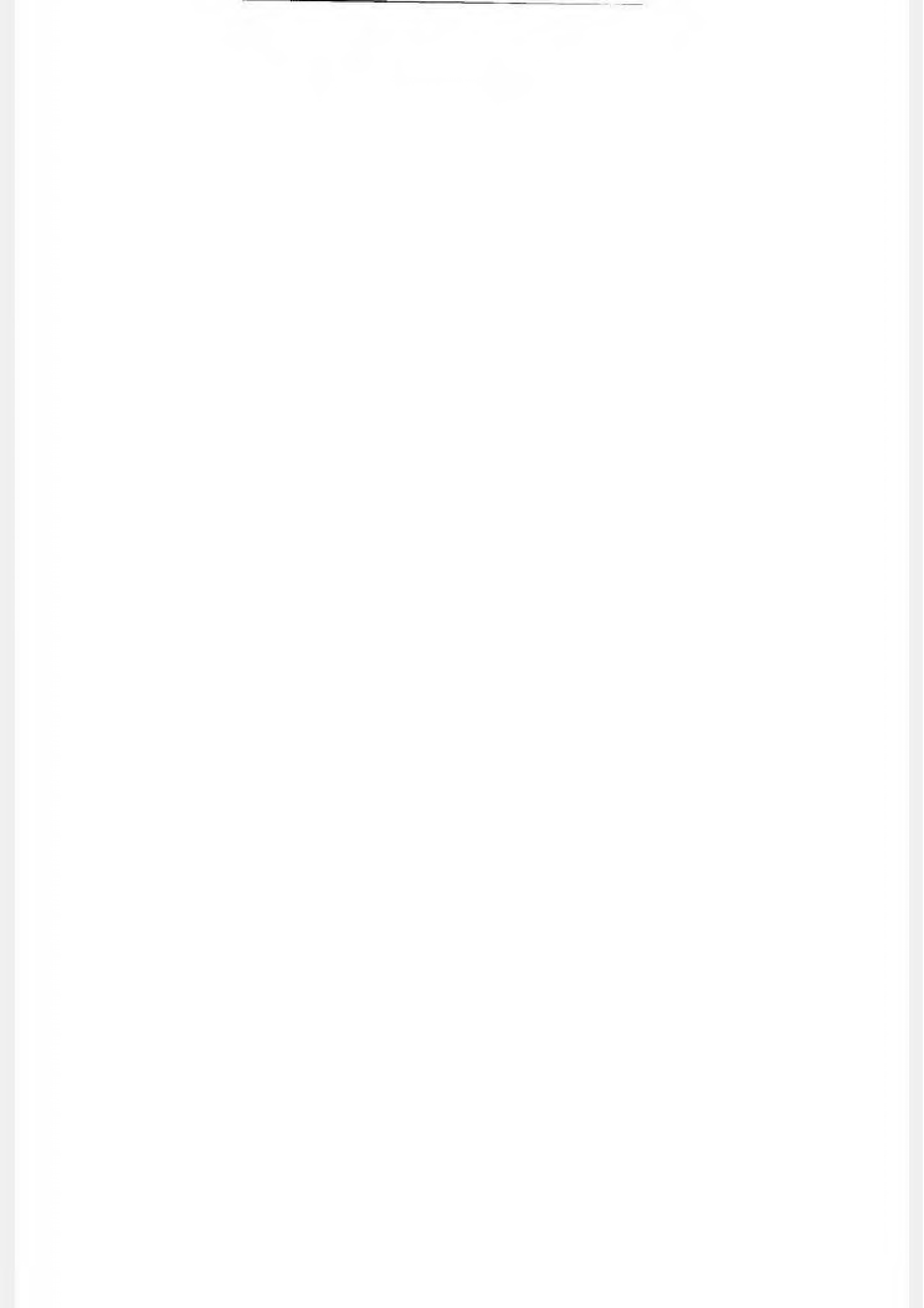
-: لا تفعل، ليس هناك أية رائحة .

: لم أحضرها إلا وقد عزمت على رأيي .

فذبح الخروفين

وتعانق الرجلان طويلاً ثم ودع كل منهما صاحبه وذهب كل إلى سبيله .

قصة رقم (١٠)



فزعة من الله

لم يكد الرجل يلقي بنفسه ويضطجع في ظل تلك الشجرة من بستانه المجاور لمنزله بعد سفر طويل وشاق قطعه مشياً على قدميه حتى أتته إحدى بنياته تركض مسرعة فرحة مسرورة برؤية والدها فارتمت في حضنه ارتماءاً، وأخذ يقبلها بنهم وشوق، وهي تردد بعض الكلمات التعبيرية المتقطعة، ثم انطلقت من حضنه كالرصاصة نحو المنزل تبشر والدتها وإخوانها بقدوم أبيهم وما هي إلا لحظات حتى التم أفراد الأسرة المكونة من ثلاث بنات وولدين مع أمهم حول والدهم القادم لتوه من السفر، فأحاط الأبناء بوالدهم إحاطة حبات القلادة بعنق الحسناء، وانهالت عليه القبل من تلك الشفاه المتعطشة إلى ثغره وخده وعينيه وأنفه الشامخ ورددت زوجته أرق وأندى عبارات الترحيب بقدومه، ثم عادت مسرعة حيث أحضرت له شيئاً من مريس الأقط، قائلة له:

-: تفضل، هذه المريسة الباردة لعلها أن تبرد «كَبْدَكْ».

: تسلم يديك يا أم فلان.

-: إنني أعلم أنها خفيفة جداً ولكنها قد تبرد الكبد.

: وما يدريك أنني ظمآن؟

-: أعلم أن القادم من السفر يكون عطشاناً في الغالب وخاصة في مثل هذا اليوم القائظ.

: حقاً، فقد نفد ما معي من الماء أثناء الطريق، وكنت أقتصد في الشرب من هذه الشكوة التي أحملها على كتفي وأحياناً أبل منها حلقي دون أن أشرب، وآخر قطرة فيها شربتها عندما اقتربت منكم.

-: هذا يعني أنك قد أتيت من مكان لا ماء فيه؟

: كما تعرفين أن الماء في هذا الوقت من السنة لا يوجد سوى في آبار القرى أو الموارد، وفي مصامد الجبال كالقلات والعيون التي تنبع من ثنايا الصخور.

-: أعلم ذلك، ما هو آخر منهل ملأت منه قربتك؟

: في الواقع لم يكن منهلاً، وإنما هو عين في الجبل الفلاني أعرفها، فعندما وازيتها في طريق العودة عرجت عليها لملء قربتي منها.

-: هل هي عين غزيرة؟

: لم تكن كذلك، فماؤها قليل وموقعها خفي بحيث يصعب الوصول إليها.

-: في رأيي أن الماء لا يخفى، وأنت تقول إن موقعها خفي.

: أوه، نعم، فمن لا يعرفها لا يمكن أن يهتدي إليها.

-: أما ترد عليها الوحوش والطيور؟

: قد تردها، لكن من لا يعرفها من الناس يصعب عليه الاهتداء إليها، لأنها تقع في لُصْبٍ ضيق وعليها صخرة عظيمة تغطي فمها، والفائض من مائها يتسرب بين الصخور التي تحتها لذلك لا يعرفها إلا القليل من الناس.

-: إذا كانت كما ذكرت فهي خفية حقاً.

: نعم، ومن لا يعرف المُقْر الذي يتجمع فيه ماؤها تحت جانب تلك الصخرة فلن يعرفها.

-: كيف ماؤها؟

: ماؤها عذب كقطرات المطر.

-: أيسلم ماؤها من العلق؟

: لم ألاحظ فيه شيئاً من العلق مع أن المكان مظلم لا يستطيع المرء رؤية أي شيء يشوب الماء.

-: إيه، الحمد لله على سلامتك «يَا بَعَدْ رُوْحِيْ».

: سلمك الله.

-: لم تخبرني من أين أتيت؟

: آه، لقد أتيت من ديار قبيلتنا.

-: أحقاً، أتيت من سلمى؟

: نعم، لقد كحلت عيني رؤية شماريخ تلك الهضاب الحمر.

-: جاد الله عليها بالسيل، وأسبغ عليها شآبيب الغيث.

: آمين، اللهم آمين.

-: وكيف حال أقاربنا هناك؟

: كلهم بخير ولله الحمد.

-: كيف حال آل فلان؟

: إنهم بخير، وقد غرسوا مسيل التلعة الفلانية.

-: غرسوها!! زيادة على ما عندهم؟

: نعم، إن لديهم عدداً من التلاع المغروسة بالنخيل.

-: هل كبر غريسهم؟

: أوه، لقد أصبح منظر تلك التلعة كغيرها من التلاع تسر الناظر إليها.

-: بأي شيء؟

: فروع تلك النخيل الخضراء تتوج منظر تلك الصخور الحمراء والوردية فيكون لذلك المنظر الخلاب تأثيراً كبيراً على عين الناظر إليه.

-: آه، لقد شوقتني، ما أسعد من يكحل عينيه برؤيه تلك التلاع الجميلة.

: هل اشتقت إلى الديار؟

-: نعم، ومن لا يشتاق إلى مواطن قومه.

: وديارنا هذه مواطن قومنا.

-: لكن لمسقط الرأس ومراتع الصبا وقع آخر في النفس يختلف كثيراً عن الأماكن التي يعيش بها الإنسان في كبره.

: صحيح إنك على حق.

-: صدقني يا أبا فلان إنني كلما ذكرت تلك التلعة التي درجت أولى خطواتي على بطحاء مسيلها، وتظللت بفيىء هضباتها وتزحلقت على صخورها الملساء أشعر بهزة عنيفة في جسمي تشدني إلى ذلك الماضي الذي أذكر تفاصيل أحداثه الدقيقة.

: إنني مثلك يا ابنة العم، ولكن الإنسان مدعو إلى متابعة رزقه والسعي وراءه، حتى إذا حطت قدماه في مكان وجد فيه رزقه كان ذلك بداية

الاستقرار له .

-: معك حق، ولكننا حتى الآن لم نجد ذلك المكان .

: لم نجد المكان!!

-: نعم .

: أما ترين ما أنت فيه؟

-: بلى، بلى، ولكنه رزق قصيف .

: هاه، ماذا تقولين؟

-: أقول إنه مجال ضيق للرزق وفي نفس الوقت متعب جداً .

: ليس هناك رزق بدون تعب .

-: صحيح، ولكن تعب من تعب!!

: لم أفهم ما تقولين؟

-: أقول إن مصدر رزقنا الحالي يكلفنا الكثير من الجهد والعرق، دون حصيلة توازي هذا التعب بينما نجد الآخرين لا يبذلون مثلما نبذل، ومع ذلك فلديهم من عائدات الرزق ما يفوق ما لدينا بكثير.

: احمدي الله يا ابنة العم على ما أعطانا فكثير من الناس يتمنى أن تكون لديه هذه المجموعة من ودايا النخيل التي تتفيئين ظلها وتتفرعين ذراها وتأكلين من أطايب ثمرها .

-: لا شك في ذلك، ولكن تلك التميرات التي نجنيها من فروع هذه النخيلات لا تصل إلينا إلا بعد جهد جهيد وتعب مضني يمتد حوالي عشرة أشهر من السقي والعناية .

: ألا تدرين أن ذلك ألذ لطعم نماها؟

-: ولكن من يغرسون في مسائل تلك التلاع ويسقونها حتى تنشر وتكبر قليلاً ثم يتركونها تسقيها سيول الأمطار يجنون من ثمارها مثلما نجني نحن الذين نكدح بالليل والنهار لسقي هذه النخيلات .

: أنا لا أوافقك على هذا الكلام .

-: لا توافقني!!

: نعم، إن هذه النخيلات اللواتي ارتوين يطلعن أضعاف الكميات التي تحملها

تلك التي تغرس في التلاع والأودية.

-: أوه، هذا فلان في الموسم قبل الماضي قد جد من نخله ما تجاوز عشرين حملاً من التمر.

: آه، تلك السنة كانت ربيعاً وأمطارها كثيرة وسال الوادي عشرات المرات ولذلك ارتوى النخل وجاد بطلعه، أما الآن فانظري إليه في حالة سيئة.

-: ولكنه لا يبذل في سبيله أي جهد.

: ولم يجن منه أي ثمر، ثم إن التمر المجني من نخيل التلاع أقل جودة من ذلك الذي يجنى من النخيل الريانة.

-: لا أجد كبير فرق بينهما.

: الفرق شاسع يا ابنة الأجواد فالنخل الريان تجد ثمره أطرى وأكثر حلاوة ودبساً، بينما نظيره تجده جافاً متلوياً قليل الحلاوة معدوم الدبس.

-: لقد زين بعينك سقى هذه النخيلات ورأيت كل شيء في سبيل ذلك بالمنظر الحسن.

: مثلما رأيت ذلك بالمنظر الباهت.

-: إيه، العين وما تعشق، الآن فتحت نفوسنا في حديثك هذا إلى التمر مما أسال لعاب كل منا.

: إنني أحوج ما أكون إليه الآن ولكن هيهات.

-: أما أتيت لنا في سفرك هذا ولو بجراب من التمر؟

: يا ليت ذلك كان متوفراً.

-: أما وجدت أحداً عنده تمر؟

: أبداً، ولا يوجد من يبيعه.

-: لقد فرحت عندما رأيت «مِزْوَدَتَكْ» مملوءة فظننت أن ذلك من تمر نخيل سلمى أحضرته معك.

: إن ما في مزادتي ملابس لك ولبنياتك وأبنائك استدنتها من فلان، ولا يوجد في هذه المزادة أي ذرة من طعام إنظري إليها.

-: كثر الله خيرك على إحضارك هذه الملابس فنحن في أمس الحاجة إليها.

: أما الطعام فمن يدك أنتِ.

-: عندي أنا!!

: نعم.

-: والله ما لديّ غير بركة الرحمن وشيء من الطحين استقيت بـه لأبنائي وبنيـاتي لسد الرمق، وسأعمل لك ما يسد رمقك منه.

: هاه، ما هي أخباركم؟

-: كل ما يسر ولله الحمد.

: إيه، الحمد لله، كأنني أرى مجموعة من الناس لدى بستان فلان؟

-: نعم، إنهم يحفرون بئراً.

: وبئرهم!؟

-: لقد قل ماؤه وعطش نخلهم.

: متى بدءوا؟

-: منذ أكثر من عشرة أيام.

: عشرة أيام!! إذاً هم الآن على وشك الانتهاء، «يَا حَيْفْ» أيقوم جارنـا بعمل كهذا ولا أساهم في مساعدته.

-: أنت غائب والغائب حجته معه.

: وإن يكن يا بنة العم، فالجار له حق كبير ويجب أن نساهم معه ونساعده.

-: يمكنك الآن فقد يمتد عملهم إلى أسبوع آخر.

: أخبريني أين وصلت «دَائِرِيَّتَهُمْ» الآن؟

-: آه، أتعني عشاء عمالهم وغداءهم؟

: نعم، نعم إياه أعني عند مَنْ هم الآن؟

-: عند آل فلان.

: إذاً لم يبق عليهم ويصلوننا سوى ثلاثة من الجيران.

-: نعم ثلاثة فقط، أي بعد غد مساءاً.

: إيه، حياهم الله ماذا عندك يا أم فلان؟

-: ليس عندي غير بركة الله وقليل من الطحين.

: هذا لا يجمِّلُ في تقديمه لمجموعة كبيرة من الرجال.

-: حقاً، إنه لا يصلح سوى عصيدة رقيقة جداً.

: وهذا ما لا يمكن تقديمه لضيوفنا.
-: إذاً ما العمل؟
: هذا السؤال الذي حيرني.
-: عليك أن تتدبر الأمر.
: أتدبر الأمر!!
-: نعم، لم يبق أمامنا فرصة كافية لترتيب الوضع وكان عاتقي مثقلاً بهذه المهمة حتى جئت إلينا، فأصبحت المهمة منوطة بكاهلك.
: يعني هذا أنك ستقومين بالمهمة لو كنت غائباً؟
-: أجل، أجل، سأقوم بما يترتب عليك من الواجبات وكأنك حاضر.
: يسلم لي هذا الجبين الضاحك.
-: في كنف من لا نعدم وجوده بيننا.
: آه، يا بنة العم، المشكلة هنا تنحصر في ضيق ذات اليد، فكما تعلمين لا أملك من حطام الدنيا غير هذا الجمل الذي نسقي على ظهره نخيلاتنا.
-: أوه، هذا الجمل هو الذي نعتمد عليه بعد الله في تحصيل قوتنا.
: ليس هناك غيره.
-: عليك أن تتجه هنا أو هناك لتتدبر أمرك وتحضر لنا بعض الطعام الذي نستطيع أن نقدمه لضيوفنا.
: أنت على حق، ولكن من ترينه يعطيني في الوقت الذي لا أملك فيه أي مبلغ من المال.
-: ألا يعطونك بالدين؟
: ومن سيدينني.
-: قد تجد تاجراً يعطيك ولو بسعر أعلى من المعتاد.
: لم أحسب للسعر حساباً حتى الآن.
-: أجل، عليك أن تطرق الباب وربك كريم.
: لقد طرقت الأبواب حتى كلت يدي.
-: هاه!! ما لي أراك هكذا.
: أقصد أنني قد عدت لتوي من هذا السفر واستدنت من التاجر فلان هذه

الملابس لكم.

-: إيه، الملابس يهون أمرها عند هذا الموضوع.

: كل جانب يريد حقه من العناية.

-: باستطاعتك يا أخيَّ أن تبيع هذه الملابس الآن وتشتري بثمنها طعاماً لضيوفك، فالملابس ليست بدرجة ضرورة ما نحن بصدده.

: أبداً، أبداً، والله لن أبيع ملابس أحضرتها لكم وفرحتم بوجودها بين أيديكم.

-: أجل، ماذا ستفعل الآن؟

: إيه، سأذهب إلى أحد التجار في القرية الفلانية.

-: ذلك شأنك يا بن العم، ولكن أتراهم يدينوك؟

: سأحاول معهم.

-: آه، ليت هذه الأساور والخواتم المعدنية تنقلب إلى ذهب لأعطيك إياها تؤمن بها نفسك وتحصل بها على ما تريد.

: حتى لو كانت أساور وخواتم ذهبية والله لن أفسخها من يديك وأذهب بها لأرهنها أو أبيعها للحصول بها على ما أريد.

-: لو كانت كذلك لعرفت كيف أقنعك بأن تأخذها وترهنها ولكن لا فائدة من الاستمرار في هذا الحديث.

: ألا تعلمين أنني ممن لا يترفدون بأحد؟

-: هذا الأمر لو كان خارج نطاق البيت، أما أنا وأنت فليس بيننا شيء مقسوم.

: آه، سلمك الله وأبقاك لي سنداً يعاضدني حين أبعدت عن العضيد.

-: ليتني أستطيع تقديم أي شيء فيه مساعدتك.

: يكفيني مساعدتك الشعورية بآمالي وآلامي، وعزمك القيام بما علي من واجبات أثناء غيابي.

-: أوه، لم أفعل شيئاً يستحق هذا الإطراء.

: سأذهب غداً إلى أحد تجار القرية الفلانية لعلني أجد عندهم ما يقضي حاجتي.

-: لعلك تجد عنده شيئاً من «التُمَّنْ» أو الحنطة.

: أوه، «التمن» ذلك الأرز العراقي الذي لا وجود له الآن!!

-: حتى عند التجار؟

: حتى عند التجار، ولو وجد عند أحد منهم فإنه لا يبيعه لأحد من الناس.

-: أليس هو سلعة تجارية؟

: بلى، ولكنهم يدخرونه ليتقاضوا به أغلى الأثمان، وربما أكلوه بأنفسهم لتطريتها بأصناف أخرى من الطعام.

-: لا أظن ذلك يا بن العم، فأكثرهم يكنزونه بانتظار ارتفاع سعره وتحين الفرصة لبيعه بأسعار غالية.

: ليتنا نجد عندهم ولو شيئاً من القمح «اللقَّيْمِيْ» أو الحنطة العادية.

-: أوه، إذا حصل «البَغِيْثُ» فهو أفضل.

: خاصة إذا كان حب القمح فيه أكثر من حب الشعير.

-: بالنسبة لبعض الوجبات.

: إيه، لعل الله أن ييسر الأمور ونحصل على أي شيء نقدمه لضيوفنا.

-: متى ستذهب؟

: غداً صباحاً.

-: غداً!! ليس معنا طويل وقت.

: الآن كما تعلمين متعباً من وعثاء السفر وسأستريح الليلة هنا، وبعد صلاة الصبح سأذهب إلى هناك.

-: خيراً، لكني أخشى أن يدركنا الوقت، إذ ليس معنا سوى يوم واحد.

: في ذلك اليوم فرج من الله يا بنة الأجواد، ألديك قهوة؟

-: نعم، لدي كل خير.

: أعطيني مما عندك.

ومع انبثاق أشرطة الفجر أدى ذياب الصلاة مع جماعته ثم اتجه صوب القرية التي عزم على الذهاب إليها، حيث وصلها في ضحى ذلك اليوم فقصد دكان التاجر المعروف بالبلد لكنه لم يجده فاتحاً محله وقد أخبره جيرانه بأنه قد ذهب إلى بيته فذهب إليه هناك وطرق عليه الباب حيث خرج عليه قائلاً:

-: أهلاً وسهلاً، حياك الله، تفضل.

: أغناك الله، والله يا أبا فلان إنني على عجل من أمري.

-: تفضل، خذ فنجاناً من القهوة.

: إنني مستعجل، وليس لدي وقت للجلوس حتى تنقضي حاجتي.

-: يا رجل، تفضل، فالوقت لا يزال باكراً والدنيا في بداية الصباح.

: أعلم ذلك، ولكني مشغول الذهن، فإن كان لديك ما ينهي مشكلتي فإنني سأجلس عندك.

-: آه، ما هي مشكلتك؟

: إنها ليست مشكلة بالمعنى الصحيح ولكنها تشغل ذهني.

-: ما هي؟

: إنني بحاجة إلى شيء من الطعام لأقدمه لضيوف سيحلون في داري يوم غد.

-: طعام، طعام!! يردد التاجر هذه الكلمة وهو مطرق بطرفه إلى الأرض وأصابع يده اليسرى تخلل لحيته الكثيفة متكئاً في يده اليمنى على سارية الباب.

: نعم، طعام لأستر به وجهي أمام رفاقي.

-: إيه، معك حق، وكل الحق، فالإنسان يسعى دائماً إلى ما يستر حاله، بل ويطلب من الله الستر بعد كل صلاة.

: لذلك قصدتك، وكلي أمل أن أجد عندك ما يفي بحاجتي.

-: يا ليت، يا أخا فلانة، ليت لدي شيء أقضي به حاجتك، فأدرك فائدتين في حاجة واحدة، التجمل معك، والمكسب في هذه السلعة.

: فيك البركة يا أبا فلان.

-: إن شاء الله أننا لا نخلو من البركة، ولكنني لا أجد مما تطلب شيئاً.

: إنني لم أطلب مطلباً عسيراً.

-: أعلم ذلك.

: إن مطلبي هو خمسة أصواع من القمح أو القمح المخلوط بالشعير «بغيث».

-: هاه، ومن يجد هذه الكمية؟

: فيك خيراً .

-: لا شك في ذلك، ولكن هذا القدر لا أجده عندي .

: ولا تجده عند أحد من رفاقك التجار؟

-: لو كان معك نقوداً لأدركته لك من الغير.

: هذه مشكلتي أنني لا أملك دراهماً في الوقت الحاضر .

-: الدراهم تجبر العظم الكسير.

: أعطني ديناً إلى أجل بدراهم تقضي حاجتي .

-: أوه، أعطيك دراهم حاضرة بدين لا يدري متى وفاؤه!!

: ضع السعر الذي يرضيك للفترة التي تريدها .

-: لا يوجد لديَّ دراهم للدين .

: أرجوك أن تجعلني مثل عملائك الذين تدينهم .

-: أوه، عملائي الذين أدينهم أهل مزارع وبساتين أرجو الوفاء منهم .

: ربما رددت إليك حقك قبل بعضهم .

-: هذا ما لا يمكن احتماله .

: وما يدريك .

-: من أين ستدفع إليَّ حقي عند حلول أجله .

: من الله .

-: ونعم بالله، ولكن ليس عندك زرع ولا فرع ولا ضرع أتوقع أن ترد إليَّ حقي منه .

: ضع أملك بالله ثم بعاتقي وسيأتيك حقك في حينه .

-: إيه، إنني آسف جداً لعدم تلبية طلبك .

: إذا كانت الكمية كثيرة فبإمكانك أن تنقص منها .

-: ليس هناك مجال لأي كمية .

: إجعلها أربعة أصواع .

-: ولا حتى أربعة .

: لتكن ثلاثة فقط .

-: ليس لدي صاع واحد .

: إتق الله يا رجل.

-: لم أعص الله في أمر من الأمور.

: لم أقصد ذلك، ولكني أقول إنك تاجر يشار إليك بالبنان ولا تجد صاعاً من الحب.

-: ما كل تاجر يجد كل شيء.

: هذه السلعة الغذائية تتوفر عندك وعند أمثالك.

-: ليس دائماً.

: لكنها في أغلب الأحيان.

-: في هذا الوقت لا يوجد عندي شيئاً منها.

: يا رجل، إنني لم آت إليك في هذا الوقت إلا لحاجة لا يعلمها إلا الله.

-: لقد تمنيت لو أتيتني في غير هذا الوقت لقضيت حاجتك، أما الآن فأعتذر إليك بعدم استطاعتي.

: لن تخيب ظني، حتى لو اقتطعت هذه الكمية البسيطة من قوت عيالك.

-: الله!! ما أهبلك!! وهل يوجد أحد يقتطع من قوت يومه ويعطيه للآخرين؟

: نعم، ذوو المروءة والإحسان.

-: إذا قتدروا.

: بل إنهم يؤثرون على أنفسهم.

-: إيه..

: والآن لا يزال لي رجاء أخير بأن تقضي حاجتي.

-: ليتني أستطيع.

: بإمكانك أن تتدبر أمري.

-: ليتني أقدر.

: لا تعتذرني أرجوك.

-: فاقد الشيء لا يعطيه يا بن الأجواد.

: لن أذهب من عندك خائباً.

-: أستطيع أن أساعدك.

: هذا ما أريده منك. يقول ذلك والفرحة تغمر وجهه.

-: سأذكر لك تاجراً آخر يمكنه أن يقضي حاجتك.

: من يكون؟

-: فلان.

: فلان!! لا أظن ذلك.

-: ولم لا؟

: هاه، هاه!! لا أدري.

-: إنه من أكبر تجار البلد ولديه الدراهم والأطعمة المكدسة ولن يعجز عن تدبر أمرك.

: هل ستعطيني دراهماً لأذهب بها إليه؟

-: لا.

: هل ستكفلني عنده؟

-: لا.

: أجل ما نوع المساعدة التي ستقدمها لي؟

-: لقد ذكرته لك.

: مجرد ذكر لا يكفي.

-: وماذا تريدني أن أفعل.

: إما أن تذهب معي إليه ليعطيني بوجاهك أو تعطيني مبلغاً من المال لأشتري منه.

-: لا هذا ولا ذاك، إنه لمجرد الذكر فقط.

: إذا كان الأمر كذلك، فإنني أعرفه تماماً.

-: ما دمت تعرفه فعليك أن تذهب إليه.

: أشكرك على هذه الخدمة!! مع السلامة.

-: مع السلامة.

ويدنف ذياب مسرعاً إلى دكان التاجر الثاني حيث وجده قد أغلق دكانه قبيل الظهر وتوجه إلى منزله، وقبل أن يصل التاجر إلى منزله لحق به فسلم عليه ورد عليه التاجر السلام ورحب به ودعاه إلى الدخول إلى منزله لتناول القهوة ولكن

ذياباً كان مشغول الفكر عن كل شيء ولذلك فاتحه في الموضوع دون أن يوافق على دخول منزله قائلاً:

-: لقد أتيتك يا أبا فلان قاصداً.

: أهلاً وسهلاً بك.

-: أتيتك في أمل أرجو أن تحققه لي.

: إن كنت أستطيع ذلك.

-: بمقدورك تحقيقه إن شاء الله.

: ما هو؟

-: إن عليَّ التزاماً معيناً سأقوم بالوفاء به وأحتاج إلى مساعدتك.

: أي التزام هذا؟

-: كما تعرف عاداتنا وتقاليدنا في مساعدة الجار وإكرام الضيف.

: أعرف ذلك تماماً.

-: إذاً هذا جار وضيف في آن واحد ولدي التزام نحوه.

: ما نوع هذا الالتزام؟

-: «دَائِرِيَّةْ» جيراني الذين أعتبرهم ضيوفاً علي.

: آه، وماذا في ذلك؟

-: إنني بحاجة إلى ما يقوم بأودهم من الطعام.

: الطعام!!

-: نعم، قليل من حب القمح.

: ألم تجد أحداً تتجه إليه غيري؟

-: لقد قصدتك يا ابن الأجواد آملاً أن تقضي حاجتي.

: ولكن من أين؟

-: من أين!! أتقول ذلك وأنت تاجر؟

: ليس كل تاجر يتوفر عنده كل شيء.

-: لم يكن المطلب عسيراً.

: وما يدريك ببواطن الأمور؟

-: صحيح، ولكني لم أطلب شيئاً مستحيلاً.

: ولكنه طعام.
-: وماذا تريدني أن أطلب؟
: لو كان طلبك من الملابس لقضيت لزومك.
-: الملابس ليست ضرورية بمقدار الطعام.
: لا شك في ذلك، ولهذا فلو كان طلبك من هذا النوع لقضيت حاجتك.
-: يا ابن الأجواد، الملابس وغيرها تهون عند القوت.
: إني أعلم بذلك، فكل الناس تركض لاهثة وراء الطعام لينقذوا حياتهم.
-: لو كان لإنقاذ الحياة لهان الأمر. وربما كان لستر وجوههم أمام الآخرين.
: قد يتخذها البعض ذريعة للحصول على كمية أكبر من الطعام.
-: لا والله يا ابن الأجواد، بل ليدفعوا عن أنفسهم ما قد يلصق بهم من وصمة العار.
: وصمة العار!!
-: نعم، قد يقصر الإنسان بواجبه ويتقاعس عن الوفاء بالتزاماته في يوم من الأيام تحت طائلة الظروف السيئة، فتلصق في جبينه هذه الوصمة التي قد يتندر بها المتفرغون، أو ينبشها الحاقدون والمبغضون في يوم من الأيام.
: أوه، دعك من هذا.
-: لماذا أترك أمراً تقتضي عاداتنا وتقاليدنا الوفاء به.
: عند الضرورات تباح المحرمات.
-: لا، «وَلاَ لَكَ لُوَىَ» فالإنسان لا يبين ويبرز جوهره إلا عند الأزمات والأوقات العصيبة.
: والله إن أمرك لعجب.
-: أين مروءتي، بل أين شيمتي، أين سجية الكرم المتأصلة في لحمي ودمي، والمتغلغلة في أعماق نفسي حين يمر عمال جاري من أمام بيتي ولا يذوقون زادي؟؟
: والله، إنك شديد الاعتزاز بنفسك!!
-: لا رحم الله نفساً أهانها صاحبها.
: دعك من هذا، وكم تريد من الطعام؟

-: لا أريد كثيراً، إنها خمسة أصواع فقط.

: خمسة أصواع!!

-: نعم، إنها بالكاد تكفي لوجبة واحدة لضيوفي.

: خمسة الأصواع تكفي لأسرة بكاملها لمدة شهر.

-: ليس هذا مجال الحساب يا رجل.

: خمسة أصواع، خمسة أصواع!! يقول الرجل ذلك وهو يهرش عوارض لحيته بإحدى يديه ثم يمسح بها كامل لحيته.

-: ما لي أراك واجماً؟

: إنه مقدار كبير.

-: مقدار كبير!!

: نعم، فأنت كما تعلم نبيع الناس بالصاع، ونصف الصاع وإذا غلبت الروم فقد ترتفع الكمية إلى صاعين.

-: ولكن هذه الكمية لا تفي بالتزامي.

: لماذا.

-: لقد جئت إليك بحثاً عن ستر الحال.

: ولكن ليس عندي ما يكفي.

-: إفرض أنه قد جاءك اثنان من الرجال وبعت على كل واحد منهم أكبر كمية تبيعها على غيره.

: ولكن عملي ذاك قد يساهم في إنقاذ أسرتين أو ثلاث من غائلة الجوع لفترة معينة.

-: هب أنك أنقذت تلك الأسر بهذه الصويعات الخمسة.

: لا أستطيع إعطاءك أكثر من صاع أو صاعين على الأكثر.

-: أرجوك يا أخي ألا تخيب أملي فيك.

: لست أنا من خيب ظنك، لكن الوقت العصيب هو الذي فعل بك وبغيرك هذا.

-: أتدري، إجعلها أربعة أصواع.

: لا أستطيع أن أبيعك أكثر من صاع واحد.

-: لك أن تخفضها إلى ثلاثة فقط.

: هذا غير ممكن.

-: الكمية القليلة لا تفي بالغرض يا أخي أرجو إدراك ذلك.

: آه، وماذا معك من النقود، هل هي من الجنيهات الذهبية أم من الريالات الفضية «الفرنسية»[1].

-: أوه، «يَا مَلْ الَلِّي» والله يا بن الأجواد إني لا أملك جنيهات ذهبية ولا ريالات فضية «فرنسية».

: أجل بماذا تريدني أن أبيعك؟

-: تبيعني بالثقة، بالدين.

: أوه «يا مُلَّالِيْ» دين وعلى.. ؟

-: سيأتيك حقك إن شاء الله بأقرب فرصة ممكنة.

: ومن أين لك المال؟

-: الرزق على الله.

: ونعم بالله، ولكنك لا تملك مصدراً من مصادر الرزق، ولا سيما أن المبلغ سيصبح باهضاً بالنسبة لك.

-: كم سيكلف من المال؟

: نحن نبيع بالنقد صاع الحنطة بثلاثة ريالات «شُوَاشَا» أو بجنيه ذهبي أصفر أو أحمر، وإن كان الحب «بَغِيْشاً» نصفه حنطة ونصفه شعير فسعره ريالين «شُوَاشَا» أو صاع وربع بجنيه، أما إذا كان شعيراً خالصاً فسعره ريال ونصف أو صاعين بجنيه.

-: أوه، إذا كان هذا سعره بالنقد فكيف سيكون بالدين.

: بالدين نزيد عليه النصف.

-: المهم أعطني حاجتي بالسعر الذي تريده.

: أستطيع الآن أن أعطيك ما يكفيك لمدة يوم أو يومين وبعدها تعود إليّ

---

(١) الريال «الفرنسي أو الشوشى» هو ريال فضي كبير مسكوك في فرنسا أو أسبانيا وهو العملة المتداولة آنذاك.

حينذاك تكون الحملة القادمة قد وصلت ونعطيك ما يقضي حاجتك.

-: أوه، يبدو أنك نسيت ما قلته لك بأن حاجتي لهذا القدر من الطعام هو ليوم غد فقط، وإذا زل نهار الغد فقد لا تكون حاجتي إليه ماسة بهذا القدر.

: أجل أعذرني يا بن الأجواد، فليس عندي ما يفي بغرضك.

-: أتتركني أعود منك خائباً؟

: ليس هذا من تدبيري، بل من ضغط الوقت.

-: إنني واثق من أنك لن تعجز عن وجود حاجتي.

: لقد قلت لك وأخبرتك.

-: أتدري، أعطني نقوداً بالدين إلى أجل معلوم أسددها لك بثمن من الطعام أو المواشي، وأنا أستطيع أن أتدبر أمري.

: أوه، أعطيك دراهمي وأجلس أصفق بكفي.

-: أعطينها بثمن معين.

: على أي شيء أدينك؟ أعلى مزرعتك، أم نخيلك أو مواشيك؟

-: بل على الثقة بالنفس.

: هذا لا يكفي، أما سمعت المثل الذي يقول:

وين أنت يا لا عن قولة إيه   أمس حلالي بيدي واليوم أتوليه

-: لا تقل هذا، فلدي خير من الله.

: إنني أعرف أن لديك مجموعة من النخيلات لا يكفي طلعها لأهل بيتك وليس لك من المواشي سوى بعير وربما مجموعة شويهات تتخذها منائح لعيالك في وقت الربيع، فكيف تريد أن أدينك؟

-: الرزق على الله يا رجل.

: لا شك في ذلك ولكن للرزق مصادر لا تملكها.

-: والآن ما هو الحل؟

: ليس عندي لك من الحلول سوى ما ذكرت لك.

-: هذا لا يكفي.

: أجل، سأذكر لك رجلاً آخر قد يقضي حاجتك.

-: لن أذهب عند غيرك.

: لماذا؟ ألا تريد قضاء حاجتك؟

-: لأنك أكبر تاجر في البلد، وكل الناس يأخذون مئونتهم منك.

: أنا وعدتك إذا جاءت القافلة القادمة أن أبيعك حاجتك.

-: لكن حاجتي اليوم قبل الغد.

: هذا اليوم لا يوجد عندي شيء.

-: أعطني أي طعام، حتى ولو كان شعيراً خالصاً.

: لا يوجد لدي شيء، لقد قلت لك، أما تفهم؟

-: ولا حتى من مئونة بيتك؟

: هذا ما لا أتصرف فيه. لأنه ملك أطفالي وأهل بيتي.

-: لقد حطمت نفسي يا رجل.

: الوقت هو الذي فعل بك هذا كما فعل بالآخرين.

-: ولكنهم في غير موقفي.

: كم من الأجواد مَنْ هم في مثل موقفك وربما أشد.

-: قد يكون، ولكن. . .

: لا تقل ولكن، فكم من الأجواد قد قدموا لضيوفهم عصيدة رقيقة من الشعير كعشاء لهم، فلحسها الضيوف ودعوا لمضيفهم بالبركة وسعة الرزق.

-: هاه، ولكني لا أستطيع أن أقدم لضيوفي رغيدة رقيقة.

: الإنسان يسير مع وقته، ويساير ظروفه.

-: هذا يعني أنني سأذهب منك مثلما جئت إليك.

: لقد أتيتني في وقت حرج.

-: إنك لم تحاول قضاء حاجتي بجد.

: لم أدَّخر وسعاً في ذلك.

-: لو حاولت لقدرت، وليس ذلك بصعب عليك.

: يبدو لك ذلك.

-: إذاً، في أمان الله.

: مع السلامة.

ذهب ذياب من عند الرجل مكسور الخاطر يعصر قلبه الأسى والحزن وأمسك بالجادة متجهاً إلى أهله، والصراعات تتفاعل في نفسه بعد أن حشره هذا الظرف العصيب في هذه الزاوية الضيقة التي لا يستطيع منها فكاكاً، فسجية الكرم الضاربة جذورها في أعماق أعماقه، تسندها الأعراف والتقاليد في المجتمع الذي يعيش فيه، وكل هذه الاعتبارات مجتمعة تصطدم في الواقع المرير، وهو عدم وجود ما يبرر فيه سجية الكرم عنده وفي دوامة هذا الصراع بدأ يذرع الأرض ذرعاً على قدميه ممسكاً بالجادة المؤدية إلى أهله دون أن يحس بما حوله، أو يرى الجبال والحزوم التي تكتنف الطريق، أو يحس بحرارة الشمس التي بدأت تجتذب حبات العرق من جبينه وأكتافه بحرارتها وهو سارح في خياله، يبحث عن الطرق الموصلة إلى حل مشكلته، ولما تقلصت الطرق أمامه، وتلاشت السبل المؤدية إلى تحقيق ما في نفسه عزم على شيء واحد يمكن أن يحل إشكاله، ولو كانت فيه خسارة مادية كبيرة له، إذ يعتبر أحد مقومات حياته، وحياة أسرته، ذلك هو الجمل الذي يسقى عليه نخيلاته، ويتغذى من ثمرها، وأخيراً قرر أن ينحر الجمل لضيوفه في صباح الغد، ويقدم لحمه مساء الليلة القادمة، متمثلاً بقول الشاعر عسل الرمالي:

٧٩ الَـدَّبْـرَةْ الَـلِّيْ مَـا ذِكَـرْ بَـهْ رِدِيْ شَـانْ   يَـا قَلَّةْ الحِيْـلَاتْ يَـذْبَـحْ مْعِيْـدَهْ

عند ذلك هدأت نفسه، وأحس بالعرق يتصبب من جميع أنحاء جسمه، وشعر بما حوله وهو يجتاز ثنية غير بعيدة عن أهله فوقف قليلاً وقد أحس بالعطش الشديد، عند ذلك عزم على الاتجاه إلى عين ماء يخبرها بنفس الجبل ليرتوي منها، فاتجه إليها يتابع خطواته بنشاط المتحفز المحتاج لشربة من ماء، وأخذ يصعد تارة ويتخلخل من بين الصخور الجرانيتية الحمراء تارة أخرى في طريقه إلى العين القابعة تحت صخرة عظيمة تظلل ذلك الممر الضيق المؤدي إليها، وعلى بضع عشرات من الأمتار سمع ذياب أصواتاً غريبة تنبعث من منحنيات الممر الموصل إلى العين، عندها وقف منصتاً ليتبين الأمر وهو يقول في نفسه: ترى ما هذه الأصوات؟ لم يسبق لي أن سمعت مثلها في حياتي!

هل هي أصوات شجار بين رجال؟ هاه، لم أسمع أي صوت آدمي!!

أهي أصوات عراك بين سباع؟ ولكن السباع لا بد أن تجد في عراكها صوت عواء أو جئير، هاه!! قد تكون سباعاً متقاتلة فيفلت أحدها فيهرب ويأتي خصمه فيجدني في طريقه عند ذلك أكون الضحية وأنا الأعزل من السلاح سوى هذا الخنجر الذي أتمنطق به؟ هاه!! قد تكون منيتي ساقتني إلى هذا الممر الضيق، هاه!! لقد سكنت الأصوات، لعلني أقترب منها لأستطلع الأمر، هاه!! قد يكون رجلين قد تماسكا ولم يستطع أحدهما أن يتغلب على الآخر، أبداً، أبداً، لو كانا رجلين لسمعت أصواتاً آدمية، أو حتى كلمة واحدة، هاه!! قد يكونا أخرسين لا يستطيعان نطقاً، ولكن ما الذي يجمع بين رجلين أخرسين في هذا الموضع؟ هاه.. لقد بدأ العراك، ها هو صوت النحيط والزفير يبدأ من جديد، هاه!! بسم الله الرحمن الرحيم قد يكون ذلك من فعل الجن في هذه القيلولة؟ لإخافة بعض الناس، أبداً، أبداً هذا لن يخيفني دعني أقترب من هذا الموقع لأستطلع الأمر عن قرب، سأنتقل من صخرة إلى أخرى بحذر شديد حتى إذا عرفت ما يحدث عند ذلك أقرر التصرف المناسب، هاه!! لقد سكت الصوت وهجدت الحركة، يا الله!!

لقد بدأت الحركة من جديد هذه حبات بطحاء المسيل بدأت تتساقط من حولي دون أن أرى أحداً، أو أميز صوتاً، دعني أصل إلى مصدر هذه الأصوات حتى ولو لم يكن معي من السلاح غير هذا الخنجر، أستطيع أن أدافع به عن نفسي أو أموت.

يا الله!! يا لهول ما أرى!؟ وعلين قارحين قد اشتبكت قرونهما الطويلة جداً فلا يستطيعان فكاكاً!! يا الله إن الرزق من عندك، عسى ألا ينفك أحدهما من الآخر قبل أن أصل إليهما، هاه!! لقد استحكم الاشتباك بينهما والتفت قرون كل واحد منهما من خلف قرون خصمه، إيه، الحمد الله هذا رزق ساقه الله إلي أوقادني إليه عندما علم بحالي، سأذكيهما بهذا الخنجر الواحد تلو الآخر، «إهْهْ» بسم الله والله أكبر، بسم الله الرحمن الرحيم، ها!! لقد ذعر الحي عندما رأى دماء خصمه، سأذبحه قبل أن يحاول الإفلات، بسم الله والله أكبر، إيه، الحمد لله رب العالمين لقد فزع لي ربي برزق من عنده عندما

بخل عباده بما في أيديهم، الحمد لله لقد سلمت سانيتي التي أسقي عليها نخيلاتي، وأطعم من ثمرها بناتي، هذان الوعلان القارحان الكبيران سأضعهما لضيوفي الليلة القادمة، وأرحب بهم وأنا مطمئن الخاطر، فسيأكل منهما الضيوف والجيران فضلاً عن أهل البيت وسيصدرون منهما شباعاً، هاه، دعني أذهب بسرعة لأحضر جملي وأحمل عليه هذين البدنين، إنني لا أستطيع حملهما على ظهر الجمل، إيه، سأحضر معي زوجتي تساعدني على ذلك، هاه!! أخشى أن يعقبني عليهما أحد أثناء ذهابي، ولكن سأضع عليهما عباءتي كعلامة فارقة، فإن جاء أحد ورأى عباءتي مرمية عليهما فلن يمسهما، إذاً، عليَّ أن أسرع سأقطع المسافة إلى أهلي ركضاً وبشوط واحد وآتي بالجمل لحملهما دون أن يعلم أحد، نعم، دون أن يكون عند أحد أي خبر ليكون تقديمهما مفاجأة للجميع، يا الله هل أنا أركض بهذه السرعة!! إنني أرى الشجر وكأنه يركض من حولي بطريق معاكس، سبحان الله قبل قليل كنت أجرجر قدمي منهك القوى خائر العزم من شدة الظمأ، يا الله!! كيف نسيت أن أشرب من العين لقد نسيت الظمأ، وطار عني التعب وتبخر النصب وها أنذا أوشك الوصول إلى أهلي، عساني أجد الجمل باركاً في ظل النخيل يتناول علفه، قد تكون زوجتي قيدته ليرعى من تلك الشجيرات غير بعيد عن النخل، هاه إذا وصلت إلى هناك سيتبين الأمر، آه، ذلك زول الجمل مسنداً في مسيل تلك التلعة، هل أضع عليه القتب!؟ لا، بدون قتب سأعادل الصيدتين عليه بربط أرجلهما فقط، إذاً سآمر زوجتي وآخذها ونمر الجمل في مرعاه ونمتطيه بسرعة ما دام الناس قد اكتفوا في وقت القيلولة فلا يرانا أحد، هذا هو الحل الأفضل.

-: السلام عليكم.

: وعليكم السلام، ما لي أراك لاهثاً، عسى أن يكون في الأمر خير.

-: خير، وخير ولله الحمد، هيا، هيا، معي معي.

: إلى أين، إلى أين؟

-: لا تسأليني الآن، هيا.

: إنني معك، هل ألبس ثيابي؟

-: يكفي ما عليك من الهدوم.

: إلى أين؟

-: إتبعيني بسرعة ولا تضيعي الوقت.

: دعني أعلم إحدى بنياتي أنني ذاهبة معك.

-: لا بأس، لا بأس، أسرعي وخذي لنا حبلين جيدين.

: أبشر، أيكفي هذان الحبلان؟

-: نعم اتبعيني.

: معك، إلى أين؟

-: إلى الجمل.

: إنه في مسيل التلعة.

-: لقد رأيته.

: هدىء من ركضك قليلاً حتى لا يجفل الجمل.

-: معك حق، ألم يكن مقيداً؟

: بلى، ولكنه قد يقطع القيد.

-: صحيح لكنه يعرفنا ولا يجفل منا.

: إن ركضك هذا قد يفزعه.

-: لا، إنه مبروك، إخ، إخ، إخ، هيا اركبي ورائي.

: أتستطيع أن تخبرني إلى أين سنذهب؟

-: إلى رزق ساقه الله إلينا.

: أي رزق تعني؟

-: لقد عثرت على صيدتين جزلتين.

: صيدتين!!

-: نعم، بدنان قارحان قرن الواحد منهما يزيد على البوع.

: من صادهن لك؟

-: الله.

: ونعم بالله، ولكني لم أذكر أن معك سلاح لتصطادهما به، وعلى أنك ذهبت

هذا الصباح للبحث عن طعام لضيوفنا.

-: هذا ما حصل، وبالفعل لم يكن معي بندقية ولكن صدق الله العظيم القائل، «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» لقد قيض الله رزقه ونشبت قرون أحدهما بالآخر فربما تناطحا عند ورود الماء واشتبكت القرون مما جعل من المتعذر على كل واحد منهما الفكاك من خصمه حتى جئتهما وذكيتهما.

: وما أدراك بهما؟

-: لقد جئت لاهثاً من شدة الظمأ أريد ورود هذه العين حينها أدركتهما يتعافران ويتداوسان حولها.

: بارك الله بالعطش الذي جاء بك إلى هذا الموقع.

-: هذه إرادة الله يا ابنة العم، قادني إلى حيث ساق إليَّ رزقي.

: وماذا عن الطعام؟

-: آه، أما الطعام فلا تذكريني إياه.

: هاه!!

-: لقد عدت من رحلتي تلك خائباً صفر اليدين.

: كيف؟

-: لقد تعذرني الرجال.

: تعذروك!! من هم؟

-: إنهم أكثر من واحد.

: ماذا يقولون؟

-: جاءوا بشتى الأعذار، وطرحوا كل المبررات.

: لم تحصل على شيء؟

-: لقد عدت منهم كما تربني الآن.

: ما حجتهم في ذلك؟

-: حجتهم أني لا أملك من الدراهم شيئاً.

: الدراهم ليست كل شيء.

-: بل هي جوهر كل شيء في هذا الوقت العصيب.

: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد جاء الوقت الذي لا قيمة للإنسان فيه إلا بقدر

ما يملك من الدراهم.

-: هذه أوقات الأزمات يا بنة العم يستغلها بعض ضعاف النفوس لمصلحتهم.

: ولكن الناس لا يزالون بخير ولله الحمد، هذه الأزمة ما هي سوى أشهر حتى تنتهي بفرج من الله وتعود المياه إلى مجاريها.

-: ولكن من يقول ذلك لبعض الناس؟

: ألم تحاول أن ترهن عند ذلك التاجر شيئاً من ممتلكاتك؟

-: لم يقبل مني أي شيء سوى الذهب الأصفر أو الأحمر أو الفضة البيضاء.

: إنا لله وإن إليه راجعون.

-: أتدرين ماذا عزمت عليه وأنا في طريق عودتي إليكم؟

: هاه، لا والله لا أدري!!

-: لقد عزمت على نحر جملنا هذا وتقديمه لضيوفنا.

: جملنا!!

-: نعم ولا غيره.

: بسم الله عليه، هذا ما نعتمد عليه بعد الله في كسب قوتنا فهو عصب ظهورنا.

-: هذا الكلام الذي عزمت عليه ولكن الله أنجاه.

: الحمد لله، بماذا أنجاه؟

-: بهاتين الصيدتين.

: إيه، الحمد لله، إن الله إذا علم بحال عبد مؤمن كفاها.

-: عليك أن تنزلي هنا، إخْ، إخْ.

: لماذا هنا؟

-: ألا تعرفين أن طريق العين وعر؟

: بلى، بلى، لقد ذكرت.

-: إعقلي الجمل واثني عقاله ثم اتبعيني.

: أبشر.

-: أحضري الحبال معك.

: يا الله، ما أكبر هذين الوعلين؟ كيف استطعت أن تذبحهما؟

-: الحمد لله، سنقد بطونهما لتخفيف الحمل.

: دعهما ننقلهما بحالتهما وهناك في البيت نسلخهما وننظفهما.

-: إذاً، على بركة الله، سنعادلهما على ظهر الجمل ونسوقه إلى البيت، وعليك ربط ما لديك جيداً.

: لا تخف.

-: والله لا يكاد الجمل ينوض بحمله.

: إنهما كبيران فعلاً.

-: سيأكل الآكل من لحمهما ويصدر شبعاناً.

: هاه، ولكنهما بدون «وِقَاء» أقصد الطعام الذي يوضع تحتهما.

-: آه، الطعام، هذا ما شح به التجار، وقصر عن تحصيله النصيب.

: لدي رأي إذا قبلته.

-: ماذا لديك من الآراء؟

: أن تستبدل أحدهما بطعام.

-: أستبدله بطعام!!

: نعم.

-: ومن الذي سيبدلني؟

: تذهب به إلى أحد التجار وتهديه إليه فلعله أن يعطيك بدلاً عنه طعاماً.

-: التجار، التجار!! ومن الذي سيعطيني بعد أن جئت أكبرهم في صباح هذا اليوم وردني خائباً؟

: قد يكون رده لك لفراغ يدك من أي شيء، أما الآن فإن في يدك شيئاً تستطيع أن تجبهه فيه.

-: قد يردني مرة أخرى.

: ثق أنه لن يردك، ما دام معك شيء.

-: ربما لن يعطيني طعاماً.

: ما دام قد علم بحاجتك فلا أقل من أن يكون على علم بما سيعطيك.

-: هاه، لقد تحيرت في أمري.

: لا تتوقف، واقصد ألينهما جانباً وسوف يعطيك بدلاً من هذه الصيدة من الطعام ما يكفي لحاجتنا.

-: إنني أخشى.

: ابدأ، وتوكل على الله، وعليك أن تذهب من الآن بمجرد أن توصلني إلى البيت وتنزل أحدهما لتذهب بالآخر في طريقك.

-: لن أذهب به هكذا.

: عليك بتفريغ جوفه وقطع رقبته واحمل الباقي معك.

-: إنني أشك بنجاح هذه الخطة.

: إنها ستنجح وستعود إليَّ وأنت تضحك مسروراً من نتيجتها.

-: إيه، إنها مغامرة وفيها حرج.

: مغامرة!!

-: نعم في ضحى هذا اليوم أقف أمامه يتفصد وجهي عرقاً راجياً منه قليلاً من الطعام فلا يقدر موقفي، والآن أعود إليه مهدياً ما معي وبانتظار العوض؟؟

: إيه هكذا الدنيا يا أبا فلان.

-: لكنها صعبة على رجل مثلي أن يقف أمام ذلك الوجه.

: هكذا الظروف أحياناً تجبر الإنسان على إتيان ما لا يحبذه.

-: إيه قاتل الله الحاجة والعوز.

: هاه، لقد أصبح أحد البدنين جاهزاً.

-: إنه لم يسلخ بعد.

: دعهم يتولون سلخه.

-: أننقله هكذا؟

: وماذا في ذلك؟ سيتولون تجهيزه بأنفسهم.

-: على بركة الله.

: وفقك الله.

وينطلق ذياب على ظهر جمله يحثه مع أشعة الأصيل، حتى إذا لململت الشمس ثوبها الذهبي من الكون، وأطبق الكون بردائه الداكن القادم من الشرق ضوى

ذياب على التاجر وطرق عليه الباب، وكان التاجر قد فرغ لتوه من تناول وجبة العشاء التي يتناولها الناس بعد صلاة المغرب مباشرة، ولما طرق الباب خرج أحد الأولاد حيث أمره الضيف بإخبار أبيه وعندما خرج الأب وجد رفيقه الذي جاءه قبيل ظهر ذلك اليوم، فرحب به قائلاً:

-: تفضل، تفضل، أهلاً وسهلاً.

: هاه، إنني على عجل من أمري.

-: أوه، أنت دائماً في عجلة من أمرك، تفضل واسترح قليلاً وتناول القهوة وكل أمر سيحله الله.

: لقد رجعت إليك يا أبا فلان، وما أعادني إليك أنني بعد أن ذهبت منك ظهر هذا اليوم يسر الله لي هذه الصيدة، وكرهت أن آكلها لوحدي دون أن تذوقها.

-: كثر الله خيرك يا أخي. يقول التاجر ذلك وهو مطأطىء الرأس من شدة الخجل لأنه قد رده في ضحى نفس اليوم دون أن يبيعه ولو جزءاً يسيراً من طعام.

: إفتح لي الباب الثاني سأدخلها قبل أن يراها أحد.

-: هاه، إنه مفتوح لم يغلق بعد.

: هذه طعمة لك يا أبا فلان.

-: أوه، هذه صيدة كاملة لم تذق منها شيئاً.

: لدي منها خير كثير.

-: لم ينقصها غير الرأس والجوف، يبدو أنك لم تذقها؟

: عندي مثيل لها.

-: كثر الله خيرك، وأكثر من صيدك، تفضل.

: بسم الله، يا أبا فلان أرجو ألا تحسبوا أي حساب لقدومي هذا، إنني سأعود الآن إلى أهلي.

-: أوه، لقد جئتنا ضحى هذا اليوم ولم توافق أن تتغدى معنا وجئتنا الآن ولا تريد أن تتعشى عندنا، إجلس عندنا وأمرح هذه الليلة وفي الصباح رباح.

: آه، ليتني أستطيع ذلك، إن ورائي ما يشغلني عن المكوث عندكم.

-: ماذا وراءك؟

: أنسيت ما حدثتك بشأنه ضحى هذا اليوم؟

-: أوه، إنني آسف جداً.

: سأغادركم بعد أن أشرب هذا الفنجان الذي بيدي.

-: إصبر قليلاً سأحضر لك تميرات تحلوى بهن ريقك مع القهوة إذا كنت لا تريد البقاء حتى نجهز لك عشاءاً.

: كثر الله خيرك.

-: تفضل وتناول هذه التميرات.

: إنه صحن كبير فلا تقلل من شأنه.

-: لقد أبيت ضحى هذا اليوم أن تدخل وتأكل منه.

: وما أدراني أن عندك تمراً كهذا؟

-: لدينا كل خير.

: جعلكم الله بخير دائماً وعم المسلمين بواسع فضله ورزقه.

-: تفضل كل، وسأغيب عنك قليلاً ثم أعود إليك.

: ساعدك الله. يقول ذلك وهو يأكل من ذلك الصحن الكبير من التمر حتى طابت نفسه.

-: دخل عليه التاجر وهو يقول: أمعك خرج غير هذا؟

: لا والله ليس معي غيره.

-: إنه صغير.

: هذا ما حصل، وهذا الموجود.

-: سأعطيك خرجاً أكبر، وبعد أن تفرغه تعيد إلينا الإناء لأنه لجارنا.

: أبشر، أبشر. يقول ذلك وقلبه يكاد أن يخرج من بين ترقوتيه من شدة الفرح.

-: لعل الله أن يهديك وتمرح عندنا هذه الليلة وفي الصباح تتوجه إلى أهلك.

: لا أستطيع ذلك يا أبا فلان.

-: إنك ستتجشم هذا الليل وظلمته الحالكة.

: لا يهمني ذلك.

-: إذاً كل شيء جاهز.

واقترب ذياب من جمله فوجد عليه خرجه وخرج إضافي كبير وقد امتلأت

صفقها الأربع بسنابل القمح «اللقيمي» فقال:

: ما هذا يا أبا فلان؟

-: إنني آسف جداً، ومقصر بحقك، ولقد وجدت في نفسي حسرة منذ أن ذهبت من عندي ظهر هذا اليوم ولكن معذرة، فوالله إن هذا الذي بخروجك لم يصل إليَّ إلا بعد أن ذهبت من عندي، والآن أرجو أن تقبله وتعذرني عن التقصير في حقك.

: كثر الله خيرك، إنه لم يأت منك تقصير، لقد أعطيتني أكثر مما أستحق.

-: حقك كبير وهديتك لا تقدر بثمن.

: إنها لا تستحق الذكر.

-: عموماً يا ابن الأجواد، إن رصتك الحاجة مرة أخرى فتعال إليَّ.

: كثر الله خيرك، وعسى الله أن يوسع على عباده مصادر رزقهم.

-: مع السلامة.

: في أمان الله.

يعود ذياب تحت ستار الليل ممتطياً ظهر جمله وهو يتحسس الخرجين بين الحين والآخر ويدخل يده إلى الداخل ليجد بين قروط السنابل كمية من الحب مما يحتمل معه أن هذين الخرجين يحتويان على كمية طيبة من الحب تفوق ما كان يطلب أن يستدينه من التاجر ضحى ذلك اليوم.

وعند ذلك رفع طرفه إلى السماء وطفح به خياله في تلك الزرقة الشفافة الرائعة التي تزينها تلك النجوم البراقة التي تضاهي بتلألئها قطع الماس المنثورة على سطحية زرقاء، فيجذب بصره لمعان هذه النجوم وغمزها، ويرتفع به خياله إلى ما فوق هذه النجوم، وتنبعث من أعماق قلبه هذه الدعوات الصادقة حيث قال:

اللهم رب هذا الكون السحيق ومدبر شئونه، ومسير هذه النجوم المتلألئة في هذه السماء الزرقاء الصافية، عالم أسرار كل جرم سابح في هذا الكون، ومتعهد كل مخلوق حي يسير على هذه الأرض، لك الحمد والثناء، لك المنة والفضل فيما مننت به عليَّ، ولك الشكر الجزيل حين حللت معضلتي بعد أن استحكمت عراها، لقد فزعت لي حين علمت بالضيق الذي أشعر به، لقد كفيت مؤنتي

عندما علمت بحالي وأنقذت جُمَيْلِيْ هذا الذي يمثل وسيلة اكتساب رزق بنياتي، ما أسرع فزعتك لعبدك المؤمن، وما أجزل هبتك وأعطياتك، قبل بضع ساعات عدت من هذا الطريق صفر اليدين لا حول لي ولا قوة، فامتدت يدك الكريمة وأعطتني ما أغدق علي رزق يومي وليلتي، وسد حاجتي وجبر فاقتي وستر وجهي أمام رفاقي فالحمد لك أولاً والشكر لك آخراً ولا حول ولا قوة إلا بك.

واستمرت منه هذه المناجاة وهو يقلب طرفه في السماء طافحاً بخياله وكأنه ينتقل من نجمة إلى أخرى ولم يدر الإ والجمل يقف به عند داره، فيعود مسرعاً من تلك الرحلة الخيالية لينظر ما حوله وإذا هو عند بيته فينيخ بعيره، وتسرع إليه زوجته متحفزة وهي تقول:

-: هاه، بشر يا ذياب؟

: أبشري بالخير.

-: عسى أن تكون رحلتك أثمرت؟

: وثمرها من حب القمح الأصفر «اللقيمي».

-: بشرك الله بالخير، أين هو؟

: في هذين الخرجين.

-: خرجين من الحب!! ومن اللقيمي!؟

: لم يكن حباً صافياً.

-: ما هو إذاً؟

: إنه من السنابل المليئة بالحب.

-: أنعم وأكرم.

: لكنها تحتاج إلى تنظيف.

-: لن يهجع جفني حتى تصير صافية وكأنها ضروس الخيل.

: أتجهزينها في هذا الليل؟

-: ما أحسن تجهيزها الآن.

: أتركيها للصباح، ففي الصباح رباح.

-: في الصباح سوف أهرسها وأجففها.

: أوه، وهل تتطلب كل هذا العمل؟

-: آه، إنها لا تحتاج إلى طحن بل تهرس هرساً ثم تطبخ هكذا أو تجـرش فتكون جريشة.

: هاه!!

-: سنطبخها هريسة أو جريشة كما تريد.

: كما تريدين أنتِ، فأنتِ أعلم مني بمثل هذه الأمور.

-: إذاً تعال واجلس على هذا الفراش لأحضر لك عشاءك الذي أعددته لك.

: وهل عندك عشاء؟

-: نعم، لقد أخذت من الأكباد والشوايا وقطعتها مع شيء من الطعام وأطعمت أولادي قبل أن يناموا وأبقيت لك نصيباً من هذه الطبخة.

: وأنتِ، ألم تتناولي مع أولادك شيئاً؟

-: لقد اكتفيت بالبخار والرائحة، وفرحتي بما أحضرت لنا أنستني كل شيء.

: تعالي إذاً، شاركيني في عشائي.

-: بالصحة والعافية، أما أنا فسأقوم بعملي ولن أنام إلا بعد أن أنهيه.

: الدنيا ظلام فكيف ستعملين؟

-: لدي هذا السراج الصغير سأعمل على ضوئه.

: تعنين هذه الذبالة التي يتراقص ضوؤهـا مع أنفـاسنا، وتكـاد نسمات الليـل الخفيفة أن تطفئها؟

-: فيها البركة وسأنهي عملي عليها.

: ساعدك الله.

-: بشرني، عسى ألا تكون قد لاقيت تعباً في رحلتك؟

: مهما لاقيت من تعب فإن النتيجة الطيبة التي حصلت عليها قد مسحت أكدار كل ما لاقيت.

-: إيه، الحمد لله لقد تخوفت أن تعود قبل أن تصل إلى نتيجة.

: أعود!!

-: لقد خطر ببـالي أن تأخـذك عزة النفس فـلا تستطيـع مقابلة الشخص الـذي سبق وأن قابلته.

: وما يدريك؟ لقد أوشكت على ذلك ولكن . .

-: ولكن ماذا؟

: لقد شفعت لي ظلمة الليل فأخفت التعابير المرتسمة على وجه كل واحد منا لحظة اللقاء الأول، ولذلك استطعت أن أجازف تحت ضغط الحاجة حتى أصل إلى نتيجة .

-: هل كان الرجل فظاً في حديثه، نزقاً في كلماته معك؟

: لا والله، فلقد كان هادئاً رزيناً مصراً على النفي في المرة الأولى .

-: هل تغير عندما جئته هذه المرة؟

: لا تغيير يذكر، وكان خجلاً عندما رجعت إليه، فقد اعتذر عما بدر منه في هذا اليوم، وحلف أن هذا الذي أعطاني لم يصل إليه إلا بعد أن ذهبت من عنده .

-: قد يكون صادقاً، فالظروف أحياناً تحكم الإنسان .

: لا أظن ذلك .

-: لماذا؟

: لو كنت في مكانه وجاءني إنسان محتاج مثل حالتي لبحثت له عن قضاء حاجته بأي شكل كان .

-: ربما لهذا السبب لم ولن تكون تاجراً أبداً .

: وهل التجارة تعني البخل؟

-: قد لا تعني ذلك بالتحديد، ولكنها تعني حفظ المال وتربيته وتنميته .

: يعني حارس للمال؟

-: أجل أجل يا ابن العم .

: الحمد لله الذي لم يجعلني تاجراً .

-: أما سمعت بيت الشعر الذي يقول:

مَا مَاءُ إلَّا فِي قُعُورٍ مِّنَ الصَّفَا   وَلَا مَالِ الَّا مَعْ رِجَالٍ شَحَايِحْ

: لقد سمعت به وأعرفه تماماً، ولكن المال الذي لا يخدم صاحبه ولا ينال فيه أفعال الخير والسمعة الطيبة لا فائدة منه .

-: إيه، كل إنسان قد رضي بما يعتقده صحيحاً.

: إنني متعب وسأنام.

-: نومة العافية، أما أنا فسوف أنهي ما بدأت به قبل أن آوي إلى فراشي.

وفي صباح اليوم التالي ذهب ذياب بنفسه ودعى جاره والعاملين معه لتناول طعام العشاء عنده، وأضاف إليهم الجيران الذين لم يشتركوا مع العمال، وفي المساء حضر الجميع حيث وجدوا الصواني المليئة بالهريس تتوجها أكواماً من لحم ذلك البدن، فأكلوا حتى طابت نفوسهم، وعلى أحد أطراف السفرة دار هذا الهمس بين إثنين من المدعوين:

-: لم نذق منذ أكثر من سنة طعاماً مثل هذه الليلة.

: بالفعل إنه زاد ممتاز.

-: ما الذي ينقصه؟

: ماذا تقول؟

-: أقول إذا حصل هريس «اللُّقَيْمِيْ» مع لحم البدن فكيف لا يكون لذيذاً؟

: هناك عنصر ثالث لم تذكره.

-: ما هو؟

: اليد التي طبخته.

-: صحيح هذا الجانب مهم جداً، فلقد كانت زوجة جارنا «وْحَيْشَهْ» ألبسها الله ثوب العافية ممن يجدن الطبخ.

: عافاها الله «وْحَيْ فَالَهَا» ابنة فلان.

-: وألف نعم بها، أترى لو أمسكت هذه النعمة إمرأة خرقاء لأفسدتها.

: حقاً، إن هناك فرق كبير بين النساء.

-: ولكن ترى من أين لذياب هذا الزاد؟

: أوه، من أين لي أنا وأنت!؟ أما ذياب فإنه سيأتي به من حناجر الطيور.

-: إذا كان القمح العادي معدوماً لا وجود له، فما بالك باللقيمي؟

: كل شيء يعدم تجده عند ذياب.

-: من غير المعقول.

: ألا تراه لا يستقر به مقام يبحث عن قوت عياله يوم بالشرق وآخر بالغرب يدلج طلباً للرزق؟

-: إيه، الله يرزق من يشاء بغير حساب ولكن لا أظن أن هذا كله بسبب سعيه.

: أجل بأي سبب؟ فإذا تركنا الحصول على «اللقيمي» جانباً فمن أين أتى بهذا القحم من البدون الذي يتفتت كتع هبره على هذه الصينية في الوقت الذي يذهب منا الصياد يدلج اليومين والثلاثة ليحصل على تيس صغير من البدون؟

-: هذا صحيح، الله أعلم من أين أحضره؟

: لقد قلت لك إن ذياباً يحضر اللقمة من حناجر الطير.

-: والآن، ألا تريد أن نقوم؟

: لقد شبعت ولم أزل لي رغبة في الأكل.

-: لقد قامت الدفعة الثالثة من الرجال ولم يبق بعدنا غير الصبية الصغار والنساء.

: لكن الصحون لا تزال مليئة لم تنقص إلا قليلاً.

-: وهل أنت موكل بتفريغها؟ قم!!

: خلف الله عليكم وزادكم من واسع فضله.

-: حقاً، إننا آخر الناس.

: الحمد لله رب العالمين.

